جدة والآخرون

قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة
حتى بداية القرن العشرين

د. محمد أنور مسلّم نويلاتي

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة مع فهارس تحليلية

متون المثقف

د. محمد أنور مسلّم نويلاتي

جدة والآخرون

قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة
حتى بداية القرن العشرين

متون المثقف

جدة والآخرون

قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة
حتى بداية القرن العشرين

ISBN 978-977-88682-5-8

متون المثقف

جدة والآخرون

قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة
حتى بداية القرن العشرين

د. محمد أنور مسلم نويلاتي

جدة والآخرون

قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة حتى بداية القرن العشرين

متون المثقف للنشر والتوزيع
Muton Almothakf for Publishing and Distribution

عنوان الكتاب:

جدة والآخرون.
(قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة حتى بداية القرن العشرين)

المؤلف:

د . محمد أنور مسلم نويلاتي .

الناشر:

دار متون المثقف للنشر والتوزيع بالقاهرة .
٣٣ شارع قصر النيل - الدور السادس - رقم ٨ .
للتواصل : ٠٠٢٠١١١٠١٥٤١١١
إيميل : motonbook@gmail.com

رقم الإيداع: 2024/32411

الترقيم الدولي: 978-977-8868-25-8

رقم الفسح الإعلامي السعودي: 202510061522890

بتاريخ: 25-10-2025

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة مع فهارس تحليلية
٢٠٢٥
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الغلاف الخارجي
(لوحة الهجوم على أسوار جدة وأبراج الحماية إبان الهجوم البرتغالي بقيادة لوبو سواريز)
بريشة الفنان خالد هنو

قال الله تبارك وتعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

قال ﷺ في خطبة الوداع:

«إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب»[١].

(١) مسند الإمام أحمد، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، حديث (٢٣٤٨٩)، ٣٨/٤٧٤.

الإهداء

• ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾

[سورة إبراهيم: ٤٠].

صدق الله العظيم

• إلى ولَدَيَّ... أنور ومازن.

رعاهما الله

• وإلى الحفيد محمد.

والأسباط عبد الله ومحمد وعبد الملك.

حفظهم الله

المحتويات

تقريظ أ.د. عبد المنعم العدوي ٩

تمهيد ١٣

المقدمة ٤١

هدف الكتاب ومنهجه ٥٩

أولاً: أهمية البحر الأحمر ٧١

- التاريخ القديم ٧٣
- جدة في صدر الإسلام (الظهور الأول) ٧٦

ثانيًا: ظهور الأهمية المكانية لجدة عالميًا ٧٩

- تجوير جدة (الظهور الثاني) ٨٢
- الآثار السياسية للتجوير ٨٤
- الآثار الاقتصادية للتجوير ٨٦
- الآثار الإقليمية للتجوير ٨٧
- تغيير دور جدة ٨٨

استنتاج ٩٧

ثالثًا: جدة في الإستراتيجية العسكرية العثمانية (الظهور الثالث) ١٠١

- التحديات الوجودية للدولة العثمانية في الشرق ١٠١
- جدة في قلب الحزام الأمني ١١٠

رابعًا: دور ميناء جدة في القيادة الإقليمية ١١٩

- الميناء بين الأوساخ والجمال ١٢١

- الميناء والازدهار والجمارك ١٢٥
- نماذج من حالات القيادة في جدة ١٥٩
  - ١ ولاية الحبش ١٦٠
  - ٢ الوجود الأجنبي والقنصلي ١٦٣

خامسًا: حضور الآخرين إلى جدة ٢١٥

- البرتغاليون - دراسة مقارنة ٢١٦
- الجماعات الصغيرة: الفرس والحضارم مثالاً ٢٧٥
- الصينيون ٢٨٣
- الهنود ٢٩٤

سادسًا: الملاحة البحرية وإرهاصات الحداثة ٣٠٧

خاتمة: ملامح شخصية جدة الثقافية ٣٤٩

ما بعد النص: الظهور الرابع في العهد السعودي ٣٥٥

ملحق الصور والخرائط ٣٦١

فهرس الأعلام ٣٦٧

فهرس الأماكن والبلدان ٣٨٣

فهرس المعالم الحضارية ٣٩٣

فهرس القبائل والأعراق والجماعات ٣٩٥

فهرس المذاهب والفرق ٣٩٩

فهرس المصطلحات ٤٠١

فهرس المصادر والمراجع ٤٠٧

تقريظ

يُعَدُّ التأريخ للمدن أو ما يعرف بالتاريخ المحلي ركنًا مهمًّا من أركان الكتابة التاريخية ومناهجها لدى المؤرخين العرب والمسلمين، وكان من الطبعي أن يقتصر على التأريخ للحواضر والعواصم الكبرى أو تلك المدن التي لها طابع القداسة والرمزية الدينية وفي مقدمتها مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف.

ومع ظهور الجامعات وما ضمته من أقسام متخصصة للتاريخ والحضارة أصبح التأريخ للمدن والمحافظات عنصرًا رئيسًا في الدراسات الأكاديمية، سواء في رسائل الماجستير أو الدكتوراه أو غيرها من البحوث والدراسات على اختلاف الموضوع المراد دراسته والتركيز عليه، وكذلك اختلاف الفترة التاريخية وأهميتها.

ولا يغرب عن البال أن هذه الدراسات رغم أهميتها شاب بعضها قصور في جمع المعلومات، واقتصرت في كثير من الأحيان على الجانب الرسمي من التأريخ، والذي تمثل الوثائق والمنشورات الرسمية المصدر الأساس لها.

من هنا تظهر الحاجة الماسة لما يمكننا أن نسميه التاريخ غير الرسمي، والذي قد لا يلتزم بالمنهجية الأكاديمية في بعض الأحيان، ولكنه في الوقت نفسه يعتمد على مصادر حياتية وواقعية ومرويات شفهية وحكايات الأجداد والجدات، تلك الحكايات التي تبدو بسيطة إلا أنها تحمل مضامين كثيرة عن

التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في البلدان والمجتمعات.

وقد حظيت مدينة جدة بأهمية كبيرة لدى المؤرخين والجغرافيين من المسلمين وغيرهم وكذلك الأكاديميين في الجامعات السعودية والعربية؛ لما تتمتع به من أهمية تجارية ودينية، فهي بوابة مكة المكرمة والحرمين الشريفين، والميناء الأهم للمملكة العربية السعودية كلها على ساحل البحر الأحمر.

وكان لصاحب هذا الكتاب الدكتور محمد أنور نويلاتي مشاركات متميزة في مجال التأريخ لمدينة جدة، وذلك من خلال مؤلفاته السابقة: «جدة وعبقرية المكان صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية»، «أسطورة جدة أمنا حواء بين الأساطير والأديان والعلم»، «جدة وأمنا حواء عبق المكان وعمق الزمان قراءة متجددة»، وغيرها من الكتابات التي ضمت ثناياها كثيرًا من المعلومات حول تاريخ جدة.

وهذا الكتاب «جدة والآخرون قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة حتى بداية القرن العشرين»، والذي يطوف بنا في رحلة ماتعة عبر تاريخ جدة عبر العصور وحتى بداية القرن العشرين، والذي يبرز أهميتها المكانية في العصر الإسلامي، وأهميتها العالمية، وأهم الآثار التي ترتبت على بروز هذه المكانة من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم يتناول تاريخ جدة في العصر العثماني والتحديات التي واجهتها، والإستراتيجية العثمانية في الدفاع عن جدة باعتبارها قلب الحزام الأمني للدفاع عن البلاد المقدسة وأمن البحر الأحمر وتواجدهم لأغراض أخرى سياسية واقتصادية.

ومن موضوعات الكتاب المهمة: يحرص المؤلف على إبراز دور ميناء جدة وأهميته الإقليمية والعالمية؛ مما جعل الدول والمؤسسات الأجنبية تحرص

علـى أن يكـون له من يمثلها، ويقـوم على رعاية مصالحها أمـام ممثلي الإدارة وغيرهم من التجار والأهالي، ويرتبط بهذا الموضوع الوجود الأجنبي في جدة، وكيـف تطور، وكيف تحولت جدة إلى مـا يمكن أن نصفه بأنها (مدينة عالمية) تعكـس الحراك السياسـي والتطـور الاقتصادي ليس على المسـتوى المحلي أو الإقليمي فقط بل على المستوى العالمي.

الارتقـاء الحقيقـي لمكانة جدة حدث في العهد السـعودي المبارك؛ حيث تبلـورت فيه ملامحها الثقافية، وهذا الوقـت هو خارج الإطار الزمني للكتاب، وقـد أحسـن المؤلف صنعًا أن أضاف صفحـات ما بعد النص لذلك. أوضح أنَّ سـبب هذه النهضة جاء بعد دخول جدة تحت راية الدولة السـعودية، وانضمت إلـى الوطـن صاحـب الاسـتقلال الوطنـي والقائم علـى العلم والأمـن والعقل اسـتنادًا إلى صحيح الدين وسـلامة العقيدة وغيرها من مقومات نهوض الوطن والمجتمع.

وهذا الكتاب والذي أعتز بأنني كنت شاهدًا على مراحل إنتاجه وإخراجه، والـذي أراه مـن أهـم الكتـب فـي تاريخ جـدة، فرغـم أن التأريخ للمـدن لغير المتخصصيـن قـد يغلـب علـى القائميـن بـه التحيـز أو التعصـب للمدينـة أو القبيلـة؛ ممـا قـد يقدح في أهميته لدى البعض؛ إلا أن المؤلف - وقد تناقشـنا كثيـرًا حولـه - قد حـرص على توثيـق معلوماته بأقصـى درجة مـن الدقة؛ فلم يكتـفِ بالمصادر المحليـة، ولكنه حرص على الحصول علـى الوثائق الخاصة بموضوعه من الأرشيفات العالمية، وفي مقدمتها الأرشيف البريطاني والعثماني والبرتغالي، وما تضمه من صور وخرائط مهمة.

هـذا إلـى جانب ما توفر له من مصادر تاريخية، كما أنه لم يكن مجرد ناقل يكتفي بالإحالة إلى المصادر والمراجع، ولكنه يحلّل وينقد ويسـتعرض الآراء

المختلفـة، ويناقشـها، ويقارنهـا بما أوردتـه المصادر الأخـرى؛ حرصًا منه أن يضع الحقيقة أمام القارئ.

ومما يذكـر للمؤلف الأمانة العلمية فـي النقل، وهو لا يحمل الألفاظ أكثر ممـا تتحملـه لإثبـات رأي أو نفيه، وهو ما يعكس إدراكه لمسـؤولية ما يكتب، واحترامه للقارئ، فلم تكن العاطفة محركه الوحيد، بل جمع في كتابه بين حب جدة والانتماء لوطنه الحبيب، وحرصه الشديد على أن يخرج هذا العمل بشكل لائق يعبر عن هذا الانتماء، ومراعاة البعد الاجتماعي والثقافي لموضوع ومكان الدراسة، وإضافة جديدة للمكتبة التاريخية العربية والسعودية و (الجداوية).

وقـد راعـى المؤلف أن تكون كتابته بأسـلوب سـهل وبسـيط وغيـر مملّ، وبعيدًا عن التكلف أو (الاستعراض)، ولا يلتزم بشكليات المنهجية الأكاديمية فـي بعض الأحيان، ولكنـه أراد أن يكون الكتاب وجبـة تاريخية للمثقفين على اختلاف مسـتوياتهم وتنوع مشـاربهم، وعملًا يصل إلى القلوب والعقول معًا، وهو بذلك يحقق الهدف الأسمى من تأليف هذا الكتاب، وهو أقصى ما يطمح إليه كل مؤلف.

أ. د. عبد المنعم عبد الرحمن العدوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بجامعتي الأزهر وأم القرى

تمهيد شخصي

بَلَـدٌ صحِبْـتُ بـهِ الشـبيبَةَ والصِّبا ولبِسْـتُ ثـوْبَ العيْشِ وهـو جَديدُ
فـإذَا تمثَّـلَ فـي الضّميـرِ رأيتَـهُ وعليــهِ أفْنــانُ الشّــبابِ تَميــدُ

• ابن الرومي

الفتى والآخرون:

في مطلع الستينات من القرن الماضي، كانت جدة مدينة هادئة تغرق في الجمال ومثالًا للتناغم مع البيئة البحرية الطبيعية المحيطة بها؛ حيث الشواطئ ذات الرمال البيضاء الناعمة تحوطها من أكثر من جهة، وتتداخل الألسن البحرية مع اليابسة في ضواحيها لترسم لوحة ربانية آية في الجمال والتناسق قبل أن تصل إليها المدنية الحديثة والتوسع العمراني وما تسببت به من تدمير البيئة الحاضنة للمخلوقات البحرية والتلوث الكيميائي والصناعي.

بداية تشكل الوعي والإدراك لدى الفتى في تلك الفترة عند التحاقه بالمدرسة، وتعداد السكان في جدة حينئذ لا يتجاوز الأربعمئة ألف نسمة على أكثر تقدير[١]. وكانت السمة الغالبة لتلك المجتمعات عدم شيوع السفر،

(١) أول إحصاء رسمي في العام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م كان سكان المملكة سبعة ملايين نسمة (٧,٠٠٩,٤٦٦). قبل ذلك في خطة التنمية التنمية الخمسية الأولى يوجد جدول =

والسفر بالطائرات قليل ومكلف؛ حيث لم تتطور صناعة الطيران والسياحة كما حدث في العقود اللاحقة، وكانت المعوقات النظامية والأمنية كثيرة أمام تحرك المجموعات البشرية من دولة إلى أخرى بشكل لا يقارن بما هو حادث في الألفية الجديدة التي تحث فيها المنظمات الدولية والقوانين الدولية على حرية حركة الأفراد والبضائع نظرًا لطبيعة الزمن آنذاك خاصة أن كثير من الدول كانت تفرض قيودًا على سفر مواطنيها، وتنقل الطائرات الحديثة ذات الأجسام العريضة ملايين البشر ضمن صناعة السياحة والفندقة حول العالم، وتتمحور حول هذه الأنشطة اقتصاديات الدول.

في الستينات كانت جدة تعيش عكس هذه الظاهرة؛ حيث كانت مستمرة في فتح ذراعيها للغريب واستقبال كل أجناس الأرض، وتعج بالآخرين موفرة لهم سبل الراحة والكسب الحلال كما هو حالها من القرون السابقة، وهذا الخليط البشري يشكل لوحة جميلة في مختلف أجزائها.

المدرسة الخالدية الابتدائية وحي العمارية هي مصدر تشكيل الوعي والمعرفة لدى الفتى في سنواته الأولى والطريق إليها مشيًا. كانت المدرسة الخالدية - مثل المدارس الحكومية الأخرى في تلك السنوات، تتشكل فيها هيئة التدريس من المدرسين العرب، وخاصة المصريين والأردنيين والفلسطينيين والسودانيين وغيرهم، ولم نعرف المدرسين العراقيين إلا لاحقًا في المرحلة المتوسطة. المدرسون السعوديون كانوا يقومون بالإشراف على الطلاب وتدريس المواد الدينية واللغة العربية بالإضافة إلى دورهم في إدارة المدرسة.

= عنوانه (عدد سكان المدن السعودية التي تزيد عن عشرين ألف نسمة في العام ١٩٧٠): جاءت الرياض في المركز الأول ٣٥٠,٠٠٠، ثم جدة ٣٣٠,٠٠٠، ثم مكة ٢٣٠,٠٠٠، وهكذا .. أي أنه بحلول العام ١٩٧٠م كان سكان جدة أقل من أربعمائة ألف نسمة بموجب وثائق خطة التنمية الخمسية الأولى ١٩٧٠م - ١٩٧٥م.

أثناء الفسحة المدرسية - بالإضافة إلى المشروب الغازي البارد والسندويتش اليومي - كان لابد من شراء اللوز المحمص من الحجَّة، وهي سيدة سمراء اللون تبيع اللوز السوداني وفي الغالب معها طفلها الصغير، وتبيع أيضًا ثمرة حادة الطعم اسمها الحبحبوه[١]، ولا أذكر أني أكلتها بعد أن غادرت المدرسة إلى يومنا هذا ولا ثمرة الدوم الأخرى أيضًا؛ ولكن كنت أهتم كثيرًا بشراء اللوز من الحجَّة.

تبدأ رحلة العودة من المدرسة إلى البيت مشيًا على الأقدام، وأول ما يواجهنا بائع حولت الشمس وجهه الأبيض إلى اللون الأحمر القاني، وهو يبيع الأكلة الشعبية اليغمش والمنتو، ويضعها في قدر كبير ملفوف بالقماش على الدراجة الهوائية، ولا يفتح القدر إلّا إذا ظهرت رغبة الأطفال الحقيقية في الشراء من الأطفال. ولم أتناولها إلا بعد تخرجي من الجامعة. الحلاوة مطّي، وهي حلاوة بيضاء اللون، كان بائعها اليمني يستخدم زمّاره بصوتٍ عالٍ مميّزٍ للنداء عليها، وهي عبارة عن لفائف من الحلوى على عود طويل، وعندما يشدها تمط معه ويقطع للطفل قطعة بمقص صدئ. عند الخروج من المدرسة كان بائع البسبوسة اليمني يقف أمام الصينية المغطاة وبيده أداة التقطيع التي تشبه الأداة المستخدمة في البناء مرتديًا إزارًا وقميصًا، ويبيع البسبوسة على ورق أشبه بورق الصحف، وهي على قدر كبير من الطعم اللذيذ

---

(١) الحبحبوه هو الاسم الشائع لهذه الثمرة محليًّا، ولهذه الثمرة شكل صدفي كمثري يحتوي على بذور سوداء تغلفها مادة بيضاء لها طعم حامض نوعًا ما، تعرف شجرة هذه الثمرة بشجرة التبلدي، أو البوحباب، أو الباوباب، أو شجرة القارورة، أو الشجرة المقلوبة، أو شجرة خبز القرود، وتنمو شجرة الحبحبوه في الأصل في أفريقيا ومدغشقر وأستراليا.

https://makkahnewspaper.com/article/1092644

والتلـوث بالطبـع، وكانت هي أكثر شـيء آكله مـن الباعة الجائليـن بين الحين والآخر.

الحوانيـت فـي رحلة العودة إلى المنـزل يعمل بها الحضـارم أو اليمنيون، والاستثناء أن يكون هناك حانوت كهرباء لمعلم فلسطيني أو هندي. في الطريق يوجـد مخبـز الصومالي وهو مخبـز الحي الذي نتحصل منه علـى الخبز يوميًّا، وقد انتشرت إشاعة أنه من أدخل العيش الصامولي إلى جدة وهذا غير صحيح، وتعود ملكية المخبز إلى شـخص صومالي يسـاعده أبناؤه، وفي سنوات لاحقة افتتـح مطعـم مجاور للمخبز كانت أسـرتي ترسـل صواني السـمك الكبيرة إلى هذا الفرن لإنضاجها فيه، وفي موسم الحج تكون الصواني ذات طبيعة مختلفة تمامًا؛ حيث تمتلئ بالمعمول بالتمر والغريّبة، وهي عادة سنوية من أهل الحي، وكانوا جميعهم يرسلون هذه الصواني. المصدر الثاني للخبز، وهو بائع التميس والفـول فـي الجهة الأخرى من منزلنا وهو تركسـتاني قديم في الحي يبدأ عمله بعد صلاة الفجر مباشـرة، وكان التركسـتانية يمارسـون مهنة شـحذ السـكاكين والمقصات في الشارع من خلال أداة بدائية تعمل بالعجلة الشبيهة بالدراجة مع مسـنّ حاد، ويتطاير الشـرر عندما تبدأ عملية شحذ السكاكين، وتجدر الإشارة إلى أن أبناء البخارية كانوا من السـباقين للالتحاق بالمدارس العسـكرية سـواء كانت الأمن العام أو القوات المسـلحة، وكان لهم مكانة كبيرة في هذا المجال وخدمة البلاد.

كان منزل أسـرة الفتى عاليًا وكبيرًا وكثرة الزوار من العلامات الطبيعية فيه؛ ومن الزوار من خارج الأسرة كان هناك سيدات يحضرن إلى المنزل من جنسيات مختلفة. مثلاً سيدة (فرّقنا) وهم سيدات فلسطينيات باعة جائلين يحملون معهم بقجة تحوي أنواع أقمشـة ومسـتلزمات منزلية وينادون (فرّقنا)، ويدعوهنّ أهل

المنـزل للدخـول إلى الدهليـز للبيع والشـراء، وكانوا في غايـة الجد والهمة، وتعلمت منهم أهمية العمل مهما صغر حجمه، حتى لو كان بدراهم معدودة.

سـيدة أخرى كانت تحضر من رباط الخنجي تزور «سـتي» باستمرار، وهي فلانـة الزيديـة وتكنى بالمذهب الزيدي؛ لأنها من أهل اليمن الذي يتبع بعضهم هـذا المذهـب، وتحضر عند زيارتنـا كمية من حلوى النعنـاع التي هي أرخص أنـواع الحلـوى الموجودة؛ ولكـن تعلمت منها أن الضيـف لا يجوز أن يحضر ويده فارغة.

سـيدة ثالثة كبيرة في السـن من أهل البادية لم تدخل المنزل؛ ولكن كانت تمر أمام المنزل وتتوقف قبل أن تتخطى مقابل المكان الذي يجلس فيه «جدي» وتخلـع الحـذاء، وبعد أن تتخطاه تعود إلى لبـس الحذاء، وعلمتني مكانة كبير السـن في المجتمع، وعند وفاتها كان جدي في مقدمة المشـيعين لها بالاحترام الـذي يليـق بهـا، وأن الاحتـرام عمليـة متبادلـة بيـن الناس وليسـت فـي اتجاه واحد.

وعلـى الجانب المبهج كانت والدة الفتى تحب الطرب والغناء كثيرًا؛ لهذا يحضـر إلى منزلنا بعـض صديقات الوالدة ممن يشـاركونها الهواية والفنانات، ومنهم السـيدة نور والسـيدة توحة وغيرهنّ، وفي سـنوات الطفولة كنت أحضر وأسـتمتع جدًّا بهذه الجلسات الطربية، وأجلس جنب السيدة التي تضرب على الإيقـاع وأكثرهـنّ من أهل جـدة، ويرفع الدفـوف فتيات من صاحبات البشـرة السمراء.

في السن المبكرة تعاملت مع الخواجات في جدة، المرة الأولى عندما قرر الوالد أن يصطحبني إلى الدكتورة الألمانية المتخصصة في علاج الأسـنان بعد أن فشـلت الأدوية الشـعبية في إيقاف الألم. وكان الفتى قد عرف من إخوانه أن

عمارة السليمان في شارع الملك عبد العزيز؛ حيث عيادة الدكتورة بها مصعد حديث وتطل العمارة على البحر من ارتفاع كبير، وللأسف كانت الزيارة مخيبة للآمال وذلك أنه أغلق فمه أثناء عمل الدكتورة وزمجرت وصرخت بضرورة الالتزام بالتعليمات، ووافقها الوالد وخرجت من عندها لا أريد العودة مرة أخرى.

الخواجة الثاني كان أمريكيًا من زملاء والدي في الخطوط السعودية، وحضر معه إلى المنزل أكثر من مرة لإصلاح أمور في كهرباء المنزل عجز عنها العامل الفني ولها علاقة بضخ المياه على ما أذكر، وكنا الأطفال نتحلق حول الخواجة ونضحك عندما يحاول نطق اسم القطة الأليفة ويخطئ في النطق، ويكرر ذلك باذلًا جهدًا جهيدًا في ذلك.

الخواجة الثالث هو الخواجة الأشهر في جدة خواجة يني صاحب البقالة، أو بنك يني في شارع قابل، وكنا عندما نذهب مع أبي أو جدي إلى تلك المناطق نشتري منه، وأذكر أنه كان بائعًا لطيفًا للغاية.

الخواجة الآخر كان إيرلنديًّا، وذلك عندما قررت وزارة المعارف أن أفضل طريقة لتعليم اللغة الإنجليزية لطلاب الفصل الأول متوسط هو إحضار مدرسين يتكلمون اللغة الإنجليزية فقط لسلامة النطق، وذلك في مدرسة عمر بن عبد العزيز، وكان المدرس الخواجة مجتهدًا للغاية ولم يثنه اكتظاظ الفصول بالطلاب والجو الخانق، ولا يوجد سوى مروحة في السقف أن يحاول معنا، وكان رث الثياب عالي الصوت ولا أظن أننا تعلمنا معه شيئًا مهمًّا.

اصطحبني والدي إلى طبيب عيون يشبه الخواجات، ويتحدث معه باللغة الإنجليزية، وهو طبيب عيون معروف من آل الحسيني من فلسطين، وكان

وجيهًا أنيقًا، وعيادته عبارة عن فيلا في طريق المطار القديم. الفلسطينيون عمومًا استوطنوا جدة بعد نكبة فلسطين، وعملوا من نقطة الصفر حِرفيًّا في مجالات عديدة، مثل: البناء، والحديد، والأدوات المكتبية، والتجارة عمومًا، ونجح بعضهم في أن يبني صروحًا اقتصادية مهمة بعد عشرات السنين ويراكم ثروات مهمة، وكانت العمارية من أماكن السكن المفضلة لكثير منهم.

مع قرب نهاية المرحلة الابتدائية تشكل فريق كرة القدم الخاص بنا مع أخي مروان، وكان الشارع أمام منزلنا وهو شارع نافذ إلى طريق المطار هو الملعب؛ لهذا لابدَّ من مراعاة المارة والمستخدمين للشارع، وهذه المراعاة كانت على أشكال، منهم من يتوقف عن اللعب تمامًا عند مروره، والغالبية يهدئ وتيرة اللعب حتى لا تصطدم به الكره، وكانت ممارسة كرة القدم هي النافذة الرئيسية على شارع الحياة نفسه والتعامل مع البشر خارج نطاق المدرسة، ولم يكن الإرسال التلفزيوني قد بدأ بعد، وبالتالي المصدر الرئيسي للمعلومات العامة.

وكان اللعب يتوقف تمامًا عند مرور الرجال المهمين من أهالي الحيّ، ذلك احترامًا لهم ولهيبتهم، مثل: العم محمد العتيبي، وهو المقاول الذي بنى كثيرًا من المنازل لوالدي وجدي، والعم أحمد باهطير، وهو من أصول حضرمية، ويبدو أن الحضارم سكنوا العمارية بكثافة للهواء العليل الموجود بها بعيدًا عن ازدحام الأحياء المكتظة في جدة التاريخية، وجدة تشكل مكانًا متميزًا للحضارم منذ القرون السابقة إلى درجة أن السلطان العثماني محمود خان أعطاهم عام ١٢٣٧هـ حق أن يتم التقاضي تحت مظلة مشيخة العلويين، وتكون مرجعية لهم. أظهر الحضارم نبوغًا في التجارة والمال بجدة وبصورة خاصة عمل الصيارفة والبنوك الوطنية؛ حيث إن البنك الأكبر في المملكة كان

مؤسسه وغالبية العاملين به من أصول حضرمية، ومحلات الصرافة والتعامل في العملات والذهب كلهم من الحضارم، وهي من المهن بالإضافة إلى المهارة تحتاج إلى الصدق والأمانة، والحفاظ على كلمة التاجر باعتباره ملزمة له ولأبنائه من بعده، وهم كانوا صادقين في هذه الأمور.

وشاركهم في هذه المهنة بعض من أبناء اليمن. وتجدر الإشارة إلى أن الاحتفالات الشعبية في الأعياد والأفراح كانت تتم من أبناء اليمن وأبناء حضرموت ويشارك فيها أعدادٌ كبيرة وتترك أثرًا من البهجة والحبور في الحي، وتكون بحضور عمدة محلة العمارية أو النقيب بعد أخذ إذن من العمدة.

بعض الأسر من القصيم والأحساء الذين يعملون في حياكة المشالح والعباءات، ومن أسر راقية، أو أشخاص يعملون معه في حياكة المشالح، سكنوا العمارية وكانوا يستخدمون الشارع (الملعب) بصورة يومية.

ومن الجماعات التي حظيت باحترام الجميع الموظفون من أبناء قبائل الحجاز الذين يسكنون العمارية في مباني مخصصة للعزاب، وكانوا على صلة طيبة بالجميع، ويتحدثون عن (الديرة) بصورة فيها كثير من الحنين مثلما يتحدث الحضارم عن (البلاد).

وكان يتم تهدئة اللعب عند مرور بعض الصيادلة الجاوة؛ أي من أصل إندونيسي ويعملون في صيدليات وسط البلد ويلبسون اللبس الإفرنجي كاملًا، وكان الإندونيسيون قد استوطنوا جدة من القرن السابق وعملوا في إنشاء أول بنك في العهد السعودي من خلال الشركة التجارية الهولندية ١٩٢٦م، وبنوك أخرى لاحقًا وشركات صرافة، وتميزوا في العمل المصرفي أو الأعمال التي تحتاج إلى لمسة فنية، مثل بعض أنواع النجارة، ولا بدّ من أن نذكر أقدم خياط للملابس الأجنبية في جدة العم زواوي بنجر الذي كان لابد للطلاب المبتعثين

من زيارته قبل السفر للخارج، والغالبية منهم تكون المرة الأولى التي يرتدون فيها الملابس الإفرنجية.

وتتم تهدئة اللعب أيضًا أثناء مرور السيدات الحجات الأفريقيات والسيدات الهنود، وكانت أعدادهنّ قليلة ولكن أكثرهنّ يتوقّفن لشرب الماء من «الزير» السبيل الموضوع في الشارع من قبل جدي، وهذا من أسباب تسمية الشارع باسمه شارع عم بكر بين الناس.

والهنود من أكثر الجاليات التي سكنت جدة، وكانت سببًا في ازدهارها الاقتصادي عبر العصور في اتصال التجارة مع أهلهم في الهند؛ وتوجد بيوت تجارية معروفة من أصول هندية، كانت تجارتهم في الأقمشة والقطن والأدوية وغيرها، وعرفت أنه بعد هدم قصبة الهنود لتوسعة الشارع الجديد في مطلع الستينات من القرن الماضي هاجر عدد كبير منهم إلى شرق أفريقيا أو عادوا إلى الهند مرة أخرى. أما الجالية الباكستانية فقد عرف عنهم تميزهم في الطب سواء من خلال الصحية الباكستانية أو أطباء في المستشفى العام، أما البرماويُّون فقد تخصصوا في حي العمارية في صناعة الطائرات الورقية بصورة بدائية خلف قهوة غراب وبيعها على أطفال الحي، وكنا نحسب أنهم هنود، ومنهم من عمل في تنجيد مقاعد السيارات، وبعضهم يسكنون في العشش قرب بازان العمارية.

وكان اللعب يتوقف تمامًا عند مرور العربات، والعربات أنواع ومقامات وأهمها سيارة العم أحمد الكيلالي؛ لأن منزله في شمال الملعب (الشارع)، وكان يطلق بوق سيارته الأمريكية الفارهة مرة واحدة، ويدخل الشارع بسرعة وبجانبه السيدة زوجته سيدة لبنانية بدون عباءة، مثل السيدات اللبنانيات العاملات في مستشفى خالد إدريس، والجالية اللبنانية بجدة في ذلك الوقت. كان اللبنانيون أصحاب علم وتخصص في الطب والتجارة وفي شركات الطيران، وعرف

عنهم الملبس الأنيق رجالًا ونساء، وكانت أهم المشاغل النسائية تتبع لهم، مثل: «المقص الذهبي» في عمق العمارية أمام مسجد بن لادن.

العربة الأخرى المختلفة تمامًا، كانت عربة سقاء الماء، وهي عربة يجرها «حمار» عليها خزان صفيح قادم من البازان في عمق العمارية جنوب الملعب، ويكون هدفًا لشقاوة العيال؛ حيث يسعى أحدهم وأكثرهم مشاغبة إلى سحب السدادة البلاستيك من الخزان لتنهمر المياه مهدرة على الأرض؛ لهذا كان السقاء يحرص عند اقترابه من مجموعة من الأولاد أن يسرع بالعربة، ويأخذ وضع التأهب للانطلاق جريًا وراء من يجرؤ على الاقتراب من عربته مستخدمًا نفس العصا التي يضرب بها الحمار إذا تمكن من المشاغب، وعادة كنا نطلب من الأولاد عدم فعل ذلك لما يترتب عليه من مشاكل وعنف وألفاظ بذيئة.

كنت أرافق جدي لأمي في الذهاب إلى باب مكة لشراء مستلزمات المنزل من الطعام خاصة في فترة الإجازات المدرسية، أو إلى سوق السمك (البنقلة) التي أخذت اسمها الشعبي من الصيادين البنغالية القادمين من بنغلاديش، وكانوا يتخصصون في صيد السمك العربي من بحر الأربعين وبيعه على الطريق العام. هناك رأي آخر أن البنقلة أخذت اسمها من كلمة [Bungalow] وهي العريشة أو السقيفة باللغة الإنجليزية.

في بداية المشوار نتوقف عند البيت المسلح الذي يبنيه والدي ويكون عمال الحفر من أصحاب البشرة السمراء من أفريقيا، ويستخدمون لغة أقرب إلى الرطانة بصورة مقتضبة فيما بينهم. ويبدأ المشوار من شارع العمارية الرئيسي ويسمى شارع فيصل الذي تتصدره قهوة غراب، وهي مقر العمالة المصرية والمركز الشعبي للعمالة، وأكثرهم يعملون في البناء بخلاف المدرسين والمحاسبين.

في المساء تتحول هذه القهوة إلى خلية نحل من الأصوات والألعاب الشعبية من النرد والدومينو وعنوان ثابت للحصول على العمالة المصرية، بعد سنوات أخبرني ابن صاحب القهوة أن الخطابات البريدية تأتي للعمال عليها اسم العامل وقهوة غراب فقط وهذا هو العنوان. تجدر الإشارة إلى أن نظام البناء في جدة عندما تغير من الحجر المنقبي والطين إلى البناء الحديث المسلح كان المعلمون والمقاولون المصريون أهم من ساهم في ذلك، وقد ذكرهم «الرقام» ومنهم محمد حلاوة، وقبل ذلك ذكي حسني، حسن أبو الفتوح، وعبد المجيد الملهمي وغيرهم. التأثير المصري كان جارفًا على ثقافة جدة بصورة عامة في مجالات الطب والفنون والتدريس، والاستماع إلى المقرئين المصريين في تجويد القرآن الكريم وأصواتهم الرخيمة، وكانت الإذاعة لديها تسجيلات مقرئ سعودي واحد للقرآن كاملًا، وهو الشيخ عبد الله خياط إمام الحرم المكي والعالم الجليل، ولهذا تعتمد على تسجيلات القراء المصريين، ولكن شهدت فترة الستينات الميلادية انخفاضًا ملحوظًا في أعداد المصريين نتيجة لحرب اليمن وعدوان القوات المصرية على الأجزاء الجنوبية في بلادنا، وعادت أعدادهم مع السبعينات إلى الارتفاع مرة أخرى.

سوق السمك وباب مكة فيهما أعداد كبيرة من أصحاب المحلات والبائعين الحضارم وأهل اليمن، وكذلك من يحملون المشتريات أصحاب (الزنبيل) لإيصالها إلى المنزل، لكن أكثر الجزارين كانوا من أهل البلد المعروفين.

مع دخول موسم الحج تظهر مجموعات بشرية عديدة في حي العمارية وما حوله وذلك قبل أداء الفريضة وبعدها كذلك. أكبر مجموعة هم الأتراك؛ حيث إن منطقة التخييم الخاصة بحجاج البر على ضفاف بحر الأربعين، ويحضرون بالحافلات الضخمة من قبل الفريضة، ومعهم حجاج بر آخرون من دول الشام

كلها، ويحرص الجميع على زيارة قبر أمنا حواء على الأقدام؛ لأن المسافة أقل من كيلو متر واحد، وتمتلئ الشوارع المحيطة بالمقبرة بهم. المجموعة الثانية هم الفرس؛ حيث يصرون كل سنة على عدم النزول من الحافلات الضخمة المنزوعة السقف، وفي سنوات اشتداد الصيف يكون وضعهم صعبًا، المجموعة الثالثة هم الزوار الأفارقة، وهم الأكثر جلبة للمقبرة وضحية ألاعيب حراس مقبرة حواء للحصول على المال منهم، وأيضًا تزدحم الشوارع المحيطة بالمقبرة بهم. في سنوات كانت للحجاج الجاوا ممارسات خاطئة حول المقبرة وداخلها.

تعايش الفتى في سنواته الأولى مع عدد كبير من الأجناس واللغات والأشكال عندما كانت المجتمعات والدول منغلقة، وذلك كله في مسافة كيلو متر مربع واحد أو أكثر قليلًا، وكان النسيج الاجتماعي يتشكل من هذا الخليط البشري، ولا يوجد عنصر عربي لم يكن موجودًا في جدة، وعرفنا الجزائريين واللهجة الجزائرية في المرحلة المتوسطة؛ حيث كانت المملكة تستضيف أعدادًا كبيرة من الطلاب الجزائريين وتلحقهم بالمدارس الحكومية بعد تحرر الجزائر من الاستعمار، وظلوا معنا إلى المرحلة الثانوية وكانت لهجتهم صعبة الفهم علينا. في المتوسطة عرفنا اللهجة العراقية من المدرسين العراقيين. حتى أهل المغرب العربي تاريخيًّا كانوا من أوائل من سكنوها، كذلك جاء السودانيون وكانوا في مجال التعليم ولهم شعبية ومحبة من الشباب؛ لأن نجوم كرة القدم في نادي الاتحاد في الخمسينيات الميلادية منهم سودانيون عديدون، مثل: سيد مصطفى، وعمر حامد، والكنج، وزرقان، وحفايظ وغيرهم، وبعد سنوات استقطب النادي الأهلي المنافس العتيد للاتحاد في الخمسينيات عددًا من اللاعبين السودانيين، مثل: جاويش السوداني، ادروب، عمر حامد، مبارك

أبـو اللـول، حمدوه، شـيبه، عبد الله عبـد الماجد، أحمد عبـد الله، وحارس المرمى الشـهير السبت دودو وغيرهم، وكانوا يلعبون وهم بالجنسية السودانية. كان السودانيون مترجمين محترفين ويجيدون اللغة الإنجليزية.

وقدمـت جـدة البيئة الحاضنة لكل هذه الأجناس للعمـل والعيش والتعاون والتسـامح، وهـذا يشـمل أيضًـا أهل الحضـارات العريقـة من غيـر المتحدثين بالعربية، مثل: الهند والصين وفارس ووسط آسيا وحتى الغربيين بعدد محدود، ورحبـت بالعابريـن والعباد والتجـار والصناع. هذه الجاليـات الأجنبية في جدة أو مـن أصـول أجنبيـة عربيـة أو إسـلامية لم تمـارس حياتها في أماكـن معزولة أو كانتونـات محوطـة؛ ولكن المجتمـع كان خليطًا من الجميـع ويتفاعل الكل في بوتقة واحدة يؤثر ويتأثر، ومن المجموع تشـكل مجتمع جدة وإنسـان جدة بسماته المميزة في التسامح وقبول الآخر[١].

أصنـاف الطعـام - على سـبيل المثال - هـي انعكاس مباشـر لتأثير الهجرة إلـى جـدة والتواجـد الأجنبي فيهـا. وقصة تنـوع أصناف الطعام مـع جدة قصة طويلة متشعبة، مثلًا شهد القرن التاسع عشر مظاهر إقبال أهل جدة على مباهج الحياة وبصورة خاصة الأطعمة؛ حيث شهد عشاء فاخر للورد جورج فالنتيا في أحـد بيـوت أكابر جدة فـي ١٨٠٥م، تنوعًا في الأنـواع والأطباق التي وضعت أمـام كل ضيـف حتى وصلت إلى سـتة عشـر طبقًا مختلفًا بخلاف المشـروبات والقهوة.

---

(١) شـهدت الألفية الجديدة تشـكل أحياء عشـوائية في جدة لإقامة الأجانب بشـكل مغلق على أصحاب كل جنسـية، وتشـمل مخالفين لأنظمة الإقامة والجوازات، وأحسـنت الدولة صنعًا بإزالة هذه الأحياء في مشروع إعادة تنظيم جدة.

ويصف الرحالة شارل ديدييه أنه أحضر طباخًا إلى بيته وقام بعمل العشاء على أكمل وجه، وكانت الوجبة عبارة عن خروف مطمور في فرن محفور في الأرض لهذه الغاية، وكان اللحم مشويًّا إلى درجة الإتقان بشكل غير معروف حتى في الطهو الغربي[١].

وذكر بوركهارت اعتماد سكان جدة على السمن في مأكلهم لدرجة أن السكان يبدؤون يومهم بتناول فنجال من السمن قبل شُرب القهوة؛ لاعتقادهم أن هذا من أسباب القوة والصحة[٢].

ووثق الرحالة جون فراير كين (الحاج أمين) وجود مطعم فرنسي يقدم الأصناف الفرنسية من مأكل ومشرب في ١٨٧٨م.

مع هجرات المسلمين من أواسط آسيا في مطلع القرن العشرين أدخل المهاجرون القادمون طرقًا مختلفة لطهو الأرز، وعرفت جدة ما يعرف باسم «الأكل الجاوي»، وهو خليط من أصناف الطعام والشواء المعروفة في الجزر الإندونيسية وماليزيا، ويتصف بكثرة استخدام البهارات المتخصصة والفلفل. هذا النوع من الطعام تتقنه سيدات البيوت ومعروف في المنازل خاصة في مكة المكرمة بحكم كثرة مجاورتهم للحجاج من تلك البلاد وبدرجة أقل جدة. مطاعم الأكل الجاوي كانت موجودة من منتصف القرن العشرين، مثل: (البيوم) شمال شارع الملك عبد العزيز، ومطعم غازي في باب شريف وغيرهما، كذلك الأتراك الذين تركوا بصمة واضحة على طريقة طهو الخضروات في

---

(١) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر، شريف مكة المكرمة ١٨٥٤، ترجمة: محمد خير البقاعي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ١٣٩.

(٢) جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه الجزيرة العربية، ترجمة: هتاف عبد الله، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٣٤.

مدن الحجاز كلها، وساعدهم المصريون الذين يتشابه أسلوبهم في الطهي مع الأتراك في تزويد المطعم الحجازي عمومًا والجداوي بالأصناف المتميزة.

في منتصف القرن العشرين تأثرت أصناف الطعام كثيرًا في جدة بالشوام (الفلسطينيين، السوريين، اللبنانيين)، والمصريين، ودخلت ثقافة الساندويتش إلى جدة، ومن أوائل من باع ساندويتش الشاورما كان (الحوري) في سوق النداء، ثم (شاكر) في العمارية، وانتشرت ظاهرة الساندويتشات وأهمها ساندويتشات المخ التي يعملها (العم جلال) أمام عمارة باخشب، ومحلات بيع ساندويتشات الطعمية والفلافل في أنحاء متفرقة من الصحيفة والعمارية وباب مكة وغيرها، وهي الأصل الذي تقوم عليه البوفيهات الشعبية في عالم اليوم التي تقدم الساندويتشات بالأشكال والمحتوى المختلف في الأحياء الشعبية والفاخرة. شهدت جدة أيضًا محلات مخصصة لبيع الجاتوه والبوظة والحلويات، وكانت البداية من الإيطاليين العاملين في محلات مونتانا في فندق الحرمين، وتبعهم الشوام في محلات كيمي كلاس وهي الأساس الذي تقوم عليه مصانع الآيس كريم والحلويات والمحلات الفاخرة في جدة اليوم، ومن الرواد في هذا المجال (باتيسري فينا) أمام مدينة حجاج المطار. وتجدر الإشارة إلى أن أصناف الطعام أو وصفات مطاعم معروفة في بلاد الجاليات تحولت لتكون أطباق وأكلات شعبية بعد تعديلها لتلائم الذوق المحلي والتكلفة في جدة، على سبيل المثال الأكلة الشعبية (دجاج شواية) أصلها مطعم نداء الفروج المشوي الذي يحاكي مطعم بيروتي شهير، أكلة الكبسة أصلها الرز البخاري الذي قدم إلينا من أواسط آسيا مع تعديل بسيط، أكلة الفول هي محاكاة لأكلة الفول المدمس في مصر، أكلة الشكشوكة محاكاة لأكلة تونسية، الهريس الحضرمي من أكلات حضرموت وكذلك المظبي، المفتقة مكمل غذائي مصري والقائمة تطول، وتعكس التنوع

الحضـري والثقافـي في أصناف الطعـام لأهل جدة، ومن نافلـة القول أن أصناف الطعـام مـن داخـل المملكة العربية السـعودية وجدت في جدة خاصـة أصنافًا من عسير ومن نجد كثيرة ومتنوعة.

في فترة السـبعينات الميلادية وبعد فترة الطفرة الاقتصادية في أسـعار البترول والرخاء الاقتصادي. دخلت تعديلات أشمل وأوسع في الأطعمة أهمها ما حدث في المأكولات البحرية خاصة؛ حيث أصبح أكل الجمبري الطازج أو (القريدس) معروفًـا لأول مـرة بتأثيـر من المصريين والعمالة الآسـيوية مع توفـر الثلج وطرق الحفـظ بالثلاجـات للتعامـل معـه؛ ولكن فـي السـابق كان الأكل البحري يقتصر على النوع المجفف من الجمبري المستورد أو الأسماك اليومية بأنواع محدودة، وساهم دخول أفران الغاز إلى المنازل في تنوع طرق الطبخ للمأكولات البحرية[١].

وشـهدت هذه المرحلة انتشـار مطاعم الوجبات السريعة التي تقدم أصناف طعام أوروبية أو أمريكية بعد أن كان يوجد محل واحد فقط يقدم الهامبرجر في ميدان فلسطين في الستينات الميلادية يسمى عالماشي؛ ولكن انتشرت المطاعم العالمية والأسماء المعروفة حول العالم لهذه الوجبات، ومطاعم محلية تحاكي هذه المطاعم الدولية وتتفوق عليها.

وكما أن الطعام كان خليطًا من الجاليات، كذلك كثير من العادات الحميدة فـي الحيـاة الاجتماعية واللهجة والأمثال الشـعبية وحكمـة الجدات والقصص الخرافيـة الشـعبية وطريقـة التعامـل الحضريـة السـهلة جاءت منهـم؛ لأن هذا الموزاييك الإنسـاني الجميل المتفرد من الطبيعي أن يفرز ذلك. يفسـره البعض

(١) في سنواتها الأخيرة، كانت والدتي رحمها الله تطلب مني أن أبحث عن أنواع الجمبري المجفف والأسـماك الصغيرة المجففة التي تسـتورد من دول شـرق آسـيا لتتذكر الأيام السابقة.

بنظرية الاختلاط الشامل [Panmixionist]؛ حيث ظهر نمط إنساني موحد متجانس وثقافة مشتركة قائمة على الإسلام والعروبة باعتبارها رابطة ثقافية متجذرة في الأرض والذاكرة، وتشكل فضاءً حيًّا يعكس وحدة المصير[١].

هذا العمل إذن لمعرفة متى؟ وكيف؟ تم تشكيل هذا الموزاييك الإنساني الفريد، وهل هناك ملامح محددة للثقافة المحلية لجدة؟ وفي بعد آخر هو تحية لهذه المدينة الأيقونة:

بِلادٌ بِها حَلَّ الشبابُ تَمائِمي وأوّلُ أرْضٍ مَسَّ جِلْدي تُرابُها[٢]

يقرر عبد القادر الشافعي في كتابه السلاح والعدة: "أن أهلها أوائلهم من جميع الآفاق من أرض الصعيد، وهم المريسة من بلد اسمها المريسة، ومن أرض اليمن وهم الحفصة من بني حفيص، ومن ظفار ومن جبل صبح ومن شراكسة مصر وهم بيت بني قرقاص، ومن وادي مر وهم بيت المريدي وبيت الحبحبي وبيت التكروري، هؤلاء هم أهل جدة وأعيانها وفقهاؤها من بني ظهيرة وهم قضاتها من قريش، والأشراف من بني القديمي"، وهذه بداية التكوين البشري من القرن الرابع الهجري بعد أن هجرها الفرس الذين سكنوها وطوروها هندسيًّا[٣].

---

(١) محمد أنور مسلم نويلاتي، جدة وعبقرية المكان، صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية، بيروت، ٢٠٢٣م، ص ٦٨–٦٩.

(٢) شعر أحمد بن يحيى.

(٣) عبد القادر أحمد الشافعي، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، حققه وقدم له: د. علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٧م، القاهرة، ص ٣٥–٣٦.

توجد عدد من المصادر تؤكد حقيقة أن العنصر البشري في جدة هو خليط من هذه الأجناس وغيرها أيضًا، ومن هذه المراجع:

- **عبد القدوس الأنصاري** (موسوعة تاريخ مدينة جدة) الطبعة الثانية ص ١٥٩: حيث ورد بالنص «ولا بد أنه من مطلع حياتها الأخيرة تلك التي امتدت ١٣٥٦هـ =

في العصور الوسطى، وقبل سيطرة دولة المماليك على جدة، يقرر ابن جبير في الرحلة أنه قد وصلت أعداد كبيرة من المغاربة إلى الحجاز واستوطنتها، وتشير وثائـق الجيبـزا إلى أن جدة وموانـئ أخرى في الحجاز كانت تمـوج بأعداد كبيرة

= قد هاجر إليها نفر من قريش أهل مكة، وتديَّرها معهم أناس من اليمن، وأناس من حضرموت، ومن مصر وفارس وسورية والعراق وغيرهم من أبناء ديار الإسلام» من الفصل الموسوم «سكان مدينة جدة في الماضي والحاضر». في الصفحة (١٦٣) من نفس الموسوعة بعد أن ذكر الأجناس كلها استنادًا إلى دائرة المعارف البريطانية قرّر أن كثير من هذه الأجناس هم سكان جدة اليوم.

- **الإدريسي** في «نزهة المشتاق» المجلد الثاني ص ١٣٨ : ذكر في التعليق على ما كتبه ابن جبير قبله: «إنهم علويين حسنيون، وحسينيون وجعفريون، بينما الحقيقة هي أن أهلها كانوا أخلاطًا من جنسيات شتى».

- **ابن المجاور**، كتب في بداية القرن السابع الهجري عن جدة في كتابه صفة بلاد اليمن ص ٥١ : «إنه يلتئم إليها من جميع أطراف بلاد العالم والربع المسكون والبحر [المعمور] من ديار مصر والمغرب والهند واليمن».

- **علي السيد علي محمود** في كتابه (الحياة الإقتصادية في جدة في عصر سلاطين المماليك): «ودخول الحجاز تحت سيطرة المماليك إن السلطان المنصور قلاوون أصدر منشورًا إلى التجار في بلاد الصين والهند وسيلان واليمن والعراق وبلاد الروم يرحب بهم ويغريهم على القدوم إلى جدة بمتاجرهم» صفحة ١٧/١٦ ، «ونتج أن كثير من التجار الهنود والمصريين وغيرهم، استوطنوا جدة لأغراض التجارة» صفحة ١٩ ، وهناك أسماء لبعض هذه الأسر.

ومن المراجع الأجنبية :

- **الباحثة الألمانية أولريك فريتاج**: جوهر كتابها عن اختلاط الأجناس في جدة، وأن النخبة من التجار والوجهاء تعود أصولهم إلى أصول هندية وفارسية ومصرية وغيرها. وقدمت في الفصل الثاني تفصيل للعنصر البشري في جدة .

Ulrike Freitag "A HISTORY OF JEDDAH The Gate to Mecca in The Nineteenth an Twentieth Centuries" Cambridge = University Press 2020.

مـن المغاربـة الذين جاؤوا من جهات المغرب كلها مـن برقة والقيروان وطرابلس وتلمسان وفاس وجربة، وسيطر المغاربة على التجارة في هذه الموانئ ولم يكتفوا بذلك؛ بل مارسوا الزراعة في الحجاز، وهذا من أسباب خصب هذه الجهات[١].

ويقـول ابـن فهد في إتحاف الورى أنه يوجد في جدة كثير من أصل أفريقي مثل الزيالعة[٢] من أطراف الحبشـة ويسـكنها السـودان المسـلمون، والمقادشة نسبة إلى مدينة مقديشو الصومالية واشتغلوا بكثير من الحِرَف[٣].

أما الهنود فيرجع وجودهم واستيطانهم جدة إلى فترات مبكرة، وقد اشتهروا بالغنـى والثـراء، كمـا ذكر محمـد علي مغربـي، وتواجدوا عبر أجيـال في جدة وتخصصوا في بيع العقاقير الطبية مع علاقة وثيقة مع الهند[٤]. والمقصود بالهنود هم سكان شبه القارة الهندية كلها بما فيها باكستان وبنغلاديش وجزيرة سيلان.

= - الباحث الإيطالي انجلو بيسكو في كتابه عن جدة: خصص الباب الثالث من كتابه عن التركيب السكاني المتنوع لمدينة جدة وآراء الرحالة ومشاهدتهم. الصفحات ١٥-٢٥. Angelo Pesce "Jeddah Portrait of An arabian City" Falcon press, 1976.

(١) ابـن جبيـر، رحلة ابن جبير، راجعه: د. أحمد عمر الزيلعي، مكة وعلاقتها الخارجية، جامعة الرياض، عمادة شؤون المكتبات، ٢٠٠٥م، ص ١٨٤.

(٢) الزيالعة: عرب من نسل بني هاشم وقريش، وينتسبون إلى عقيل بن أبي طالب، انتقلوا من جازان واليمن إلى ميناء زيلع على ساحل بلاد البربر (الصومال حاليًا).
محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية ـ بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، ١٤٣١هـ، ٦٩١/١١.

(٣) ابـن فهـد النجم عمر، إتحاف الـورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم شـلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ج٣، ص ٨٩.

(٤) محمـد علـي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشـر للهجـرة والقرون الماضية، القاهرة، ١٩٩٠م، ج ٣، ص ١٨٠-١٨١.

استوطن المصريون جدة عبر العصور، وقد ساعدت الأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين من أيام الدولة العثمانية في تقوية الروابط الإنسانية والاقتصادية بين مصر والحجاز عمومًا، وقد حضر كثير من المصريين إلى الحجاز واندمجوا اجتماعيًّا مع أهل البلاد الأصليين[١]. نفس الشيء يقال عن أهل حضرموت الذين اعتبروا أن جدة المكان المناسب لهم للعلم والتجارة منذ قديم الزمان، وأهل اليمن وغيرها من الجماعات البشرية التي استوطنت جدة من العصور الوسطى، ومنهم فئة التكاررة وكانوا أصحاب مال وجاه، وكانوا أثرياء جدة قدموا من مناطق غرب أفريقيا.

وقد وصفها ابن المجاور في عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م أنه: "يلتام إليها من جميع أطراف العالم والربع المسكون والبحر المعمور من ديار مصر والمغرب والهند واليمن".

وفي القرن التاسع عشر كتب الرحالة عن الحياة العامة لمدينة جدة، وقدموا صورة أكثر وضوحًا عن الحياة في الحجاز عمومًا، وجدة على وجه الخصوص، تعنى بالعمران والإنسان، وبعضهم قدم التحليلات والمشاهدات وتوثيق الأرقام والمساحات وتفاصيل حياة الحجاز.

من أهم هؤلاء الرحالة، بوركهارت، وهو سويسري مسلم حضر إلى جدة سنة ١٨١٤م في طريقه لأداء الحج، وقد أعد أربعة مؤلفات رئيسية عن رحلاته متنوعة في الأنثربولوجيا والجغرافيا والآثار والاقتصاد، ويسمّى نفسه إبراهيم

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة ١١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٤٢.

المهدي بن عبد الله، وأوصى أن يدفن مع المسلمين[١].

يصف غالبية سكان جدة أنهم من الغرباء، وأن هذه العرقيات امتزجت بوتقة واحدة فيقول: «الذين استقروا من مصر وسوريا والبرابرة وتركيا الأوروبية وبلاد الأناضول تعرفهم كلهم من خلال ملامح سلالتهم التي امتزجت كلها في جماعة واحدة تحاكي في عيشها وأزيائها الطريقة العربية»، لكنه استثنى الجالية الهندية الذين استمروا عرقًا متميزًا بالشكل واللبس والتقاليد، ووصفهم أنهم جالية كبيرة أكثر من مئة أسرة يمارسون التجارة وينحدرون من منطقة سورات أو بومباي[٢]. كما وثّق أول وجود منظم للمسيحيين واليهود في جدة وذلك أثناء فترة احتلال فيالق محمد علي مدينة جدة، وأن المسيحيين تجار يونانيُّون يحضرون من مصر، أما اليهود فهم من أصول يمنية يعملون في مجال السمسرة، وكانوا جميعًا يلاقون معاملة حسنة حتى أخرج الشريف سرور لاحقًا اليهود وعادوا إلى اليمن[٣]. لاحظ بوركهارت أن هناك أجانب يتولون مناصب عامة في جدة إبان فترة محمد علي، مثل: الطبيب الأرمني بوساري، وجابي الضرائب السيد علي أوجقلي القوة المحركة للعمل في جدة، وقائد القشلاق العسكري إسماعيل بيك[٤].

وحضر الرحالة الفرنسي شارل ديديه إلى جدة في عام ١٨٥٤م، وهو أديب وشاعر يحمل الجنسية السويسرية من أصل فرنسي، وله مجموعة من

---

(١) عدنان عبد البديع اليافي، جدة في أعين الرحالة، الجزء الثاني، ٢٠٢١م.

(٢) جون لويس بوركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ترجمة هتاف عبد الله، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦–١٧.

الـرحلات، ومنهـا إلى مصر والسـودان، ويركز على وصف البشـر والجوانب الاجتماعية، وقد وصف جدة أنها مدينة جميلة، مكينة البناء، جيدة التأسيس، تعج بالسكان، نابضة بالحياة، مزدحمة، وفي أسواقها تجد بضائع دمشق وبغداد وفارس ومصر والهند[١].

أول مـا لفـت نظـر ديدييـه العمال فـي الميناء الـذي يقومون فيـه بالأعمال الشـاقة، وهـم من النوبة غاية في الوسـامة، مفتولو العـضلات، ذوو بأس وهم أحـرار، ويوجـد أيضًـا بعض أصحاب البشـرة السـمراء مـن الـبلاد القريبة من خـط الاسـتواء، وهـم مـن الرقيق بينمـا الآخرون أحـرار. لاحـظ أن الحضارم والهنـود يسـيطرون علـى تجارة جـدة، ويوجد في أسـواقها نماذج من البشـر، فأنـت تلقى السـود الذيـن لم يؤتوا مـن الجمال، وتلقـى النمـاذج الجميلة من الأجنـاس القوقازيـة، وليس تنـوع اللغات والعـادات بأقل إثـارة؛ حيث عرب المدن وعرب الصحراء مع تجار مسقط والبصرة، أتراك، سوريون، يونانيون، مصريـون، بربـر، هنـود بأعـداد كبيـرة، ولجـوء العامـة منهـم إلـى التسـول، وأيضًـا ماليزيـون، وبابانيـون وكل منهـم يلبـس زيـه الوطنـي ويتكلـم لهجتـه الخاصة[٢].

وجد ديدييه أن أغلب سكان جدة من أصول أجنبية وهم نشيطون وخبراء، وأن المسـيحيين الموجودين يتمتعون بكامـل حريتهم «وبأمن يوازي ما يجدونه في مصر وإسـتانبول»، وأهم هؤلاء المسـيحيين أسـرة الإخوة سـاوه [Sawa]، وهـم يونانيـون انضـووا فرديًّا تحت حمايـة القنصل الفرنسـي؛ لكن مصالحهم

(١) عدنان اليافي، جدة في أعين الرحالة...، مرجع سابق، ص ٢٣٦.
(٢) شـارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشـريف الأكبر...، مصدر سـابق، ص ١٣٩-١٤٥. والبابانيون من الهند.

يحميها القنصل البريطاني وتجارتهم مع مصر والسودان[١].

الرحالة الأسباني دومنجو باديا ١٢٢١هـ/١٨٠٧م أن السكان خليط من دماء عربية وحبشية مع قليل من الدماء الهندية، ويقول إنه شاهد خليطًا من سحنة الهنود مع الصينين في بعض الأفراد، وأشار إلى وجود فقراء من أصحاب البشرة السمراء الذين يسيرون شبه عراة ويسكنون في أعشاش خارج السور، وذكر أن اقتناء الجواري من الممارسات الشائعة في جدة[٢]، ولكن تم إلغاء هذه الممارسات الخاطئة في العهد السعودي.

واختصر سنوك الحديث عن جدة في مذكراته، وتكلم عن العلماء والرعايا الهولنديين من الإندونيسيين وغيرهم من الرعايا، ووثق أسماء بعض الأوروبيين الموجودين في جدة، ومنهم الطبيبان ستاما تياديس وستيبوفيتس، والتاجر ستروس النمساوي، والهولنديان ديرتشيحس، وتيرميولين، ويوسف قدسي الترجمان المنشق عن القنصلية الإنجليزية[٣].

---

(١) ديدييه، المصدر السابق، ص ١٧٢-١٧٣. وهذا نفس ما قاله بوركهارت وسنوك أيضًا بطرق مختلفة وتفاصيل أكثر.

(٢) دومنجو باديا، رحالة أسباني في الجزيرة العربية، ترجمة: صالح السنيدي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٩هـ، ص ١٢٥-١٢٧.

(٣) كريستيان سنوك هورخرونيه مستشرق هولندي كرس دراسته للغات السامية وعلم اللاهوت، وحصل على الدكتوراه عام ١٨٨٠م عن الحج عند المسلمين ورحلته إلى جدة ومكة ١٨٨٤-١٨٨٥م، أول من صور ووثق الحياة في الحجاز التي تمثل إرثًا إنسانيًا مهمًا للحياة في تلك الفترة، وعمل تسجيلات صوتية للقرآن الكريم والباعة والغناء، ويوجد متحف ملحق بجامعة ليدن فيه بعض آثاره النفيسة.

كريستيان سنوك هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، الجزء الأول، نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، علق عليه: محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٩٦م.

وذكر احتفالات الجالية الفارسية بالأول من محرم وقدم وصفًا للاحتفال؛ حيث يجلس القنصل الفارسي وحاشيته في الصف الأمامي في منزل السيد مختار، وكان حوالي عشرون رجلًا ونحو سبعة أطفال يجلسون في دائرة، وبعضهم جذوعهم عارية، ويتم غناء الابتهالات باللغة الفارسية مع قرع الطبول، وقيام المحتفلين بالضرب على صدورهم على إيقاع الغناء، وهذا يشبه ما وصفه بوركهارت من قبل؛ حيث شاهد من إحدى نوافذ مبنى القنصلية منزلًا مجاورًا تملكه سيدة تركية تقوم بما يعرف بالزار، أو طرد الأرواح الشريرة باستخدام الموسيقى والطبول.

عند زيارته جدة، ذكر الرحالة إبراهيم رفعت أن أهالي جدة من أجناس شتى مكيين، ويمنيين، وحضارم، وهنود، وترك، وشوام، ومصريين، وأعطى تقدير أن عدد السكان حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة[١].

كل هذا التنوع لا يعني الفوضى؛ حيث حرصت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر على مراقبة دخول الأجانب وخروجهم من الميناء، ويشمل هذا تفتيش القادم بدقة وقوات الأمن تتثبت من هوية القادمين إلى جدة، وخاصة من يبدئ الرغبة في التوجه إلى مكة المكرمة، وبعد نهاية الحج تقوم السلطات بإبعاد المتخلفين عن السفر؛ حيث أبعدت في عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م حوالي مئتين إلى سواكن، وفي عام الذي يليه مئة وخمسة وسبعون سودانيًّا أيضًا تم إبعادهم إلى سواكن، وكانت تخرج المتخلفين عن السفر حتى لو بالقوة[٢]؛ أي أن السلطات لم تسمح بأن يميع العنصر العربي أمام سيل الزوار. وفي زيارته للحجاز عمومًا وصف شارل ديدييه العرب «أنهم أمة عالمة ومثقفة نبغت في

(١) إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ١٩٢٥م، ١/٢٣.

(٢) مبارك محمد المعبدي، النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني الثاني، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩٣م، ص ١٣٠-١٣٢.

العلـوم قدر ما نبغـت في الفن والحروب، وإن انتقلنا من الماضي إلى الحاضر فإننا نلحظ التفوق نفسـه لدى العرب، وخصوصًا في الجانب الأخلاقي مقارنة بالأتـراك الذين لديهم الجهل والوحشـية، فالشـجاعة والكرم والاسـتقامة تقيم معهـم، يحاربون بإنسـانية وشـرف، ويحترمـون العهود والمواثيـق، ويجهلون السفالة، فكل رجل - مهما كان مكانه - يحافظ على إحساسه بالأنفة»[١].

فـي مطلـع القرن العشـرين ذكـرت دائـرة المعـارف البريطانية أن السـكان فـي جـدة خليـط من عـرب حجازيين نجدييـن ويمانييـن وحضارمـة ومصريين وسـوريين ومغاربة، ومن شعوب إسلامية من غير العنصر العربي يشمل الفرس وأهـل أفريقيـا وجاليات كبيرة من الترك، وقدم إليها بحكـم الأعمال اليونانيون والفرنسيون والإيطاليون[٢].

وهكذا هي جدة، ويحضرني فيها ما قاله الجواهري:

وكان قَلبِـي إلـى رُؤْيـاكِ باصِرَتـي حتـى اتَّهَمْتُ عليكِ العينَ والحَدَقة
شَـمَمْتُ تُرْبَكِ أَسْتافُ الصِّبا مَرِحً والشَّـمْلَ مُؤْتَلِفًـا، والعِقْـدُ مُؤْتَلِق
وسِـرْتُ قَصْدَكِ لا كالمُشْتَهي بَلَدً لكنْ كَمَنْ يَتَشَـهّى وَجْهَ مَن عَشِـق

هـذا الكتـاب تحية تقدير إلى المدينة الأيقونة فـي الوطن الغالي، ومحاولة لفهم واسـتنباط شـيء مـن أبعادها الثقافية وشـخصيتها المتفـردة والحيوية التي تتمتـع بهـا، ودعـم فرضيـة أن أهمية جـدة نابعة من ذاتهـا وموقعهـا الجغرافي وثقلها الإستراتيجي ووظيفتها المتجددة في الإقليم وليس ميناء مكة فقط. جدة المعمورة البهية التي (وعلى التُّقى بنيانها تأسسا).

---

(١) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(٢) عبـد القدوس الأنصاري، موسـوعة تاريـخ مدينة جدة، الطبعة ٤، دار المنهل، جدة، ١٤٣٩، ص ١٦٣.

● **مجموعة أطفال جدة مع سرج جمل صغير**

المصور: شيلتيما، نيكلوس

جامعة ليدن، رقم: 26.365.27

● **أطفال جدة**

المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885م

جامعة ليدن، رقم: 404:15. 26

● **أطفال جدة**

المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885م

جامعة ليدن، رقم: CSH-M.35 – 288/OR.12

● **أطفال جدة**

المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885م

جامعة ليدن، رقم: CSH-M.37 – 288/OR.12

صور توضح أشكال أطفال جدة في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ويظهر بوضوح الاختلاف العرقي والإثني بين الأطفال ولا يوجد سحنة موحدة واختلاف لون البشرة الأمر الذي يعكس الموزاييك الإنساني الذي تتشكل منه جدة.

المقدمة

هذا الكتاب:

تتمتع جدة بعمق تاريخي وثقافي عبر القرون، وساهمت - بشكل فعّال - في مسيرة الإقليم، ومكّنها الموقع الجغرافي - الذي حباها الله إياه - من أن تؤثر في السياسة الاقتصادية والخطط الإستراتيجية للإمبراطوريات التي دخلت المنطقة العربية والبحر الأحمر؛ باعتبارها نقطة المركز في عاتق الميزان للشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، والبوابة الإستراتيجية للجزيرة العربية نحو الداخل.

وهي نقطة التقاء روافد المياه القادمة من الجبال شرقًا، ونقطة التقاء طرق المواصلات المتشعبة المتجهة إلى الداخل، ولا يغيب عنا - أيضًا - أنها نقطة التقاء أفئدة المسلمين عندما ينزلون من سفنهم ويحطون رحالهم قبل الوصول إلى بغيتهم (الحرمين الشريفين) باعتبارها الميناء الرئيس لهم. جدة إذن نقطة التقاء حيث توافقت قوى الجغرافيا، والاقتصاد، والاعتقاد الإسلامي والتعبد على ذلك.

الاستمرارية التاريخية لمدينة جدة والحركة الدائبة التي تميز بها مجتمعها بالانفتاح على الآخر والسمات الحضارية والحركة التجارية فيها لم يشفع لها ذلك كله في وجود توثيق جيد لتراثها التاريخي الذي لم تنصفه الأقلام؛ حيث يتضح للجميع وجود فجوة في تدوين وتحليل تاريخها بدرجةٍ مبالغٍ فيها؛ حيث إنه، عددٌ بخلاف محدودٍ من الكتب الرصينة والموسوعات التاريخية العريقة

وكتب الرواد الكلاسيكية، فإن الكتب التي أعدت عن جدة في الألفية الجديدة وهي كثيرة في العدد تعاني من مشكلات في الشكل والمنهج والمضمون، وقد رصدت دراسة نقدية عن المشكلات المركبة التي تعاني منها المؤلفات الحديثة عن مدينة جدة وحياتها الثقافية[١].

بدأت الكتابة عن جدة على هامش الكتابة عن مكة المكرمة، ولم تبدأ المؤلفات تظهر عن جدة إلا في عام ٧٩٠هـ ظهر كتاب القاضي نجم الدين بن يعقوب، وبعده في القرن التاسع جار الله بن فهد[٢]، وأصبحت جدة مظلومة بسبب ندرة الأدبيات العلمية الرصينة التي تحلل وتوثق تاريخها الإنساني الجدير بالدراسة والتفنيد؛ لإصرار البعض على النظر إلى جدة باعتبارها ميناء مكة وهذه عبارة ناقصة؛ لأنه مع الوقت وبعد حادثة التجوير[٣] أصبحت جدة ميناء مكة ومركزًا تجاريًّا، ثم أضيفت لها الأهمية الإستراتيجية العسكرية، وبالتالي لا يجوز حصر جدة في وظيفتها الأولى ميناء مكة بعد أن أخذت مكانها في التجارة الدولية والإستراتيجية العالمية.

---

(١) حسنة الغامدي، طارق الغامدي، طارق العجال، التاريخ الشفوي لمدينة جدة في القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، م ٢٦، ع ٢، ٢٠١٨م، ص ٢٩٧-٣٢٧.

(٢) محمد أنور مسلم نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، ص ١٧-٤١، تحليل شامل لما كتب عن جدة والإطار الثقافي والمعرفي الذي تم إعداده فيه.

(٣) للتجوير معنيان، معنى لغوي: تقول: جوَّره: أي نسبه إلى الجَوْرِ (الظلم)، انظر: نشوان بن سعيد الحميري ت ٥٧٣هـ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، وآخرَين، دار الفكر المعاصر، دمشق. الطبعة الأولى ١٩٩٩م، الجزء الثاني، ص١٢٢٤. وآخر اصطلاحي، وهو: تحويل طريق المراكب التجارية من ميناء إلى آخر. والمعنى الاصطلاحي هو المعنى الذي يعنينا في هذا المقام.

هذا الوضع أدى إلى ضياع كثيرٍ من الأبعاد الثقافية والإنسانية في تاريخها؛ فكان لذلك أسوأ الأثر في فهم مسيرة الإقليم وارتباطاته، وأصبح واجبًا على المثقف استنطاق المكان والزمان لرفع ما سببته يد الإهمال والتقصير في ندرة الأدبيات المنوطة بجدة، والتي تمكننا من سبر أغوارها، واستيعاب مسيرتها الدؤوب، واجتناء ثمرها المتراكم عبر العصور، وأن يكون هذا الجهد ضمن الإطار الوطني الشامل لفهم وترسيخ أبعاد الهوية الوطنية.

عانت سيرة جدة من الضعف العلمي والأكاديمي وعدم فهم البعض للمصطلحات التاريخية التي وصفت بها على سبيل المثال: مصطلح أنها «دهليز» مكة، فإن هذا في الأصل مصطلح ذو صبغة دينية يضفي على جدة صفة القداسة وحرمان دخول غير المسلم إليها، كما جاء بالنص في كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين وفيه يقول: «عبد المسيح هذا دهليز مكة أي حرم مكة، وقد حرم الله على أمثالك الدخول إليه، وقرأ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فاحذر أن تدخل الحرم» انتهى، وفي كتاب آخر هو مقامات الحريري يفسر أنها دهليز مكة بمعنى أنه ليس بينها وبين مكة بلد آخر (هذا تعريف جغرافي)، وفي تفسير القرآن المسمى روح البيان يفسر اصطلاح دهليز مكة أنه من قداسة جدة وتحريم وجود غير المسلم فيها ولا دفنه بها، وهذا كان تقليدًا متبعًا في السابق أي أنه لا يسكنها ولا يدخلها غير المسلم، ويذكر أن الشريف أحمد بن زيد شريف مكة أخرج منها غير المسلمين في العام ١٦٨٧م، كما جاء في تاريخ مكة للسباعي، وأصدر شيخ الحرم فتوى أن لا يبقى في جدة غير المسلمين - إلا من أشهر إسلامه - وعدم دفنهم في جدة.

يقول الشاعر الجداوي أحمد قنديل:

دَهْليزُ مكّةَ حينَ اخْتارَ ساحِلَها عُثمانُ مِيناءً لِأُمِّ المجْلِس الشورَى

مصطلح الدهليز، كما جاء في النصوص السابقة لوصف جدة، استخدام تاريخيًّا لإضفاء صفة القداسة على جدة وتحريمها على غير المسلمين مثل مكة تمامًا أحياء وأموات، وفي ناحية أخرى استخدم من منطلق جغرافي باعتبارها الطريق السهل الذي لا يوجد بينها وبين مكة بلاد أخرى، ولكن في السنوات الأخيرة أصبح هذا المصطلح يستخدم بصورة مستحدثة مأخوذة من العمران ودهليز المنزل، وهو استخدام فيه استخفاف لا يحمل الاحترام لجدة؛ لأن اصطلاح دهليز له معاني في علم التشريح أيضًا وعلوم أخرى، وفي هذا اجتهاد لم يثبت عن الأولين الذين استخدموا المصطلح؛ حيث إنه في العمران يعني أنه المدخل للمنزل أو المساحة بين الباب والدار، والدهليز أيضًا ممر يربط بين الدار وساحته الداخلية، وهذه تعريفات من الهندسة والعمران لم تكن مقصودة عندما وصفت جدة بالدهليز أصلاً[١] الذي هو اصطلاح ديني – جغرافي، يضفي الاحترام والقداسة على جدة بعكس التعريف الهندسي أو من علم التشريح.

ولقد عانى تاريخ المملكة عمومًا وجدة على وجه الخصوص من ظاهرة (الميت يقبض على الحي) وهو اصطلاح اختطه مثقف سعودي يشير فيه إلى وجود قبضة رمزية منغرسة في اللاوعي تمثلت في متابعة النصوص ونقلها وتكرارها بدون فحص مما رسَّخ هيمنة المؤرخ السابق

(١) عفيف الدين بن علي اليافعي، روض الرياحين في حكايات الصالحين، مكتبة زهران، القاهرة، ص ٨٢.
- القاسم بن علي الحريري، أبو محمد، مقامات الحريري، شرح مختار دباس، ص ٦٧٠، مطبعة باريس، ١٩٧٨م.
- إسماعيل حقي، تفسير روح البيان في تفسير القرآن، ص ٦٥٩.

على اللاحق[١]، وهذا يشمل نقل الاصطلاحات بدون دراسة وتمحيص، مثل الاصطلاح السابق المشار إليه؛ لأن جدة اختطت لنفسها أهمية تجارية واستراتيجية ذات أبعاد ثقافية متفردة موازية لأهميتها من الناحية الدينية وقربها لمكة.

الهوية:

التحدي المهم الذي يواجهنا في منطقتنا العربية ومحيطها هو حرب الهويات، ومحاولة بعض الدول غير العربية في الإقليم الهجوم على الهوية العربية والأصالة الإسلامية؛ لإعادة تشكيل المنطقة وفقًا لأجنداتهم العابثة، يشترك معهم في ذلك الجماعات العابرة للحدود؛ لأن من يسيطر على هذه المساحة أو يتلاعب بها أو يعبث بمقدراتها ينطلق منها إلى أمر خطير.

تمثل الهوية الكيان أو الإطار أو القالب الذي يشعر الإنسان أنه ينتمي إليه مع الآخرين، يسلكهم جميعًا في هذا العِقد رابطة قيمية ومسلكية شبيهة بشريحة إنسانية اجتماعية تجعل الواحد يرى نفسه من خلال المجتمع الذي يشاركه نفس القيم والاعتقادات والسلوك. يتضافر في نسيج الهوية: الأصل العرقي، والدين، والثقافة؛ آخذين في الاعتبار التراث بمختلف أشكاله وتجلياته، بشكل عقلاني مستنير، مخرجين منه كنوزًا تُثَبِّت شبابنا عند الهزاهز، ويتربى عليها أطفالنا وناشئتنا إذا طغت الحداثة، ويتنور بها كبراؤنا إذا انطفأ المصباح واستحلك الطريق. الهوية باب مفتوح على المستقبل تتحقق وتتجدد بتجدد

(١) عبد الرحمن الشقير، الشرق الأوسط، ٢٠٢٤/٢/٢٣م.

المعرفة والعمل والإبداع والتفاعل مع الواقع الطبيعي والتقني والإنساني بكل إمكاناته المادية والمعرفية[١]؛ لما لها من طبيعة ديناميكية.

صورة الهوية وخصائصها كما عرفها بولدنج[٢]:

١. الصورة المكانية، وهي الصورة التي لدى الفرد عن وضعه أو موضعه في المكان المحيط به.
٢. الصورة الزمانية، الصورة التي يكونها الفرد عن مجرى الزمان ومكانه فيه.
٣. الصورة العقلانية، وهي الصورة التي لدى الفرد عن الكون من حيث هو نسق من الانتظامات والعلاقات.
٤. الصورة الشخصية، وتتعلق بمكان الفرد في عالم الأفراد أو الأدوار والنظم التي تحيط به.
٥. صورة القيمة، وتتألف من الأحكام المتعلقة بما هو خير وشر وعناصر رؤية العالم ككل.
٦. الصورة الوجدانية، وهي الصورة التي تصبغ فيها الأجزاء المتنوعة من رؤية العالم بصبغة عاطفية انفعالية، وتتعلق بمشاعر الخوف والرهبة والألم والسعادة وبما نحب أو لا نحب.
٧. الصورة من حيث هي مقسمة إلى جوانب شعورية ولا شعورية ودون شعورية.

---

(١) نسيمة مخداني، الهوية، المثقف والعولمة، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، م ٣، ع ٥، ٢٠١١م، ص ٧٢٣ – ٧٣١.

(٢) السيد الأسود، تصورات رؤية العالم في الدراسات الإنتروبوجيه، المجلة الاجتماعية القومية، القاهرة، مجلد ٢٧، عدد يناير ١٩٩١م، ص ٩-٥٤ من كتاب بولدنج The Image.

٨ الصورة منظورًا إليها من خلال بعد التأكد أو اليقين وعدم اليقين، والوضوح والغموض.

٩ الصورة منظورًا إليها من خلال بعد الواقعية أو عدم الواقعية.

١٠ الصورة منظورًا إليها من خلال بعد الخصوصية أو العمومية بمعنى معرفة إذا كانت رؤية العالم فردية، أو يشترك فيها جميع الأفراد.

أدركت المملكة العربية السعودية أهمية تعزيز الهوية الوطنية في الحفاظ على القيم الوطنية السعودية بشكل منهجي وعلمي شامل، بما يتواكب مع المتغيرات وفق عمق ووعي بالتاريخ، تقديرًا للحاضر، وإدراكًا لما هو مطلوب في المستقبل؛ لهذا أفردت برامج رؤية ٢٠٣٠، برنامج الهوية الوطنية، ضمن إستراتيجية التحول الوطني والكيفية التي يمكن من خلالها ترجمة الأهداف إلى خطة عمل.

حيث يقوم البرنامج على تعزيز وتنمية الهوية الوطنية لجميع الأفراد، والوصول بها إلى استجلاء القيم الإسلامية والوطنية والإنسانية، وإظهار الخصائص النفسية الشخصية التي من شأنها تحفيز وقيادة الأفراد إلى سبل النجاح، ونشأة جيل متسق مع توجه المملكة من الناحية القيمية والاقتصادية والسياسية، كما يضع البرنامج نصب عينيه حماية الأفراد من المهددات الاجتماعية والأمنية والدينية والإعلامية والثقافية[١].

ونتفق مع وجهة النظر القائلة: إن رؤية ٢٠٣٠ أكسبت المواطنة المجتمعية رابطًا ثقافيًّا، وأثْرَتِ التمايزات الفرعية والاختلافات المناطقية إثراءً وطنيًّا كبيرًا؛ لدرجة لوحظ معها انبعاث الهوية الوطنية والشخصية السعودية المدعومة

---

(١) المرسال، تعزيز الهوية الوطنية السعودية ٢٠٢٢/١٢/٢٦م، البرنامج وضع خمسة عشر هدفًا مباشرًا، وعشرة أهداف غير مباشرة لتعزيز الشخصية الوطنية، الأهداف المباشرة.

بقوة الرؤية وشـموليتها وكفاءتها في عدم التمييز والقطيعة بين الأجيال الجديدة في انحياز للمستقبل واعتزاز بالسيادة والتراث[١].

---

(١) أهداف برنامج تعزيز الشخصية الوطنية المباشرة:

١ تعزيز قيم الوسطية والتسامح والإتقان والانضباط والعدالة والشفافية والعزيمة والمثابرة.

٢ غرس المبادئ والقيم الوطنية والقيم الإسلامية وتعزيز الانتماء الوطني.

٣ تعزيز حصانة المجتمع ضد المخدرات.

٤ تعزيز قيم الإيجابية والمرونة وثقافة العمل الجاد.

٥ بناء رحلة تعليمية متكاملة.

٦ تحسين تكافؤ فرص الحصول على التعليم.

٧ تعزيز وتمكين التخطيط المالي.

٨ تحسين جاهزية الشباب لدخول سوق العمل.

٩ التوسع في التدريب المهني.

١٠ المواءمة بين مخرجات التعليم واحتياجات سوق العمل.

١١ توفير معارف نوعية للمتميزين في المجالات ذات الأولوية.

١٢ تحسين ترتيب المؤسسات التعليمية.

١٣ تحسين مخرجات التعليم الأساسي.

١٤ العناية باللغة العربية.

أما الأهداف غير المباشرة في تعزيز الشخصية الوطنية فهي :

١ تعزيز مشاركة الأسرة في التحضير لمستقبل أبنائهم بما في ذلك التعليم وتنظيم الأسرة.

٢ تحسين الظروف المعيشية للوافدين.

٣ تحسين ظروف العمل للوافدين.

٤ استقطاب المواهب العالمية المناسبة بفعالية.

٥ رفع نسبة المستوى المحلي للقطاعات غير النفطية.

٦ المحافظة على تراث المملكة الإسلامي والعربي والوطني، والتعريف به ضمن تعريف القيم الإسلامية. =

ومـن نافـل القول أن التاريخ يلعب دورًا محوريًّا فـي تحديد الهوية - وبصورة أكثر دقة - نحن ننظر إلى التاريخ ونفسر أحداثه؛ لكي يساعدنا في رسم أبعاد الهوية والقيـم التـي تسـتند إليها، كما أننا لا نتعامـل مع التاريخ من الناحية السـردية التي تحكمهـا قواعد ومناهـج البحث التاريخي الصارمة التي يلتـزم بها باحث التاريخ، ولكننا نتعامل مع التاريخ من منظار الباحث المثقف الذي يرى أن الكتابة التاريخية هي محط تفاعل وتكامل مختلف العلوم الفاعلة في إنتاج الظاهرة التاريخية؛ حيث يوجد تفاعل بنيوي بين: (العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية).

ولا غرابة في أن علم التاريخ - على شموليته - أداة منهجية تمكن المؤرخ مـن إلقـاء الضـوء علـى مادة أي موضـوع في أي علـم من العلوم مهمـا تباينت الميادين وتنوعت واختلفت، وتسـتطيع وزنه والحكم عليـه، كالعلوم الطبيعية - علـى سـبيل المثـال لا الحصر، حيث «تبـرز للتاريخ قيمة أخـرى في ميادين أخـرى كالقانـون، وعلم اللاهـوت، والتجارة، والفلسـفة، والأدب، والفن، والعلوم الاجتماعية، وعلم النشـوء، وشـؤون السـوابق، والتجارب السـالفة، والبيئـة التاريخيـة، والمقابسـات الماضية، ومقارنة الأوضـاع... فالتاريخ - بلا شـك - هو التجربة المدونة للجنس البشـري، والإنسـان يستطيع أن يستفيد من التجربة في أي ميدان من ميادين المعرفة»[1].

= ⑦ زيادة مساهمة المنشآت الصغيرة والمتوسطة في الاقتصاد.
⑧ توطين الصناعة العسكرية.
⑨ توطين الصناعة الواعدة.
⑩ رفع نسبة المحتوى المحلي لقطاع النفط والغاز.
يوسف الديني، رؤية ٢٠٣٠ انبعاث الهوية والشخصية الوطنية، الشرق الأوسط ٢٧/ ٢/ ٢٠٢٣م.

(١) انظر: كيف نفهم التاريخ، تأليف: لويس جوتشـلك، ص ٤٣، ترجمة: عائدة سـليمان =

إذا كان الباحث المثقف مطالبًا بربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج للوصول إلى الرؤى الشاملة، فإننا في دراستنا هذه سوف نعتمد كثيرًا على علم الجغرافيا السياسية، وارتباط الأحداث التاريخية بالجغرافيا، وسنبحث في جذور المسببات؛ لأن من سمات الباحث المثقف التفكير الحرّ، والبحث في كُنْه الأسباب، مع التأكيد على أن دراسة التاريخ ليست سرديات وترسيمات أكاديمية حول المجتمع والثقافة، بل هي دراسة وجهد ثقافي يفرض على المثقف ربط العلمي بالاجتماعي والنقدي بالسياسي؛ لتقديم خلاصة التجربة الإنسانية التي شهدتها المجتمعات[١].

المثقف والهوية:

المثقف والثقافة، لغةً: مشتقان من مادة (ثقف) والتي تدل على الحِذْقِ، وسرعة الفهم، والفطنة والذكاء، وتسوية المُعْوَجّ من الأشياء[٢]، وأيضًا ثقف بمعنى جدَّد وسوّى، لأن الصفة الأساسية للثقافة هي التجدد والتطور المستمر. إن تعريف المثقف بصورة قطعية ليس بالأمر الهين بل العكس هو الصحيح؛ لأنه أمر في غاية التعقيد باعتباره مفهومًا أفرزته التطورات التاريخية العميقة عبر العصور والصراعات والجدالات الفكرية في المجتمعات.

فقد اتفقت المجتمعات - بصورة عامة - على أن الحد الأدنى من تعريف المثقف أنه «لا بد أن يكون مرتبطًا بالمجتمع القائم، متفاعلاً معه على المستويين

= عارف، وأحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الكاتب العربي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت/ نيويورك ١٩٦٦م.

(١) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت ١٩٩٢م، ص ٨٤-٩٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، مادة ثقف.

المحلي والعالمي»[١]؛ أي أن المثقف لا يقرأ النصوص فقط بل إن دوره هو النقد وفهم المعاني والاستنتاج، التذوق. كل هذه الأمور جعلت البعض يرفع في زمن الثورة العلمية والتكنولوجية مبدأ (الثقافة من أجل الحياة)، والمثقف - في المفهوم الاصطلاحي: هو ناقد اجتماعي همُّه أن يحدد ويحلل، ويعمل من خلال ذلك على تجاوز العوائق التي تقف أمام نظامٍ اجتماعي همُّه رفعة بلده والارتقاء به إلى الأَوْج، نظامٍ يحكم عليه كل من رأى تجاربه بأنه نظام أكثر إنسانية وأوفر عقلانية. ولاحظت إحدى الباحثات صعوبة دور المثقف في بلادنا وعمق الإشكالية الثقافية، وأن هذا مرده في الأساس إلى أن الثقافة لم تكن أصلاً من الأصول الفكرية المسؤولة عن هوية العقل الجمعي في ظل توفر النماذج الدينية. هذه الخلفية التاريخية تفسر التحفظ الذي يمارسه المجتمع على الجهود الثقافية في التحكم بالعقل الجمعي خوفًا على الهوية الدينية، واعتبار الثقافة منتجًا غريبًا يسعى إلى سلخ المجتمع عن هويته، وهي إشكالية موجودة[٢]، ويعمل المثقف والدولة على مواجهتها.

الثقافة كما عَرَّفَها مجمع اللغة العربية بالقاهرة أنها: «كل ما فيه استنارة للذهن، وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد، والحكم لدى الفرد والمجتمع». وتنقسم الثقافة إلى مستويات عدة البعض يرى أنها تقسيمات طبقية، مثل: (الثقافة العليا، الثقافة التراثية، الثقافة الجماهيرية، الثقافة الشعبية)[٣].

---

(١) للمزيد عن تعريف المثقف والثقافة، انظر: فضيلة سيساوي، محاولة لتحديد مفهوم المثقف، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثاني والخمسون، العدد الثاني، مايو ٢٠١٥م، ص ١١٥-١٤٧.

(٢) سهام القحطاني، المثقف وفوضى الهوية الثقافية، جريدة الجزيرة، ٢٠١٩/٢/١٦م.

(٣) للمزيد عن أنواع الثقافة وتقسيماتها انظر: طونى بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة (معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع)، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٠م، ص٢٢٥.

ويوجد أيضًا التعريف بالمعنى الفكري للثقافة ما ذكره (مالينوفسكي) أن الثقافة جهاز فعال ينتقل بالإنسان إلى وضع أفضل، وضع يواكب المشاكل والطروح الخاصة التي تواجه الإنسان في هذا المجتمع أو ذاك في بيئته وفي سياق تلبية الحاجات الأساسية. ويعرِّفها (رايت) أن الثقافة هي النمو التراكمي للتقنيات والعادات والمعتقدات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفراده[١].

مفهوم الثقافة المعترف به لدى قطاع عريض من العلوم الاجتماعية هو التعريف الإجمالي لتايلور منذ أواخر القرن التاسع عشر الذي يرى أن الثقافة هي: «ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والعُرْف، وما يكتسبه الإنسان من عادات وإمكانات باعتباره عضوًا في المجتمع»[٢].

اعتمدت وزارة الثقافة السعودية تعريفًا قريبًا من هذا، هو تعريف اليونسكو المعروف باسم إعلان مكسيكو للثقافة والذي أُقِرَّ في عام ١٩٨٢م، فالثقافة من منظوره «هي جميع السِّمات الروحية والمادية والعاطفية التي تميز مجتمعًا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وتشمل: الفنون، والآداب، وطرائق الحياة، والحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد»[٣]، وهو تعريف يتصل بالسياسة الثقافية وفكرة الحق الثقافي، مما أدى إلى أن الحراك الثقافي الذي

---

(١) معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم المعرفة الكويتية، عدد ١١٥، يوليو ١٩٨٧م، ص ٣٤-٣٥.

(٢) قباري محمد إسماعيل، علم الاجتماع الثقافي ومشكلاته الشخصية في البناء الاجتماعي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ١٨.

(٣) ومن خصائص الثقافة: أنها تنتقل من جيل لآخر، من خلال العادات والتقاليد والقوانين والأعراف، عملية النقل هذه تتم من خلال التعلم، مع إضافة كل جيل لما يكتسبه مما يطرأ على حياته من قيم ومبادئ وأفكار وسلوكيات جديدة، وهي قابلة للتعديل =

تعيشه المملكة والمجهودات الرسمية تغطي مساحة واسعة من الأنشطة والعلوم في مجال الثقافة؛ بحيث تغطي الجانب المعرفي والفنون بأشكالها المختلفة وقطاعاتها المتعددة مما أدى إلى إنشاء هذا العدد الكبير من الهيئات المتخصصة التي تشرف على هذه الأنشطة وتُشَرِّع لها.

إن الحراك الثقافي يكون مبنيًّا على درجة عالية من التفكير الحُرِّ مُنَحِّيًا الحواجز الفكرية والتفسيرات الضيقة لبعض المفاهيم الدينية الجامدة جانبًا، متخذًا من التيارات التنويرية والعقلانية - التي تتواءم مع ديننا وبيئتنا وتربيتنا - صوًى تهدينا إلى مشهد ثقافي يواكب العصر ويُحرِّك الراكد، ويلمّ الشعث، ويُوَحِّد الصف تحت لواءٍ واحدٍ يرى الثقافة والمعرفة خيرَ بابٍ للدخول إلى عالمٍ أفضلَ.

دور المثقف أن يوضح أبعاد هوية الجماعة أو الهوية الوطنية، وأن يستمر في ترسيخ تلك المفاهيم، وأنها ليست شيئًا ذا طبيعة إلهية، أو مُنَزَّلًا من السماء، وبعبارة أوضح: المثقف أمام رؤيتين للهوية: الأولى: عندما تتبنى بعض المجتمعات رؤية سكونية أو ماضوية، تعدُّ أن الهوية شيءٌ ناجزٌ بصورة نهائية، وهي رؤية ينبني عليها تصورٌ أيديولوجيٌّ سكونيٌّ ثابتٌ في تعريف الهوية. أما الثانية: فهي رؤية غير ساكنة؛ أي أن المجتمعات أو الثقافات عليها اكتساب هويتها باستمرار وتحديثها؛ لأن النموذج الأمثل للهوية - وفقًا لهذه الرؤية - هو نموذج مستقبلي[1].

= والتغيير من جيل لآخر، عادل شهيب، الثقافة والهوية – إشكالية المفاهيم والعلاقة، بحث ألقي في الملتقي الدولي الثاني حول مجتمع المخاطرة، مايو ٢٠٠٩م، جامعة جيجل، ص ٤.

(١) محمد سبيلا، فن تحولات المجتمع المغربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م، ص ٦٢.

وينبني على ذلك أنه لا بد أن نرى المثقف في عمل مستمر أمام مفهوم الهوية باعتبارها مأخوذة مِنْ (هو)؛ أي: جوهر الشيء؛ وعلى ذلك تكون هويةُ الشيء ثوابتَه القابلة للتجدد لا للتغير، وإذا ارتفعنا بهذا درجة أعلى فإن مفهوم الهوية [Identity] يكون بوضع (أل) لـ (هو) بما يرمي إلى معنى الاتحاد بالذات، ويصبح به مفهوم الهوية: أن يكون الشيء هو هو من حيث تشخصه وتحققه من ذاته مع تميزه عن غيره؛ ليتكوَّن بذلك وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري أو أي مجتمع منظم، بما يشمله من قيم وعادات ومقومات وتكيُّف ووعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها[١]. وفي بعد آخر، فإن الهوية لا بد أن تعمل لصالح الكمال والتماسك في ضوء العلاقة بما صار يعرف على أنه «الذات الجمعية بوصفها كيانًا منسجمًا متجانسًا، وأمة ذات جوهر مشترك»[٢].

الهوية الوطنية في العالم كله حاليًّا مهددة من «الغزو الثقافي والاقتصادي» في العصر الحديث باسم العولمة، والعولمة في المجمل لها عناصر أساسية، ومنها: «ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم، سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، أو في انتقال رؤوس الأموال، أو في انتشار المعلومات والأفكار، أو في تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم» ويرى العديد من المفكرين أن كل هذه العناصر يعرفها على استحياء العالم منذ عدة قرون وعلى الأخص منذ الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر[٣]، وحديثًا فإن العولمة تعمل بفعل التغيرات التكنولوجية على إعادة تشكيل المجتمعات[٤]، من هذا

(١) زينب إبراهيم، تعزيز الهوية الثقافية، ملتقى أسبار، ٢/ ١٢/ ٢٠١٧.
(٢) طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، مرجع سابق، ص ٧٠١.
(٣) جلال أمين، العولمة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ١٧.
(٤) جان نيدرفين بيترس، العولمة والثقافة (المزيج الكوني)، ترجمة: خالد كسروي، مراجعة: زهير الشايب، المجلس القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٢٤.

المنطلق فإن الهوية الوطنية تلعب دورًا مركزيًّا ومهمًّا في تقدم الأمم واستقرار المجتمعات وازدهارها، فبدونها تفقد الجماعات معنى وجودها واستقرارها وتطورها، والهوية الثقافية تحديدًا المتلازمة مع الهوية الوطنية هي ذات الفرد، بقيمها، وقواعد تربيتها من خلال المخزون الثقافي والمعرفي الذي يتشرّبه الفرد من الأسرة والمجتمع والأعراف والتاريخ والدين؛ لأننا نقصد بالهوية الثقافية تلك الآخذة بأسباب التقدم والتطور، الهوية الثقافية التي تضرب في الأرض بالعلم والمعرفة والتكنولوجيا، ونسعى إلى أن نربي النشء على حبِّ الانتماء إلى أوطانهم، والتجمع تحت لواء واحد، وحب المعرفة والتطور والسموّ إلى العلا، الهوية الثقافية التي نقصدها هي التي تعبد الله على بصيرة، فيظل إيمانُها ثابتًا ثبات جذور الأشجار في الأرض، ونفعُها عميمًا ينتفع به الناس، وهناك فرق بين التأثير والتأثر من الثقافات الأخرى من ناحية وبين طغيان ثقافة الغرب على الآخرين.

الهوية الثقافية إذن هي رؤية تصحيحية داخلية من مسؤولية المفكرين والمثقفين لإثراء المجتمع ثقافيًّا، وهذا بدوره سوف ينعكس في التعامل مع الخارج، هذه السمة تكتسب أهمية خاصة في عصر الإنترنت وثورة الاتصالات لمواجهة عدم الاندماج مع الآخر، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى ضياع الهوية الوطنية والمحلية.

والمسار الثقافي يحتاج في زمن فرط الاتصال مع الآخر صاحب الثقافة المادية الطاغية والباهرة إلى بناء عمودي وبناء أفقي بشكل ممنهج تكون الهوية الثقافية الوطنية حجر الزاوية فيه. مسألة الهوية تعدت نطاق البحث الفلسفي إلى المجال المعرفي، وأصبحت إشكالية تميز كل ثقافة بالذات، كما تعدت ذلك لتصبح أزمة تعيشها الجماعات الثقافية في صميمها. هذا لأن العولمة الثقافية هي أصل كل

الأشكال الأخرى للعولمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية؛ حيث إن الثقافة هي التي تهيء الأذهان والنفوس لقبول تلك الأنواع الأخرى. الثقافة عنصر أساسي في حياة كل فرد وكل مجتمع، وتكون الهوية هي التعبير الفعلي عن الشعور بالانتماء لأفراد كيان اجتماعي معين، وتشعر أصحابها بخصوصيتهم ورصيدهم المخزون من الخبرات المعرفية والأنماط السلوكية[١].

ومعروف أن المملكة العربية السعودية دولة ومجتمع عريق يضرب بجذوره في عمق التاريخ، سواء أكانت البلاد كلها، أو أقاليم محددة، أو مدن معروفة ساهمت جميعها في المسيرة الإنسانية؛ فمنها انبعثت مشاعل النور تهدي الكون كله، متمثلة في رسول الإنسانية وأصحابه الكرام الذين أخذوا على عاتقهم نشر الحق والعدل وبددوا ظلمات الجهل والتخلف. ما أعظم ديننا الذي ركز على العلم والمعرفة، وجعلهما ركيزة الدعوة حين قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾. وما أجلَّ رسولنا محمدًا ﷺ الذي ركز على أهمية العلم والمعرفة في الحياة فقال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب». ولا غرابة بعد ذلك أن يكون رسولنا رسولًا للدين والدنيا معًا؛ فهو القائل: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

الحراك الثقافي الذي تعيشه بلادنا، ورؤية ٢٠٣٠ ساهمت - بشكل جذري - في أن يعمل المثقفون في مختلف أفرع الثقافة، وأن يدرس المختصون قضايا تُعَمِّق الهوية الثقافية لمجتمعنا وأقاليمنا والمدن القديمة، وتؤكد عراقة بلادنا، وهي من الأدوات المهمة والضرورية - في الوقت ذاته - لإيضاح أبعاد هذه الهوية: التاريخ والجغرافيا، والعمل على حماية الهوية لبلادنا من التأثيرات

(١) محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية.. عشر أُطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٨، ١٩٩٨م، ص ٢٩٧-٣٠٨.

السلبية للعولمة والثقافة الكونية، وهما قِوَام هذا الكتاب، وعليهما تستند الدراسة.

إن البحث في الأحداث التاريخية التي شهدتها جدة وعلاقة ذلك بما حدث في المنطقة ليس الهدف منه إعادة السردية التاريخية؛ لأن لهذا التخصص علماءه المتخصصين فيه، وهم أصحاب كفاءة وإدراك؛ ولكننا ننظر إلى هذه الأحداث من منظار المثقف، ونستنطق التاريخ والجغرافيا؛ لكي نستنبط الأسباب وما أدّت إليه التطورات في ظل الغياب المعرفي عن تاريخ جدة وضعف الأدبيات التي كُتبت عنها وعن ثقافتها؛ علنا نتدارك بعض ما فاتنا. إلا أننا حرصنا على كتابة تفاصيل الأحداث التاريخية وأسباب حدوثها حتى لا يكون عرض الأحداث سطحيًّا.

إن وزارة الثقافة في المملكة وضعت رؤية واضحة تتمثل في (أن تزدهر المملكة العربية السعودية بمختلف ألوان الثقافة؛ للسموِّ بنمط حياة الفرد، والإسهام في تعريف الهوية الوطنية، وتشجيع الحوار الثقافي مع العالم).

هدف الكتاب ومنهجه

شغلت جدّة الدنيا وأثَّرت في أحداث الإقليم وساهمت في المسيرة الإنسانية بفعالية؛ بما حباها الله من هبات لا توجد في سواها، فهي ثغر المملكة العربية السعودية النابض من الناحية الغربية، وبوابة الداخل إلى المملكة من ناحية البحر الأحمر، سواء للتجارة أو لأداء فريضة الحجّ، كما أنها المدينة التي تعج بالتجارة منذ قديم، وهي مستقر للأساطير والخيال، لم تأت هذه الأهمية بالمصادفة؛ ولكن ساهمت الجغرافيا بشكل أساسي في صناعتها، وكانت المنطلق الحقيقي لاستقطاب العوامل التي أسلفنا الإشارة إلى بعضها والتي ساعدت في إيجاد هذه المكانة المتفردة، وأصبح لديها هوية ثقافية متميزة.

يهدف هذا الكتاب إلى ترسيخ فهم الأهمية المكانية لمدينة جدة، وكيف أنَّ موقعها الاستراتيجي على طريق التجارة العالمي (طريق الحرير، طريق البخور، طريق البحور)، وتفاعلها الإيجابي مع هذه الطرق علاوةً على الاستخدام العسكري والاستراتيجي لموقعها، كل هذا خَلَع على جدة أردان الأهمية الكبرى التي حظيت بها؛ حيث كان موقعها هو المحور الرئيس والمنطلق الأول لأنْ تستخدمها الدول الإسلامية الكبرى في تنفيذ الخطط الاقتصادية والتجارية والعسكرية في الإقليم، مع احتفاظها بنقطة الصدارة والقيادة الإقليمية لعصورٍ متعددة. من أجل هذا توسعنا في سرد تفاصيل الصراعات بين الدول والإمبراطوريات في المنطقة، وأسباب هذه الصراعات الدينية والاقتصادية لكي

تكون الصورة أعمق وأكثر وضوحًا، وندعم إثبات الفكرة الأساسية للبحث من خلال وحدة التوجه في الكتابة والاستشهاد بالأحداث على مر القرون بدرجة من الانضباط الأكاديمي التي تدعم هذه الفكرة الأساسية (الفرضية).

تفردت جدة أيضًا وبشكل متوازٍ بدرجة معينة من القداسة لقربها من مكة المكرمة باعتبارها الميناء والأرض الأولى التي تطؤها أقدام حجاج بيت الله الحرام بحرًا وجوًّا والطرق البرية كذلك، وباعتبارها من المناطق التي يعدُّ صلاحُها صلاحًا للمناطق التي تحوي المواقع الإسلامية المقدسة؛ مما أضفى عليها عمقًا روحانيًّا متميزًا. لم نتوسع في شرع وتوثيق الرافد الديني من ثقافة جدة؛ لأننا وثَّقنا في مؤلفات سابقة الحياة الروحانية في جدة بشكل مفصل، وهذا الكتاب يوضح إلى أي حد استطاعت جدة - بشكل متوازٍ - أن يكون لها أهمية كبرى في الإقليم، ليس فقط لارتباطها بمكة ارتباطًا روحانيًّا، ولكن لدورها الاقتصادي والعسكري والاستراتيجي، وتضافر البعدين على مر العصور في الحفاظ على هذه الأهمية، ولا يجوز أن نغفل عن أي من الدورين وأبعادهما، أما الاكتفاء بالقول إنها ميناء مكة فقط فإنه يجافي الحقيقة؛ لأن جدة لها مكانة وحياة خارج هذا الإطار منذ قرون طويلة، ومثلما أن سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - اختصها بمهمة أن تكون ميناء مكة فإن حادثة التجوير أعطتها الأهمية التجارية والتي تطورت لتكون وظيفة المركز في التجارة الشرقية والترتيبات الإستراتيجية في المنطقة في مرحلة لاحقة.

وسنتوقف عند أربعة منحنيات تاريخية أظهرت جدة وبرَّزتها، وأثّرت فيها والإقليم من حولها، وأسميتها الظهور؛ أي: ارتقاء وتألق جدة على ساحة الأحداث الإقليمية. وهي: الظهور الأول سنة ٢٦هـ عندما اختارها الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ميناءً لمكة، واغتسل في بحرها، وهذا

الظهور كان لأسباب دينية. أما الظهور الثاني: فقد كان سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م؛ لأسباب اقتصادية عندما أرسى الناخوذة (الرُّبَّان) إبراهيم السفن القادمة من الهند في ميناء جدة، ومن وقتئذ بدأت سياسة التجوير التي أحدثتها دولة المماليك لميناء جدة في عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م، ومنذئذ أصبح ميناء جدة في قلب التجارة الشرقية. الظهور الثالث سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م لأسباب عسكرية واستراتيجية عندما دخل الحجاز طوعًا تحت الحكم العثماني عندما قام شريف مكة (بركات) وأرسل ابنه أبو نمي لمقابلة السلطان سليم بعد نهاية حكم المماليك في مصر، واعتبرتها الدولة العثمانية القاعدة الغربية في حزام الأمن حول الحرمين، والقاعدة الإستراتيجية للانطلاق الحربي نحو اليمن والأقاليم المجاورة. أما الظهور الرابع فهو في العهد السعودي المبارك الذي اجتمعت فيه الأسباب السياسية والدينية والاقتصادية والإستراتيجية والرغبة في التطور والحداثة، وتداخلت الدوافع والأسباب؛ لهذا سطع نور جدة، وظهرت جوانب متعددة من شخصيتها، وسجل التاريخ عندئذ عمقها الديني والتجاري والعسكري والاستراتيجي. بعد انتهاء الكتاب سوف نرفق ملحقًا باسم ما بعد النص عن الخطوط العريضة لهذه المرحلة.

هذا الكتاب سوف يعتمد على علمي الجغرافيا السياسية والتاريخ معًا؛ حيث إن الاثنين من العلوم الإنسانية المتضافرة، والتي يكَمِّل أحدهما الآخر، فهما صنوان ينتميان لأصل واحد ويتغذيان من بيئة واحدة، وسوف نستطرد في إيضاح أبعاد الأحداث التاريخية ودلالاتها.

نأمل أن نستطيع في نهاية هذا الكتاب أن نتوصل إلى الملامح العامة للهوية الثقافية لشخصية مدينة جدة بعد إيضاح أبعاد الأهمية المكانية لجدة عبر القرون.

في البداية نقدم تعريفًا مبسطًا للجغرافيا السياسية ومنهج البحث المستخدم في الكتاب على النحو التالي :

الجغرافيا السياسيّة:

إذا كان علم الجغرافيا يُعنى بدراسة وتحليل الظواهر الطبيعية والبشرية في مختلف أرجاء العالم؛ حيث يتناول بالدراسة والتحليل كافة المكونات المادية للطبيعة، مثل: الأرض والمناخ، ويبحث في تأثير التفاعلات المتبادلة بين هذه المكونات على الأنشطة البشرية، كما يدرس المجتمعات البشرية وتغيراتها من حيث المكان والزمان. فالجغرافيا السياسية تأخذ هذا العلم خطوة أبعد من هذا، فهي تدرس العلاقة التبادلية الناشئة بين علم الجغرافيا وعلم السياسة والتاريخ؛ لأنه علم يهتم بإيجاد علاقة وثيقة بين نشأة موقع جغرافي محدد، وأثر عوامل سياسية عليه من حيث نشأته ومساحته وسكانه وكل ما يتعلق به؛ لهذا فهو مناسب لنا لفهم ظهور جدة في المراحل التاريخية المختلفة وتميزها وقدرتها على التأثير في حركة التجارة العالمية والتوسع الحربي للدول المختلفة.

وإذا نظرنا بصورة أشمل في أهمية اللجوء إلى علم الجغرافيا فحينئذٍ يتضح أن علم الجغرافيا متجدد وديناميكي؛ لأنه بعد الوصف وتعريف المكونات للمكان فإنه يعنى بمفاهيم أكثر عمقًا تتمثل في: القوة، والمعرفة، والتكوين المتغير، والعلاقات بين القوة والفضاء والمكان. فالجغرافيا بمفهومها الواسع تؤثر في خلق فضاءات إعادة الإنتاج الاجتماعي، والتعليم والثقافة، والتقاليد في كافة مناحي تطور الممارسة الاجتماعية؛ بحيث يمكن النظر لمفهوم المجتمع كنسيج يفرض نفسه على الزمان والمكان، وتتضافر معه جميع العمليات السياسية والاقتصادية، والحياة الاجتماعية والثقافية بشكل يؤدي إلى خلق علاقات بين

التخوم الجغرافية، وأشكال الممارسات الاجتماعية[١].

بالإضافة إلى ارتباطه الوثيق بعلم السياسة، فإن علم الجغرافيا السياسية يرتبط كذلك بدراسة التاريخ؛ حيث إن الأخير يدرس العلاقة بين ثلاثة عناصر، وهي: الزمان، والمكان، والإنسان، ويشترك بهذا مع الجغرافيا السياسية بعنصري الإنسان والمكان؛ لأن القضايا التاريخية للإنسان تحدث في مكان محدد يسجلها التاريخ، وتقترن بتطورات سياسية[٢].

علم الجغرافيا متجددٌ طَيِّع يستجيب للمتغيرات بطبيعته، ومثلما انبثقت الجغرافيا السياسية من علم الجغرافيا الكلاسيكي الوصفي، كذلك فإنه مع

---

(١) مثنى المزروعي، مدخل في الجغرافيا السياسية (محاضرات في الجغرافيا السياسية)، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٤٤٠هـ؛ تعدّ الجغرافيا السياسية علمًا أكاديميًّا حديثًا على الرغم من وجود بدايتها ومبادئها من أعمال أرسطو الذي تكلم عن حجم الدولة مقارنةً بأعداد السكان وغيرها من عناصر الدولة. وأضاف ابن خلدون لهذا العلم فكرة دورة حياة الدولة مثل الإنسان. على أن البداية الحقيقية لهذا العلم جاءت في كتاب العالم الألماني (راتزل) بعنوان: الجغرافيا السياسية في عام ١٨٩٧م، ويبحث في تأثير الجغرافيا على السياسة؛ أي الطريقة التي تؤثر بها المساحة والتضاريس والمناخ على أحوال الناس، والعكس صحيح؛ أي تأثير السياسة على الجغرافيا مثل: حفر قناة السويس عندما غير قرار سياسي الواقع الجغرافي.

انظر: علي أحمد هارون، أسس الجغرافيا السياسية، دار الفكر العربي للنشر، ١٩٩٨م، القاهرة، صفحات متعددة.

(٢) توجد أربعة مناهج رئيسة في علم الجغرافيا السياسية تساعد في دراسة المحيط السياسي من الناحية الجغرافية باعتمادها على المسح والتحليل، وهي:

- تحليل القوى الخاصة بالدولة أو الإقليم.
- الدراسة التاريخية.
- الدراسة المورفولوجية.
- الدراسة الوظيفية.

=

التطـورات السياسـية التـي تطرأ يومًا بعد يوم، أفرزت العقليـة الألمانية فرعًا في الدراسات الإستراتيجية حتَّم وجوده التوسع الألماني في العصور الحديثة؛ فبدأ في الظهور على السـاحة بعد انهيار الاتحاد السـوفيتي في التسـعينيات من القرن الماضي، ويعتمد عليها كثيرًا في الألفية الجديدة ألا وهو (علم الجيوبوليتيك)، ويقصـد بـه: (علـم سياسـة الأرض) بمعنى: أنه العلـم الذي يُعنى بدراسـة تأثير السـلوك السياسـي في تغيير الأبعـاد أو الحدود الجغرافية للدولـة، أو هو العلم الذي يجعل المكان مصدر قوة ودعم في المواقف السياسية؛ إذا كانت الجغرافيا السياسـية هـي علم وصفي تحليلي يعالج العلاقـات المكانية والحدود والموارد المتصلة بالدولة، فالجيوبوليتيك هو علم تحليلي متفرع من الجغرافيا السياسية، يركز على المصلحة العليا للدولة، ومستقبل حركتها السياسية الخارجية، ورسم خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة، وليس لما هو كائن.

وبعبارة أوضح فإن الجغرافيا السياسية تدرس الحقائق الجغرافية التي تسهم في تكوين كيان الدولة وسياساتها وشخصيتها، وتهتم بتحليل البيئة تحليلاً موضوعيًّا مع استخدام عنصر التاريخ في التحليل بوضوح. الجيوبوليتيك في الناحية الأخرى

= ويهمنا في دراستنا موضوع المكان وتأثيره الذي يظهر واضحًا في المنهج التحليلي، وضرورة دراسة عنصر المكان وعلاقات الموقع بما حوله؛ حيث يؤثر المكان على العلاقات الداخلية والخارجية للدولة؛ لأن هذا المنهج في جوهره هو منهج دراسة مقارنة عام يساعدنا على فهم المدينة، أو الدولة، أو الإقليم، أو مجموعة من الدول في منطقة واسعة. كما أن العامل الزمني له تأثيره المهيمن على المكان؛ بمعنى أنه يتداخل أكثر من منهج لفهم أبعاد الموقع الجغرافي، ويساعد البعد التاريخي في استخلاص قواعد جغرافية وبيئية تفسر نمو الأمم، وتطورها حقبة بعد حقبة، وعصرًا بعد عصر.

هذا التقسيم في المناهج يرجع إلى ريتشارد هارتسهون، وجاء في كتاب محمد رياض، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٢١–٢٧.

تضع تصورًا لحالة الدولة في المستقبل على ضوء المعطيات الجغرافية؛ حيث إن الجغرافيا هي الأساس في قوة الدولة وعلاقاتها الخارجية؛ مما يجعلها تتناول حركة الدولة وحيويتها في المحيط الدولي ومطالبها وأهدافها في السياسة الدولية[١].

في كتابنا هذا لن نستخدم علم الجيوبوليتيك ومناهجه؛ لأنه علم يُعنى بالمستقبل والمصالح المرتقبة فيه، غاية الأمر أننا نستخدم علم الجغرافيا السياسية لدراسة الموقع من منظار تاريخي ينتهي في مطلع القرن العشرين قبل دخول الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - إلى مدينة جدة في عام ١٩٢٥م، وأي إشارات إلى ما بعد ذلك فهي مختصرة وعَرَضِيه؛ لإثبات نقطة أو تأكيد ما ورد في نص الكتاب وفيما بعد النص. سوف نقدم الظهور الرابع لجدة الذي حدث في العهد السعودي.

سيكون اعتمادنا على المنهج التحليلي في دراسة الظواهر التاريخية في الكتاب والمنهج التاريخي الذي يساعدنا على استرجاع أحداث الماضي في إطار زمني/ مكاني محدد؛ لدراستها دراسة تحليلية نقدية؛ للخروج باستنتاجات منطقية تدعم وجهة نظر الكتاب.

وفي أجزاء أخرى سيكون اعتمادنا على المنهج المقارن، الذي سنفيد منه في النقد التحليلي في حالة مقارنة المصادر البرتغالية مع المصادر العربية فيما سطره التاريخ من بناء الأسوار حول جدة والدوافع لذلك، مع العلم أن بعض هذه المعلومات كُتِبَ باللغة البرتغالية القديمة واللغات الأوروبية الحديثة.

---

(١) نوال هاشم، محمد المعيني، ما بين الجيوبوليتيك، والجيوستراتيجية (دراسة في اختلاف المفاهيم)، المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية، المجلد الرابع، العدد الثاني، ٢٠٢٠م، ص ٤٣١-٤٥٣.

كما يطيب لنا أن نوضح أننا اعتمدنا في هذا الكتاب على مصادر أصيلة ومراجع معروفة، بالإضافة إلى وثائق وخرائط من الأرشيفات العثمانية والإنجليزية والبرتغالية، وصور فوتوغرافية تاريخية لمناطق في جدة للتوثيق؛ لأن هذا النوع من الوثائق يعتبر جزءًا من التاريخ الذي نوثقه.

المرحلة التي يتعرّض لها كتابنا طويلة، تشمل قرونًا من الزمان فيها من الأحداث الشيء الكثير، ومن المراجع ما تنوء بحمله المكتبات، وليس في مقدورنا إلا أن نأخذ المقتطفات من هذه الأحداث ونرتبها زمنيًّا؛ لإبراز الأهمية المكانية لمدينة جدة وعدم الاكتفاء بمقولة ميناء مكة؛ لأنها غير كافية وغير صحيحة، ونعمل على إثبات فرضية أن الأهمية المكانية لجدة ذات أبعاد جغرافية واستراتيجية وإنسانية متداخلة، وحيث هذه الأحداث كثيرة ومتداخلة ولهذا هناك حاجة للعرض التفصيلي عن البيئة العامة التي اتخذت فيها قرارات مفصلية أثرت على جدة، وتوثيق ذلك باستخدام المنهج التحليلي، ودور المثقف أن يدرس ويتأمل ويفكر بصورة مستقلة في أحداث التاريخ؛ ليستنطقها ويستفيد منها، وعلى المثقف أيضًا أن يسعى لربط العلمي بالاجتماعي والنقدي بالسياسي، وأن يدمج بين القضية التاريخية والمسائل الاقتصادية والثقافية وغيرها، ويستخدم مخرجات العلوم كلها لتحليل الظاهرة التاريخية وفهمها استنادًا إلى القناعة بأن هناك تفاعلًا بنيويًّا بين مجالات العلوم الثلاثة (العلوم الطبيعية، العلوم الإنسانية، العلوم الاجتماعية).

والمثقف مطالب أيضًا أن يفكر بصورة مبتكرة ويبتعد عن التكرار في الأفكار والمراجع، ولا يُسلِّم بكل ما يسمع وبالأخطاء المنتشرة في الثقافة الدارجة والمراجع القديمة، ولكنه مطالب بأن يفكر خارج الصندوق، ويستخدم معرفته العميقة في المجالات المختلفة لخدمة هدفه، وهو مطالب أيضًا أن تكون

لديه القدرة على التفكير العميق وربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج للوصول إلى التصورات الشاملة، ومن ثم القدرة على عرضها بالشكل الذي يجعل الآخرين يقتنعون بهذه الطروحات[١] بالتبعية فإنه يتمتع بشيء من الحرية الأكاديمية في تحرره من الضوابط الأكاديمية الصارمة في المنهج؛ لأنه يدمج عددًا من المناهج، وهذا لا يعفيه طبعًا من التوثيق السليم للمراجع المستخدمة.

لذلك فإن اعتمادنا بصورة أساسية على استخدام المنهج التحليلي، وبدرجة أقل على المنهج المقارن لا يعني عدم الاستفادة من مناهج أخرى متاحة مثل: المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي لاسترجاع أحداث الماضي وتوثيقها، ومن ثم استنباط الأحداث.

وشرعت في تأليف هذا الكتاب بعد كتابي: (جدة وعبقرية المكان صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية)، والذي اعتمدت في منهجه على الجغرافيا الشاملة، ونسق عبقرية المكان الذي تتداخل فيه علوم الجغرافيا والتاريخ والإنثروبولوجيا وحتى الفن؛ لاستخراج بعض ملامح شخصية جدة وتكوينها الثقافي، كما أن النقاشات العلمية، والمقالات الصحفية، والندوات التي حدثت حول هذا الكتاب كانت حافزًا لإبراز عامل الجغرافيا السياسية وحدها في إظهار أهمية جدة المكانية؛ ولهذا جاء هذا الكتاب يفسر ويوضح لغير المختص انعكاس هذه الأهمية المكانية على دور جدة الإقليمي وعلى شخصيتها الثقافية؛ لذا سوف يكون الاستشهاد بهذا الكتاب متكررًا باعتبار الكتابين ينتهجان منهجًا واحدًا مع الاعتماد أكثر على السرد التاريخي في هذا الكتاب بشيء من التفصيل.

في هذا الكتاب وضوح في الفرضية ووحدة في التوجه العام للبحث نحو إثبات وإيضاح الفكرة الأساسية.

---

(١) محمد عبد الرحمن صادق، شبكة الألوكة، ثقافة ومعرفة ٢٠١٧/١٢/٢٨م.

ينتهي الكتاب - كما تقدم - مع مطلع القرن العشرين، ونهاية مملكة الحجاز قبل دخول الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - إلى جدة في عام ١٩٢٥م. ثم تأتي مرحلة ما بعد النص التي سنذكر فيها الظهور الرابع لمدينة جدة، والذي جاء في العصر السعودي وتضافرت أسبابه، وقاعدة هذا الظهور الاعتماد على الاستقلال الوطني والدعوة الإسلامية الصحيحة إلى تسهيل قدوم الحجّاج وأمنهم. ابتداءً من التنمية الاقتصادية استنادًا إلى العلم الحديث وانتهاءً إلى التنمية البشرية؛ ممَّا أعطى الظهور الرابع صفة الاستدامة والتطور وبناء الوطن والسعي على الطريق نحو المستقبل على أسس عميقة؛ حيث أينعت البذور التي غرست في العهد المبارك ونشاهد شيئًا من ثمارها في الألفية الجديدة وما وصلت إليه جدة في العلم والرقي والتقدم، والقادم أجمل وأرقى.

وحالي كمال قال شاعر جدة أحمد قنديل:

أَنَا ابْنُ جِدَّةَ أَيَّا كَانَ مَوْقِفُهَا مِنَ الحَيَاةِ.. وَأَيَّا صَارَ مَعْنَاهَا
لَا.. لَنْ أُفَرِّطَ يَومًا فِي مَحَبَّتِهَا لَنْ يَخْرُجَ الضِّفْرُ مِنْ لَحْمٍ بِهِ تَاهَا

قمت في أثناء إعداد هذا الكتاب بزيارات ميدانية إلى مكتبات ومتاحف في أوروبا وتركيا ومصر، وتجمع لدي قدر هائل من المعلومات، استخدمت جزءًا منها في هذا الكتاب، بالإضافة إلى المراجع التقليدية الموثقة، واعتمدت الأسلوب الأكاديمي في التوثيق، وابتعدت عن الاسترسال.

وقد كان للمناقشات العلمية مع بعض الأصدقاء الأكاديميين دورٌ مهمٌّ في تطوير الأفكار الواردة في الكتاب خاصة الأستاذ الدكتور عبد المنعم العدوي الذي قرأ الكتاب وقدم نصائح مهمة، والدكتور رزق نوري، وفريق العمل في المكتبة المكية تحت إشراف ابن عمي الشيخ غسان بن مظهر نويلاتي. كما

أعانني مترجمون أفاضل نقلوا لي عن اللغات البرتغالية القديمة، وعن الفرنسية وغيرها.

أتقدم لهؤلاء وغيرهم بالشكر الجزيل والعرفان، وأن ما ورد في هذا الكتاب يمثل أفكاري وجهودي، وأتحمل مسؤولية ما جاء فيه من معلومات وآراء، فإن أصبت فمن الله، وإن زلَّ القلم فمن نفسي ومن الشيطان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أولاً:
أهمَّيَّة البحر الأحمر

بـرزت أهمية جـدة المكانية بصورة أساسـية لوقوعها علـى نقطة المنتصف تقريبًـا مـن البحـر الأحمر، وكأنها نقطـة المركز على عاتق الميزان - كما سـبق القـول - ولـذا مـن الضـروري فهم أهميـة البحر الأحمـر هذا مع نبـذة تاريخية مختصرة جدًّا عن دوره في القرون الماضية.

تكـوَّن البحر الأحمـر في الحقبة الأيوسـينية في الزمـن الجيولوجي الثالث منذ حوالي أربعين مليون سنة؛ حيث كان عبارة عن منخفض مغلق أشبه ببحيرة غيـر متصلـة مائيًـا بخليج العقبـة، ولكن في عصر الميوسـين الـذي يرجع إلى حوالي ثلاثين مليون سـنة اتصل بالبحر الأبيض المتوسـط، وفي مرحلة لاحقة تعرضـت مصر لحركـة ارتفاع مصحوبة بالتواءات وانكسـارات نجم عنها فصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض المتوسط[١].

ظلت العلاقة بين هذا البحر وأهل الجزيرة العربية قوية عبر التاريخ، وتأثرت المجتمعـات في الجزيرة بما يحدث من اسـتقرار أو اضطـراب في هذا البحر؛ وارتبـط ازدهـار الحضارة في شـبه الجزيرة العربيـة بحركة التجارة بين الشـرق والغـرب مـن خلال هـذا البحر. تضعف الحضارات بل وتنهـار إذا ما تدهورت الحركة التجارية مرورًا وعودة عبر هذا العملاق؛ لأن الدويلات داخل الجزيرة

(١) مهـدي محمـد علـي، جغرافية البحـار والمحيطـات، دار الكتب، جامعـة الموصل، ١٩٨٢م، ص ٢٦١-٢٦٤.

كانت تستفيد من هذه التجارة، إما على شكل المكوس على السفن أو الإتاوات على القوافل المارَّة في أراضيها مقابل الحماية، ولذا إذا اضطربت التجارة أو اختلت موازين العمل التجاري في البحر الأحمر تخرج القبائل من البوادي لتُغِيْر على الحواضر الكبرى والدويلات، وتوقع بها القتل والنهب. ولم تقتصر أهمية البحر الأحمر على التجارة بين الشرق والغرب فقط؛ ولكن كان البحر الأحمر جزءًا من الطريق الذي حمل إلى العالم القديم مبادئ الاتصال الفكري؛ حيث إن الحركة من الهند وبلاد العرب وبلاد البحر المتوسط منذ الرومان يسيطر عليها الشاطئ الجنوبي الغربي للبحر الأحمر كما رسمه البطالمة[١].

اختلف المؤرخون في تسمية البحر الأحمر اختلافات كثيرة عبر العصور، ومن أشهر هذه التسميات عند الجغرافيين العرب، كالإدريسي، وابن حوقل، وناصر خسرو: «بحر القلزم»، ويسمى في الحضارة المصرية القديمة بـ «البحر الأخضر». ويسميه الهمداني بـ «بحر الحجاز». وعند الإغريق يطلق عليه: «أرثيريان». وأُطلق عليه: «بحر إيلة». وسمي مؤخرًا بـ «البحر الأحمر»؛ وذلك لوجود طحالب ذات لون يميل إلى الحمرة في شماله، وقيل: سمي بذلك لانعكاس لون الحمرة من الشعاب المَرجانية الموجودة فيه بكثافة. إلى هذا الحد ظل الاختلاف حول اسمه على مرّ التاريخ[٢].

كتب الجغرافيون المسلمون عنه بالتفصيل؛ لأهميته وتأثيره على بلاد المسلمين، فقد وصفه الإدريسي بـ «أنه بحر صعب المجاز.. وآفاته كثيرة في المراكب، والمسافرون في هذا البحر يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع

(١) طارق أحمد شمس، الشرق على طريق البحر الأحمر، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٩م، ص ٢٩ وما بعدها.
(٢) مهدي محمد علي، المرجع السابق، ص ٦٠.

يسكنون فيها، ويلجأون إليها خوفًا من معاطبه، وينزلون بها نهارًا... وهو بحر مظلم كريه الروائح، وحش الجزائر، لا خير في ظاهره ولا باطنه، ليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ النفيس، وفي جباله الجواهر... وجميع ما يقع إلى بحر القلزم من العنبر، فإنما هو ممَّا شذ إليه من بحر الهند»[١].

ويصفه المقريزي: بأنه «بحر الظلمات؛ لتكاثف البخار المتصاعد منه، وضعف الشمس عن حله فيغلظ وتشتد الظلمة، ويعظم موج هذا البحر، وتكثر أهواله، ولم يوقف من خبره إلا على ما عرف من بعض سواحله، وما قَرُب من جزائره... عنيف الرياح، شواطئه مجدبة خالية من المأوى، يحتاج المسافر فيه إلى دليل محنك، ولا بدَّ فيه من إلقاء المراسي في الليل»[٢].

أ - التاريخ القديم:

منذ فجر التاريخ والبحر الأحمر يعتبر من الممرات البحرية الرئيسة التي استخدمت لأغراض التجارة والتواصل الإنساني بين الشعوب، وبالتوازي استُخدِم كساحة للصراعات الدولية بين الإمبراطوريات القديمة، وعلى سبيل المثال:

اعتمدت الحضارة الفرعونية على هذا البحر للوصول إلى بلاد «البونت» في عهد الملكة حتشبسوت، وهي رحلة مهمة في التاريخ المصري القديم ولها دلالات عميقة، ومنها تأسست علاقات تجارية منتظمة بين مصر وبلاد البونت (الصومال) منذ الأسرة الخامسة (٣٥٠٠ ق م – ٢٥٠٠ ق م)، أما استخدام

---

(١) محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، الجزء الأول، ص ١٣٧.

(٢) تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ص ٩٤.

الفراعنة للبحر الأحمر للأغراض العسكرية، فقد تم في عهد الملك سنوسرت الثاني للوصول إلى بلاد «زيمت»، وفي عهده تم ربط البحر الأحمر بالنيل من خلال قناة[١].

شهد البحر الأحمر استخدامًا مكثفًا في عهد البطالمة، ذلك العهد الذي شهد إعادة فتح القناة عند بلدة السويس، وأسسوا فيه ميناءً على رأس خليج السويس باسم (أرسينوي)، وكان هدف البطالمة من حفر هذه القناة ربط النيل بالبحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق النيل؛ لتتمكن السفن القادمة من البحر الأبيض المتوسط من اليونان وأوروبا من الدخول إلى نهر النيل، ثم إلى البحار والمحيطات من ورائه؛ لنقل بضائع البلاد الحارة، والعودة بحاصلات وبضائع آسيا وأفريقيا إلى أوروبا[٢].

مَكَّنت هذه القناة البطالمة من الوصول إلى أسواق شرق أفريقيا وآسيا، وبُني من الموانئ برينيكي أو رأس بناس، وميناء هرموس أو أبو شعر حاليًّا، وكانا يتواصلان مع الموانئ العربية من الجهة الأخرى، وأشهرها: جدة، والوجه، وينبع؛ لأن البطالمة كانت لهم محطات ووقفات في البحر الأحمر حتى جزيرة سوقطرة، وحقيقةً أن الدولة التي كانت تسيطر على مصر بالتالي كانت تهيمن على البحر الأحمر ابتداءً من الفراعنة مرورًا بالبطالمة، ثم الرومان، ثم البيزنطيين (الرومان الشرقيون) إلى أن ظهرت الدولة الإسلامية في القرن السابع الميلادي[٣].

---

(١) محمد خميس الزوكة، جغرافية البحر الأحمر، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٩–١٠.

(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م، مجلد ٧، ص ٢٦٧.

(٣) محمد غلاب، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني عصر ما قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م، ص ١٩٣.

ولما جاء عمرو بن العاص - رضي الله عنه - واليًا على مصر أعاد ربط البحر الأحمر بنهر النيل. يقول المقريزي في ذلك: «أن عمرو بن العاص جدد حفره لمَّا فتح مصر، وأقام في حفره ستة أشهر، وجرت فيه السفن بحمل الميرة إلى الحجاز، فسُمِّي خليج أمير المؤمنين، يعني: عمر بن الخطاب ﷺ، فإنه هو الذي أشار بحفره، ولم تزل تجري فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم»[١] وكانت هذه التطورات الخطوة الأولى في طريق نشاط الدولة الإسلامية اقتصاديًّا وتجاريًّا؛ لأن هذه القناة لعبت دورًا خطيرًا في نقل السلع من مصر عبر القلزم إلى ميناء «الجار»[٢] التابع للمدينة المنورة، وعلاوةً على ذلك ربط هذا الخط البحري بين مصر والحجاز حتى أصبح الممر الوحيد للحجَّاج، ولم يقف هذا الممر المائي عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن قصده التجار الأوروبيون؛ ليصلوا عبره إلى ميناءي «جدة» و«عدن» في أثناء سفرهم وعودتهم من بلاد الهند، حتى ظهرت الدولة الفاطمية في مصر.

وإذا اتجهنا جنوبًا فسوف نجد الدولة الحميرية قد تحكَّمت في باب المندب منذ عام ٣٠٠م إلى أن تعرّضت اليمن إلى هجوم من الأحباش عام ٥٢٥م، وتحولت اليمن إلى ساحة صراع بين الفرس والرومان من جهة وبين الأحباش من جهة أخرى، وانضمت اليمن إلى دولة الفرس بعد أن استنجدت بكسرى، ثم أصبح البحر الأحمر ساحة صراع بين فارس الزرادشتية من جانب، وبين بيزنطة المسيحية تعاونها الحبشة المسيحية من جانب آخر، واستمرت هذه الصراعات على خلفية أنه عندما أنشأ البطالمة خطًّا شبه منتظم للتجارة بين خليج عدن وشرقي البحر المتوسط قابله هيمنة الفرس على طريق الملاحة، لم

---

(١) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ١/ ١٣٥، ط دار الكتب العلمية.

(٢) يسمى اليوم: الرايس.

يكـن ذلك في مصلحة مملكة أكسـوم وعدولي وبيزنطة؛ لهذا عمدوا إلى نشـر النصرانية وبناء الكنائس؛ فقد حاربت مملكة أكسـوم الحبشـية طويلاً في البحر الأحمـر، وهاجمـت جـدة ونهبتها من أجل الحفـاظ على التفوق الحبشـي في جنوب البحر الأحمر، وذلك في عام ٧٠٢م.

ولاحقًا ردَّ عليهم المسـلمون بأسطول سـيطر على الموانئ الحبشية، وأقام قواعد في «جزر دهلك» قبالة «مصوع»، ثم اسـتجمعت القوات الحبشـية قواها لاحقًا؛ فاسترجعوا الأقاليم الساحلية وخاصةً ميناء «مصوع» و«أرخبيل دهلك»؛ ولكـن فـي نهاية القرن العاشـر خرجت قوة إسلامية كبيرة من اليمن اسـتطاعت اسـترجاع «مصـوع» و«زيلـع» و«أرخبيـل دهلـك»، وتحول البحـر الأحمر إلى بحيرة إسلامية لا تدخله السفن الأجنبية حتى ظهرت الأساطيل البرتغالية[١].

ب ـ جدة في صدر الإسلام (الظهور الأول):

وُجِدَت جدة منذ العصور السحيقة؛ وقد وَثَّقت الحفريات ودراسة النقوش أن جـدة والأوديـة المحيطـة بهـا قد عَرَفت أشـكالاً مختلفة من الاسـتيطان منذ العصر الأشولي الذي يقدر حدوثه بحوالي مئتي ألف سنة، وكذلك في العصور الحجرية الثلاثة.

كانت طبيعة الحياة بجدة في تلك العصور مرتبطة بالدورة المناخية السائدة آنئـذ؛ حيث كانـت الجزيرة العربية خضراء وبها بحيرات وأنهار، وهذا يشـمل العصر الأشـولي، ويستمر إلى المرحلة الموسـتيرية في منطقتي «بحرة» وموقع فـي «وادي فاطمـة» في العصر الحجري الوسـيط، تشـهد بذلك آثار حول جدة ترجع إلى العصر البرونزي، وظلت جدة مستقرًّا وممرًّا إلى مناطق أخرى داخل

(١) عبـد الـرؤوف رهبـان، الملاحـة والتجارة بين الشـرق والغـرب القديـم.. أهمية البحر الأحمر، مجلة دراسات وأبحاث في التاريخ، ٢٠٠٩م.

الجزيرة العربية[١].

لا يوجد توثيق واضح لفترة ما قبل الإسلام مباشرة عن جدة والحياة فيها، وربما لم تكن أكثر من قرية للصيادين؛ في ضوء توثيق عبد القدوس الأنصاري، وكانت «الشُّعَيْبَة» هي ميناء مكة المكرمة، ولكن - حسب النص الذي أورده ابن فهد - فإن أهل مكة طالبوا الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بأن يغير «الشُّعَيبة» ويجعل جدة هي ميناء مكة المكرمة، وبالفعل أخذ الخليفة الراشد هذا القرار بعد أن اغتسل في بحر الأربعين، وقال: هذا بحر مبارك، حدث ذلك سنة ٢٦ للهجرة، ونص ابن فهد: «كلَّم أهل مكة الخليفة عثمان - رضي الله عنه - أن يُحَوِّل الساحل من الشُّعيبة... وقالوا: جدة أقرب إلى مكة وأوسع، فخرج عثمان - رضي الله عنه - إلى جدة ورأى موضعها فَحَوَّل الساحل إليها، ودخل البحر واغتسل فيه، وقال: إنه مبارك، وقال لمن معه: ادخلوا ولا يدخله أحد إلا بمئزر، ثم خرج من جدة على طريق يخرجه على عسفان»[٢].

قبل قرار الخليفة الراشد لم يكن هناك تاريخ مُوَثَّق لجدة في صدر الإسلام إلا بعض الروايات المتناثرة هنا وهناك، والموجودة بكتب التاريخ، وتدل على صغر حجم جدة ومحدودية تأثيرها في الأحداث.

ذُكِرت جدة في السيرة النبوية بشكل عَرَضي في حادثتين: الأولى ذكرها ابن سعد في «الطبقات»: أنه عندما أُسِرَ نوفل بن الحارث في غزوة بدر قال له

---

(١) نورمان م. والين، جمال سراج علي، محمد بدين، حسن عثمان سندي، مجموعة من المواقع في جدة ووادي فاطمة، مجلة أطلال، عدد ١١، وزارة المعارف، الرياض، ١٩٨٨م، ص ٩٣ وما بعدها.

انظر أيضًا: محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان، مرجع سابق، ص ١٢٧-١٧٤.

(٢) ابن فهد النجم عمر، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٠.

الرسـول ﷺ: «افد نفسـك يا نوفل برماحك التي بجدة»، قال نوفل: أشهد أنك رسول الله؛ لأنه لم يكن أحد يعرف بأمر هذه الرماح غيره.

والثانيـة في سـيرة ابن هشـام: «وفي يوم الفتح حيث هـرب صفوان بن أمية إلى جدة، يريد ركوب البحر منها إلى اليمن، ولكن اسـتأمن له عُمير بن وهب الجُمَحِيّ رسـول الله، فأمَّنه الرسـول ﷺ، وأعطاه عِمَامته آيةً؛ فدخل فيها مكة آمنًا».

وأظهر الخليفة الراشـد عثمان بن عفان - رضي الله عنه – جدة على غيرها من البلاد؛ لتميزها الجغرافي، واعتبرها ميناء مكة وبوَّابة الحجيج إلى الحرمين الشـريفين من ناحية البحر، ومن هنا بدأت قصة جدة وتأثيرها في محيطها وفي الإقليم بأسره؛ فانعكس عليها الكثير من قبس مكة وقدسيتها[١].

(١) يوجد أكثر من توثيق لطريق الهجرة النبوية الشـريفة، وقد خرجت في رحلة ميدانية مع مجموعة علمية باسم (فريق أثر) الذين وثقوا أن الرسول ﷺ أمضى أول ليلة في وادي العيينـة مـن أودية جدة وصولًا إلى عسـفان إلى مدخل الغولاء. وفـي العصر الحديث الموقع إلى يمين مستشفى الحرس الوطني. وبانتظار طباعة أعمال فريق أثر كاملة.

ثانيًا:
ظهور الأهميَّة المكانيَّة لجدَّة عالميًا

تمهيد[١]:

دخل المشرق العربي حروبًا مصيرية حين تداعت عليه الممالك الصليبية، تحت الراية البابوية، في حروب وصفوها بالمقدسة، وذلك بحُجّة حماية طرق الحجيج في طريقهم إلى الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، وكانت حروبًا طاحنة، لها أهداف اقتصادية واستعمارية ودينية متداخلة غير الأسباب التي أعلنوها، واستمرت تلك الحروب قرنين من الزمان (١٠٩٥–١٢٩١م).

الدولة الإسلامية الرئيسة في المواجهة كانت هي الدولة الأيوبية في مصر التي وضعت الخطط؛ لتأمين المشرق العربي قبل تحرير بيت المقدس، وبصورةٍ خاصَّةٍ تأمين اليمن والشام والحجاز، خاصةً أن الصليبيين اختاروا مهاجمة طرق الحجّ الإسلامي القادم من الشام، واعتبروا البحر الأحمر جزءًا من مسرح الصراع مع المسلمين؛ حيث هاجم «بلدوين» – أحد القادة الصليبيين - شمال البحر الأحمر، واستطاع الاستيلاء على موقع «الشوبك»، وهي قلعة حصينة في أطراف الشام، أقام عليها حصنًا، ثم استولى على منفذ على خليج العقبة ١١١٥-١١١٦م، وهدد التجارة في البحر الأحمر وطريق الحجيج المسلمين من الشام إلى مكة، واتبع سياسة الحصار الاقتصادي ضد دول البحر الأحمر

(١) الإطار التاريخي للمنطقة قبل الظهور الثاني لجدة وفهم صراعات الإقليم، وكيف تهيأت الظروف لإظهار جدة.

الإسلامية. أمام هذا التهديد الذي بات قريبًا من الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز، سَخَّرت الدولة الأيوبية جهودها للسيطرة على المناطق الساحلية المطلة على البحر الأحمر؛ للاستفادة من مواردها الاقتصادية والبشرية في الجهاد ضد الصليبيين، وصَدِّهم عن استخدام البحر الأحمر؛ حتى لا يتمكنوا من تهديد الأماكن المُقَدَّسة الإسلامية، وفي مرحلة تالية بدأت الدولة الأيوبية في التوسع في بلاد النوبة والسودان في عام ١١٧٢م. أما فيما يخصّ أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية في بلاد اليمن فلم تكن استراتيجية الأيوبيين بعيدة عنها؛ لتأمين البحر الأحمر؛ حيث أرسلوا حملة بقيادة توران شاه في عام ١١٧٤م، وقضى على دولة آل مهدي وأمَّن البوابة الجنوبية للبحر الأحمر، واستمر الوضع على ذلك حتى جاء نور الدين عمر بن رسول في عام ١٢٣١م فأعلن قيام الدولة الرسولية، وتلقب بالملك المنصور، وأصبحت الدولة الرسولية تعتمد في دخلها على التجارة في الموانئ اليمنية مع طموح سياسي في التمدد والانتشار[١].

توثق كتب التاريخ أنه كانت هناك طموحات عريضة لملك الدولة الرسولية؛ حيث أراد السيطرة على الحرمين الشريفين لما لهما من أهمية إسلامية رمزية، وكذلك لاعتبار أن الحجاز خط الدفاع الأول عن اليمن عسكريًّا، واستطاع المنصور الرسولي السيطرة على مكة فعلًا من ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حتى ٦٣٧هـ/١٢٣٩م؛ ولكن لم يهدأ القتال ولم تتوقف المواقع الحربية بين القوى المحلية المتناحرة، وطفق كل طرف من هذه الدول يدعم فريقًا من المتصارعين من القوى المحلية؛ بما يتماشى مع مصالحه وأغراضه، وبصعود

(١) شهلا بنت سعد الخالدي، الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر في العصر الأيوبي، ١١٧١–١٢٥٠م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م، ص ٤٧-٥١.

المماليك لسدة الحكم بمصر بعد الأيوبيين حدث تغيير جوهري في الحكم؛ حيث عمل المماليك على إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة مع الحرص على السيطرة على الأراضي الحجازية؛ لذا أصدر السلطان المملوكي رسالة تهديد صريحة إلى ملك الرسوليين يحذره من الاقتراب من حكم الحجاز أو المنافسة عليه[١].

مع استقرار الأوضاع في بلاد الحرمين قام الظاهر بيبرس بالحجّ ٦٦٧هـ/١٢٧٩م؛ وكانت زيارته للحرمين، وكساؤه للكعبة المشرفة، وتعيينه شمس الدين مروان نائبًا عنه على الحجاز، وسيطرته على مسألة إمارة مكة فلا يُعيَّن أمير مكة إلا بتفويض منه، وضربه النقود باسمه، ودعمه للحجاز بالغلال والأغذية في أوقات الجفاف والقحط، وحرصه على تأمين الحركة التجارية، وضبطه للأمن هناك، كل هذه الأمور أدت إلى تمكن وثبات وركانة دولة المماليك عسكريًّا واقتصاديًّا؛ ظهر ذلك بوضوح في دولة المماليك الثانية التي شهدت صراعات كثيرة في الحجاز بين القوى المحلية المتناحرة، وفي أثناء تلك الزيارة فكر الظاهر بيبرس في استخدام الاقتصاد للقضاء النهائي على الدولة الرسولية في اليمن، والاستفادة من تحوّل طرق التجارة العالمية التي تمرّ في المنطقة بوضع جدة في قلب الإستراتيجية الاقتصادية لدولة المماليك[٢]، وهذه الزيارة هي ما يهمنا لأنها وضعت التصور الاستراتيجي لجدة والمنطقة.

---

(١) تقي الدين أحمد المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٩٢.

(٢) حسن محمود مقابلة، الرسوليون والمماليك في الحجاز، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، سنة ٢٠٠٠م، ص ٤٣–٦٥.

يمكن تلخيص أسباب الصراع بين المماليك والرسوليين إلى مزيج من الأسباب الدينية والسياسية، أهمها: حرص المماليك على الحصول على الشرعية من الخلافة العباسية، لا سيما أن أصولهم غير عربية؛ فأرادوا بتلك الشرعية أن يلبسوا دولتهم ثياب الدين الإسلامي دعمًا وتثبيتًا لأركان الحكم المملوكي، ومن مقومات ذلك: السيطرة على الحرمين الشريفين، وأن يتم الدعاء لهم على منابرها. ازداد الصراع مع الدولة الرسولية، لا سيما بعد وفاة السلطان قلاوون؛ حيث امتنع الملك المظفر الرسولي عن إرسال الهدايا، ولكن بعد رسالة تهديد عادت الهدايا إلى مصر إلى ما كانت عليه، على مضض.

تمخض عن الصراع بين هذه القوى والانقسامات بين الأشراف عن إلقاء القبض على الملك علي بن داود الرسولي سنة ٧٥١هـ في أثناء تأديته فريضة الحجّ؛ فأُرسل مقيدًا من مكة إلى القاهرة[١]، وبعد تفاصيل كثيرة تم إطلاق سراحه.

أ - تجوير جدة (الظهور الثاني):

كان التجوير في ٨٢٥هـ/١٤٢١م جزءًا من استراتيجية متكاملة للإقليم تشمل اليمن ومصر والحجاز، وذلك بإعطاء جدة دورًا مركزيًّا أو ما نطلق عليه في هذا الكتاب (الظهور الثاني)، ولم تعد ميناء استقبال الحجاج فقط ولكنها تعدت ذلك بكثير إلى أن وصلت إلى نقطة مؤثرة في خط البحور العالمي للتجارة وحركة نقل البضائع.

---

(١) حسن محمود مقابلة، مرجع سابق، ص ٥٠.

يقـول المقريزي: «وجـرت العادة من القديم أن مراكب تجار الهند ترد إلى عدن ولم يعرف قط أنها تعدت بندر عدن، فلما كان سنة خمس وعشرين خرج من مدينة كاليكوت ناخذوه اسمه إبراهيم، فلما مرّ على باب المندب جوّر إلى جدة بطراده حنقًا من صاحب اليمن؛ لسـوء معاملته للتجار؛ فاسـتولى الشريف حسـين بـن عجلان على ما معـه من البضائع وطرحها علـى التجار بمكة؛ فقدم إبراهيم المذكور في سـنة سـت وعشـرين على المندب ولم يعبـر عدن وتعدى جدة وأرسى بمدينة سواكن ثم بجزيرة دهلك؛ فعامله صاحباهما أسوأ معاملة؛ فعاد في سـنة سـبع وعشـرين وجوّر عن عدن ومرّ بجدة يريد ينبع، وكان بمكة الأميـر قرقمـاس، فمـا زال يتلطـف بإبراهيم حتى أرسـى على جـدة بمركبين؛ فجامله أحسن مجاملة حتى قويت رغبته ومضى شاكرًا ثانيًا، وعاد في سنة ثمانٍ وعشرين ومعه أربعة عشر مركبًا موسوقة ببضائع، وقد بلغ السلطان خبره فأحب أخذ مكوسـها لنفسـه، وبعث ابن المـرة لذلك، فصارت جدة مـن حينئذٍ بندرًا عظيمًا إلى الغاية»[١].

وإذا اعتبرنا أن التجوير مشروعًا حجازيًّا فإن هذا يمكن فهمه من إجراءات الشـريف حسـين بن عجلان، آمر مكة، منذ عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م؛ حيث جَهَّز الوضع العام بخطوات تنفيذية مهمة، أهمها:

- إلغاء ثلث الأداءات المفروضة على التجار في جدة منذ ٧٩٩هـ.
- توفير الأمن وحماية التجارة بين جدة ومكة والقوافل البرية.
- تعيين نائب بجدة وتكليفه بإصلاح فرضة جدة؛ ليحاكي فرضة عدن.
- إهمـال مينـاء عيذاب على الضفة الغربيـة للبحر؛ للقضاء على أي منافس

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، ج ٥، ص ٦٨١.

لميناء جدة. وفي العام الذي يلي التجوير إلى جدة، تم تخريب ميناء عيذاب تمامًا.

- إرسال الأمير قرقماس الشعباني إلى الحجاز سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٣م، ثم بعد ذلك تعيين سعد الدين إبراهيم بن المرة ناظرًا على الميناء؛ لتحصيل المكوس لدولة المماليك[١].

ب - الآثار السياسية للتجوير:

ترتب على سياسة التجوير وتحويل السفن إلى ميناء جدة عدد من الآثار السياسية المهمة المتمثلة في:

تقوية نفوذ دولة المماليك في الحجاز:

أدّت السياسة الاقتصادية الجديدة مقرونة بتعديلات في إدارة الحجاز وموارده إلى انفراد الدولة المملوكية بالحجاز، واعتبار جدة المصدر الرئيس لدخل دولة المماليك من المكوس، وأصبحت مسؤولة عن تعيين أمير مكة، وشاد جدة[٢] المسؤول عن جمع الضرائب من التجارة، وهذا الأمر مدعوم بقوة عسكرية وهيبة الدولة المملوكية.

---

(١) عبد الجليل التميمي، دور اليمن في التجارة الشرقية الكبرى من سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م إلى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ٢٠٠٤م، ص ١٠.

(٢) أول من شغل منصب شاد جدة هو سعد الدين إبراهيم ابن المرة، وذلك في عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، وبعد ذلك استلم منه العمل نكار الخاصكي ومعه علم الدين عبد الرزاق الملكي ناظر جدة، ثم الأمير يلخجا شاد جدة، والناظر الصاحب عبد الكريم، وأخيرًا الأمير جانبك ابن عبد الله الظاهري الخاصكي، تولى ٨٤٩هـ/١٤٤٥م ناظر جدة، طارق أحمد شمس، الشرق على طريق البحر الأحمر، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

انهيار الدولة الرسولية:

لجأت الدولة الرسولية إلى إجراءات عسكرية تتمثل في إجبار السفن المُجَوَّرة بالرسو عنوة في ميناء عدن؛ فتمخض الأمر عن اشتباكات عسكرية ومصادرة للسفن المُجَوَّرة المتجهة إلى جدة؛ فكان التجار يسلكون طرقًا بحرية طويلة؛ لإصرارهم على الرسو في ميناء جدة؛ الأمر الذي أدى إلى ضعف دخل الدولة الرسولية من المكوس، فضلًا عن الاضطرابات الداخلية بين أفرادها الحاكمين؛ مما عَجَّل بنهايتها، وتولّى الطاهريون حكم اليمن في ٨٥٨هـ/١٤٦٥م.

ويرى بعض الباحثين[١] أن التجارة في البحر الأحمر ضمن ما يعرف باسم خط البحور، كان مشروعًا مصريًّا في الأساس شرعت في إنجازه مصر الفاطمية، واستمر تنفيذه خلال العهد الأيوبي، كما استمر إبان دولة المماليك، ودافعت عنه مصر مستعينة بعلاقاتها مع الدول الآسيوية والأوروبية.

أما الدولة الرسولية في اليمن فقد تأسست لتواصل المشروع الأيوبي نفسه قبل أن تستقل وتحاول أخذ خيرات هذا الخط البحري لنفسها؛ خاصّةً أنه بات معروفًا عن بعض سلاطين المماليك حبهم للمال بشكلٍ مبالغٍ فيه؛ لهذا طبقوا سياسة المقاطعة التجارية على الدولة الرسولية، والاستفادة من موقع جدة بديلًا لعدن وموانئ اليمن تنفيذًا لهذه السياسة؛ فانهارت الدولة الرسولية لنقص الإمكانيات[٢]، فهدأت الرياح وسار رخاءٌ حيث أراد المماليك، ولم يعد لهم منافسون في السيطرة على الحجاز.

---

(١) من أهمهم: أ.د. طارق أحمد شمس وكتابه الشرق على طريق البحر الأحمر، وغيره.

(٢) سعيد محمد، الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول ٦٢٦/٨٥٨هـ-١٢٢٩/١٤٥٤م، رسالة دكتوراه، جامعة تونس، ١٩٩٨م، ص ٧١٤-٨١٨.

جـ - الآثار الاقتصادية للتجوير:

ازدهـر ميناء جدة وأصبح بندرًا عظيمًـا، وكان مدخول ميناء جدة فقط من رسـوم التجارة الجمركية، يزيد على مئتي ألف دينار في السـنة الواحدة، وبلغ عدد السـفن الواصلة إلى جدة في السـنة أكثر من مئة سفينة، منها مراكب كبيرة ذات سـبعة أشـرع، وذكر المقريزي: «أن جدة كان يصلها في عز موسم وصول السفن المُحَمَّلة ببضائع السلع الشرقية ما يقرب من حمل ثمانين ألف جمل»[١].

تحكمت جدة بشـكل مركزيّ في تجارة الإقليم يسـاعدها في الدور الجديد موقعها المتميز وتوسطها الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، كما ساعدها على ذلك كونها مبتدأ شـبكة من الطرق البرية تتشـعب منها إلى داخل الجزيرة العربية في مختلـف الاتجاهات؛ مما جعلها بوَّابة ومنفذًا أصـيلًا للجزيرة العربية وحركتها التجارية مع العالم؛ مما سهل لها التصدير إلى مصر ثم أوروبا.

وكان السلطان المملوكي برسباي -الذي تم التجوير في عهده- جشعًا؛ حيث أدرك أهمية السيطرة على دخل جمارك جدة مباشرة، والدخل الكبير الذي توفر له من التجارة الشـرقية؛ فعمل على احتكار التجارة منذ سـنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، ولا سـيما تجـارة البحر الأحمـر؛ لتغطية نفقات الدولـة المملوكية التي أنهكتها الحـروب وانتشـار الطاعون في القرن الرابع عشـر الميلادي في مصر؛ مما أثر على الصناعة والزراعة، وأصبحت التجارة هي مصدر الرزق المهم.

اتبـاع سياسـة الاحتـكار وتجويـر السـفن إلـى جدة عـادت على السـلطان برسباي بمكاسب عظيمة؛ ممَّا شَجَّعه على احتكار أنواع السلع كلها؛ فأبعد فئة (الكارمية) عن تجارة التوابل سـنة ٨٢٥هـ، وتدرجت سياسـة الاحتكار لتشـمل

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢٧٧/٧، وكذلك ١١٢/٧.

الغلال والسكر والثياب وغيرها، إلى أن احتكر برسباي السلع جميعها، في ميناءي جدة والإسكندرية[١]؛ فكان في ذلك قدوة لخلفائه من أمراء المماليك، يحذون حذوه ويَقْفون أثره في الاحتكار التجاري للسلع، ولكن هذه السياسة لم تغن عن تدمير اقتصاد دولة المماليك لاحقًا؛ فضَعُف بعد قوة، وذلّ بعد عِزّ، وخبا بعد ازدهار.

د - الآثار الإقليمية للتجوير:

امتد أثر التجوير إلى المحيط الإقليمى للبحر الأحمر، وكانت له آثار عميقة في المنطقة، منها:

- استمرار تدهور ميناءي عيذاب والقصير المصريين بعد انقطاع الحجّاج عن استخدامهما للوصول إلى جدة لغرض الحجّ أو لأغراض التجارة، خاصة مع انعدام الأمن في الطرق البرية المؤدية إليهما بالصعيد المصري، ولا سيما في الطرق التي بينهما وبين قوص، ومع ازدهار ميناء جدة وتحوّل تجارته إلى السويس، انتهت أهمية الموانئ الأخرى تمامًا.

- تدهور الطرق البرية عبر العراق وفارس بعد غزوات جنكيز خان في غرب آسيا مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وازداد هذا التدهور بعد سقوط الدولة الإيلخانية[٢]، فأصبحت الحركة التجارية غير مأمونة في هذه الطرق البرية؛ نتيجة غزوات تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر ضد خانات المغول القفجاق؛ الأمر الذي أدى إلى إغلاق الطرق التجارية التي كانت تربط شبه جزيرة القرم بالصين،

(١) خالد محمد سالم العمايرة، موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٧م، ص ١٣٤–١٤٠.

(٢) هي دولة مغولية حكمت العراق وفارس وتفكّكت تمامًا في ١٣٣٥م.

والخليج العربي بالعراق، وأرمينيا وأذربيجان بالبحر الأسود، وحرمان موانئ هذا البحر من السلع الهندية، كل هذه العوامل أدت إلى أن يكون البحر الأحمر هو الملاذ الآمن الوحيد للتجارة الشرقية.

- ازدهار الطريق البحري المارّ من البحر الأحمر والمتصل بالموانئ الهندية أساسًا والصينية، وكذلك القريب من الموانئ الأفريقية، ويطلق عليه اسم طريق البحور، وأصبح طريق التجارة الرئيس في العصر الإسلامي إبان الدولة الأيوبية، ودولة المماليك[١].

هـ - تغيير دور جدة:

أدَّت سياسة التجوير إلى تغيير جذري في دور ووظيفة جدة، واستمرت في تطويره وتعميقه في العقود التالية؛ لأنها أصبحت تستقبل المئات من السفن القادمة من الهند والصين وغيرهما من المحطات التجارية البعيدة، وخرجت عن الدور الأساسي الذي اختصها به الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأصبحت مركزًا إقليميًّا للتجارة والملاحة البحرية، ونقطة الارتكاز الإستراتيجية على خط البحور، ولا نكون مغالين أو مخالفين للواقع والتاريخ إذا قلنا إنها أصبحت حلقة الوصل بين مناطق الإنتاج في الشرق الأقصى ومراكز الاستهلاك في أوروبا، كل ذلك مع احتفاظها بدورها الأساسي في استقبال الحجيج؛ وما ترتب عليه من ارتدائها ثوب القداسة الإسلامية والروحانية، كما اتَّصفت لاحقًا بصفة مدينة الأولياء أو مدينة الصالحين.

---

(١) إسلام إسماعيل، سياسة التجوير المملوكية وأثرها في ازدهار التجارة في الحجاز في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية، العدد ٢١، مجلد ٢، أكتوبر ٢٠٢١م، ص ١٥٠–١٥٦.

جدة بحكم الجغرافيا نقطة التقاء، فهي من ناحية نقطة التقاء الروافد المائية القادمة من المناطق والجبال شرق المدينة، ومن ناحية أخرى تجدها نقطة التقاء الطرق البرية والبحرية في الإقليم، وإذا تخيلنا دائرة قطرها ١,٧٠٠ كيلومتر مربع، وتأتي جدة في منتصف تلك الدائرة، سنجدها تتوسط كل المضايق البحرية والمسارات الملاحية والبرية المهمة في القارات الثلاث، كما أننا سنجدها تستوعب طرق التجارة في العالم القديم. ونظرًا لأنه بعد عملية التَّجْوِير أصبحت الأبعاد الاقتصادية هي التي تحكم الدور الوظيفي الجديد لجدة، وتظل الجغرافيا هي الداعم الأول لدور جدة؛ لأنها تتمتع بظاهرة (انقطاع الطريق)؛ حيث إن ساحلها يقع على نقطة بين رأس الحجاز والرأس الأسود من ساحل البحر الأحمر، كما أنه عندها ينتهي المسار الملاحيّ القادم من المحيط الهندي؛ لتبدأ شبكة الطرق البرية إلى داخل الجزيرة العربية[١].

يمكن تلخيص المهام الوظيفية لجدة وميناءها بعد التجوير في عدد من الوظائف التي أخذت عقودًا من التطوير حتى تبلورت، وتتضح فيما يلي:

- **تُغيِّر الحمولة**؛ حيث أصبح ميناء جدة وساحلها من النقاط التي تُغَيَّر فيه السفن الضخمة حمولتها إلى مراكب أقل حجمًا تستطيع التعامل مع العوائق المرجانية؛ لأن السفن الضخمة عابرة المحيطات يعوقها غزارة الشعاب المرجانية في البحر الأحمر.
- **التصدير والاستيراد**؛ حيث تُجَمَّع المحاصيل والثروة الحيوانية، خاصةً الخيول العربية من داخل الجزيرة العربية ثم تُصَدَّر من الميناء، ويستقبل الميناء حاجة هذه المناطق من البضائع والأرزاق.

---

(١) محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان، مرجع سابق، صفحات متعددة.

- **التجارة بيعًا وشراءً**؛ لأن أسواق جدة ومن ورائها أسواق مكة المكرمة، أماكن مثالية يتفاعل فيها التجار من مختلف بقاع الأرض للبيع والشراء، ولا سيما في موسم الحجّ.
- **الاستراحة**؛ حيث تتخذها السفن محطة للاستراحة والتزود بالوقود خصوصًا بعد ظهور المحركات البخارية للسفن وإجراء عمليات الصيانة، وهذه تسمى وظيفة (التتويه)؛ حيث تقبع السفن في ميناء آمن إذا عاكستها الرياح، وفي نفس الوقت يأخذ البحارة قسطًا من الراحة.
- **الفرضة (تجميع الضرائب)**؛ وهي وظيفة مالية اقتصادية ناتجة عن الازدهار الملاحي، ويقال: إن جدة فرضة مكة، ومكان تجميع الضرائب والمكوس.

وكما تبين هناك عوامل جغرافية وأخرى اقتصادية تؤثر على موقع المدينة الساحلية وتعطيها الأهمية، وهي: العوامل المائية والجغرافية وتسمى النظير [Foreland]، والعوامل الاقتصادية ترتبط بالجزء العمراني والحضري وتسمى الظهير [Hinterland] وفيما بين الظهير والنظير يظهر أهمية الموقع[١].

إذا أخذنا هذا بتفصيلٍ أكثر فإن أهمية الإقليم أو المدينة أو الميناء ترتبط بمعادلة توازن الموقع مع الموضع، ومن أشهر من طوَّر هذه المعادلة جمال حمدان في كتابه شخصية مصر، وينتج عنها تميز المكان وفرادته، وعند اختلال هذه المعادلة يحصل العنف من احتلال وغزو... إلخ. جدة أيضًا تتمتع بالمعادلة بين الموقع والموضع في مراحل كثيرة من مسيرتها، وأسبغ عليها العنصر البشري بثقافته القائمة على التسامح الإسلامي وقبول الآخر، ونجاحه

(١) محمد أحمد الرويثي، الموانئ السعودية على البحر الأحمر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢١٠.

التجـاري، فرادة وتميزًا في المسـيرة الإنسـانية عبر العصـور جنبًا إلى جنب مع تميزها الجغرافي، وأساسيات هذه المعادلة كما يلي:

- **الموقـع:** هـو المنطقة المحيطـة بالمدينة أو الميناء، ويبـدأ عند الحدود الخارجيـة للموضع الذي يرتبط به بعلاقات وثيقة اقتصادية واجتماعية وثقافية. والموقع يمدُّ المدينة بأسـباب البقـاء والنمو والتطور باعتباره الحاضن والممول لما تحتاجه المدينة أو الميناء خارج الموضع.
- **الموضع:** هو المكان الذي تقوم عليه المدينة، وتتركز فيه رقعتها المساحية وحيزها الحضري، تتحدد محاور النمو العمراني تبعًا للمظاهر المحلية التـي يتميز بها المـكان، وتشـمل: التركيب الجيولوجـي (توفر المياه الصالحة للشـرب والزراعة، درجة انحدار الأرض... إلخ). الموضع إذن جزء صغير من الموقع، قابل للتغيير استجابةً لمتطلبات المدينة، مثل: تحرك جدة عبر العصور شمالًا وجنوبًا عن موقعها الحالي.

من عناصر تميز موقع جدة عبر العصور:

- **كونها البوابة الطبيعية للأماكن المقدسة**، ومن عندها تظهر الخطوات الأولى لقاصدي الحرمين، وساعد جدة على ذلك وجود فجوة وحيدة في سلسلة الشِّعاب المَرْجانية في أعماق البحر الأحمر قبالتها تسمح بعبور السفن إليها، وقدرًا يقابلها ممرٌّ في الجبال المحيطة من ناحية الشرق نحو مكة، وكأنما جاء ذلك ترتيبًا إلهيًّا لمهمة جدة في خدمة حجّاج بيت الله الحرام.
- **توسطها الذي جعلها نقطة توجيه جغرافي مزدوج**؛ حيث يمكن التوجه من جدة شمالًا إلى الشام، أو جنوبًا إلى اليمن والقرن الأفريقي، وهي مناطق ذات حضارات عريقة، وتجارات رائجة.

- **توسطها وتمركزها بين موانئ الإقليم**؛ حيث إن البحر الأبيض المتوسط يبعد عنها ١٣٠٠ كم، والمسافة بينها وبين خليج العقبة ٩٠٠ كم، وأيضًا بينها وبين موانئ القرن الأفريقي ١١٠٠كم، وكلها موانئ تؤدي إلى بحار ومحيطات وخطوط ملاحية عالمية.

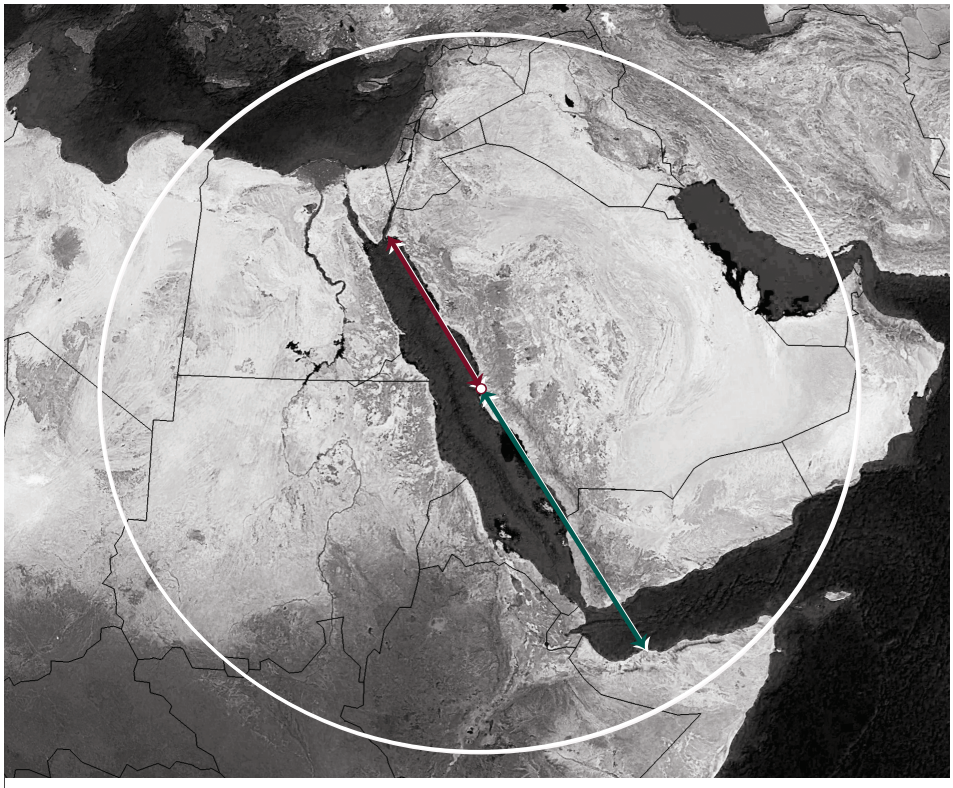

جدة تتوسط البحر الأحمر والطرق البرية والممرات البحرية في المنطقة[١].

(١) جدة وعبقرية المكان - صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية -، للدكتور محمد أنور نويلاتي، جداول للنشر والتوزيع ٢٠٣٢م، ص ٥٨.

- **ربط الثغور البرية**؛ حيث تنطلق من جدة شبكة مواصلات برية موجودة منذ الأزل تربط ثغور شمال الساحل الشرقي بجنوبه؛ حيث تمسك بذراع الساحل الأفريقي واليمن، وبالأخرى الشام والساحل الآسيوي.
- **تقريب العمق الصحراوي**، فإمكانية الوصول من نجد إلى ظهير صحراوي يمتد إلى صحراء نجد وتهامة يمكننا من الإفادة من موارد هذا الظهير البشرية والطبيعية الغنية والنادرة في آن واحد.
- **جدة من العصر المملوكي كانت في موقع (عقدي)**؛ لأنها ملتقى الطرق البرية التي تتفاعل تجاريًّا مع الميناء وحركته التجارية. على سبيل المثال كانت القوافل تخرج من جدة إلى المدينة المنورة، ثم تتجه شمال شرق إلى تيماء، ثم دومة الجندل، ثم وادي الرافدين.
- **الاتجاه الجنوبي يوجد (طريق حضرموت)**؛ حيث اتصلت تجارة جدة بكل من حضرموت وعمان بهذا الطريق الموازي للساحل ويستخدمه الحجاج، وهو جزء من الطريق التاريخي المعروف باسم طريق (الطيوب).
- **البحرين على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ارتبطت بعلاقات تجارية وثيقة مع جدة**؛ حيث كانت القوافل تخرج إلى مكة ثم إلى نجد، وبعد مسيرة عشرة أيام تصل إلى البحرين وتعود بالبضائع من الأحساء والبحرين.
- **ارتباط جدة مع اليمن عن طريق القوافل**، وكان يصفها المقدسي (اليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق، يخرج الآلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والعاج واللؤلؤ والديباج والياقوت)، وكان هذا عن طريق تهامة وطريق آخر إلى صعدة، بالإضافة إلى الطريق البحري بين عدن وجدة.

- **ارتبطت جدة بالعراق عبر مكة إلى الكوفة ومنها إلى بغداد وخط آخر ينتهي عند البصرة**، وهو من الطرق التقليدية الذي يستخدمه تجار العراق في مواسم الحج وغيره.
- **طريق الحاج المصري إلى رابغ ثم بدر إلى ينبع**، المغيرة، الحوراء، الوجه، عيون القصب، عتبة أيله على الطرف الشرقي للبحر الأحمر، وعندها يتفرع الطريق إلى فرعين شمالاً إلى بلاد الشام ويمر في شرق الأردن ثم إلى دمشق، والطريق الثاني عند أيله يتجه غربًا عبر صحراء سيناء ويصل القاهرة. بالإضافة إلى أنها نقطة التقاء الممرات البحرية الملاحية القادمة من الهند والشرق الأقصى عمومًا وموانئ أفريقيا ومصر[١].

من عناصر تميز موضع جدة عبر العصور:

تعتبر عناصر الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، وهي تتمثل في البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها الذاتية، الافتراضية والإنسانية والسماتية، وأهمها:

- **العروبة الخالصة**؛ لأن مكَوَّن جدة البشري عربيٌّ بامتياز، حتى وإن شاب بعض أصولها العرقية أعراقٌ مختلفة؛ فهي من الأماكن القليلة التي لديها آلية الامتصاص للاختلاف الحضاري؛ وتمتلك القدرة على إدخال الغريب في عباءتها الثقافية واللغوية والحضارية، وتفرض عليه شخصيتها العربية؛ فيذوب في بوتقتها ذوبان الملح في الماء.
- **روحانيتها**، وقد اقتبست جدة هذه الصفة لقربها من مكة فدخلت في نطاقها الروحانيّ الثقافيّ، ومعايشتها المطهرين من الصحابة والأولياء

(١) علي السيد محمود، الحياة الاقتصادية في جدة في عصر سلاطين المماليك، المطبعة التجارية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٥٨.

والصالحين الذين استوطنوها؛ جعلها تسمو سمو الأنجم، وكونها (ملتقى الأفئدة)؛ حيث يتطلع الناس لزيارتها في رحلتهم الدينية إلى الله ورسوله ﷺ طبعها بطابع الروحانية والقداسة.

- **استعدادها لتلقي الروافد**؛ حيث تَنْصَبُّ روافد الأودية المحيطة فيها من ناحية الشرق؛ لتصبح نقطة تتجمع فيها مياه أكثر من مئة وادٍ؛ فتمر عليها الروافد قبل أن تأخذ طريقها إلى البحر الأحمر.
- **عالميتها الملاحية والتجارية**، معلوم أن جدة قادرة على التعامل بإيجابية مع القادمين إليها، ومؤهلة للتفاعل مع الثقافات القادمة إليها؛ ساعدها في ذلك كونها في نهاية خطوط ملاحية عالمية تنقل لها ثقافة الدول التي بدأت منها هذه الخطوط البحرية؛ فبات امتزاج الثقافات فيها من عناصر القوة واستدامة التطور والتميز.
- **تفوقها الإداري والسياسي والاقتصادي**؛ حيث امتازت جدة في العصور الحديثة بدرجة عالية من الاستقلالية السياسية والإداريَّة؛ مَكَّنها من ذلك رغبة الدولة العثمانيَّة في أن تحتفظ جدة بقدرٍ عالٍ من الاستقلالية في الإدارة، فضلًا عن مهارات تجَّارها المكتسبة والمتراكمة من التعامل الاقتصادي مع القوى التجارية والمالية حول العالم.

وتميّزت جدة بفرادة العنصر البشري الذي صنع فيها الفارق؛ لما يتمتع به من سمات ومزايا وقدرة على التكيف مع التحديات الاقتصادية والحربية والسياسية من خلال التفاعل الإيجابي مع البيئة المحيطة، وصفة التجانس الاجتماعي التي صبغت الحياة الإنسانية فيه[١].

---

(١) لمناقشة مواضيع الموقع والموضع بالتفصيل في جدة وتأثيرها، محمد أنور مسلم نويلاتي، جدة وعبقرية المكان... صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية، مرجع =

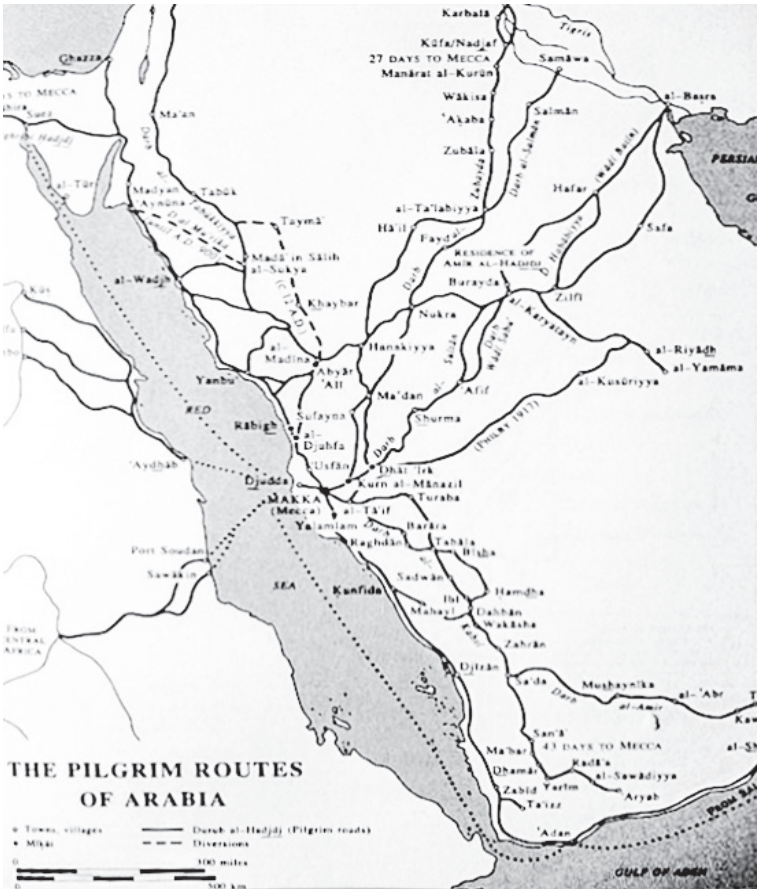

■ **خريطة طرق الحج البرية والبحرية**

R. E. Peters 'The Hajj: The Musilm Pilgirmage to Mecca and The Holy Places'. Princeton University Press, 1994, P 25

الخريطة توضح أن الخطوط البرية والبحرية التي يأخذها الحجاج تصل إلى جدة قبل مكة والمدينة في القرن التاسع عشر.

= سابق، ص ٥٧–٨٤. أصل النسق طوره العلامة جمال حمدان في كتابه الشهير شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان (أربعة أجزاء)، طبعة مؤسسة دار الهلال، النموذج الأول للنسق في كتابه بنفس الاسم الصادر في عام ١٩٦٩م.

استنتاج:

حادثة التجوير إلى ميناء جدة والتغيير الذي حدث في وظيفة جدة ودورها في الحركة الاقتصادية العالمية أدَّيا إلى اعتماد دولة المماليك على الازدهار الاقتصادي الذي تولد من التجارة الشرقية عمومًا، وما تحصله من إيرادات من موانئها المتعددة، ومنها ميناء جدة؛ باعتباره مركزًا لإعادة التصدير ونمو حركة التجارة الشرقية. كما اعتمدت دولة المماليك على أسواق مكة المكرمة في موسم الحجّ؛ لتجمُّع التجار فيها من أنحاء العالم الإسلامي؛ فأفادت من التبادل التجاري والبيع والشراء المال الوفير، كما استغلت الطريق البري الذي تسلكه القوافل بعد موسم الحجّ قاصدة العقبة والسويس، وأيضًا استفاد المماليك من التجارة البحرية إلى القلزم والطور، ومنها إلى البحر الأبيض، وكانت المسارات البرية والبحرية تعمل كلها بفعالية في تجارة إعادة التصدير؛ تناغمًا مع مركزية جدة والميناء البحري فيها.

مكّن هذا النمو التجاري دولة المماليك من خلق علاقات سياسية مع دول أوروبا والهند، بالإضافة إلى المكانة المرموقة في العالم الإسلامي التي اكتسبتها بحكم أن الحرمين الشريفين تحت إمرتها، هذه التجارة العالمية وفّرت ثروات هائلة لخزينة دولة المماليك ولسلاطينها أنفسهم، اعتمدت عليها الدولة كعِوَضٍ عن تدهور الزراعة والصناعة فيها، ولما كانت دولة المماليك تسيطر على الممرات البحرية في البحر الأحمر والخليج العربي، أعطت لمدينة جدة وميناءها أهمية غير مسبوقة بدأت مع السلطان برسباي[١]. حتى بدأ التغيير على المستوى الكوني مع البرتغاليين.

---

(١) علي إبراهيم حسن، البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى، منشورات عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣٠.

ظهر البرتغاليون على الساحة الدولية مسلحين بتقنيات ملاحية جديدة مكنتهم من اكتشاف مسارات بحرية غير مسبوقة (طريق رأس الرجاء الصالح) وامتدت التقنية إلى التسليح وتزويد السفن بالمدافع الكبيرة؛ استعدادًا لحرب ضروس بدافع عقائدي صليبي، وطمعًا فيما حققه العالم الإسلامي من رواج تجاري وازدهار اقتصادي، وحقدًا على التجارة الرائجة في البحر الأحمر عمومًا وفي ميناء جدة خصوصًا، وما وصلت إليه من نجاجات وتفوق ملاحي؛ فوضعت البرتغال أهدافًا اقتصادية تقضي بإنهاء التجارة الشرقية التي تتم من خلال الموانئ الإسلامية، وتحويل تجارة الهند والصين إلى «لشبونة»، وبدأ التحرك الفعلي بالتحرش بالسفن الإسلامية، ثم حصار مدخل البحر الأحمر في ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، ومنع السفن الأوروبية من دخول هذا البحر؛ فتدهورت أوضاع العالم الإسلامي مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

بدأ العالم الإسلامي يرسل رسائل الاستغاثة للسلطان قلاوون (١٥٠٠-١٥١٦م) لإنقاذ سفن المسلمين ومدنهم من عدوان البرتغاليين. في البداية طلب سلطان المماليك الدعم من الدولة العثمانية التي بالفعل أرسلت الأخشاب لبناء ثلاثين سفينة وتسليحها التسليح اللازم؛ ولكن تمت مصادرتها في جزيرة رودس من حلفاء البرتغاليين.

جاءت الفرصة للدولة العثمانية الصاعدة والطامحة في أن تكون هي الدولة الإسلامية الكبرى، هذا الطموح واجه واقع دولة المماليك المفككة، وجاء الصدام في سيطرة العثمانيين على الشام، وحدثت معركة (مرج دابق) ١٥١٦م قرب حلب، وانتصر فيها العثمانيون؛ لأن جيشهم منظم، ويستخدم تقنيات التسليح الحديث فيما يعاني جيش المماليك من عدم التماسك ومن الخيانة التي تمثلت في أن «خاير بك» انتقل بجنوده من صفوف المماليك إلى صفوف

العثمانيين؛ فما لبث السلطان سليم الأول أن سيطر على الشام كله[١].

كتب السلطان سليم الأول إلى السلطان طومان باي أن تدخل مصر في الدولة العثمانية، ويكون السلطان المملوكي نائبًا عن سلطان العثمانيين عليها فرفض السلطان المملوكي، وتطورت الأحداث حتى شُنِقَ طومان باي على باب زويلة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وانتهى عصر المماليك ودخلت مصر في الحكم العثماني وتلاها الحجاز، ثم بدأ الدور الجديد الذي أوجده الاحتلال العثماني لمدينة جدة، الدور الذي يتناسب مع التحديات العسكرية والإستراتيجية التي واجهتها الدولة العثمانية، والخطط المطلوبة لحماية الحرمين الشريفين والتوسع في الإقليم.

(١) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٣، ص ١٢٥.

ثالثًا:
جدة في الإستراتيجية العسكرية العثمانية (الظهور الثالث)

تمهيد:

حكمت الدولة العثمانية المشرق العربي أكثر من أربعة قرون مهمة في المسيرة الإنسانية وفي مسيرة الإقليم. ومنذ البداية قررت الدولة العثمانية أن تعطي لمدينة جدة دورًا متميزًا فرضته الجغرافيا وأهميتها الإستراتيجية، ونحتاج أن نستعرض حالة الإقليم عند دخول الدولة العثمانية والتحديات التي واجهتها بشيء من التفصيل حتى نستطيع أن ندرك أهمية وضع جدة استراتيجيًّا والإضافة التي قدمتها للاستراتيجية العسكرية العثمانية.

أ - التحديات الوجودية أمام الدولة العثمانية في الشرق:

كانت الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي دولة صاعدة على مسرح الأحداث الدولية، تمتلك من الموارد البشرية وغيرها ما يُمَكِّنها من التوسع والانتشار، وقد وصلت مجهوداتها في التمدد غربًا إلى البلقان، حتى وصلت إلى المجر، وبهذا وصل التوسع غربًا إلى أقصاه؛ لارتفاع حدة المقاومة من الشعوب الأوروبية، أما من الناحية الإستراتيجية فلا يمكن الاستمرار في التوسع بعيدًا عن مركز الدولة؛ لأسباب لوجستية وغيرها، وبهذا أصبحت في موقف المدافع من ناحية الجهة الغربية بعد أن توقفت على حدود المجر، والمنطق يقتضي التوسع ناحية الشرق، نحو العالم العربي.

يتمثل شـرق الدولة العثمانية في حواضر الإسلام الرئيسة، التي إن نجحت في السيطرة عليها، فإن هذا النجاح سوف يُعَمِّق الصبغة الإسلامية للإمبراطورية العثمانيـة، ويرسـخ مـا تقوله مـن أن دورها هو الحفاظ علـى الإسلام، وبلغت التهديـدات التـي باتـت تواجهها في الشـرق، في القرن السـادس عشـر، حدًّا كبيرًا من الخطورة هدّد وجود الإسلام والمجتمعات السُّـنية المسـلمة على وجه الخصـوص والمُقَدَّسـات الإسلامية، وقد بدأت هـذه القوى المحاربة للإسلام فـي بناء التحالفات[١] فيما بينها؛ للانقضاض على العالم الإسلامي، وأهم هذه القوى:

أ - ١: الدولة الصفوية:

أخـذت الدولـة الصفويـة موقفًـا معاديًا تجـاه الدولة العثمانية على أسـاس مذهبي على اعتبار أنها دولة شـيعية تُعنى بنشـر المذهب الشـيعيّ وتحارب دولة سـنية؛ وبالتالي خططت للبدء في سياسـات توسعية على الأرض تشمل العراق وتدعم الحركات الثورية والمنشقة ضد الدولة العثمانية، كما تحالفت مع ملك المجر عدو العثمانيين منذ البداية، ومع البرتغاليين في مرحلة لاحقة.

منذ تأسـيس الدولة الصفوية على يد الشـاه إسماعيل الصفوي ١٥٠١م وهي تعمـل على تعميق المواجهة والصراع مـع العثمانيين، خاصة أن الدولة الصفوية كانت تطمح إلى قيادة العالم الإسلامي بعد نشر المذهب الشيعي، واتخذت كل الوسائل والسُّبُل نحو تحقيق ذلك الهدف؛ لهذا سيظل التنافس والصراع الإقليمي والمذهبي والقومي موجودًا في المنطقة، وهو ليس من اهتمامات هذا البحث.

---

(١) محمود حسن منسي، تاريخ الشرق العربي الحديث، دار الوزان، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٢.

انتصر السلطان سليم الأول في معارك السيطرة على القوقاز، وجاءت معركة جالديران عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م بين أهم قوتين في غرب آسيا، والتي انتصر فيها الأتراك على الصفويين، ثم تقدم السلطان سليم في إيران نفسها حتى وصل إلى تبريز، عاصمة الدولة الصفوية، وبهذا أمَّن حدوده الشرقية المباشرة تمهيدًا لدخول العراق لاحقًا في عهد ابنه السلطان سليمان، واستمرت الصراعات بين القوتين؛ ولكن آسيا الصغرى بقيت على المذهب السُّني، وإيران وحدها استمرت على المذهب الشيعي[١].

لتحقيق أهدافها، سعت الدولة الصفوية للتحالف مع البرتغاليين، وقد كتب نائب ملك الهند البرتغالي إلى الشاه أبعاد مشروعٍ استعماريٍّ يحصل فيه الصفويون على مصر مقابل أن يحصل البرتغاليون على فلسطين والأماكن المسيحية المقدّسة: «إني أقدِّر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، أعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة؛ لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب ستجدني أمامك في البحر الأحمر أمام جدة، أو في عدن، أو البحرين، أو القطيف، أو البصرة، سأنفذ كل ما تريد»[٢].

أ - ٢: الحبشة:

تمثل الحبشة أهمية كبيرة في منطقة البحر الأحمر، من الناحيتين الإنسانية والجغرافية بحكم ارتباطها - عبر التاريخ - بأحداث المنطقة وتأثيرها المباشر

(١) عيجولي حمزة، الصراع العثماني الفارسي في عهد الشاه إسماعيل الصفوي ١٥٠١-١٥٢٤م، قضايا تاريخية، العدد ٦، ٢٠٢١م، ص ١٥-١٠٨.

(٢) غسان الرمال، صراع المسلمين والبرتغاليين خلال القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨١، ص ٢٤٢.

على البحر الأحمر، وقبل أن تصل الدولة العثمانية إلى مصر والحجاز كانت هناك حالة من العداء الشديد بين الحبشة ودولة المماليك، والحروب بينهما كانت مباشرة أو بالوكالة؛ حيث تحارب الأطراف المحلية بدعم خارجي على أسس دينية وأسس أسطورية متداخلة، بالإضافة إلى الأهمية الإستراتيجية.

تعود أهمية الحبشة الإنسانية والثقافية للعرب مع بداية الدعوة؛ حيث هاجر المسلمون مع بداية الدعوة إلى الحبشة على مرحلتين في عام ٦١٥م ووفر النجاشي ملك الحبشة ملاذًا آمنًا لهم[١]، ثم ظهر لاحقًا في القرن الأول الهجري ما يعرف باسم «ممالك الطراز الإسلامي»، وهي جماعات من المسلمين هاجروا من الجزيرة العربية في أثناء الحروب بين الأمويين والعباسيين، وهي سبع ممالك تدفع الجزية لملك الحبشة، وجميعها مدن ساحلية، تطل على المحيط الهندي، جنوبي الحبشة، عُرِفَ عنها التجارة عمومًا إلى الهند وفارس وغيرهما، وأيضًا تجارة الرقيق[٢].

تغير شكل هذه العلاقة مع النمو الاقتصادي داخل «ممالك الطراز الإسلامي» وازدادت أعداد المسلمين داخل الحبشة نفسها، وبدأت الحروب العسكرية من عهد الملك سيون (١٣١٤–١٣٤٤م) الذي هاجم هذه الممالك وأنزل بها الهزيمة، ثم تفاقم الصراع أثناء فترة الملك دويت الثاني الشهير بـ «لينا دنكل»

---

(١) إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الثامن، ١٩٥٩م، ص٢٢.

(٢) «من الغرائب أن أصحاب الممالك الإسلامية عندما يدفعون الجزية لملك الحبشة كانوا يرسلون هدية عبارة عن بنت تغسل وتكفن بثوب، ويصلى عليها صلاة الميت، وتحسب أنها ميتة، وترسل مع الجزية». وردت في توماس ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧١م، ص ١٣٥.

(١٥٠٨–١٥٤٠م)[١]؛ لأسباب دينية ترجع إلى تبعية الحبشة للكنيسة القبطية المصرية، وتدخل المماليك في شؤون علاقتها بالحبشة، كما دبّت خلافات حول الهدايا التي تقدم للسلطان المملوكي، وعندما نقصت هذه الهدايا لأسباب الجفاف تفاقمت الحروب، وانحازت دولة المماليك إلى المسلمين داخل الحبشة، وأخذت الصراعات العنيفة تأخذ طابعًا دينيًّا بحتًا، المسيحيون ضد المسلمين، في منتصف القرن الخامس عشر ١٤٤١م، واستغلت البابوية في روما دعم الحبشة في حروبهم ضد المسلمين؛ لتعويض انكسار الحملات الصليبية، وبدأ ملوك الحبشة الدخول في اتفاقيات مع أوروبا لحصار مصر، وتحويل مجرى النيل إلى الحبشة للقضاء على مصر[٢].

حين دخول الاحتلال العثماني المشرق العربي كانت هذه الحروب قد أخذت شكلًا آخر بدخول البرتغاليين المنطقة، والذين وجدوا في الأحباش حلفاء طبيعيين لهم في حروبهم تحت راية البابا ضد المسلمين، وأطماعهم التجارية كما سيأتي تفصيله، وعلى الوجه الآخر انقسم مسلمو (ممالك الطراز الإسلامي) إلى قسمين: قسم وافق على دفع الجزية، وقسم آخر دعوا إلى الاستمرار في الجهاد، وكان لزامًا على الدولة العثمانية التدخل لدعم هذه الفئة عسكريًّا، وبالتخطيط أسوة بما فعلته دولة المماليك؛ حيث إن الحرب مع الحبشة – كما سبق القول – كانت ذات طابعين: ديني، وأسطوري وتحديدًا أسطورة القديس يوحنا[٣].

---

(١) وأطلقت أيضًا كلمة الدناكل على بعض القبائل ويطلق عليهم أيضًا العفر، وهناك صحراء مشهورة في الحبشة تسمى صحراء الدناكل.

(٢) عطا محمد كنتول، التواصل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في أثيوبيا وانعكاساته على شمال وادي النيل، مجلة دراسات أفريقية، العدد ٣٣، يونيو ٢٠٠٥م، ص ١٤١.

(٣) ارتباط البابوية بدعم الحبشة له أبعاد أسطورية؛ حيث إنه بعد انتهاء الحروب الصليبية، التي باء الصليبيون فيها بالهزيمة انتشرت بينهم أسطورة القديس يوحنا، وإمبراطوريته =

أ - ٣: البرتغاليون:

ارتبط ظهور البرتغاليين كقوة فاعلة على الساحة الدولية، بعاملين أساسيين:

- **الأول:** هو الدافع العقائدي المبني على قناعات مسيحية صليبية.
- **الثاني:** هو توظيف التقدم العلمي الذي ساعد على نجاح الاكتشافات البحرية الجديدة؛ طمعًا في تحقيق أهداف اقتصادية وتحويل طرق ومراكز التجارة العالمية لصالح البرتغال.

شهد القرن الخامس عشر الميلادي ارتفاع وتيرة العداء بين القوى الصليبية ضد الإسلام والمسلمين الذين أخرجوهم من بيت المقدس، وجاء انتصار المسيحيين في الأندلس والقضاء على الحكم الإسلامي فيه بمثابة دفعة قوية حيث وجد فيها البابا فرصته في دعم القوى العسكرية البرتغالية والإسبانية؛ لمواصلة

= المسيحية التي تعيش فيها المخلوقات الأسطورية، ويقطنها رجال خرافيون، عيونهم في صدورهم. تعود بداية هذه الأسطورة إلى قسيس هندي زار روما في القرن الثاني عشر ناقلًا قصة عن القديس توما - الذي نشر المسيحية في الهند في ساحل المليبار - ومع اعتقاد الجغرافيين أن أثيوبيا هي غرب الهند، فقد انتشر أن مملكة القديس يوحنا هي بلاد الحبشة، أكد هذه الأسطورة رسالة من قديس يدعى يوحنا إلى الملك عمانويل في أواخر القرن الثاني عشر، يذكر أن هذا القديس يخضع له ٧٢ ملكًا، وعنده كنوز الذهب والمجوهرات، ويرغب في قتال أعداء الصليب والعودة إلى بيت المقدس.

في منتصف القرن الرابع عشر تبنى ملوك أوروبا والبابا هذه الأسطورة باعتبارها حافزًا لعودة الحروب الصليبية، وإعادة اكتشاف الحبشة على أسس دينية، ومع اختلاط الخلافات الدينية مع الأساطير في جعل الحبشة قاعدة متقدمة ضد العرب والمسلمين في الجانب الغربي من البحر الأحمر دخلت في تحالفات صريحة مع أعدائهم مثل البرتغاليين بخطط مشتركة.

عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ١٧٦-١٧٧.

الحروب ضد المسلمين. كما شهد منتصف القرن نفسه فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وبدأ التوسع الإسلامي في شرق أوروبا ممَّا أعطى الصراع المسيحي/ الإسلامي أبعادًا دولية خطيرة.

في تلك المرحلة من الصراع وجد البابا نيقولا الخامس (توفي ١٤٥٥م) في الأمير هنري الملاح - رائد الاكتشافات البحرية البرتغالية، والمتعصب للمسيحية الكاره للمسلمين - حليفًا مخلصًا لحرب الإسلام ومحاصرته؛ فوضع معه ما يعرف باسم: (خُطة الهند)، وهي مجموعة من الرسائل يوضح فيها ذلك الأمير خطته في مهاجمة المسلمين من الجنوب، والتحالف مع ملك الحبشة ضد المسلمين، ومن أهداف تلك الخطة - أيضًا - إبعاد الأتراك العثمانيين عن أوروبا، كما أصدر البابا مرسومًا يقضي بأن الشباب الذين يخوضون غمار البحار ويقاتلون سوف يدخلون الجنة، وأعطى صكوكًا تفيد تملك الجيش للأراضي التي يسيطرون عليها حتى الهند. وبعد وفاة البابا نيقولا تولى البابا كاليكوتس الثالث وأيد المراسيم السابقة؛ من أجل ذلك اندفع البرتغاليون - بحماس شديد - في حرب دينية أسفرت عن تحوّل أعداد كبيرة من الهنود الوثنيين والهندوس والمسلمين إلى المسيحية، وتحوّل الحبشة لاحقًا إلى المذهب الكاثوليكي[١].

جاء اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م نقطة تحول خطيرة في الاكتشافات البرتغالية؛ تمخض هذا الاكتشاف عن تحقيق عدد كبير من الأهداف الإستراتيجية الصليبية؛ وبوصول سفنهم الحربية المحمول عليها المدافع الحديثة تمكن البرتغاليون من إحراق مدن ومراكب العرب على الساحل الشرقي لأفريقيا من موزمبيق حتى خليج عدن، وساحل المليبار،

(١) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ترجمة: زينب راشد، دار المعارف، ط ٣، ٢٠٠١م، القاهرة، ص ٧٩ وما بعدها.

وهدموا المساجد في الهند، ويوثق النهروالي تلك الأحداث بقوله: «وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرًا ونهبًا، ويأخذون كل سفينة غصبًا، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين»، كان ذلك في مطلع القرن السادس عشر تحديدًا، وبدأت محاولات إغلاق مدخل البحر الأحمر أمام الحركة التجارية، واستخدام عنصر الدين كوسيلة للضغط على تجار البندقية وأوروبا بعدم التعامل مع التجار المسلمين[١].

وامتدادًا لتلك السياسة عمل البرتغاليون في عام ١٥٠٣م على إغلاق البحر الأحمر أمام السفن العربية، وفي عام ١٥٠٥م وصلوا إلى جدة، ثم في العام الذي يليه أُرسِل القائد «البوكيرك» حاكمًا عامًّا للمستعمرات في الهند؛ فاستولى على «سومطرة» ثم على «جوا» في الهند، وبدأت الحملات تأخذ طابعًا وحشيًّا متعصبًا؛ لطبيعة هذا القائد المتعطش للدماء، والذي يخوض المعارك بقناعة صليبية.

واستطاعت الأساطيل البرتغالية تخريب عدن وحرق المراكب الموجودة بها، واحتلت جزيرة «كمران» ومضيق «هرمز» في عام ١٥٠٦م، كما احتلوا جزيرة سقطرى على باب المندب، واستمرت تلك السياسة الممنهجة في مهاجمة المواقع الإسلامية، وإغراق السفن والتنكيل بالمسلمين؛ مما أدى إلى انهيار التجارة الشرقية بالكامل، وتحوّل الحركة التجارية إلى لشبونة؛ الأمر الذي ضغط اقتصاديًّا على دولة المماليك ضغطًا هائلًا، باعتبار أن معظم دخلها كان من هذه الحركة التجارية ومن هذه المكوس والضرائب التي تحصلها في ميناء جدة وموانئها الأخرى؛ من أجل ذلك بدأت دولة المماليك في تسيير الأساطيل لمواجهة البرتغاليين، خصوصًا بعد أن استغاث قادة المسلمين في

(١) قطب الدين محمد النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٩، ص ١٨–١٩.

الهند بهم بعد إحراق سفن حجيجهم، ولا سيما بعد وضوح النوايا البرتغالية المتعصبة نحو المقدّسات الإسلامية.

وعلى الجانب الآخر، خرجت أول حملة لدولة المماليك من مصر في عام ١٥٠٥م وبنت تحصينات في جدة وأكملت طريقها إلى الهند، وأحرزت انتصارًا محدودًا في معركة شاول ١٥٠٨م؛ ولكن في العام التالي ١٥٠٩م وقعت معركة ديو البحرية، التي أنهت السيطرة المصرية على طريق التجارة؛ وتحرك البرتغاليون إلى البحر الأحمر بقيادة البوكيرك في عام ١٥١٣م؛ حيث دمروا عدن والمدن الأخرى متجهين إلى جدة[١].

وبالترتيب الزمني للأحداث فإن الدولة العثمانية قد ورثت هذه المواجهات المصيرية بعد أن انفرط عقد دولة المماليك؛ وترتب على ذلك دخول مصر ثم الحجاز – طوعًا - في الحكم العثماني.

كانت لدى البرتغاليين تحالفات قوية مع الدولة الصفوية – كما أسلفنا القول - وكذلك مع ملك الحبشة، الذي أُوزِرَ في وضع خطة لتحويل مياه النيل لإفقار مصر، كما كانت لديهم تحالفات مع قوى محلية على الأرض متعاطفة معهم في الجانب الأفريقي القريب من البحر الأحمر. في هذا الوقت كانت التحركات البرتغالية تقوم بأول غزو عسكري أوروبي في التاريخ لجنوب العالم الإسلامي والعالم العربي بهدف تحقيق أهداف اقتصادية بقناعة صليبية عنصرية، مع رغبة جامحة في الانتقام من المسلمين، وإلحاق الدمار الشامل باقتصادهم وموانيهم، واستخدام القوة العسكرية الغاشمة لمَحْقِهم.

---

(١) نوال حمزة الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٩٨ – ١١٠.

أما في الهند فقد دخلت القوات البرتغالية في تحالف مع القوى الهندوسية على الأرض داخل القارة الهندية، وخاصةً بعد الهزائم التي حاقت بالأساطيل الإسلامية المملوكية؛ حيث تحالفت دولة فيجاياناجارا مع البرتغاليين ضد الوجود الإسلامي في الهند.

ب - جدة في قلب الحزام الأمني:

وجدت الدولة العثمانية نفسها في مواجهة هذه التحالفات التي تشمل دولًا متعددة؛ ترمي كُلُّها عن قوس واحدة، موجهين سهامهم صوب الإسلام أو الإسلام السُّنِّي - إن أردت الدقة - نزولًا على رغبة الدولة الصفوية، كما تهدف هذه التحالفات إلى تدمير الحياة الاقتصادية والتجارية للمجتمعات المسلمة؛ بتحويل منبع الخير من جدة إلى لشبونة الصليبية.

فلم تجد الدولة العثمانية أمامها سبيلًا لمواجهة ومجابهة تلك التحديات إلا بسياسة «لا يَفُلُّ الحديدَ إلا الحديد»؛ فأخذت في تطبيق مفهوم الحزام الأمني؛ لأن إحاطة الجزيرة العربية بهذا الحزام يضمن السيطرة البحرية على البحار والمضايق المحيطة بها والمؤدية إليها؛ الأمر الذي أدى إلى دخولها في تحالفات مع القوى المحلية في الأماكن القريبة من هذا الحزام، والاستفادة القصوى من الإمكانات الطبيعية المتوفرة باستغلال عنصر الجغرافيا أعمق استغلال في هذه المجابهات، وأيضًا لأغراض التوسع والحفاظ على مكتسباتها في الأقاليم الجديدة؛ وبالاتحاد وتكوين تحالفات تكون الدولة العثمانية قد خلقت قوى توازن وتناظر وربما تفوق تحالفات البرتغاليين والأحباش.

تأتي جدة على رأس قائمة القوى المحلية والمواقع الجغرافية التي استخدمته الاحتلال العثماني لتحقيق سياسة الحزام الأمني، خصوصًا أنها ذات مكانة خاصة

- عند الدولة العثمانية - منذ أن دخلت الحجاز طوعًا في الحكم العثماني، ولا ننسى أهمية موقعها الجغرافي المتفرد في منتصف البحر الأحمر، ولا يغيب عنا أنها ميناء الحرمين الشريفين، وأقرب المنافذ البحرية إلى العثمانيين وأهمّها.

ولما كانت جدة نقطة الارتكاز في الممرات البحرية للتجارة الشرقية بين أوروبا والهند والصين؛ اعتبرها العثمانيون نقطة الارتكاز في الضلع الغربي للحزام الأمني حول الحرمين؛ لهذا لا بدّ من التعامل معها من منطلق أهميتها الإستراتيجية والعسكرية قبل أهميتها التجارية؛ فربطوها مباشرة بالحكومة المركزية، وتم فصلها عن الأشراف في مكة، واعتبرتها الدولة العثمانية منطلقًا للتحركات نحو اليمن.

وأعلن السلطان سليمان القانوني جدة (إميرالية) بحرية؛ فأصبحت بذلك ثاني (إميرالية) في البحر الأحمر؛ حيث سبق للسلطان سليم عند دخوله مصر أن تَوَّجَ السويس (إميرالية)؛ نظرًا لاحتوائها على ترسانة صناعة السفن، وفي مرحلة تاريخية لاحقة أعلن ضم شواطئ اليمن إلى إميرالية السويس[١]، واحتفظت القيادة البحرية بالاستقلال؛ لارتباطها باستراتيجية الحكومة المركزية الحربية.

قبل ذلك، كان البرتغاليون قد أغلقوا مداخل البحر الأحمر وحولوا طرق التجارة الشرقية؛ حيث بدأ هجومهم على السفن العربية التي تتاجر بالتوابل عام ١٥٠٠م، وفي عام ١٥٠٢م منعوا أي سفينة عربية من دخول البحر الأحمر، ودخل أوَّل أسطول برتغالي فيه في عام ١٥٠٣م؛ لإغلاق مدخله أمام السفن العربية، ثم جاء الهجوم الأول على جدة في عام ١٥٠٥م، وبات الخطر واضحًا؛ بسبب تعطيل الملاحة في البحر الأحمر.

---

(١) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة: عدنان سليمان، المجلد ١، الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٠، ص ٣٢٥.

ويصف ابن إياس ذلك الوضع المتدهور في عام ٩٠٩هـ/١٥١٤م، فيقول: «... فإن بندر الإسكندرية خَرِبَ، ولم تدخل إليه القطائع (السفن) في السنة الحالية، وبندر جدة خَرِبَ؛ بسبب تعبث الفرنج (البرتغال) على التجار في بحر الهند، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحوًا من ست سنين، وكذلك جهة دمياط[١]. لهذا صممت الدولة العثمانية بناء حزام أمني حول الجزيرة العربية؛ لحماية الحرمين، ولأغراض التوسع والسيطرة أيضًا، كما أسلفنا القول، ولتنفيذ هذا المخطط العثماني تم التركيز على اتجاهين:

- **الأول:** السيطرة على الشام ومصر والحجاز، ثم شواطئ اليمن وخصوصًا عدن؛ لتأمين البحر الأحمر، واتخاذ جدة منطلقًا للحملات داخل البحر الأحمر، واعتبار ميناء عدن اليمني قاعدة متقدمة لمواجهة البرتغاليين في بحر العرب والمحيط الهندي.
- **الثاني:** السيطرة على العراق ومنه على بقية الخليج العربي، ثم التعاون مع القوى المحلية، مثل: حاكم الأحساء لمقاومة البرتغاليين في الشاطئ الغربي للخليج[٢].

نجحت البحرية العثمانية في السيطرة على البحر الأحمر سيطرة كاملة لسببين: أولهما: سرعة السفن وقدرتها على الحركة والدوران فيه؛ بسبب تصميمها وحجمها مقارنة بالسفن البرتغالية. وثانيهما: هو نوعية التسليح على هذه السفن ومدى وصول نيرانها، أضف إلى ذلك أن البحرية العثمانية تمتعت بأنظمة إبحار

(١) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج ٤، ص ٣٥٩.

(٢) عمر سالم بابكور، حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٦م، ص ٣٨٣.

متفوقة طَوَّرتها في أثناء تحركاتها ومعاركها في البحر الأبيض المتوسط في مرحلة تاريخية سابقة[١]. وعقب سيطرة الدولة العثمانية على (بحر الحجاز)[٢] أغلقته؛ حماية للأماكن الإسلامية المطلة عليه، وتقنينًا للإبحار فيه، وذلك فيما تبقى من القرنين السادس عشر والسابع عشر، والشطر الأكبر من القرن الثامن عشر.

تكمن أهمية شواطئ اليمن في أنها تشكل البوابة الجنوبية للبحر الأحمر عند مضيق باب المندب المؤدي إلى المحيط الهندي، ويُعَدُّ المضيق أيضًا بوابة اليمن نحو أفريقيا؛ لكونه أقرب نقطة تصل القارة الآسيوية بالقارة الأفريقية جنوب البحر الأحمر.

ومن ينظر إلى اليمن من الناحية الجغرافية يجده ذا أهمية متعددة الأبعاد؛ لأن امتداد حدوده من ناحية الشمال «نجد» و«الحجاز»، ومن ناحية الجنوب خليج عدن، ومن ناحية الشرق حدود عمان والربع الخالي، ومن الغرب البحر الأحمر، ومضيق باب المندب. هذه الأهمية الجغرافية تجعل منه أول موقع للدفاع عن الحدود الجنوبية للدولة العثمانية؛ ولذا فإن السيطرة على اليمن تعني التحكم في البحر الأحمر وبحر العرب الذي هو جزء من المحيط الهندي، ومواطئ قدم القادم من البحار الشرقية؛ لمهاجمة السفن البرتغالية وتطويق الدولة الصفوية، وجدة هي القاعدة المناسبة للانطلاق عسكريًّا نحو اليمن، وقد وصل العثمانيون إلى هذه القناعة منذ أن سيطروا على مصر، وبعد أن قررت بناء السفن بأمر خاير بك والي مصر في ترسانة بولاق للسيطرة على البحر الأحمر واليمن من جدة[٣].

---

(١) يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، مرجع سابق، ص ٤٣٨-٤٣٩.

(٢) كانت هذه التسمية هي السائدة آنئذ للبحر الأحمر.

(٣) خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٩٦-١٩٧.

جهـزت الدولـة العثمانيـة حملـة بحريـة كبيرة تحـت قيادة سـليمان الريس وتحركـت إلـى جـدة عـام ١٥٢٦م، واسـتطاع أن يدخـل بهـا اليمـن فـي عام ١٥٢٧م؛ لأن العثمانييـن كانوا يريدون السـيطرة على شـواطئ اليمن والحلول محل المماليك؛ لتحقيق أهدافهم العسـكرية توسـعًا أو دفاعًا، واستمرت جدة هي نقطة الانطلاق لكل الحملات المَرَّة بعد المَرَّة.

أهم الحملات خرجت في عهد السـلطان سليمان القانوني، وكانت تهدف إلـى محاربـة البرتغاليين أساسًـا بعد السـيطرة على اليمن، وهي حملة سـليمان الخادم عام ١٥٣٨م، واسـتطاع أن يسـتولي على «عـدن» وقضى على آل طاهر حُكَّام اليمن، واحتل الشواطئ اليمنية دون الداخل اليمني، وتوجه إلى محاربة البرتغالييـن، واسـتمرت الحـروب العثمانيـة فـي اليمـن، وفـي هـذه المرحلة استطاعت الدولة العثمانية السيطرة على البحر الأحمر[١].

استطاعت الدولة العثمانية السيطرة على شواطئ البحر الأحمر سيطرة كاملة دون الداخل اليمني؛ فلم تستطع القوى البرتغالية الدخول إليه بعد حملة سليمان الخادم؛ ولكن البرتغاليين استغلوا نفوذهم في منطقة الخليج العربي؛ لتدمير طرق التجـارة المارَّة فـي البحر الأحمر، عن طريق مهاجمـة المراكز البحرية العثمانية المطلة عليه، وممارسـة أعمال القرصنة عند مدخله وعلى شـواطئ جنوب شـبه الجزيرة العربية، واعتبرت البحرية العثمانية عدن خط الدفاع الأول لضرب المراكز التجارية البرتغالية، واتبعت سياسةً تُمَهِّد لتنشيط العمل بميناء جدة وموانئ مصر؛ وبنـاءً علـى ذلك جددت ميناء (المخا اليمني) وجعلته نهاية السـفن الأجنبية، لا تتعـداه، وبعد ذلك تنقل السـفن البضائع إلى ميناء (جـدة) وموانئ مصر، وبهذا

(١) فاروق عثمان أباظة، دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨م، ص ٢١ وما بعدها.

الصنيع يصبح البحر الأحمر بحيرة إسلامية، تتحكم فيها الدولة العثمانية تحكم الملاك في أملاكهم للأسباب والأغراض التي أسلفنا القول فيها.

ووجهت الحملة البرتغالية في عام ١٥١٧م على جدة أنظار العثمانيين إلى خطورة تلك الحملات على الحرمين الشريفين؛ ولكن حملة عام ١٥٤١م على جدة هي التي حزمت وحسمت الأمر بإغلاق البحر الأحمر أمام البحرية الأوروبية عمومًا، والبرتغالية بصورة خاصة، واعتبار كل من عدن وجدة من نقاط الدفاع الرئيسة عن الحرمين الشريفين. وهذا ما جاء نصًّا في رسالة السلطان سليم الثاني (٩٧٤–٩٨٢هـ) إلى سنان باشا الذي قاد الحملة لفتح اليمن في عام ١٥٦٩م: «إن استردادنا لمملكة اليمن وإن كان ذلك ممَّا يتعين عليها؛ لأنها ميراث أبينا المرحوم، لكن جُلّ قصدنا من ذلك هو حفظ ثغر عدن؛ صونًا للحرمين الشريفين من الكفار الملاعين»[(١)].

قبل ذلك أرسلت حملة سليمان باشا إلى الهند في عام ١٥٣٨م، ولكنها قامت بالتعامل بشكل سيءٍ مع سلطات «كجرات» المحلية، بالكثير من التعالي والغدر، وإساءة جنود الحملة لجنود الهند، فضلاً عن إساءة معاملة رسول السلطان محمود شاه، الذي أرسله لسليمان باشا - هذه الواقعة تنم عن أن شخصيته مليئة بالغطرسة ولا يفقه شيئًا عن الدبلوماسية -، وبسبب ذلك تحولت قطاعات كبيرة من الهند لتحارب في صفوف البرتغاليين ضد المسلمين، ويرجع ذلك إلى افتقار الدولة العثمانية - باعتبارها الدولة الإسلامية الرئيسة والمدافعة عن المقدسات الإسلامية - إلى استراتيجية دبلوماسية وحربية متكاملة على مستوى المنطقة؛ لاحتواء ومواجهة هذا الخطر الذي بات يهدد المجتمعات الإسلامية وأماكنهم المقدسة.

---

(١) فائق بكر صواف، أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري(١٦م)، مجلة الدارة، العدد الثاني للسنة السادسة، ١٩٨١، ص ٢١٦.

في هذه المرحلة من الصراع كانت جدة مركز القيادة والإدارة للبحر الأحمر منذ إنشاء العثمانيين ولاية الحبش (١٥٥٠-١٥٥٥م)، والتي سيأتي ذكرها لاحقًا، جعلوا قاعدتها في سواكن، وقصروا مهمتها على متابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر، والشاطئ العربي والأفريقي؛ لإحكام السيطرة على البحر الأحمر، وقد رحبت المجتمعات المسلمة بالسيطرة العثمانية لردع الهجمات البرتغالية؛ ولكن عجز العثمانيون في تحطيم السيطرة البرتغالية على البحار الشرقية وشق طرق واسعة للتجارة والملاحين العرب[١].

لفهم الجهة الأخرى من الحزام الأمني في منطقة الخليج العربي فإن البرتغاليين كان لديهم علم مسبق بهذه المنطقة منذ مرحلة الاكتشافات الجغرافية ولا سيما اكتشاف رأس الرجاء الصالح؛ الذي قلب عالم الملاحة رأسًا على عقب، فأدركوا أهمية مضيق هرمز للخليج والملاحة الدولية؛ من أجل ذلك هاجم البوكيرك الممالك الإسلامية هناك، وأحرق المدن التي ترتبط مع هرمز ملاحيًّا، بل قصف مضيق هرمز؛ وأذعن له المماليك بدفع الجزية، وأصبح الوجود البرتغالي حقيقة؛ لمواجهة هذا الخطر احتل العثمانيون العراق؛ لمحاصرة الدولة الصفوية حليفة البرتغاليين، وكذلك للسيطرة على البصرة المُطلة على الخليج العربي، وفي السنوات التي دارت فيها رحى الحروب الطاحنة كانت الأحساء والقطيف هما المركز العسكري والسياسي الذي تخرج منه الحملات العسكرية؛ للهجوم على القواعد البرتغالية في هرمز وتأمين الخليج، واعتبرت (الأحساء) خط الدفاع الشرقي للدولة العثمانية، وجعلوا

(١) جمال كمال محمود، البحر الأحمر في الإستراتيجية العثمانية ١٥١٧–١٨٠١م، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٩، صفحات متعددة، وكانت ولاية الحبش في عام ١٥٥٥م.

الهفـوف عاصمة لها؛ ليشـكل ذلـك خط الدفاع البري المسـاند للقوى البحرية في الخليج لمواجهة البرتغاليين. اسـتمرت الحروب والغزوات ابتداءً من نهاية القرن السـادس عشـر وما بعده بغرض تأمين الخليج العربي، وكانت الأحسـاء هي نقطة المركز والحرب في الجناح الأمني الشرقي؛ لتأمين الحرمين الشريفين من قبل الدولة العثمانية[١].

(١) بابكور، حزام الأمن العثماني، مرجع سابق، ص ٤٠٥ – ٤١٣.

رابعًا:
دور ميناء جدة في القيادة الإقليمية

تمهيد:

سلطة الجغرافيا هي التي أغرت الإمبراطوريات المتصارعة أن تحضر إلى جدة وتدخلها ضمن دائرة نفوذها، والتحكم في الحركة التجارية والحربية من خلالها منذ حادثة التجوير الشهيرة؛ لكن الميناء من الناحية العملية هو نقطة المركز الذي تتبلور فيه أهمية جدة التجارية، وأحيانًا أهميتها الإستراتيجية عندما يرتبط الأمر بالتحركات العسكرية بحريًّا، وقد كان للميناء فائدة مباشرة وغير مباشرة من خلال السيطرة عليه. الفائدة المباشرة من السيطرة على الميناء كانت تتمثل في الرسوم الجمركية والمكوس التي شكلت ثروة يعتد بها في فترات تاريخية معينة، وكانت مصدرًا مهمًّا للإنفاق على دولة المماليك في مصر، أو على الحجاز بأكمله إبان الاحتلال العثماني، بما في ذلك الإصلاحات في الحرمين الشريفين ورواتب الجند والموظفين. أما الفائدة غير المباشرة فقد تمثلت في الآثار الإستراتيجية من استخدام الميناء كسلاح اقتصادي، ساهم في سقوط الدولة الرسولية في اليمن - مع الأسباب الأخرى كتمرد الزيدين والطاهريين -، وذلك بحرمانها من مدخول التجارة الشرقية، ومن الناحية الحربية كانت الدولة العثمانية تستخدم ميناء جدة لخروج الحملات العسكرية نحو اليمن ومن قبلهم دولة المماليك؛ حيث خرجت العديد من الحملات من جدة إلى اليمن.

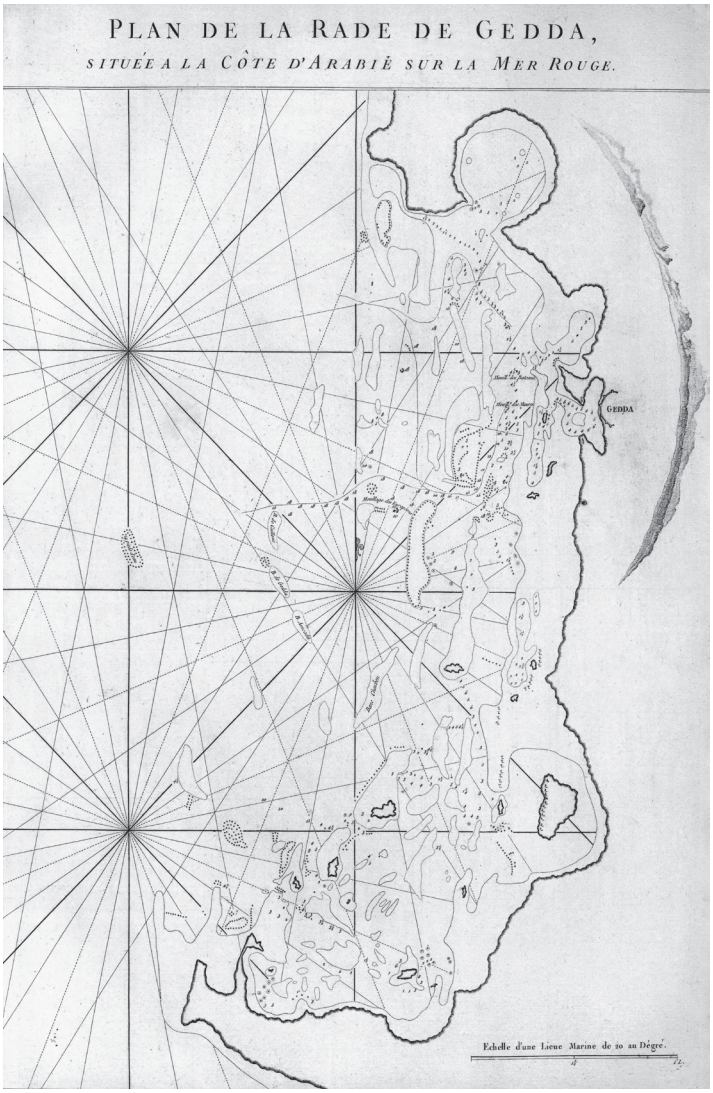

● **خريطة بحرية لجدة من مرجع فرنسي**

خريطة بحرية لجدة تعود إلى عام 1810م رسمها كل من:

Apres de Mannevillett, Jean Denis.

اسم الخريطة (الطريق إلى جدة)، نشرت في باريس ضمن أطلس العمليات البحرية للأسطول الفرنسي لاستخدامها عند الإبحار باتجاه الشرق، والطبعة الأولى للأطلس في عام ١٧٤٥م، وتحتوي على ٦٩ خريطة جميعها تأخذ نفس الشكل الخارجي، وتحوي تحديد أعماق البحار.

استخدمت الدولة العثمانية الميناء وجدة كلها للسيطرة على الإقليم كله، بما في ذلك الجهة المقابلة من البحر الأحمر في أفريقيا عندما أنشأت (إيالة الحبش) التي كانت تدار من ولاية جدة اقتصاديًّا وعسكريًّا وإداريًّا.

وكانت جدة، في مناسبات تاريخية أخرى، بمثابة العاصمة للقوى المحتلة للحجاز كله، وهذا تجلّى في مناسبتين، الأولى: في القرن الثامن عشر عندما احتل علي بك الكبير الحجاز بغرض تغيير مسار التجارة الشرقية لتكون في السويس بدلًا من جدة، وعين حسن بك شبكة حاكمًا لجدة لمدة شهرين. والثانية: عندما استقدمت الدولة العثمانية فيالق محمد علي باشا لاحتلال الجزيرة العربية اختار جدة لتكون عاصمة له، وخرج مطرودًا من الحجاز، وكذلك حسن بك؛ حيث لفظ الحجاز هذا الاحتلال في المرتين، وكان الميناء والموقع البحري أكبر جاذب لهذا الاحتلال، وسوف نوجز هذه الأحداث والمتغيرات ونوثقها بعد وصف الميناء نفسه.

أ - الميناء بين الأوساخ والجمال[١]:

ميناء جدة هو نقطة المركز في أهمية المدينة سواء في ظهورها الأول عندما اعتبره الخليفة ميناء مكة، أو في الظهور الثاني عند اختيارها من قبل الناخوذة إبراهيم حين اعتبر الميناء مركزًا لحركة التجارة الشرقية، أو في الظهور الثالث عندما اعتبرت الدولة العثمانية أن الميناء هو منطلق الحملات العسكرية للدفاع عن الحرمين والتوسع نحو اليمن وغيرها.

---

(١) المقصود بالأوساخ: هي الشعب المرجانية التي تتسبب في غرق السفن، والمجهولات هي القطع البارزة من قاع البحر وقريبة من السطح.

الإبحار نحو هذا الميناء لم يكن بالسهولة المتوقعة؛ ولكن طبيعة تكوين البحر الأحمر فرضت قيودًا ومعوقات على الإبحار نحو الميناء الذي وهبه الله من الجمال ما تعجز عنه الألسن.

وصفه ابن ماجد بأقسى الأوصاف؛ حيث قال: «لأن بحر قلزم العرب أوسخ بحور الدنيا، وسلكه الناس أكثر من بحور جميع الدنيا؛ لأجل البيت العتيق، وزيارة الرسول ﷺ؛ ولأجل المعاش والرواح، والمجيء بالطعام»، وقد خَصَّص ابن ماجد أرجوزة من خمسةٍ وخمسين بيتًا يصف فيها الطريق البحري إلى جدة، وأن سلوك هذا الطريق غير ممكن إلا في النهار. يقول ابن ماجد في الأرجوزة الثانية واصفًا الملاحة عند جزيرة سيبان، ومطلقًا على البحر الأحمر أو بحر القلزم: (بحر المشقة):

هنيت رقاد الأمر يا بن مقدم وأمنت أوساخ بحر المشقة[١]

تقابل هذه النظرة العملية لابن ماجد النظرة الشاعرية لأمير البيان شكيب أرسلان؛ حيث يذكر أن قبطان الباخرة التي أخذته إلى جدة يقول ويتفق معه: «لقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري، رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها، أنه وإن كانت هذه السواحل قفارًا لا تستحق أن ترفأ إليها البوارج ولا السفن؛ فإن وراءها من المعنوي أمرًا عظيمًا وقصصًا كريمًا، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله، ولقد قيل لي في جدة ماذا رأيت؟ فمن العادة أن تجتمع في مياه جدة ثلاثون باخرة أو أربعون باخرة، وقد يبلغ عدد الراسي فيها خمسين

(١) أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق: تيودور شوموفسكي، ترجمة: محمد مرسي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٦٦ وما بعدها.

باخـرة؛ حيـث يعـود البحر غابًا ... وتظن نفسـك في هامبـورغ أو نيويورك. أما المنظر الثاني فهو منظر مياه هذا الميناء، ولم يقع بصري على شـيءٍ يشـبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان. كنت كيفما نظرت يمنةً أو يسـرةً أشـاهد خطوطًا طويلـة عريضة في البحر أشـبه بقوس قزح في تعدد الألـوان، وتألق الأنوار من أحمر وأزرق وبنفسجي، وعنابي وبرتقالي وأخضر، ولا فرق بين هذه الخطوط وبيـن قوس قزح سـوى أن هذه الخطوط مسـتقيمة، وقوس قـزح مقوس، وأن هذه في السـماء، وهاتيك في الماء، وقد تشـبه هذه الخطوط ذيل الطواويس، فـكأن فـي كل جهة من بحر جدة مسـرح طواويس سـابحة فـي اللجج الخضر، وظهورهـا إلى سـطح الماء الواحد منهـا بقدر ألف طاووس ممـا نعد»[١]. ربما نفسـر هذه النظرة الشـاعرية التي قدمها شكيب أرسلان بأنها انعكاس لشخصيته الأدبية وأيضًا جاء في فترة كان بها تقدم في وسائل النقل البحري وبدأت مظاهر الحداثة فيها تعرف طريقها لميناء جدة، ومن الناحية الأخرى فإن تفسـير ونظرة ابـن ماجـد للميناء ومشـكلات الملاحة به تبدو من وجهة نظـرة «مهنية»؛ حيث كانـت نظرته شـديدة التحامل علـى الميناء والبحر الأحمر بسـبب ما لاقاه أثناء الإبحار.

قُدِّرَ لميناء جدة أن يقع بين المتناقضين؛ أي: بين الخطورة التي أشار إليها ابـن ماجـد، والجمـال والأهمية التي أشـار إليهما أمير البيـان، وكلاهما نتيجة التكويـن الصخـري لقـاع البحر الأحمر. أضف إلى ذلـك أن البحر الأحمر يعدُّ مـن البحـار المغلقة؛ ولهذا تؤثـر التضاريس المحيطة به فـي طبيعته؛ حيث إن ارتفـاع درجـة الحـرارة وزيادة نسـبة الرطوبة لها أثـر على الملاحـة البحرية فيه

(١) شـكيب أرسلان، الارتسـامات اللطاف فـي خاطر الحاج إلى أقـدس مطاف، تحقيق: أيمن حجازي، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م، ص ٢٨.

خاصـةً أن المناطـق المحيطـة به ذات منـاخ صحراوي، وتيـارات الهواء تتولد مـن هـذا المناخ؛ لهذا يوجد فصلان للرياح يتحكّمان في مسـارات السـفن في الجزء الشـمالي من البحر الأحمر: الفصـل الصيفي: من أواخر مايو حتى نهاية سـبتمبر، والرياح الشـمالية مستمرة ومنتظمة، وفيها تتحرك السفن من السويس إلـى جدة. أما الفصل الثاني: من ديسـمبر حتـى منتصف فبراير؛ حيث تهب فيه الرياح جنوبية وتأخذ السـفن من جدة؛ ولا تقوى في بعض الأحيان أن توصلها إلـى السـويس، فبالكاد تأخذها حتى المويلح؛ مما يضطرهـا إلى انتظار الرياح الخماسينية التي تأخذها إلى السويس. أما في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر فتكون الرياح موسمية تتحكم في حركة السفن القادمة من الهند حتى تصل إلى جدة أو المخا ولا تتعدى ذلك.

ولقد ذكر الرحالة ابن ماجد خمسة أنواع للرياح تهب على البحر الأحمر :

- **ريح الصَّبَا:** يقول ابن ماجد:

سرَتْ نسْمةُ الفِردوْس من أرضِ مكَّةٍ بريح الصَّبا فاشتاقَتِ السيْرَ جَلْبَتي
وموْسِـمُها سَـبعونَ مـن بعـدِ مايَةٍ إلى اليمـنِ الفيحـاءِ أرضِ المحبَّةِ

- **ريح الصورم:** وهي نسيم البرِّ والبحرِ، وتكون موجودة عند خروجك من المرسى في الصباح، وعند دخولك فيه في المساء[١].

- **ريح الأزيب أو الجنوب:** وهـي ريـح تأتي من خليج عـدن مخترقة البحر الأحمر وحتى السويس، ولا تنقطع في زمن الرياح الموسمية الجنوبية الغربيـة، ولا فـي زمـن الرياح الموسـمية الشـمالية الشـرقية، ويقول

(١) جمـال كمـال محمـود، البحـر الأحمر فـي الإسـتراتيجية العثمانية...، مرجع سـابق، صفحات متعددة.

ابن ماجد في هذه الريح:

ومنه للسويس خذ أوصافي بأزيب مؤلم يبقى صافي

- **ريح الشَّمَال:** وهي مرتبطة بالأزيب، وقاعدتها عنده: وقت غلبة الأزيب جنوبه، ووقت غلبة الشمال شماله، فيقول: «فكلما أجنبت توسعت الجنوبية، وكلما اشتملت توسعت الشمالية».
- **ريح الدَّبُور:** وتسمى «الرهدة»، و«العولية»، ويقول ابن ماجد: فإذا خرجت من جدة أيام «العولية» (من مائتين وعشرين إلى مائتين وثمانين) فخير المجاري الارتفاع لبرّ العجم[١].

ب - الميناء والازدهار والجمارك:

لعبت جدة دورًا مركزيًّا في ما يسمى التجارة الشرقية؛ حيث كانت في المركز ونقطة الانطلاق وليس لأنها ميناء مكة فقط ولكن لأهميتها الإستراتيجية.

وسوف نستعرض وضع الميناء عبر القرون لفهم هذه الأهمية أو عدم الأهمية بصورة موجزة.

ب - ١: القرنين الخامس عشر والسادس عشر:

بدأت جدة عصرًا جديدًا في حياة الميناء والمدينة نفسها بعد حادثة التجوير للنأخوذة إبراهيم في (١٤٢٥م) إبان فترة حكم السلطان الأشرف برسباي المملوكي في مصر الذي مهد لهذا؛ لأنه استشعر أهمية الدخل المادي من جمارك ميناء جدة إذا أحسن استغلاله بصورة منهجية، ويكون العائد الاقتصادي الكبير مصدرًا أساسيًّا للصرف على الدولة المصرية نفسها.

---

(١) حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٥٧.

أول سنة بعد التجوير نقل الناظر المملوكي ٧٠ ألف دينار، وفي العام الذي يليه ٢٠٠ ألف دينار، واستحدث السلطان وظيفة شاد جدة، وأول شاد لجدة كان سعد الدين إبراهيم الملقب ابن المرة، وكان قبطيًّا مُلِمًّا بالحسابات والتجارة، استطاع أن يحقق ثروة كبيرة لنفسه ودخلاً هائلاً لدولة المماليك، وعامل التجار بصورة قاسية غير مسبوقة. وكان السلطان المملوكي يرسل قوة عسكرية إلى الميناء قبل أن تصل المراكب من الهند لقطع دابر أي تلاعب في تطبيق القوانين[١]. وظيفة شاد جدة كانت تعطى لأهل الخاصة والمقربين من الحاكم، وكان يعطي هو رشوة للحاكم ليستمر في عمله، كما حصل في عودة ابن المرة إلى هذا المنصب بعد أن عزله السلطان أكثر من مرة.

شاد جدة في سعيه إلى تحصيل أكبر قدر من المال في بعض الحالات تسبب في أزمات كبرى، مثل الأمير جانبك الظاهري الذي تولى الحكم إبان السلطان جقمق ١٤٤٧م، وظلم تجار جدة لدرجة أن التجار رفضوا أن يعودوا إلى أعمالهم وأغلقوا تجارتهم، كذلك في عهد السلطان الغوري ١٥٠٢م كانت خزائن الدولة خاوية، فلجأ إلى سياسة مصادرة البضائع، وعين لذلك شخصًا اسمه علي أبو الجود، فاجتمعت له الكلمة وجار على الناس بالظلم، حتى ضرب الثغور ومنها الإسكندرية وجدة[٢].

الازدهار الذي شهده ميناء جدة في بداية هذا القرن دفع تجارًا من الأندلس والمغرب أن يقصدوا ميناء جدة لبيع تجارتهم من الحرير والنحاس، واستيطان جدة. أدى تدهور ميناء عدن إلى انتقال الحركة التجارية إلى ميناء جدة، واستوطن تجار اليمن جدة ومكة بشكل نهائي، وفي دراسة ريتشارد مورتيل أن

(١) السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ١٠٦.

(٢) علي السيد محمود، الحياة الاقتصادية في جدة ...، مرجع سابق، ص ٧٠.

الأثريـاء الجـدد في مكة جاء ثراؤهم جـراء التجارة مع الهند، بعد افتتاح الخط البحـري المباشـر إلى جدة، وتوثق كتابـات تلك المرحلة هذا التحول من عدن إلى جدة؛ حيث ذكر ابن الديبع عن غرقِ مركبٍ عظيمٍ فيه أموال كثيرة لجماعة من التجار يحمل بضائع صينية وهندية قادمًا من عدن إلى جدة[١].

دولة المماليك أول من وضع الأسـس الإدارية والمالية لميناء جدة وطريقة تحصيـل الجمـارك، واعتبـار هذا الميناء مصدر دخل رئيسـي لدولـة المماليك وتعاملت بصورة ممنهجة مع جمارك الميناء؛ حيث اسـتحدثت دولة المماليك نظامًا متكاملاً للإجراءات الجمركية يطابق ما هو معمول به في الموانئ الرئيسية الأخـرى فـي الأقاليم التي تتبع لها من ناحية جرد البضائع وعمل الإحصائيات، وإجراء صعود موظفي الجمرك إلى سطح السفينة، وعدم السماح بنزول البضائع حتـى يتـم الجـرد وتحديد الرسـوم. وظفت السـلطات فريقًا مـن المختصين أو المهنيين منهم (الجابي) و(الصيرفي)، وفئة أخرى تسـمى شـهود القبان لمراقبة الموازين، وموظفين آخرين للإشـراف على الحركة التجارية اسـمهم (مباشري الختم)؛ لضمان استيفاء كافة الرسوم والضرائب على السلع.

أدركـت السـلطات أهمية تجارة الكارميـة لهذا خصصت لهـم موظفًا مختصًّا للإشـراف علـى المراكـب الكارميـة الذين يحتكـرون تجارة البحـر الأحمر، ومع حسن المعاملة اعتبروا جدة نقطة الانطلاق لهم وبمثابة قاعدة ومخزن لبضائعهم، ويعتبـرون من أهم أسـباب ارتفـاع إيرادات جمـرك جدة، ومثلما حظـي الكارمية بقاعـدة بضائـع في ميناء جدة كذلك سـمحت السـلطات لتجار الهند والشـرق أن يحتفظـوا بالبضائع في مخازن حكومية كبيرة، تحت إشـراف السـلطات نظير أجر

(١) وردت هـذه فـي عبد الجليل التميمي، دور اليمن في التجارة الشـرقية الكبرى، مرجع سابق، ص ١٩.

معين. والسماح بوجود مفتشين من الهند والدول الأخرى تعينهم حكوماتهم بموافقة السلطات المحلية للعمل في جمارك الميناء يمسكون السجلات الخاصة بالمبيعات والمشتريات لمواطنيهم ومقارنة الرسوم مع بضائع الدول الأخرى، ويعملون بمثابة ضامنين للتجار من مواطنيهم الذين يتركون جدة وعليهم دين للجمارك.

هـذا العمل المنهجي تدعمه قوة عسـكرية، أول ما وصلت نزعت الجمرك من يد شـريف مكة وكانت بقيادة قرقماش الشـعباني في فترة السلطان برسباي، وأصبحـت تحضـر قوة عسـكرية من مصر سـنويًّا؛ حيث قرر برسـباي تحصيل عشرة في المئة أو العشور لتكون من حق دولة المماليك خاصة وأنه كان يتسمى باسـم سـلطان مصر والحجـاز إلا أنه لم يهمـل أمير مكة من الأشـراف؛ حيث صدر قرار في ١٤٢٩م بالإنعام على صاحب مكة السيد بركات بن عجلان بثلث المتحصـل من جمـرك جدة على البضائع الواردة من الهند، ورفع ذلك في عام ١٤٣٧م إلى أن تكون نصف المتحصل من التجارة مع الهند[١].

بعد أن دخل العثمانيون إلى مصر انهارت دولة المماليك في ١٥١٧م، وأصبح السـلطان سـليم الأول حاكمًـا لمصـر، وكانت الأسـاطيل الإسلاميـة المملوكية تجوب البحار في الصراع مع البرتغاليين، وأرسـل الشـريف بركات شـريف مكة ابنه الشريف أبو نمي في ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلى القاهرة، وقدم آيات الولاء والطاعة ومفاتيـح الكعبة وبعض الآثار النبوية (موجودة في المتاحف التركية اليوم)، ومن هنا أقره السلطان على الشرافة وبعث معه فرمانًا سلطانيًّا ورسالة توليه، وبموجب نظام الشرافة الذي دخل فيه الحجاز تحت الحكم العثماني طوعًا وبدون حروب، أعفى السـلطان أهل الحجاز من بعض الضرائب والمكوس، وأصبح الدعاء في الحرمين الشـريفين للسـلطان العثماني، ودخل جمرك جدة يوزع بالتسـاوي بين

(١) علي السيد علي محمود، الحياة الاقتصادية...، مرجع سابق، ص ٨٥-٨٦.

الشـريف فـي مكة وبين سـنجق جـدة، والأخير مطالب باسـتخدام هـذه الموارد لدفـع مرتبـات الجنود والموظفيـن العثمانيين وأعمـال الإدارة والإصلاحات في الحجاز، وانحصرت وظيفة أمير مكة في أسـرة واحدة من الأشـراف هي أسـرة أبـو نمي بالوراثة، وكان الشـريف يحكم مكة وأجزاء واسـعة مـن الحجاز بدون ضوابط قوية من المركز، الأمر الذي أوجد نزاعات مسـتمرة مع حاكم جدة على الدخـل، ورغبة الشـريف في الحصول على نصيب أكبـر والتدخل في إجراءات الجمارك، وهذا كان من صالح الدولة العثمانية التي اتبعت سياسة فرق تسد بين عناصـر الإقليم والسـكان، وكان أسـاس الخلافات نقص الموارد المالية وسـوء توزيـع دخـل الميناء، واسـتمرت هذه الخلافات من القرن السـادس عشـر حتى وقعـت جـدة تحت احتلال فيالق محمد علي باشـا في القرن التاسـع عشـر الذي أبطل هذا التوزيع، وعادت إليه الدولة العثمانية لاحقًا في فترة التنظيمات[١].

لا بـدّ مـن الإشـارة إلـى أن دخـول الحجاز فـي الحكم العثمانـي ١٥١٧م جـاء في فترة العـدوان البرتغالي على المنطقة؛ حيث إنهـم مع مطلع القرن في ١٥٠٢م أغلقـوا مداخـل البحـر الأحمـر، وقد عانت جدة لعدة سـنوات - كما ذكرنا سابقًا عن رواية ابن إياس في بدائع الزهور. وساعد على عودة ميناء جدة إلى التجارة الشـرقية مرة أخرى بعد انقطاع، أن والي اليمن حسـن باشـا طلب موافقة السلطان بعدم تحصيل الجمارك على البضائع المتجهة إلى جدة وينبع[٢] في أواخر القرن السادس عشر مما ساعد في عودة تجارة التوابل بكامل طاقتها، وفي عام ١٥٦٤م قدرت كمية البهارات الواردة من جدة إلى مصر بـ ٢٥,٠٠٠

(١) مبـارك محمـد المعبدي، النشـاط التجـاري لميناء جـدة...، مرجع سـابق، صفحات متعددة. انظر أيضًا: فايق الصواف، أهمية ثغر جدة...، مرجع سابق.

(٢) أضاف السلطان العثماني أوقافًا كثيرة من قرى مصر لتعويض جدة عن انخفاض الدخل من الميناء، وذلك للاستفادة من خراج هذه القرى لشراء الحبوب لأهل الحجاز.

قنطار، والعام الذي يليه نفس الكمية وهكذا. أيضًا من العوامل التي ساعدت في عودة التجارة إلى البحر الأحمر وإلى جدة خاصة أن الأجيال الجديدة من جنود البرتغال في الهند قرروا أن يعملوا لمصلحتهم الخاصة، وتركوا السفن تبحر إلى جدة[١].

ب - ٢: القرنين السابع عشر والثامن عشر:

استمر النمو الاقتصادي والرواج لميناء جدة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأرجع أحد الباحثين هذا الرواج للتجارة الشرقية إلى عدد من العوامل :

١ تحول مدينة سورات في الهند إلى مركز تجاري مهم وقوة اقتصادية عظمى على الحوض الغربي للمحيط الهندي، وكانت الخطوط الملاحية مفتوحة بين سورات وجدة محملة بالبضائع وخاصة الأقمشة.

٢ حصول الإنجليز على امتياز النقل البحري بين جدة ونقاط عديدة في الهند، واستطاعوا استغلال هذا الامتياز في تنمية الحركة التجارية ونقل الحجاج والبضائع إلى جدة.

٣ توفير الحماية العسكرية من قبل الدولة العثمانية وذلك بتخصيص اثنتي عشرة قطعة بحرية عسكرية لفرض تأمين الحركة التجارية، ووصول غلال الحرمين إلى جدة وينبع، ومتابعة ذلك ببناء المزيد من المراكب عند الحاجة.

٤ استغلال السفن المخصصة لنقل غلال الحرمين الشريفين والتي تنقل الأوقاف وبدلًا من عودتها فارغة إلى مصر كانت تتحمل بالبضائع الهندية والبن.

---

(١) حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية...، مرجع سابق، ص ١١٠.

﴿٥﴾ نمـو تجارة البن وازديـاد الطلب عليها من مصدرهـا في اليمن، ونصف صادرات اليمن كانت تجد طريقها من خلال موانئ البحر الأحمر وأهمها جدة إلى مصر[١].

في القرن السابع عشر وتحديدًا عام ١٦٦٠م أصبحت ولاية الحبش تسند إلى من يتولى ميناء جدة تحت اسم (مشيخة مكة المكرمة مع سنجق جدة المعمورة وملحقات ولاية الحبش)، وتسـمى في فتـرات أخرى (إيالة الحبش) أو (ولاية جدة)، ولكن مع تغير المسـميات ظـل الاضطراب في الأحوال الأمنية ينعكس إلـى الاختلاف على كيفية توزيع دخل جمـرك ميناء جدة. هذه الاضطرابات لم تمنع نمو التجارة في ميناء جدة وخاصة مع مصر.

كما شـهد هذا القرن انقسامًا افتراضيًّا للبحر الأحمر إلى قسمين؛ حيث إن القسـم الشـمالي مغلق وتحت سـيطرة تجار القاهرة، أما القسم الجنوبي منفتح على تجار سـورات الهندية وازدادت فيه حركة السـفن الإنجليزية التي اتخذت من جدة مركزًا لها. هذا التقسيم الافتراضي جاء بناء على رغبة الدولة العثمانية فـي التحكـم في جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية والتحكم في حركة الملاحة البحرية، وحرمت على السفن غير العثمانية الإبحار شمالًا عن جدة، وحرمت تصدير القمح والأرز إلى أوروبا[٢].

إن السياسـة العثمانية نحو البحر الأحمر والتقسـيم الافتراضي أضر بمصالح الدول الغربية بشكل كبير؛ لهذا فقد عملت الدول الاستعمارية (روسيا، إنجلترا) مع الدولة الإقليمية (مصر) لكسـر هذه السياسة، وترتب على الحرب بين الدولة

---

(١) حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية...، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٢) حسـام محمد عبد المعطى، العلاقات المصرية الحجازية...، مرجع سـابق، صفحات متفرقة. انظر أيضًا: فائق الصواف، أهمية ثغر جدة...، مرجع سابق.

العثمانية وروسيا آثار عميقة خاصة وأن الدولة العثمانية خرجت منهكة وضعيفة من الحرب، الأمر الذي أغرى الدولة الروسية بالعمل على تفكيك الدولة العثمانية والاستفادة بشكل مباشر من النفاذ إلى البحر الأحمر، تزامن هذا مع رغبة الأوروبيين عمومًا وشركة الهند الشرقية الإنجليزية خصوصًا في تصريف منتجات الثورة الصناعية والبضائع بشكل أكثر فعالية، باستخدام البحر الأحمر وتفعيل الموانئ المطلة عليه خاصة جدة. التقت هذه الأطماع مع طموحات علي بك الكبير الذي يسعى لانفصال مصر عن الدولة العثمانية، واتفق مع كل منهم على حدة لتنفيذ خطة اقتصادية وضعها مستشار اقتصادي من تجار البندقية ويدعى كارلو روستي [Carlo Rosetti]. تقوم هذه الخطة على فتح خطوط الملاحة البحرية في البحر الأحمر بحرية من الهند إلى السويس مع تطوير ميناء جدة لدعم هذه الخطوط الملاحية، وأن يتحصل علي بك الكبير على دخل الضرائب والمكوس من جدة ومن السويس لدعم حركته الانفصالية. اعتمدت خطة الروس على التمويل المباشر لهذه الحركة مع وعود أن يكون لهم أسطول عسكري في البحر الأحمر، واستمرت اجتماعات التخطيط في جزيرة باروس لتحقيق هدف أساسي هو تفكيك الدولة العثمانية من الداخل، وإضعاف طرق الملاحة البحرية حول رأس الرجاء الصالح لمصلحة الخطوط المباشرة في التجارة الشرقية[١].

بريطانيا - من خلال شركة الهند الشرقية - كانت ترفض إغلاق البحر الأحمر بهذه الطريقة أمام البضائع الهندية، وترفض القدر الكبير من الرسوم الذي تحصله الدولة العثمانية في جدة والذي يمكنها من حكم الحجاز من خلاله، وإضعاف فعالية تواجدهم في الشرق من خلال حرمانهم من التواجد

(١) عبد الله سراج منسي، جدة في التاريخ الحديث، جامعة الأعمال والتكنولوجيا، ٢٠١٥م، جدة، ص ٨٢.

بشكل حر في البحر الأحمر. لذلك ساعدت علي بك الكبير في مسعاه الانفصالي وأرسلت في ١٧٦٨م القنصل الإنجليزي في الجزائر جيمس بروس للتباحث مع علي بك الكبير في إحياء الطريق القديم عبر البحر الأحمر وتأمين السفن البريطانية فيه، وبعد زيارة الموانئ المصرية غادر إلى جدة لبحث الوضع على أرض الطبيعة بعد الشكاوى المتزايدة من شريف مكة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لتدخله في رفع الرسوم الجمركية في ميناء جدة لحاجته إلى المال وفرض غرامات هائلة على التجار، وظهرت فكرة تخطي ميناء جدة وهي فكرة وجدت القبول لدى وارين هاستنجز حاكم البنغال في ذلك الوقت، وأبدى قادة السفن الإنجليزية القادمة من الهند في اجتماعاتهم مع بروس، الموافقة على هذه الخطوة وعلى التدخل الإنجليزي[١].

سنحت الفرصة لعلي بك الكبير في عام ١٧٦٩م لتنفيذ المخطط والاستيلاء على الحجاز، وتحويل تجارة الهند من جدة إلى السويس، واعتبار جدة محطة ثانوية، وذلك عندما دب الخلاف بين الأشراف على تنصيب أمير مكة، واستعان به الشريف عبد الله بن حسين من آل بركات ضد الشريف مساعد بن سعيد من آل زيد الذي سبق أن حاول احتلال جدة في ١٧٦٨م بدعم من علي بك الكبير. وفي العام التالي أرسل أمير الحج محمد بك أبو الذهب لاستطلاع حملة عسكرية في ١٧٧٠م، ونجح في تنصيب الشريف عبد الله بن حسين أميرًا على مكة، والأمير حسن بك الجداوي واليًا على جدة، ولم يستمر الوضع طويلًا؛ حيث قامت عليهما حرب من أهل مكة وجدة وأسقطوهما، وعاد الشريف أحمد بن سعيد لحكم مكة وهرب جنود أبو الذهب من جدة بعد أقل من ثلاثة أشهر، وسقط الاحتلال في نفس العام ١٧٧٠م.

---

(١) محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي، مرجع سابق، ص ٣٤.

بعد هذه الأحداث الدامية استطاع الإنجليز الوصول إلى اتفاق مع محمد بك أبو الذهب في عام ١٧٧٣م بمقتضاه تم السماح لسفن شركة الهند الشرقية بالإبحار من البنغال إلى السويس، ووافق أبو الذهب على دفع رسوم قدرها ٨٪ بدلًا من ١٤٪ المفروضة في ميناء جدة، وخمسين (باتاكا) نظير الرسو مع حماية من المضايقات وطلب الهدايا من التجار، وبهذا رفرف العلم الإنجليزي في البحر الأحمر بعد أن كان بحيرة إسلامية لفترات طويلة، وأعطيت الأوامر باستقبال السفن الأوروبية (بأعظم لطف) واقتصار التجارة مع شركة الهند الشرقية، وسمح لهم أبو الذهب أن تكون المتاجرة مع مصر بالمال أو بالمقايضة أيهما أنسب لهم[١].

تضرر من هذه الاتفاقية أهل الحجاز وخاصة شريف مكة؛ لأنها ستفقده ما يجنيه من الرسوم الجمركية، كذلك اعترض تجار الأستانة لكونهم يريدون مرور تجارتهم عبر وادي الفرات والبصرة، وشكلت الاتفاقية خطرًا حقيقيًّا على نفوذ الدولة العثمانية في مصر؛ لأنها ستكون بداية التمرد المستند على ثراء اقتصادي، واحتجت الدولة العثمانية لدى جون مري السفير البريطاني في الأستانة، وأصدرت أوامر إلى رجال الإدارة في مصر لمنع أي سفينة بريطانية من دخول ميناء السويس والاستيلاء عليها، والقبض على من فيها إذا دخلت الميناء قادمة من الهند. ثم أصدرت فرمانًا في عام ١٧٧٥م وفي عام ١٧٧٩م ينص على تحريم تجارة البحر الأحمر القادمة من الهند مباشرة إلى السويس. لجأ المتضررون من هذه الأحوال إلى أسلوب عملي عندما فشلت السياسات والأساليب الرسمية، وكذلك من خلال تحريض أبناء القبائل العربية في مصر لمهاجمة القوافل بعد رسوّ السفن في السويس وهي في طريقها إلى القاهرة، ونهب محتوياتها لصالح تجار القاهرة بعد أن زاحمهم التجار الأوروبيون،

(١) محمد أنيس، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٠.

وفشلت مشاريع إحياء هذا الخط الملاحي بعد ذلك[١].

بالتوازي مع الأحداث السياسية الهامة التي أرادت إعادة توجيه الحركة الاقتصادية في المنطقة عمومًا وجدة وميناءها خصوصًا نحتاج إلى نظرة مكبرة لوضع جمارك الميناء في القرن الثامن عشر بصورة عامة من خلال تقرير عثماني مفصل يوضح الناحية الرسمية العملية الفعلية للجمارك.

أوضح والي جدة رائف باشا الذي عين في عام ١٧٧٨م في تقرير مفصل أن آلية احتساب الرسوم (التعريفة) على السفن القادمة من الهند غير عادلة؛ لأنها تختلف من السفن الأوروبية عنها للسفن الهندية، الأمر الذي يعكس حالة من التوتر في إدارة الجمرك، ولإيضاح ذلك ذكر أنه عندما تأتي سفينتان من الهند سواء من البنغال أو سوارت وتسمى (التواهي)؛ أي السفينة الهندية، وممكن تدفع ١٠٠ صرة ذهبية على شكل رسوم جمركية، وتدفع سفينة أخرى ٣٠٠ صرة ذهبية وربما أكثر من ذلك لأن أصحاب البضائع يكونون مع السفينة نفسها، وبعد الانتهاء من التخليص الجمركي تستطيع توزيع البضائع الهندية (أكثرها من المنسوجات) على تجار التجزئة. المعاملة تختلف تمامًا مع السفن الأوروبية لأن المسؤول هو القبطان وليس هناك تاجر على السفينة، وتباع حمولة السفينة من قبل القبطان على تاجر واحد فقط في جدة يكون من الأثرياء المعروفين، ويضيف التاجر هامش ربح يقدر بعشرة في المئة قبل توزيعها، والرسوم الجمركية تختلف حسب مكان مغادرة السفينة من الهند إلى جدة وليس حمولتها، وبالتالي تكون تقديرية وليست دقيقة مثل السفن الهندية التجارية[٢].

---

(١) حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية...، مرجع سابق، ص ١٧٩.
(٢) محمد أنيس، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٠.

هذا الخلاف في الرسوم كان من أسباب الاضطراب بين التجار وسلطات الميناء، وبناء على توصيات رائف باشا تم إعداد «دفتر التعرفة» والذي يحتوي على نسب الجمارك وفقًا لنوعية البضاعة وجودتها، أما البضائع التي لم يتم تسجيل اسمها ونوعها في دفتر التعريفة الجمركية فيتم استيفاء الرسوم الجمركية بعد خصم ١٦٪ من الصادرات، و٢٠٪ من الواردات بعد احتسابها بسعر السوق. هذه الإجراءات الواضحة كانت خطوة مهمة لرفع كفاءة الجمرك وزيادة الاستفادة من تجارب موانئ الدولة العثمانية أصحاب الخبرة في التعامل مع التجارة العالمية، وقد اعتمدت الدولة العثمانية سياسة رقابة مالية على تطبيق التعرفة الجمركية منعًا للأخطاء.

ومع نهاية القرن الثامن عشر كانت الحركة التجارية في الميناء قد شهدت انتعاشًا، وعمل الجمارك على أسس مكتوبة واضحة وتطبيق مرن للتعرفة الجمركية، وأصبحت جمارك جدة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وفقًا للمصادر العثمانية توفر دخلًا يقدر بـ ٥٠٠ صرة ذهبية إلى ٦٠٠ صرة ذهبية في السنة، منها ١٠٠ صرة ذهبية على الأقل في التجارة مع الهند، وأيضًا تتحصل رسومًا جمركية على الملح المستخرج من سواكن ويرسل إلى الهند بمعدل ريال واحد عن كل قنطار ملح تورد إلى خزينة الجمرك في جدة[١].

ب - ٣: القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

أشرقت سنوات القرن التاسع عشر على جدة والحركة التجارية مزدهرة في الميناء والعمل يسير وفقًا لآليات واضحة في الرسوم الجمركية، وترسخت التقاليد التجارية في التعامل مع الدول المختلفة خاصة الهند ومصر وغيرها، وازداد الاعتماد

(١) تقرير رائف باشا ورد في دراسة باللغة التركية في:

Mustafa L. Bilge "Cidde", Dia VII, Istanbul, 1993, Page 525.

على ميناء جدة، الأمر الذي دعا بوركهارت إلى القول أنه ميناء لمصر والهند وشبه الجزيرة العربية[١]. مكرسًا بالقول ما هو معروف من الأهمية المكانية لجدة.

أرجع أحد الباحثين النجاح الاقتصادي للميناء إلى عدد من الأسباب العملياتية التي دعمت الموقع الجغرافي للميناء. أهم هذه الأسباب وجود أسطول من السفن مملوك لتجار جدة وخاصة الأشراف يقدر بـ ٢٥٠ سفينة بعضها سفن كبيرة تبحر إلى الهند، وهذه السفن عليها ملاحون من أبناء جدة في الغالب، والبعض من أبناء اليمن وساحل الصومال، العنصر البشري في جدة كان من أهم أسباب هذا النجاح التجاري؛ إذ أصبح لديهم تمرس في العمل التجاري وقدرة على الدفع بالنقد أو بالذهب حاضرًا مقابل بضاعة الهند، بعكس تجار مصر الذين يفضلون العمليات الائتمانية، وبالتالي يرفض تجار الهند التعامل معهم، ولهذا كان تجار جدة بعد أن يشتروا البضائع من الهند وغيرها بالذهب حاضرًا يرسلوها إلى مصر للبيع بفارق ربح. يشار إلى أن بساطة العمليات التجارية كانت ظاهرة ملحوظة في تجارة جدة، وسهولة الإجراءات سمحت باستقطاب التجارة مع الموانئ العربية على البحر الأحمر، وأهمها السويس وعدن والموانئ البعيدة في الهند والبصرة في العراق وإندونيسيا والملايو، وجميع هذه السفن تدفع الجمارك المحددة إلى أمير البحر أو مسؤول الجمارك، وقد اشتهر تجار جدة بإجادة مهنة التجارة؛ لأنهم مصدر الرزق الرئيسي مع أعمال البحر؛ حيث إن أهل جدة لم يعرف عنهم ممارسة الزراعة ولا الصناعة، واشتهر في مطلع القرن من التجار الشريف غالب بن مساعد، وكان يمتلك سفنًا عديدة، واثنين من التجار المغاربة عربي جيلاني والثاني السقاط.

---

(١) جون لويس بوركهارت، ترحال في الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧، المجلد ١، ص ٣٩.

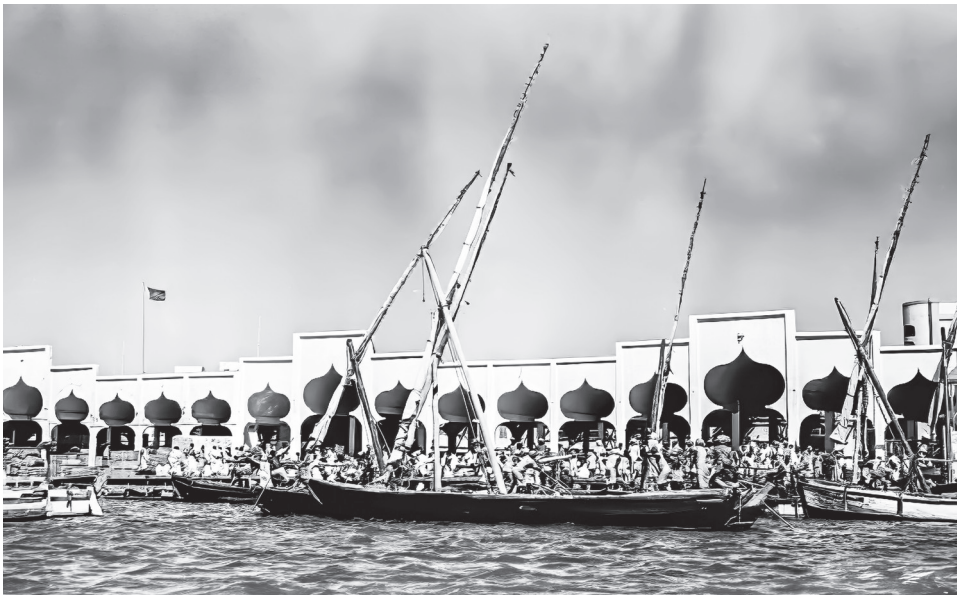

● ميناء جدة

المصدر: (البعثة الهولندية في الجزيرة العربية 1300-1370هـ لمحات تصويرية).

دار (ل م) للنشر بمدينة إيدام.

● قدوم الحجاج إلى ميناء جدة

المصدر: (البعثة الهولندية في الجزيرة العربية 1300-1370هـ لمحات تصويرية).

دار (ل م) للنشر بمدينة إيدام.

● رسوّ سفن الحجاج في ميناء جدة

المصدر: (البعثة الهولندية في الجزيرة العربية 1300-1370 هـ لمحات تصويرية).

دار (ل م) للنشر بمدينة إيدام.

من أهم الأسباب العملياتية لنجاح الميناء في القرن التاسع عشر هو توفر شبكة من الطرق البرية إلى داخل الجزيرة العربية بمختلف الاتجاهات، ومنها إلى مراكز التجارة في آسيا والمحيط الهندي، مما أعطى قيمة مضافة إلى الحركة التجارية في الميناء، وإمكانيات التوسع التجاري فيما وراء جدة ومكة والحجاز كله، وخروج القوافل التجارية بشكل منتظم من الميناء إلى هذه الشرايين التجارية.

أيضًا شكلت الروابط الإنسانية أحد أهم العوامل العملياتية لنجاح الميناء؛ حيث إن سكان جدة كانوا خليطًا من الأجناس من المغرب والشام والهند والأحباش والأتراك، وهؤلاء تربطهم علاقات صلة بأهلهم في أوطانهم التي قدموا منها، مما يسهل عملية التجارة معهم والثقة المفرطة بينهم[١].

(١) لطيفة بنت ناصر المطلق، النشاط التجاري في ميناء جدة الإسلامي في النصف الأول =

أحداث وعوامل أثرت في جدة في القرن التاسع عشر:

كانت جدة تمرُّ بالأحداث المهمة في القرن التاسع عشر، وتأثر الميناء والجمرك بهذه الأحداث، وهي أحداث لم تكن مسبوقة في تاريخ المدينة العريقة، لهذا سوف نقصر حديثنا على عدد محدود من الأحداث التي أثرت بعمق إيجابًا أو سلبًا على حركة الميناء في تلك الفترة.

أولًا: احتلال محمد علي باشا لمدينة جدة:

جاء هجوم فيالق محمد علي العسكرية على الجزيرة العربية بناء على توافق بين توجهات الدولة العثمانية في قمع حركة الإصلاح الديني التي تقودها الدولة السعودية الأولى، ورغبة محمد علي في تثبيت حكمه على ولاية مصر من ناحية مع التخفف من الالتزامات المالية التي يدفعها للباب العالي، وأيضًا طموحاته في التوسع والسيطرة على مناطق أوسع في المنطقة، وجاء تدخله بعد مماطلة عدة سنوات حتى يضمن أن يحقق أهدافه[١].

أدرك محمد علي، بعد وصوله إلى جدة، أن السلطة الحقيقية لا تأتي بالسلاح وحده؛ ولكن لا بدّ من ترسيخ السيطرة على الحجاز والجزيرة العربية بالإدارة والاقتصاد، مثل أي قوة غازية، فقرر أن يستخدم الأساليب التي طبقها في مصر قبل ذلك ومكنته من حكم مصر، وهي أنظمة التنظيم الحكومي والضرائب والرقابة المالية مع الإدارة المباشرة لجمارك ميناء جدة، وارتباط سلطة الجمارك في جدة تحديدًا به شخصيًّا من حرصه على رفع إيرادات هذا

= من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، كلية الآداب، عدد ٣٥، سنة ٢٠٠٩م، ص ١٣-٤٦.

(١) فاطمة القحطاني، حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها ١٢٣١-١٢٣٣هـ/١٨١٦-١٨١٨م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ٢٠١٠م، ص ٥٥-٥٦.

الجمرك لمصلحة تمويل طموحاته التوسعية ومصروفات الحجاز كلها.

إعـادة تنظيـم إدارة الحجاز إداريًّـا واقتصاديًّا جاءت من قبل محمد علي في إطار السـيطرة والتحكم بشكل ممنهج وتعظيم الإيرادات من الإقليم. في البداية عين السـلطان محمود الثاني ابنه إبراهيم باشـا واليًا على جدة بعد سقوط الدولة السـعودية الأولى ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، وفي العـام الذي يليه عين ابن أخته أحمد باشـا يكن حاكمًـا عامًّا على الحجاز ومحافظًا على مكة. كما اسـتحدث منصب حاكم عام الحجاز ليكون رئيس الجهاز العسكري والمالي والإداري للاحتلال في الحجاز والمناطق المجاورة، ويكون مسؤولًا عن جمع المعلومات عن الأقاليم المجاورة وحركة الأسطول الإنجليزي والإشراف على تصرفات زعماء القبائل.

تحـت الحاكـم العام يوجد عدد من المحافظين للمدن الرئيسـية مثل: جدة والمدينـة المنـورة وينبـع والقنفـذة بالإضافة إلـى مكة مع صلاحيات عسـكرية وإداريـة وماليـة لكل محافظة؛ حيث يوجد اسـتقلال مالي محدود لوجود إدارة للخزنـة فـي كل محافظة، ولها ناظر وكتاب مختصيـن. وبحكم أهميتها، أوجد ضمـن التشـكيل الإداري لمحافظـة جـدة منصـب ناظـر الجمـرك ويتبعـه أمين الجمـارك المسـؤول عـن تحصيـل الضرائب علـى الدخل والتجـارة، وكذلك وجـود ناظر للسـفن ينسـق أعمال السـفن والتجـار مـع إدارة المحافظة. كذلك أوجد مجلس شـورى برئاسـة المحافظ في كل من هذه المحافظات، وعضوية أمين الشـونة، ومعاون الخزينة، ومفتش الحسـابات لمناقشة الجوانب الإدارية والماليـة، واتخاذ القرارات مع إشـعار حاكم عام الحجـاز، والإدارة المركزية بالقاهرة لإحكام السـيطرة على الحجاز في جميع الأمور العامة[١]، واسـتخدام

(١) نهـار عبد الله السـهلي، سياسـة محمد علي باشـا تجاه أشـراف مكة وقبائـل الحجاز، الانتشار العربي، الشارقة، ٢٠٢٣م، ص ١١٠-١١٣.

سلاح التفتيش المالي لمراقبة ومعاقبة من لا ينفذ التعليمات مثل ما حدث مع محافظ جدة (سليمان حافظ) الذي تمت مصادرة أمواله بدعوى وجود تلاعب في حسابات المحافظة وشبهة فساد.

وقامت السياسة الاقتصادية لمحمد علي في الحجاز خاصة، وشبه الجزيرة العربية عامة، على رفع الدخل المتحصل لتمويل الحملة العسكرية، والتوسع فيما بعد في مرحلة تالية، وركز جهوده على ثلاثة مصادر:

١ جمارك الميناء خاصة ميناء جدة.

٢ تجارة البن.

٣ متحصلات الضرائب[١].

جمارك ميناء جدة كان يتم الإشراف عليها من قبل ما يعرف باسم مجلس جدة كما ورد في وثائق الدولة في ذلك الوقت. هذا المجلس يتناول

(١) البن: أعطى محمد علي أهمية كبيرة لتجارة البن من اليمن إلى أوروبا عن طريق مصر، وبالتوازي مع ذلك عمل على نقل زراعة البن إلى مصر، وفشل مشروع الزراعة لأسباب مناخية وجغرافية، وكلف إبراهيم باشا يكن بمشروع الزراعة هذا.

يوجد تقرير تفصيلي أعده إبراهيم يكن عن هذه المجهودات في وثائق الدولة، وقد تحصل من تجارة البن على عائد مادي مجزٍ بصورة عامة؛ ولكن في فترات عانت تجارة البن اليمني في جدة من منافسة البن المستورد من غربي الهند إلى الموانئ التركية التي كان يجري إمدادها بالبن من اليمن، وأخذ البن الهندي مكانة البن اليمني في أوروبا وآسيا الصغرى، الأمر الذي دفع محمد علي إلى حظر دخول البن الهندي إلى ميناء جدة، مما رفع الطلب على البن اليمني، وكان هناك تعاون وثيق مع الشريف غالب الذي هو أشهر تجار البن في الحجاز، ويملك سفنًا مخصصة لهذه التجارة مع محمد علي لتنمية تجارة البن منذ وصول فيالق محمد علي إلى الحجاز، استمرت هذه التجارة حتى أن قامت بريطانيا باحتلال عدن. =

الأمـور المختلفـة مثـل: العسـكرية، الاقتصاديـة، الإداريـة إلى آخـره؛ ولكن إشـرافه علـى الجمارك كان مباشـرًا؛ حيـث يضم المجلس ناظر السـفن، ناظر الشـونة، أميـن الجمرك وكل من له علاقة بالجمـارك والميناء، وينظر المجلس فـي تحديـد التعرفة الجمركيـة واعتماد أسـاليب محاربة التهرب مـن الضريبة، وخاصـة تجـارة البـن التي تشـكل مصـدرًا مهمًّـا للضرائب المحصلـة، ويقوم المجلـس بتشـكيل لجـان التفتيـش المالي ورفـع تقاريـر إلى محمد علي باشـا نفسه.

كان مجلـس جـدة يـدرس القضايا الفنيـة المتعلقة بالشـحن والتفريغ خوفًا مـن تكدس البضائع في الميناء، وكذلك الاسـتعانة بالعمـال البحريين من ميناء الإسكندرية لإصلاح الأعطال في الميناء وإصلاح السفن[١].

= المصدر الثالث كان الضرائب وتذكر في الوثائق الرسمية باسم (الزكاة) مفروضة على القبائل العربية وتحصل بانتظام، وكان حاكم الحجاز أحمد باشا يكن يرفع قيمة الضرائب على القبائل المتمردة على احتلال محمد علي، وعمل على مصادرة أموال بعض أعيان القبائل والأشراف، مثل الشريف عبد المطلب الذي انضم إلى الثوار.

(١) أهم من عملوا برئاسـة مجلس جدة حسـب الترتيب الزمني: مختار بك - رشوان بك - حافـظ سـليمان أفندي - محمد أفندي - وأهـم الموظفين خربوطلس عبد الله أفندي، وبعدهـا أصبـح محافظًـا لتعز في اليمـن يلقرادي حسـين أفندي، وبعدهـا أصبح أمير الجمرك في القنفذة واسكويلي علي أفندي، وأخيرًا عبد الرحمن أفندي.

انظر: مالك رشوان، سياسة محمد علي في شبه الجزيرة، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٧٨م، مرجع سابق، ص ١٢٤، كان يتم ترجمة المحاضر إلى اللغة التركية، لأن محمد علي كان يستخدمها في عمله اليومي ويكتب بها خطابات لحاكم عام الحجاز.

انظر أيضًا: نوري، رزق، الفساد في عصر محمد علي ومواجهة الفساد الإداري في مصر ١٨٠٥-١٨٤٨، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٠م، القاهرة، ص ١٨٠-١٩٤.

استمر محمد علي في السيطرة التامة على دخل الحجاز بما في ذلك دخل الأوقاف التي نقل إدارتها إلى مصر تحت إشرافه، وأعاد ترتيب دفاتر القمح، وبعد أن سيطر على دخل الميناء قرّر مبلغ أربعة آلاف قرش راتبًا سنويًّا لشريف مكة، إضافة إلى ما يصرف له من الدولة العثمانية، وانتهى عهد اقتسام دخل الجمرك بين الشريف وسنجق جدة الذي استمر لقرون؛ حيث حرص على عزل الشريف غالب من منصبه وعزل المسؤول المالي المعيَّن من الشريف، وعيّن بدلًا منه علي الجوقالي بمجرد وصوله إلى جدة.

الإشراف المباشر من محمد علي على جمارك ميناء جدة يظهر في وثائق تلك الفترة وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ حيث يظهر في الوثيقة رقم (١٨١) دفتر رقم ٧ معية تركي ١٨ مايو ١٨٢١م، يوضح محمد علي لأمين الجمرك في جدة طريقة احتساب الجمارك على الأقمشة الهندية بالتفصيل الدقيق، وكيف يكتب ذلك في الدفاتر وأن يقرأ ما كتبه على التجار ليكون معلومًا للجميع.

وتظهر الوثيقة رقم (١٧٤) دفتر ٧ معية تركي رسالة من محمد علي إلى أمين الجمرك بشأن التعامل بالريال الفرنسي وسعر الصرف لهذا الريال، وإذا كانت العملة مفكوكة بالقروش، في تفاصيل دقيقة للغاية لكيفية دفع الضريبة من تجار موسم الهند.

تظهر الوثيقة رقم (١٨١) دفتر ٧ معية تركي في ١٨ مايو ١٨٢١م رسالة محمد علي إلى أمين جمرك جدة رستم باشا يوضح له كيفية قيد أثمان الأمتعة الهندية في دفاتر الجمارك وإشعار التجار بذلك.

وفي الوثيقة رقم (١٨٢) دفتر ٧ معية تركي أيضًا في ١٨ مايو ١٨٢١م رسالة من محمد علي إلى أمين الجمرك في جدة بشأن إرسال الدفاتر الخاصة بالجمرك والمبالغ التي سددها أمين الجمرك، وتظهر هذه الوثيقة أن جمارك جدة كانت

بمثابة نقطة تجميع وإشراف على دخل الجمارك على طول البحر الأحمر كلّه.

تظهر الوثيقة (١٣٢) دفتر رقم ٧ معية تركي في مارس ١٨٢١م أن محمد علي يطلب من أمين جمرك جدة أن يستلف الأموال من التجار، وذلك لبناء بعض المباني وترميم البعض الآخر في مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ حيث قصَّر دخل الجمرك في تلك الفترة عن دفع مخصصات العساكر لجهات عسير والطائف وسائر المصالح الأخرى. لهذا عمدهم باللجوء إلى الاقتراض من التجار مع إيضاح المبالغ المالية.

هناك عدد كبير من الوثائق التي توضح أن محمد علي كان يتدخل في الأمور اليومية لجمارك جدة، وهذا مدعوم بحملات التفتيش المالي لضبط المخالفات المالية للمحافظة والخزينة والجمرك مثل المضبطة الموسعة في محفظة رقم (٢٦٧ عابدين) في مارس ١٨٤٠م، وتضم تفصيلات مالية وإجرائية موسعة توضح الصرامة في الرقابة والمتابعة لضمان أقصى دخل من جمرك جدة[١].

إن الاهتمام المتزايد من محمد علي شخصيًّا بالوضع العام في جدة جاء أيضًا لأهمية الموقع الجغرافي؛ حيث تمركز فيها الأسطول وأصبحت مقر مدير السفائن الميرية البحرية لتوسطها البحر الأحمر، وتقديم الدعم للقوات على طول شواطئ البحر الأحمر، وفي البر كانت مقرًّا للقوات التي تدعم القوات العثمانية في الطائف وعسير كلها، وكلها موثقة في مكاتبات محمد علي الذي اعتبر جدة بمثابة العاصمة الفعلية لتواجده في الحجاز والمركز العملياتي لتجارة البحر الأحمر أيضًا[٢].

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، من وثائق الحجاز في عصر محمد علي، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠٠١م، صفحات متفرقة من المجلد الثالث.

(٢) في الوثيقة رقم ١٩٨ حمراء من محفظة رقم ٢٦٩ عابدين ويرجع تاريخها إلى =

هنـاك إجمـاع أن هذه الأسـاليب أدت إلى زيادة كبيرة فـي دخل الجمارك، وأوقفـت هـذه الإجـراءات الصارمة مـن الهدر الحاصـل في دخـل الميناء مما أعطى محمد علي دخلًا ماليًّا كبيرًا ومؤثرًا، وكذلك سمعة حسنة لدى السلطان العثمانـي الذي سـمح له بالإبقـاء على الموظفين المصريين فـي الموانئ التابعة له، وكانت هذه الإجراءات تلاقي قبولًا من التجار الأوروبيين.

استمرت هذه السياسات حتى خروج محمد علي من الحجاز جراء معاهدة لندن ١٨٤٠م، وأصبح التركيز في الميناء على تجارة الترانزيت[١].

= أكتوبر ١٨٤٠م، وتكشـف عن التسـليح والجنود في الحجاز، ويلاحظ أن المدفعيين الموجودين بجدة أكثر من الموجودين في الحجاز وسواكن ومصوع مجتمعين.

	العدد
المدفعيون المقيمون في سواكن.	٢٨
المدفعيون المقيمون في مصوع.	٣١
المدفعيون المقيمون في القنفذة.	٣٩
المدفعيون المقيمون في مكة المكرمة.	٢٨
المدفعيون المقيمون في الطائف.	١٩
المدفعيون المقيمون في الباحة.	٣٢
المدفعيون بمعية خورشيد باشر سر عسكر نجد.	٣
المدفعيون المقيمون في جدة.	٢٢٥

عبد الرحيم عبد الرحمن، من وثائق الحجاز في عصر محمد علي...، مرجع سابق، المجلد ٣، ص ٧٦٤.

(١) شهدت الحجاز إعادة تنظيم في مرحلة ما بعد محمد علي، وتسمى فترة التنظيمات الخيرية العثمانيـة ١٢٧٣-١٣٢٦هـ/١٨٥٦-١٩٠٨م، بهـدف تدخل الدولة العثمانية في شـؤون الحجاز، وإيجاد صراع بين والي جدة وأمير مكة بشكل مستمر، الأمر الذي انعكس سلبًا على الحجاز. بموجب هذه التنظيمات كان الحجاز إداريًّا منقسمًا إلى سنجقين أو لواءين كبيرين هما سنجق جدة وسنجق المدينة، ويسمى المسؤول عن جدة قائمقام ولاية جدة، وله الإشـراف على جميع الشؤون المالية والإدارية والصحية والأمنية وحركة الحجاج، =

ثانيا: تجارة الترانزيت:

ازدهـار تجـارة العبور أو الترانزيت في حوض البحر الأحمر في تحول مهم لمسـارات الملاحة البحريـة العالمية، وذلك نتيجة لعدد مـن المتغيرات التقنية والجغرافية والسياسية، وقد كان لهذا التحول آثار عميقة على ميناء جدة إيجابًا في البداية ثم سلبًا.

جـاءت بدايـة التحوّل مع التطـوّر التقني وظهور المراكـب البخارية، وهي أكبـر حجمًـا وأسـرع وأكثـر أمانًـا مـن السـفن الشـراعية العابـرة للمحيطات، واعتمدت عليها الشـركات الأوروبية والدول الأجنبية بحكم أنها تحمل بضائع أكثـر وأعـدادًا أكثر خاصة من الحجـاج والزوار لبيت الله الحـرام. ظهرت هذه المراكب البخارية في البحر الأحمر في عام ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م بشـكل مكثف، وكان مينـاء جدة مؤهلًا لاسـتقبال هذه النوعية من المراكـب مدعومًا بتنظيمات

= ويرفع كل شيء إلى الوالي في مكة الذي يرفع القضايا إلى الباب العالي.

كان هناك مجلس لإدارة لواء جدة يرأسه الوالي أو القائمقام نفسه، والأعضاء الدائمون هم النائب والمفتي والمحاسب والمكتوبجي ومدير التحريرات، ويتم انتخاب أربعة أعضاء من الشخصيات المعروفة.

يوجد أيضًا مجلس تمييز اللواء الذي يتكون من ستة أعضاء يرأسهم نائب القاضي، ويشرف على الشؤون القضائية والتدقيق في الشكاوي والدعاوي ويتكون من الفقهاء، وكان هناك أيضًا المحكمة التجارية بجدة تتكون من الوكيل وعضوين دائمين وعضوين مؤقتين.

من أشهر من شغل منصب القائمقام في جدة عارفي باشا ١٣٠٥ – ١٣٠٦هـ، وأيضًا صادق المؤيد ١٣٢٨هـ وكان له جهود إصلاحية كبيرة في جدة في المجالات الصحية والمياه والبلدية.

انظر: صابرة مؤمن إسماعيل، (جدة خلال الفترة ١٢٨٦–١٣٢٦هـ/١٨٦٩–١٩٠٨م)، دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ص ١٩–٢١.

جمركية متطورة، وموقع جغرافي مدعوم بشبكة مواصلات. حققت جدة أرباحًا طائلة من هذه الطفرة في تجارة الترانزيت، وتوجد إحصائيات توضح الارتفاع الكبير في حجم البضائع الواردة إلى جدة كان خمسها لأغراض الترانزيت.

● **جغرافيًّا :**

حيث تم افتتاح قناة السويس في ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، وهي مثال لتدخل الإنسان في إعادة رسم الجغرافيا وتعديل المسارات البحرية، وبالفعل أصبحت التجارة تتم باستخدام حوض البحر الأحمر بين الدول الأوروبية التي عادت الأهمية لموانئه وبين الشرق في المحيط الهندي؛ حيث كانت المواد الخام والمواد الغذائية ترحل من الجنوب إلى الشمال، وتعود البضائع المصنعة من الشمال إلى الجنوب مع انخفاض في تكلفة النقل إلى النصف وسرعة وسلامة انتقال البضائع.

توافقت الدول المعنية على تطبيق مبدأ حرية الملاحة والتجارة في القناة، وتم توقيع اتفاقية القسطنطينية[١] ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م بين الدولة العثمانية والدولة الأوروبية، ونصت الاتفاقية على حرية الملاحة في القناة وحيادها في السلم والحرب لجميع السفن التجارية والحربية بدون تمييز[٢].

إن الازدهار الاقتصادي الذي نتج عن تجارة الترانزيت فتح باب الصراعات بين الدول الأوروبية للسيطرة على البحر الأحمر، وخاصة بريطانيا التي تعتبره

---

(١) سهى سعود شعبان، تجارة العبور - الترانزيت - في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، العدد السادس، يونيو ٢٠٢١م، ص ٤٩-٦٤، البحث يحتوي على إحصائيات تفصيلية عن حجم البضائع.

(٢) كان لافتتاح قناة السويس تأثير سلبي على ميناء جدة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وسوف نوضح ذلك لاحقًا.

ممرًّا مؤديًا إلى درة التاج البريطاني (الهند) ولا تقبل أن لا يكون تحت سيطرتها، ومن هنا جاء احتلال عدن في ١٢٥٤هـ/١٨٣٩م وجعلتها قاعدة للسيطرة على شواطئ البحر الأحمر اليمنية والموانئ المحيطة.

حُسمت الصراعات حول البحر الأحمر لصالح الإنجليز، خاصة بعد أن وقعت مصر تحت الاحتلال في ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م ما مكّنها من السيطرة على السويس وشمال البحر الأحمر، أما فرنسا فقد حصلت في الجنوب على جيبوتي، وحصلت إيطاليا على مصوع، وأصبح البحر الأحمر أشبه ما يكون ببحيرة إنجليزية.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر انتكست تجارة الترانزيت بسبب سوء إدارة الدولة العثمانية للموانئ التي تسيطر عليها والضعف العسكري للعثمانيين، ما سمح لانتشار أعمال القرصنة وصاحب ذلك انخفاض في الطلب على البن اليمني لظهور بدائل له، وكثرة الصراعات المسلحة على ضفاف حوض البحر الأحمر.

انخفض دخل جدة من جراء الانتكاسة التي شهدتها تجارة الترانزيت من ناحية، والركود الذي أصاب تجارة البن من ناحية أخرى، وكان دخل الميناء من البن فقط يقدّر بـ ٣٠٠ كيسه إلى ٤٠٠ كيسه في العام، ومجموع الإيرادات الجمركية في عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م يقدر بستين ألف جنيه إسترليني، وهذا رقم قياسي؛ لأنه بعد ذلك وفي العشرين سنة التالية تدهورت فيها التجارة مع جدة كان مجموع الدخل ١١٢ ألف جنيه إسترليني فقط[١]، وهذا يعود إلى عدد من الأسباب، أهمها:

---

(١) صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة ...، مرجع سابق، ص ١١٩-١٢٠.

انظر أيضًا: محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي...، مرجع سابق، صفحات متفرقة.

١ افتتاح قناة السويس :

كان لـه تأثيـر على الطـرق الملاحية وتجارة الترانزيت التـي كانت تعتمد عليها جدة، لأنه بوجود القناة انتفى الغرض الرئيسي لوجود ميناء جدة باعتباره نقطة تغيير الحمولات في تجارة الشرق بين الهند والصين وموانئ أوروبا عن طريق مصر.

وصاحب هذا التحول أن الإنجليز قرروا أن يطوروا ميناء بور سودان لجعله عالمي التجهيز من أجل منافسة ميناء جدة، خاصة وأن السودان تحت السيطرة الكاملة للإنجليز، ولجأت الدول الغربية إلى تطوير الموانئ الصغيرة الموجودة علـى الضفـة الأخرى من البحر الأحمر لتخدم تجارتهم في البحر الأحمر بعيدًا عن تسـلط الدولة العثمانية على الموانئ في الحجاز واليمن. وحتى تجارة البن التـي كانت المصدر الرئيـس لميناء جدة؛ حيث كانت تصل من ميناء المخا في اليمن أصبحت بعد افتتاح القناة تنتقل مباشرة بدون التوقف في جدة[١].

٢ الإجراءات الصحية :

قررت الدولة الأوروبية اتخاذ إجراءات احترازية صارمة أمام انتشار الأوبئة في موسـم الحج، وخاصة أن وباء الكوليرا انتشـر في عدة مواسـم. حيث كان أول ظهور للوباء في الحجاز عام (١٢٤٦هـ/١٨٣١م)، ثم ظهر بشـكل خفيف في عام ١٨٣٨م– وعام ١٨٣٩م، وبشـدة في عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م، واسـتمر

---

(١) يوثـق القنصـل جاقـو أن افتتـاح القناة كان أكبر عامل لانحسـار دور جـدة كأعظم ميناء تجاري بين الشرق والغرب ووسيط عالمي؛ لأن جدة نفسها ليس لديها ما تنتجه ولكن تعيـد تصدير السـلع والمنتجات إلى السـويس وإلـى أوروبا، وقد أثرت القناة بشـكل جذري على هذا الدور.

مبارك المعبدي، النشاط التجاري...، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

أيضًا: سهى سعود شعبان، تجارة العبور - الترانزيت -...، مرجع سابق.

في الظهور والاختفاء في السنوات التالية، وعاد للظهور بقوة في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م، وضغطت الدول الأوروبية لعقد مؤتمر عالمي واتخاذ خطوات ملزمة لعدم انتشار الوباء من الحج.

● **جزيرة الحجر الصحي أبو سعد بالقرب من جدة.**

تصوير/هيرجان ، عام 1923م - مكتبة ليدن.

رف رقم 26.365: 39.

● **جزيرة الحجر الصحي الواسطة بالقرب من جدة.**

تصوير/هيرجان ، عام 1923م - مكتبة ليدن.

رف رقم 26.365: 40.

● **الحجر الصحي في ميناء جدة.**

المصدر: من الأرشيف التركي بنهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

عقد المؤتمر الصحي العالمي (١٢٨٢هـ/١٨٦٦م) في إستانبول وقرر إنشاء محجر صحي بجوار باب المندب تقف فيه السفن، ويفتش على المسافرين مع عدد من المحاجر الصحية على طول موانئ الحجاز، وألزمت الدول الأوروبية الدولة العثمانية على تطبيق الإجراءات بشكل فعال، مما أثر على انسيابية الحركة الملاحية البحرية في القدوم ومغادرة جدة[١].

وساعد سوء إدارة الدولة العثمانية لمدينة جدة كثيرًا على انتشار هذا الوباء القادم من الهند مع الزوار والحجاج الهنود، وإصرار الإنجليز على بعث أعداد كبيرة من فقراء الهنود إلى الحج بدون أي إمكانيات مادية، وكانوا يقيمون في الشوارع والمساجد ويلبسون الأسمال هذا مع حرارة الجو وانتشار المستنقعات وبرك المياه والرطوبة كانت بيئة ملائمة لانتشار الأمراض، وكان الإنجليز يستهدفون إقامة الحجة أن الدولة العثمانية لا تستطيع إدارة الأماكن المقدسة.

وثَّق الرحالة والقناصل الحالة المزرية التي كانت عليها جدة من الأوبئة وضعف الصحة العامة وتقصير السلطات مما أدى إلى انتشار الطاعون، الملاريا، الدوزنتاريا، وطبعًا الكوليرا بخلاف الأمراض السارية. كما أن الرحالة الإيطالي جيوفاني فيناتي وثق انتشار الطاعون وأنه أودى بحياة ناس كُثُر في مشاهد مفزعة. أما سنوك فكتب أن جدة في حج ١٣١٠هـ/١٨٩٣م امتلأت شوارعها بالموتى، وكانوا يتجمعون حول صهاريج المياه، وكثيرٌ منهم مصابون بالطاعون المائي، وتحدث عن فشل إجراءات المحجر الصحي، وأنها تستنزف جيوب الحجاج بدون فائدة؛ بل إنها قد تكون السبب في إصابة الحجاج بالوباء من قذارتها. والرحالة كرتلمون يؤكد أن سوء تصرف السلطات سبب

(١) سلوى سعد الغالبي، وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠هـ-١٨٨٣م، مجلة الدارة، الرياض، العدد الرابع، شوال ١٤٣٣هـ، ص ٢١٣/٢٦٤.

هذه الحالة الصحية المتردية، وأنها سبب لانتشار الوباء من الحج إلى أوروبا والعالم، ويقترح من الأساليب لدولته فرنسا بما يكفل تقليل عدد الحجاج أو إيقافهم. وذكر شارل ديدييه أن أمراض مثل الزحار والحمى القلعية والحمة العفنية تكاد تكون مستوطنة على هذا الشاطئ وكان الجو يسحقني وأجد صعوبة في السير وجسدي مشبع بالرطوبة، بالإضافة إلى إزعاج البعوض والذباب[١]. وتحدث بركهارت عن توطن مرض (القراح) في السيقان؛ حيث يصيب قصبة الساق قروح تؤدي إلى الوفاة لعدم علاجها في وقتها بالطرق السليمة[٢]. ووثق الطبيب الفرنسي بروست الذي حضر في موسم حج ١٣١٠هـ/١٨٩٣م انعدام المياه النظيفة وعدم الاهتمام بالوقاية من الأمراض الناشئة من ذلك، وتؤدي إلى وفيات الحجاج وكثرة الموتى في الشوارع، وانتشار الكلاب بشكل كبير وتنشر نوعية أخرى من الأمراض. ويصف المقاهي في جدة أنها تحولت إلى مستوصفات بسبب كثرة الحجاج المرضى الذين يتحصلون على العلاج فيها[٣].

وقدّم القناصل صورة سيئة عن الأوضاع الصحية في جدة بسبب التكدس في موسم الحج وانعدام الخدمات الصحية؛ حيث لا يوجد إلا مستشفى واحد، يصفه نائب القنصل الإنجليزي «آلبان» أن المريض يفضل الموت في الشارع في الهواء الطلق على أن يموت وسط البؤس والخراب في المستشفى[٤].

---

(١) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر...، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢) بوركهارت، رحلات في شبه الجزيرة...، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(٣) سهيل صابان، مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ بحوث ودراسات من واقع الأرشيف العثماني والمصادر التركية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٦هـ، ص ٢١٠-٢١٣.

(٤) التفاصيل الصحية وردت في تقرير شامل سبتمبر ١٨٩٣م/١٣١١هـ Y. PRK. SH رقم ٥٥، وانظر سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، صفحات متعددة.

وتأثرت حركة الملاحة البحرية من إجراءات الحجر الصحي، وأصبحت موضوعًا للخلافات الشديدة بين الدول؛ لأنها تعيق حركة الملاحة البحرية إلى ميناء جدة، مما أدى إلى اعتراض بريطانيا بصورة خاصة على هذه الإجراءات المبالغ فيها، واعتبرتها جائرة لتأثيرها على قدرة الأسطول التجاري في حرية العبور في البحار، وشهدت الأعوام ١٢٩٩-١٣٠١هـ، الموافق ١٨٨١-١٨٨٣م إجراءات دقيقة مع المسافرين إلى جدة أدت إلى خنق الحركة التجارية، وأصبحت جدة مدينة معزولة تجاريًّا، وتوجهت الشركات الملاحية والتجارية إلى الموانئ البديلة[١]، وبدون فائدة ملموسة لهذا الحجر الذي كان فعليًّا مكانًا لازدياد الأمراض وانتشارها. يصف الرحالة دولتشين الحجر الصحي في جدة ودفعهم مبالغ طائلة وأنهم أخذوا منهم جوازات السفر فيقول: «الماء الذي يحضرونه من جدة مالح تعذبت كثيرًا، أما هنا فلا وجود لأي طبيب، يوجد بازار بين الخيام في المحجر ويذبحون الخراف بين الخيام. لقضاء الحاجة يذهبون إلى شاطئ البحر والتجار يوزعون بضاعتهم بين المرضى»، ويتحدث عن بطء الإجراءات الإدارية واستغلال الحجاج[٢].

❸ الإهمال في تطوير الميناء:

أهملت الدولة العثمانية تطوير ميناء جدة مثل المنشآت العامة الأخرى؛ ولكنّ إهمال تطوير الميناء أعطى آثارًا سلبية كبيرة على الدخل مع العوامل الأخرى التي شهدتها جدة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وساهم في تنفير حركة الملاحة البحرية إلى الموانئ الأخرى في البحر الأحمر.

---

(١) مبارك محمد المعبدي، النشاط التجاري...، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) عبد العزيز دولتشين، الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٨٨-٨٩.

يعتبر تقرير «سـويلمز أوغلى» أهم وثيقة بهذا الشـأن الذي رفع دراسة شاملة في ١٣١٠هـ/١٨٩٢م مباشرة إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وأوضح أن الميناء يحتاج إلى فنار وبناء بعض الأرصفة الحديثة، وأن أعمال الصيانة والتطوير على الرغـم مـن التكلفة البسـيطة لها فـإن المردود سـوف يكون جيدًا؛ حيث سـتزيد أعداد السـفن من المئات حاليًّا التي تسـتخدم الميناء إلى أن تكون بالآلاف، وأن هذا الإهمال حرم الخزينة العثمانية من مبالغ طائلة لو أحسـنت تطوير ميناء جدة وقدمت له الصيانة الفعالة، ويستمر التقرير في تفاصيل أخرى حول ضرورة تطوير الموانئ الأخرى على السواحل الشرقية للبحر الأحمر، مثل: ينبع والحديدة في اليمن، وتشغيل خطوط ملاحية وخلافه، ويؤكد في تقريره أن الإهمال أصاب كل الموانئ في شرق البحر الأحمر، وفي هذا خسارة كبيرة مالية واستراتيجية للدولة العثمانيـة، وأنـه إن أرادت الدولـة الاحتفـاظ بهذه المدن فلا يوجـد أمامها خيار سوى تطوير الموانئ وإنشاء دوائر جمركية حديثة[١].

٤ القرصنة وضعف الدولة العثمانية :

انتشرت أعمال القرصنة والعنف في حوض البحر الأحمر والمحيط الهندي في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر لعدد من الأسباب الاقتصادية والسياسية، أهمها أن الشـركات الإنجليزية احتكرت التجـارة بين الهند وبين الموانئ المطلة علـى البحـر الأحمر، وهذا الاحتكار أخرج التجار والوسـطاء من التجارة كلها، ولهـذا لجـأوا إلـى التهريـب وما لبث أن تطـور الأمر إلى قرصنـة وأعمال عنف. مـع الوقـت تطور الوضـع إلى أن أصبحت هـذه القرصنة مهنة ومصـدرًا للدخل لـدى الكثير، وأصبحت أكثر تنظيمًا ضد السـفن التجاريـة الإنجليزية والأوروبية

(١) انظـر التقريـر فـي ملاحق كتاب صابرة مؤمن إسـماعيل، جـدة خلال الفترة...، مرجع سابق، ص ١٩١ وما بعدها.

بشكل عام. الأمر الذي أثار حفيظة الحكومة الإنجليزية، وطالبت الدولة العثمانية بتوفير الحماية للسفن والممرات البحرية، ولكن الدولة العثمانية لم يكن لديها التجهيزات البحرية الكافية لإيقاف هذه الظاهرة، وساهمت الحروب في السودان بين القوات الإنجليزية المدعومة من القوات المصرية ضد القوات المهدية في اضطراب الأمن في حوض البحر الأحمر، وانتشر العنف في الجانب الأفريقي من البحر الأحمر.

واتخذت تجارة الرقيق كانت من البحر الأحمر ممرًّا رئيسيًّا لها؛ لأن أكثر نقاط تجميع الأفراد كانت على الجانب الأفريقي متجهين إلى الموانئ اليمنية وإلى جدة ومنها إلى قارة آسيا، وتصدت الدول لهذه التجارة المحرمة وخاصة السفن الإنجليزية؛ حيث استطاعت بريطانيا من خلال المعاهدات الدولية أن يكون لها الحق في مهاجمة السفن التي تعمل في هذه التجارة وتحرير من عليها.

الشكل الأخير للعنف في البحر الأحمر كان تجارة السلاح المحرمة دوليًّا، وتهريب الأسلحة بعيدًا عن السلطات الشرعية، وكانت المحطة النهائية هي اليمن أو جدة، ومنها تتسرب هذه الأسلحة إلى الأهالي داخل الجزيرة العربية.

كل هذه العوامل مجتمعة أوجدت بيئة غير آمنة للتجارة والنقل السلمي للبضائع والأفراد في حوض البحر الأحمر والموانئ المطلة عليه[١].

يتضح مما تقدم أن الدولة العثمانية أهملت ميناء جدة إهمالًا بالغًا وصل الأمر إلى الذروة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على الرغم من اعتمادهم على هذا الميناء في إيجاد الدخل الكافي للصرف على الحجاز، واستغلال الأهمية الجغرافية والإستراتيجية لجدة وميناها. صاحب إهمال الميناء انعدام الاستقرار

(١) سهى سعود شعبان، تجارة العبور الترانزيت في البحر الأحمر، مرجع سابق، ص ٤٩-٦٣.

السياسي، وتوزيع السلطة بين الشريف في مكة والوالي في جدة، ما جعلهما في حالة من العداء والشك وضياع المسؤولية في الوظائف، وانتشار الفساد بكافة أشكاله ليسهل حكم الإقليم، واتباع سياسة فرق تسد بين مكونات السلطة والمجتمع، هذا الوضع أتاح للدول الاستعمارية وخاصة الإنجليز أن يتدخلوا في تركيبة المجتمع التجاري، وذلك بإعطائهم مميزات قانونية وتسهيلات تقدمها لهم القنصليات، وتمكين من بيئة الأعمال وتجاهل لمصالح أبناء البلاد الأصليين مما أدى إلى انفجار أعمال عنف في منتصف القرن التاسع عشر، فيما يعرف شعبيًّا باسم (فتنة جدة) أو (مذبحة القناصل) في العام ١٨٥٨م[١].

ب - ٤: مطلع القرن العشرين:

جاء مطلع القرن العشرين وميناء جدة لا يزال يحتفظ بمكانته باعتباره عصب الحياة ومركزًا تجاريًّا، والأهم طبعًا أنه ميناء الحجاج والزوار، وكانت الحركة في الميناء مزدهرة نوعًا ما؛ حيث توثق دراسة وثائقية تستند على الوثائق البريطانية أو ما يعرف [Jeddah Diaries] أو (يوميات جدة) والخطوط الملاحية المباشرة كانت متصلة بدول العالم؛ حيث أوضحت أنه في الإقليم توجد خطوط مباشرة مع عدن، السويس، البصرة، بورت سودان، سواكن، بيروت، ومن أوروبا توجد سفن من هامبورغ، ليفربول، أمستردام، وحتى نيويورك، ومن الشرق توجد سفن من جاوا وبتافيا الإندونيسية ترفع العلم الهولندي، ومن الهند من بومباي وكالكتا، وأعداد قليلة لسفن من الصين واليونان لنقل الحجاج.

---

(١) انظر بحث كامل عن ظاهرة التدخل الأجنبي في الحياة الاقتصادية في جدة، وما نتج عنها من أعمال عنف، في محمد أنور مسلم نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، ص ١٨١-٢١٦.

توضح حركة السفن إلى ميناء جدة في مطلع القرن العشرين والوثائق التفصيلية لها أن هناك ازديادًا عامًا بعد عام في حجم البضائع والركاب والحجاج من وإلى جدة[١].

شهد مطلع القرن العشرين اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى، واختارت الدولة العثمانية المشاركة في الحرب من عام ١٩١٤م إلى جانب ألمانيا والنمسا، وأصبحت الأقاليم التابعة لها في حالة حرب بما في ذلك جدة التي حاصرها الأسطول الإنجليزي، وتأثرت الحركة التجارية ونقل الحجاج بهذا الحصار الاقتصادي الخانق وتوقف قدوم الحجاج، وأدركت بريطانيا خطورة هذا الوضع على العالم الإسلامي؛ لهذا سعت إلى تخفيف آثار ذلك ونشرت إعلانًا في جريدة الأهرام القاهرية في ١٩١٦/١٢/٥م بعد سنتين من الحصار تدعو فيه الدول المتحاربة إلى استثناء ميناء جدة من الحصار، وأنه يجب أن يتميز عن غيره لقربه من الأماكن المقدسة، ومع ذلك رفضت الدول إرسال السفن إلى جدة خوفًا من ظروف الحرب وعدم الأمان.

لاحقًا بعد مراسلات (الحسين – مكماهون) طلب الشريف حسين من الإنجليز استمرار الحصار الاقتصادي من الأسطول الإنجليزي على موانئ عدن وجدة خاصة، والموانئ على البحر الأحمر بشكل عام؛ حيث إنه من تخطيط الشريف أن هذا العمل سوف يزيد من معاناة السكان، وبالتالي زيادة السخط على الدولة العثمانية وإثارة السكان ضدها، واستجابت بريطانيا لطلب الشريف، واستمر الحصار الاقتصادي

(١) جبر محمد الخطيب، حركة التجارة والحجاج في ميناء جدة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلد ٤١، عدد ١٥٧، ص ٩٩-١٢٤، جامعة الكويت، ٢٠١٥م. تشتمل هذه الدارسة على جداول تفصيلية عن حركة الميناء، وحجم البضائع، ونوعية السفن، وأعداد الحجاج.

وازدادت معاناة الناس حتى إعلان استقلال الحجاز عن الدولة العثمانية.

عاد الشريف وطلب مساعدة بريطانيا في دعم عودة حركة الملاحة البحرية إلى ميناء جدة، وبالفعل عادت الحركة بطيئة وازدادت تدريجيًّا بدعم من بريطانيا[١].

جـ - نماذج من حالات القيادة في جدة:

حقيقة أن جدة أصبحت مقرًّا للقيادة الإقليمية عدة مرات في تاريخها، وهي محدودة الموارد وقليلة السكان، وقيادتها دائمًا من الخارج ليس له سوى تفسير واحد ألا وهو سطوة الجغرافيا السياسية على قرار اتخاذ جدة مقرًّا للقيادة على مساحات واسعة من الإقليم، وأن تفاعل عناصر الموقع والموضع جعل هذا ممكنًا.

توصل أحد الباحثين إلى أن جدة خلال العصر العثماني كله هي عاصمة الحجاز الأولى، وامتد نفوذها السياسي إلى مكة والمدينة، ووصل جنوبًا إلى جازان وبعض مناطق اليمن، واتسع هذا النفوذ حتى وصل سواكن ومصوع وبورتسودان..... ويضيف أن ولاية جدة مسؤولة عن بلاد اليمن، ومعظم الحملات والتجريدات خرجت تريد اليمن كانت من جدة[٢].

وفيما يلي أهم حالتين للقيادة في جدة، والقيادة هنا بمعنى التأثير فيما حولها من الإقليم، وهما: الحالة الأولى: ولاية الحبش، الحالة الثانية: الوجود الأجنبي والقنصلي.

---

(١) جبر محمد الخطيب، التجارة في ميناء جدة من خلال جريدة القبلة ١٩١٦–١٩١٧م، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد ٢٩، عدد ٣، ص ٤٥٩–٤٨٠، نابلس ٢٠١٥م.

(٢) عبد الله سراج منسي، جدة في التاريخ الحديث، مرجع سابق، ص ٢٦٦.

الحالة الأولى: ولاية الحبش:

أثناء الهجمات البرتغالية الصليبية على العالم الإسلامي وإغلاق مداخل البحر الأحمر في مطلع القرن السادس عشر ظهرت خطورة تحالف البرتغاليين مع مملكة الحبشة المسيحية التي قدمت الدعم من الجهة الأفريقية للبحر الأحمر. أدرك والي اليمن العثماني ازدمر باشا - والذي حكم اليمن في الفترة ٩٥٦-٩٦٢هـ الموافق ١٥٤٩-١٥٥٥م - الأهمية الإستراتيجية لشواطئ البحر الأحمر من الناحية الأفريقية، وبالفعل تحرك للسيطرة على سواكن والأقاليم المحيطة بها، وفي مرحلة تالية مصوع والمناطق المحيطة بها. الدولة العثمانية أسمتها إيالة الحبش؛ لأنها تعتبر المخرج لبلاد الحبشة، ووضعت هذه الإيالة منذ إنشائها تحت سيطرة والي جدة، وأن يكون الدخل الناتج من هذه المناطق يورد إلى خزينة جدة.

عندما كلفت الدولة العثمانية محمد علي باشا بالحرب على الجزيرة العربية، وضعت (ولاية الحبش) تحت تصرفه لدعمه استراتيجيًّا وتأمين مساحة أكبر للتحركات البحرية، خاصة وأنه اتخذ من جدة عاصمةً له والمقر الرئيسي لتواجده في الجزيرة العربية. كانت ولاية الحبش بمثابة الرقيب للدولة العثمانية على تحركات الدول الأجنبية في حوض البحر الأحمر، وكانت ولاية ذات أهمية في تغطية تحركات الحبشة التي عرفت تاريخيًّا بالتحالف مع الدول الغربية، وأنها خاضت حروبًا ذات طبيعة دينية ضد ممالك الطراز الإسلامي على شواطئ البحر الأحمر[١].

(١) نوال سراج ششة، جدة في القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٦، ص ١١٨.

توصلت بريطانيا إلى معلومات أن محمد علي بعد أن استقر به الحال في جدة وسيطر على ولاية الحبش أصبح في وضع يتيح له أن يضع خططًا عسكرية للتوسع الإقليمي بشكل يهدد المصالح الإنجليزية وحتى مصالح الدولة العثمانية نفسها؛ لأن الهدف النهائي لمحمد علي هو خروجه من تحت عباءة الدولة العثمانية.

بداية التحركات الفعلية كانت عندما خرجت حملة من جدة بقيادة إبراهيم باشا للسيطرة على اليمن في عام ١٨٣٧م، وبالتالي أصبح الطريق ممهدًا لاحتلال عدن والشواطئ اليمنية، وهذا يعني تهديد الخطوط الملاحية إلى الهند على أهمية ذلك على وضع الإنجليز هناك. استقر لدى الإنجليز أن مخططات محمد علي تشمل بعد إخضاع عدن أن يمتد إلى مسقط وبغداد وسواحل البحر الأحمر على الجانبين؛ حيث إن تبعية ولاية الحبش أصبحت مصدر قوة إضافية له، وأحس الإنجليز أن البحر الأحمر خرج من سيطرتهم، ومن هنا أخذت بريطانيا على عاتقها البدء في إعادة السيطرة على المنطقة كلها ابتداء من عدن. في البداية وجه وزير خارجية بريطانيا اللورد بالمرستون تهديدًا صريحًا لمحمد علي باشا حول تحركاته في البحر الأحمر وخاصة عدن انطلاقًا من جدة، وأن هذا فيه مساس بالمصالح الأساسية للهند وبريطانيا، ثم تحركت بريطانيا لاحتلال عدن في ١٨٣٩م، ثم أخرجت محمد علي من الجزيرة العربية بمعاهدة لندن بعد أن تلقى ما يعرف المذكرة المشتركة من الدول الخمس الكبرى (إنجلترا، وفرنسا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا)[١].

---

(١) أحمد حسين العقبي، التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٠هـ، ص ٣٥٦-٣٦١، ص ٢٧٢.

انتهت علاقة محمد علي بولاية الحبش في عام (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، وعادت إدارتها إلى والي جدة كما كان الحال سابقًا، وبعد عدة سنوات في عام ١٨٤٦م أعطت الدولة العثمانية حق إدارة الجمارك في مصوع وسواكن إلى مديرية التاكة في مصر؛ ولكن بدون سيطرة سياسية أو عسكرية، ولم تستمر هذه الترتيبات إلا ثلاث سنوات ثم عادت الجمارك مرة أخرى إلى والي جدة.

استمرت مصر بالمطالبة بولاية الحبش والشواطئ على الجانب الأفريقي من البحر الأحمر لأهميتها الإستراتيجية في التحكم في حوض البحر الأحمر علاوة على العائد المادي من جمارك ميناء مصوع وميناء سواكن، وبذلت الحكومة المصرية جهودًا حثيثة إبان حكم الخديوي إسماعيل، وأرسلت المرسولين إلى جدة لإقناع والي جدة والشريف في مكة أن هذا لن يؤثر على دخل جمارك ميناء جدة، وكانت حجة الخديوي أن سيطرته على مصوع وسواكن وما حولهما سوف يمكنه من محاربة تجارة الرقيق التي تنشط في البحر الأحمر والقرصنة وغيرها من الأنشطة الإجرامية باستخدام البحرية المصرية. في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م أصدر السلطان عبد العزيز بن محمود فرمانًا بإحالة ميناءي سواكن ومصوع إلى مصر على أن يؤدَّى الإيراد من الجمرك إلى خزينة جدة كما كان متبعًا في السابق، فيورد ٢٥٠٠ كيس سنويًّا للخزينة علاوة على الدخل من الملاحات، وأن يكون ذلك في حياة الخديوي إسماعيل فقط ولا تتعداه إلى ورثته[١].

تفككت ولاية الحبش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظرًا للمتغيرات التي حدثت بالتواجد الأجنبي من بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا

(١) شوقي عطا الله الجمل، ولاية الحبش العثمانية بين إيالة جدة والإدارة المصرية ١٢٣٤–١٣٠٣/١٨١٨–١٨٨٥، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٢٢، الرياض، ١٤١٧، ص ١٩١.

في المنطقة، وقبل نهاية القرن التاسع عشر تم توزيع مناطق النفوذ في السواحل المطلة عليه، وانتهت قيادة جدة على هذه الولاية؛ حيث شهدت المناطق الأفريقية من ولاية الحبش ابتلاعها من قبل القوات الاستعمارية الغربية، وكان النصيب الأكبر لبريطانيا، وانتهت مرحلة مهمة في تاريخ جدة ونفوذها السياسي والاقتصادي؛ حيث أدركت بريطانيا مبكرًا أهمية حوض البحر الأحمر لارتباطه بالمحيط الهندي والنفوذ البريطاني في الهند وارتباطه بالبحر المتوسط، وركزت جهودها للسيطرة على شواطئ الجانب الأفريقي بعد احتلال عدن، واستطاعت من خلال السيطرة على مصر والسودان أن تستولي على الجزء الأكبر من هذه السواحل، وبحلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر أصبح الجزء الأكبر تحت سيطرة بريطانيا، ومنها أيضًا بربرة وبلهار وزيلع المقابلة لعدن، وأخذ الإيطاليون مصوع في عام ١٨٨٢م وما حولها باسم إريتريا، واحتلت فرنسا أوبوك وما يعرف باسم الصومال الفرنسي ابتداء من عام ١٨٦٢م، ثم وضعت فرنسا مستعمراتها في شرق أفريقيا تحت إدارة موحدة في الصومال الفرنسي عام ١٨٩٦م، واتخذت من جيبوتي مقرًّا للحكم الفرنسي، وكان استعمارًا استيطانيًّا اتبعت فيه ما يعرف باسم السياسة الفرنسية أي فرض اللغة والثقافة الفرنسية على المستعمرة.

الحالة الثانية: الوجود الأجنبي القنصلي:

ابتداء من القرن السادس عشر ظهر الصراع بين الإمبراطوريات المؤثرة والدول الاستعمارية نتيجة التغيرات التي حدثت في الاقتصاد العالمي والاكتشافات البحرية وما نتج عنها من استحداث طرق جديدة للملاحة البحرية. مع بداية القرن التاسع عشر شهدت مناطق الشرق صراعات عنيفة بين هذه الدول من أجل السيطرة على بحار الشرق وخاصة البحر الأحمر لارتباط ذلك

مباشرة بالأبعاد الإستراتيجية والاقتصادية للحفاظ على هذه القوى الاستعمارية ونمـو نفوذهـا؛ لهذا لا بـدّ أن ننظر للوجـود الأجنبي بأشـكاله المختلفة وليس بصورته الرسمية فقط.

بريطانيا، بصورة خاصة، كانت لها مصالح مضاعفة من السيطرة على طرق الملاحة البحرية في الشـرق والبحر الأحمر باعتباره من طرق المواصلات إلى شـبه القارة الهندية والشـرق الأقصى؛ لهذا طورت ما يعرف باسم «خطة الهند» تقـوم بمقتضاها بريطانيا بالسـيطرة عسـكريًّا وسياسـيًّا على المضائـق والأماكن والممـرات البحريـة التـي تـؤدي إلى الهند. وهذا يفسـر احتلال عـدن ١٨٣٩م كخطوة استباقية ضد قوات محمد علي المتواجدة في جدة؛ ليكون لها السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر والسيطرة على باب المندب واستخدام ميناء عدن ليكون قاعدة تموين الفحم للسفن البخارية المدنية والعسكرية الإنجليزية. احتلال عدن كان جزءًا من مخطط السيطرة والنفوذ على جنوب اليمن والساحل الشـرقي لأفريقيـا والبحر الأحمر، وجـدة كانت في صميم الاهتمـام البريطاني باعتبارها من أهم الموانئ ونقطة المنتصف على البحر الأحمر، وكان يقابل هذا الضعف المتنامي للدولة العثمانية[١].

(١) حسين حسان حسين، ضعف النفوذ العثماني في منطقة البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية ١٨٣٩-١٩٠٥م، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، ٢٠٠٦م، ص ١٧٢-١٧٥.

● **أسوار مدينة جدة مع بوابة المدينة المنورة ويظهر عدد من مباني القنصليات الأجنبية.**
د. فوجي 1924. جامعة ليدن، 26. 365: 41.

● **صورة جماعية للقناصل الأوروبيين في جدة بصحبة الشخصيات العثمانية والحرس القنصلي.**
شيلتيما، نيكلوس. بين 1907 - 1911
جامعة ليدن، 46. 26. 365

يجب أن ننظر للوجود القنصلي للدول الغربية في جدة من زاوية أنه امتداد للصراعات بين الدول الاستعمارية على التجارة العالمية واستغلال الأهمية

المكانيـة لمدينة جدة للتواجد فيها لتحقيـق أهداف اقتصادية وغير ذلك؛ حيث إن التواجـد فـي جـدة يمكن هذه الدول مـن التعامل مع الإقليـم بأكمله، وهي بمثابـة نافذه على مجتمع الحجاج يمكـن للغربيين مراقبة الحجاج وفهم العقلية السائدة في المجتمعات الإسلامية عند تجمعهم للحج.

وكان الوجود القنصلي شـكلًا من أشـكال هذه الصراعات ولكنه ذو صبغة قانونيـة، وكما وصفه الشـيخ عبـد القدوس الأنصاري: ظاهرةُ العناية بالشـؤون التجارية وباطنه العناية بالشـؤون السياسـية والسيطرة، ويرى أن أهداف التمثيل البريطانـي في جدة ذات صبغة سياسـية واقتصادية وخدميـة ورقابية، وملاحظة دقيقة لحركة الحجاج من المسـتعمرات خاصة من الهند وجنوب شـرق آسـيا، وفـرض رقابـة علـى سـلوكهم السياسـي المعـارض للوجـود الاسـتعماري في بلادهـم[١]. أي أنـه لا يجوز النظر إلى الوجود الأجنبي في شـكله القانوني وهو القنصليات؛ ولكن الوجود الأجنبي بأشكاله المتعددة والصيغ المختلفة وعلاقته بالمصالح الاستعمارية المتشعبة.

تزايد الوجود الأجنبي في جدة من القرن الثامن عشـر وبداية القرن التاسـع عشر على شكل وكلاء تجاريين، وكانوا في العادة من المسلمين الهنود، وأهم ثلاث وكالات أجنبية في القرن التاسع عشر هي:

شركة الهند الشرقية البريطانية	British East India Co
رومر دامش لويد (هولندية)	Rumir Damishi Luid
الفريد هوليت (نمساوية)	Al Farid Hulat

(١) عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ جدة...، مرجع سابق، ص ٣٩٣.

الاهتمام الأكثر كان من الوكالة والتجار الإنجليز بحكم أن جدة ضمن (الطريق إلى الهند)، وعندما وجدت القنصليات لاحقًا في القرن التاسع عشر فإنه من الأسباب التي شرعنت وجودهم القول بأن لهم رعايا في جدة لأسباب عديدة أهمها التجارة، وأن الحجاج من الهند والمستعمرات يمرون من جدة بأعداد متزايدة، ولا بدّ من التواجد القنصلي لخدمة هؤلاء الزوار.

وكانت الحالة الصحية للحجاج من أكثر الأسباب التي مهدت الطريق أمام القنصليات للتدخل في الشؤون الداخلية للحجاز، وإظهار ضعف الدولة العثمانية في السيطرة على إدارة الحج وظهور التقارير الصحية المسيسة والدعاوى لانعقاد مؤتمر دولي لهذا الشأن، وكات بريطانيا من أكثر الدول عملاً على هذه القضايا؛ لهذا لا بدّ من أن ننظر للتواجد البريطاني في جدة بشكله الأكبر من مجرد التمثيل القنصلي[١]، وارتباط هذا التواجد بالمصالح العليا للدولة.

١- التواجد البريطاني في جدة:

أخذ التواجد البريطاني في جدة وما حولها أكثر من صيغة وأكثر من شكل:

- **أولاً:** الشكل القنصلي ودور القناصل في التدخل في شؤون جدة.
- **ثانيًا:** الشكل العسكري وهذا أخذ أكثر من صيغة، منها: التدخل العسكري المحتمل، التدخل العسكري الفعلي، والتلويح بالتدخل العسكري.
- **ثالثًا:** الشكل الاستراتيجي.

---

(١) نورة إبراهيم النامي، أثر النشاط التجاري على البيوت التجارية في جدة وعوامل استمرارها خلال ١٢٥٦-١٣٣٥هـ/١٨٤٠-١٩١٦م، مجلة الدراسات العربية، دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٩م، مجلد ٤، العدد ٣، ص ١٤٤٢.

١- أولاً: الشكل القنصلي:

تطور التمثيل القنصلي البريطاني في شكله ومرجعيته في مدينة جدة؛ حيث بدأ على شكل ممثل تجاري ذي صبغة قنصلية؛ وهي أول قنصلية ترفع علمًا أجنبيًّا في جدة، وهي أول قنصلية أجنبية كان في عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م، وهذا التاريخ يتفق مع بدء خروج فيالق محمد علي من الحجاز، وعودة الحكم العثماني المباشر والحرص على استقبال القناصل في جدة، وهذا التاريخ قال به الحضراوي وآخرون[١].

الممثلون التجاريون، قبل ذلك كانت تعينهم شركة الليفانت [Levant] منذ عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، بعد ذلك جاء المعلم يوسف وهو أمريكي من أصل بغدادي في عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م، وكان من كبار تجار البن في جدة، وله وكالات بالقاهرة، وله وكالة في مومباي، وبعد فترة حصل على منصب نائب قنصل وخلفه أوجيلفي [A.S.Ogilvi].

تجدر الإشارة إلى أن القناصل الإنجليز كانوا تجارًا ويسمح لهم بممارسة التجارة مما أتاح لهم الاندماج في المجتمع المحلي والتدخل في الشؤون الداخلية عن علم ودراية ومصالح خاصة بالإضافة إلى مصالح دولتهم. بعد تفكك شركة الليفانت ١٢٣٦هـ/١٨٢١م أصبح القنصل يعين من قبل شركة الهند الشرقية حتى مصرع ممثل الشركة ونائب القنصل في الوقت نفسه السيد بيج [Page] في الأحداث الدامية ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م، بعد ذلك أصبح أمر اختيار القناصل موكولًا إلى وزارة الخارجية لكي يمثل القنصل بلاده بصورة مهنية ويستطيع الدفاع عن مصالحها[٢][٣].

---

(١) أحمد بن محمد الحضراوي، الجواهر المعدة في فضائل جدة، تحقيق: د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٤٣.

(٢) نورة النامي، أثر النشاط التجاري...، مرجع سابق، ص ١٤٤٣ وما بعدها.

(٣) تأسست شركة الليفانت ١٥٨١م، وقد مارست اختصاصات تجارية وسياسية واسعة فهي =

وكان القناصل الإنجليز أكثر قناصل أجانب يتدخلون في الشأن العام في مدينة جدة والحجاز عمومًا، وكان هذا بشكل غير مسبوق، ومن أمثلة ذلك:

تدل الوثيقة رقم F.O.1251-07283، وهي رسالة من القنصل البريطاني، أنه وضع خطة متكاملة لتطوير الخدمات والإدارة الحكوميَّة لجدة وأقنع بها الحاكم العام للحجاز (علي بك)، وتشتمل الخطة على إنشاء قوة أمن داخلي، كذلك إنشاء محاكم متخصصة ليستتب الأمن واقتراحات للشؤون البلدية حول نظافة الشوارع وإمدادات المياه، واقتراحات تفصيلية للميناء تشمل بناء منارات للسفن في الميناء وتنظيف المجرى الملاحي، وإنشاء هيئة مرشدين للسفن في الميناء وقائمة طويلة من الموضوعات ليس لها علاقة مباشرة بمصالح بلاده. وفي رسالة أخرى من نفس هذا القنصل جيمس زوهراب [James Zohrab] إلى السفير البريطاني لدى إستانبول [Layard] أوستن لايارد في مايو ١٨٧٩م أوضح الأهمية التجارية لميناء جدة باعتباره الميناء الرئيسي في الحجاز، وينتقد الوضع الأمني وقلة الجنود لحمايته مع أن حجم التجارة فيه تتعدى الثلاثة ملايين جنيه إسترليني[١].

وبعد أن توثقت علاقة القنصل «زوهراب» مع ناشد باشا حاكم الحجاز العثماني يطلب من السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية بأن يدعم الحاكم،

= التي ترشح السفراء الإنجليز في إستانبول وتدفع رواتبهم، وكان جميع الدبلوماسيين الإنجليز في الدولة العثمانية يعدون مستخدمين في الشركة في ظل هذه الترتيبات التي استمرت لأكثر من قرنين من الزمان، انظر عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤م، الجزء ٢، ص ٣٨ وما بعدها.

(١) عُيِّن زوهراب قنصلاً في جدة من ١٨٧٨/١٠/٥م إلى ١٨٨١/٩/١م، الموافق ١٢٩٦هـ/١٢٩٩هـ.

وأن يطلب من الباب العالي إرسال جنود إضافيين لدعم الحاكم، وأن يكون القنصل في جدة والسفير قناة تواصل من أجل دعم الحاكم العثماني مع دولته بعد أن قدم تقريرًا أشاد فيه بجهود هذا الحاكم في تحسين الحالة الصحية والخدمات البلدية واهتمامه بأوضاع الأوروبيين في جدة. في المقابل يتدخل هذا القنصل في علاقة الدولة العثمانية بالأشراف ويقدم تقييمًا لأدوارهم، وأوصى بعدم التجديد للشريف عبد المطلب في شرافة مكة.

وانتقد القنصل توماس جايجو [Thomas Jago] في تقاريره توزيع السلطات في الحجاز لصالح الوالي وضياع مكانة القائمقام في جدة، وأن الوالي أخذ سلطات الشريف ولم يتعامل بنجاح مع القبائل البدوية، الأمر الذي انعكس سلبًا على أمن الحجاج والتقليل من المكافآت والمعونات المالية المتفق عليها معهم، وتخفيضها من قبل الوالي العثماني إلى النصف، وقد وثَّق القنصل هذه المعلومات وأنها من أسباب تدهور أمن الحجاج[١].

أثناء فترة هذا القنصل تولى منصب نائب القنصل الدكتور عبد الرزاق، وقد اعترض الوالي بشدة على هذا التعيين؛ لأنه سوف يتيح للقنصلية التواجد في مكة بحكم أن هذا الشخص مسلم ويحضر الحج وما يترتب على ذلك من زيادة النفوذ البريطاني في الحج، وبالفعل قام الدكتور عبد الرزاق بأداء فريضة الحج على الرغم من ممانعة الوالي، وكتب تقارير صحية عن الحج وانتشار مرض الكوليرا، وكانت تقارير مسيسة لها أهداف استعمارية تناولت أوضاع الحجاج الهنود والحالة الأمنية على طرق الحج، وأخذ عينات من المياه للفحص وتحامل

(١) صالح العمرو، تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية، مجلة العرب، مجلد ١١، العدد ١٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٧م، ص ٨٧٨–٨٨٠.

على الأوضاع الصحية بشكل مبالغ. انتهى الأمر بأن تعرض للاعتداء على حدود جدة وقتل في ٣٠ مايو ١٨٩٥م وحامت الشبهات في مقتله حول السلطات المحلية؛ حيث إنه كان في مواجهة مع الوالي والشريف في الوقت نفسه[١].

ولعب المترجم بالقنصلية البريطانية يوسف أفندي قدسي دورًا أكبر بكثير من دور المترجم، وإنما يصل إلى الحد الذي يسمح له بجمع المعلومات من مكة وجدة وأداء فريضة الحج؛ لأنه مسلم والتحرك بين جموع المسلمين خاصة وأنه من أصل عربي وعلاقته حسنة بالمجتمع. هذا المترجم كان لا يجيد الكتابة والقراءة؛ ولكن يجيد التحدث بالعديد من اللغات الأوروبية والهندية والتركية وعلى دراية بقوانين المحاكم العثمانية؛ لهذا يمثل القنصل أمام المحاكم وعمله كان يتجاوز ما تسمح به القوانين والأعراف الدبلوماسية لتحقيق المصالح البريطانية وجمع المعلومات[٢].

---

(١) سلوى سعد الغالبي، الدور السري للقنصلية البريطانية في جدة من خلال وثائق الأرشيف البريطاني ١٨٧٩-١٨٨٤م/١٢٩٧-١٣٠٢هـ، مجلة دار الحكمة، المجلد ٢، عدد ١، ١٩٩١م، ص ٢-٤.

(٢) أثناء الأزمات المتكررة لوباء الكوليرا في الحج اقترح اللورد دوفرين (تعيين عميل سري مدفوع الأجر يقيم في مكة)، وذلك في عام ١٨٧٨م؛ لهذا قامت حكومة الهند البريطانية بإلحاق مساعد الجراح عبد الرزاق من الخدمة الطبية البنغالية لمرافقة رحلة الحج من الهند، وكان عليه أن يقدم تقريرًا عن الظروف الصحية للحج، وقد قام بهذه المهمة بنجاح في مارس ١٨٧٩م. بعد ذلك تم الضغط عليه لأداء دور سياسي أكثر صراحة، وتم اختياره في عام ١٨٨٢م لوظيفة مراقبة الأنشطة السياسية في مكة وجدة، وتم إبلاغه أن القنصل في جدة (يرغب في الاستفادة من مساعدتكم في الحصول على معلومات موثوقة عن سير الأمور والرأي العام في مكة والمناطق المجاورة)، واستطاع أن يستأجر منزلًا في مكة ويوزع الهدايا لبعض الزعماء الدينيين، ولعب دورًا في السياسة البريطانية باستغلال وباء الكوليرا في زيادة التدخل الغربي في شؤون الحج، ونشر الإشاعات الصحية والسياسية في موسم الحج وفي مكة. =

قـام المترجـم يوسـف بالذهاب إلى مكة وأخـذ عينة من ماء زمـزم أو عينة ملوثـة وادَّعـى أن مصـدر وباء الكوليرا هـي مياه زمزم، الأمر الـذي أثار ضجة كبيـرة عندمـا أعلنـت بريطانيا هـذا الادعاء، وطبعًا لـم يثبت هـذا الادعاء أمام الفحص والتحاليل.

وكانـت محاربة بريطانيا لتجارة الرق المحرمة من المواضيع التي سـاعدت علـى تدخـل القنصلية في المواضيع المحلية، وقـد كان للقنصلية دور فعال في محاربـة هـذه التجارة المحرمـة، ومن أهم القناصل الذين لعبـوا دورًا فعالًا في الحـرب علـى تجارة الرقيـق ويليـام بوريـل [William Burrell] وعمل قنصلًا لبريطانيـا في عـام ١٨٨٠م – ١٢٩٨هـ. كذلك من أبـرز القناصل البريطانيين في جدة جورج ديوي [George Dewey] ويساعده الشيخ محمد حسين، وتميزت تقاريرهـم بغـزارة المادة وتنوع المواضيع وكثـر التفاصيل وتحليل المعلومات، وربما يكون ذلك راجعًا إلى طول المدة التي قضياها في جدة من ١٨٩٦م حتى ١٩٠٥م، وتشـمل التقارير التي أعدوهـا تقارير عن الجيش النظامي بالتفصيل، وتقاريـر عن الأسـعار والتعليـم والصحة والضرائـب وأوضاع الميناء وأحوال القبائل العربية، والإشارة إلى قلة السفن المكلفة بحراسة الشواطئ وغيرها من المواضيع، وكان مساعده الشيخ محمد حسين يقدم تقارير ورسائل أخرى ذات طبيعة تفصيلية[١].

يعكـس هـذا النشـاط القنصلي أهمية جـدة ومكانتها في الخطـط البريطانية للمنطقـة، وقـد سـاعدت هـذه الأنشـطة على السـيطرة علـى التجـارة مع جدة

= Michael Low, Empire of the Hajj: Pilgrims, Plagues, and Pan-Islam under British Surveillance, 18651926-, College of Arts and Science, Georgia State University, 2007, P 14–17.

(١) صالح العمرو، تقارير القناصل ...، مرجع سابق، ص ٨٨٤-٨٨٥.

وطرق الشحن منها وإليها، وكذلك أسواق المال فيها؛ حيث كانت أول شركة صرافة في جدة بريطانية، وهي شركة جلاتكي هنكي التي تأسست في جدة من ١٨٨٤م/١٣٠٣هـ [British Galatki Henki co] مؤشرًا على السيطرة الاقتصادية الإنجليزية.

١- ثانيًا: الشكل العسكري:

شهدت جدة ثلاث صيغ للتدخل العسكري الإنجليزي في القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين.

- التدخل العسكري المحتمل.
- التدخل العسكري الفعلي.
- التلويح باستخدام القوة.

أ - التدخل العسكري المحتمل :

شهدت العقود الأولى من القرن التاسع عشر صراعات حادة حول البحر الأحمر عندما تعارضت المصالح الإنجليزية مع مصالح محمد علي، وسيطرة الأخير على موانئ اليمن وجنوب البحر الأحمر واحتلاله جدة، وكان الصدام العسكري بين الطرفين متوقعًا؛ لأن لكل منهما خطط توسعية في المنطقة.

قدم الكابتن جيمس ماكنزي وهو ضابط في حكومة الهند البريطانية تقريرًا في يناير ١٨٣٧م: «أنه أثناء مروره في جدة لمس من خلال أحاديثه مع كبار ضباط جيش محمد علي أن الخطة تقضي بعد أن يتمكن من عسير سوف يوجه قواته إلى عدن، وبعدها إلى حضرموت وعمان ومسقط، ولأنه موجود في جدة وجنوب البحر الأحمر بهذا سوف يكون الطريق ممهدًا للسيطرة على العراق»، وزير خارجية بريطانيا اللورد بالمرستون [Palmerston] أخذ هذه التوجهات

بصورة جادة، وأصدر تعليماته بإصدار إنذار إلى محمد علي في القاهرة بإيقاف أي توسع في المنطقة. تنامى الخوف عند الإنجليز أن البحر الأحمر سوف يخرج عن سيطرتهم، وفاقم من هذه المخاوف أن الإنجليز كانت لديهم قناعة بأن تحركات جيوش محمد علي تتم بدعم من فرنسا المنافس الاستعماري التقليدي لهم، وأن تحركاته في الحجاز والجزيرة العربية هي إحياء لأطماع نابليون القديمة في الشرق. ساهم وجود ضباط مدفعية فرنسيين في جيش محمد علي، وعلماء وأطباء فرنسيين في ترسيخ هذه المخاوف، كذلك اعتماده على أنظمة إدارية ومالية فرنسية؛ ولكن من الناحية التاريخية هذه المخاوف ليست صحيحة على الإطلاق. محمد علي كان يتحرك بناء على طموحات خاصة به، وخطط تهدف في النهاية إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية[١].

تظهر الوثائق القومية أن محمد علي كان يتخوف من هجوم إنجليزي على قواته، وأرسل إلى رستم أفندي أمين جمرك جدة رسالة في ١٥ صفر ١٢٣٦هـ/٢٢ نوفمبر ١٨٢٠م من أن سفنًا إنجليزية سيرت في الهند إلى بلدة موخا، وأن مندوب قائد السفن راجع أمين جمرك جدة. أفيدكم «أنه من الواجب المحتم عدم الأمن بوجه من الوجوه من حيل الدول الإفرنجية وخداعها والقيام بتحري الأحوال وإجراء العلم عن مقتضاها». وتكليف رجل نبيه إلى موخا لإجراء التفتيش والفحص الجيد عن أحوال السفن الإنجليزية المذكورة، لماذا أتت؟ ماذا فعلت؟ وماذا تريد أن تفعل؟ وأن تقوموا بإجراء التجسس عن أحوال السفن المذكورة[٢].

---

(١) فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٢٠-١٢٥.

(٢) وثيقة رقم (٨)، دفتر رقم (٧) معية تركي رقمها في وحدة الحفظ (٤٠)، دار الوثائق القومية، القاهرة. وردت في عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، من وثائق الحجاز في عصر محمد علي، مرجع سابق، المجلد الثالث.

في مايو ١٨٣٨م أرسلت بريطانيا رسالة تحذير شديدة تطلب من محمد علي أن يغادر مناطق جنوب البحر الأحمر، وكان التوتر العسكري قد بلغ مداه، وتم احتلال عدن من الإنجليز في العام الذي يليه ١٨٣٩م، وازدادت التحركات للسفن الإنجليزية في البحر الأحمر[١].

في عام ١٨٤٠م انعقد مجلس جدة وتيقن الجميع أن السفن الإنجليزية سوف تهاجم جدة وتحتلها، وقد ورد في محضر جلسة المجلس في ١ أكتوبر ١٨٤٠م إلى كثرة ورود السفن الإنجليزية إلى جدة بالتتابع وإقامتها في الميناء مددًا مختلفة لا تخلو من قصد إذ إن شهرًا ثلاثًا منها أقامت في الميناء ثم غادرت إلى السويس، وبعد يومين من سفرها حضرت سفينتان إنجليزيتان وظلت عشرين يومًا، ولهذا وضع المجلس خطة للدفاع عن جدة في البر والبحر وهي خطة انتحارية، وسوف نورد تفاصيل الخطة باختصار ولغة معاصرة غير التي كتبت بها تسهيلًا للقارئ[٢].

● **البند الأول :**

تقوم السفن الأميرية بالحركات وفقًا لأصول المحاربة، وعليه تحديد عدد من السفن لغرض الإغراق بحيث تسد مجرى المضيق المائي إلى الميناء؛ حيث إن ميناء جدة له مضيق كبير ومضيق صغير فإنه يستلزم إغراق سفينتين أو ثلاث كبيرة عند مدخل المضيق الكبير، ونتفرغ للدفاع عند المضيق الصغير،

---

(١) فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية...، مرجع سابق، ص ٩٥، وتطورت الأحداث في الجنوب إلى السيطرة على عدن وما حولها، ولكن هذا خارج نطاق بحثنا؛ حيث نركز على موقع جدة.

(٢) وثيقة رقم (٧)، دار الوثائق المصرية، محفظة رقم (٢٦٩)، عابدين (١٩٨)، حمراء. سوف نورد الخطة الدفاعية باختصار. نقلًا عن: عبد الرحيم عبد الرحمن، وثائق الحجاز في عصر محمد علي، ج٣، مرجع سابق.

لذا يجب تحديد السفن والمواقع بدقة من الآن.

● **البند الثاني :**

تحريك السفن الموجودة في الميناء المملوكة للحكومة أو الأهالي إلى أماكن قليلة المياه في الميناء، عند شعورنا بدنو العدو لئلا تقع غنيمة في يده، كما يجب إغراقها وهي في أماكنها إذا علمنا أن العدو اقترب منها بحيلة يريد أسرها، وأن يصدر (السرعسكر) أوامر بإغراق السفن في القنفذة، الليث، رابغ، ينبع عند اللزوم.

● **البند الثالث :**

إخراج الدوريات الخفيفة من البحر من بعد اليوم بمعرفة القبودان عمر في غاية الاهتمام.

● **البند الرابع :**

أخذ الاحتياطات للدفاع برًّا عن جدة؛ لذا وجب معاينة المدافع الموجودة بأبراج القلعة (أبراج السور) ومعرفة احتياجاتها من القذائف بالقياس إلى عدد المدافعين والمدافع ونأمر المدفعيين أن يلزموا معاقلهم ليلًا ونهارًا، وأن يكونوا مستعدين للقتال وإطلاق المدافع من الأبراج، وأن لا يطلقوا المدافع إلا بالأمر الصريح لهم بذلك.

● **البند الخامس :**

مطلوب من رئيس المدفعية أن يقدم كشفًا يبين فيه العدد اللازم للأبراج المشرفة على البر والبحر وما هو الناقص، ويزور المجلس هذه المواقع للتأكد من المعلومات[١].

---

(١) الوثيقة رقم (٧)، محفظة (٢٦٩)، عابدين رقمها (١٩٨) حمراء. توضح أن مجلس =

● **البند السادس :**

أن يكـون كل واحـد متيقظًـا في جدة يقظًـا مترقبًا للحـوادث؛ فإذا ظهرت حركة ما في جهة يجب أن يجتمع المحافظ وضباط الجهادية بجدة في كل مكان مناسب فيها.

● **البند السابع :**

يجـب تخصيـص جنود للمطحنة الهوائية والمستشـفى العام؛ لأنهما خارج القلعـة (خـارج سـور جـدة) وتكليفهم بحراسـتهما، واختتم الخطـة بطلب مئة وخمسـين جندي إضافـي. وتحفظت القيادة العسـكرية لاحقًا على فكرة إغراق سـفن في مدخـل الميناء، ثم طلـب المجلس من مصطفى آغـا رئيس المدفعية كشـفًا بالتسليح الموجود الذي أعده بالفعل، وتم إعداد جدة لاستقبال الهجوم الإنجليـزي بحـرًا وبرًّا ووضعت في حالة اسـتنفار عسـكري دائـم. ولم يحدث الهجوم الإنجليزي على جدة، وما لبث أن غادر محمد علي الحجاز بالاتفاقيات الدولية ومنها معاهدة لندن التي ذكرناها آنفًا.

ب - التدخل العسكري الفعلي :

قصفت سفينة الأسطول البريطاني (سيكيلوبس) مدينة جدة، وأغرقت السفن التجاريـة الأهليـة التابعـة لتجار جدة يـوم ٢٥ يوليو ١٨٥٨م، واسـتمر القصف متقطعًا لمدة يومين، خرج أهل جدة فزعين هربًا من القصف العشـوائي، وبعد

= جـدة الـذي اجتمـع يتكون من عبـده حافظ ومحمد أمين شـونة جدة، بكبـاش ومدير السـفن الأميريـة، السـيد إسـماعيل أمين جمرك جـدة، معلمجي بكـر، قائمقام آلاي المشاة الثالث عشر حافظ سليمان صدقي، محافظ جدة سابقًا، أمين المجلس. ختم، محمد أمين أمير اللواء، عقد في ٤ شعبان ١٢٥٦هـ، ١ أكتوبر ١٨٤٠م.

توقف قصير أتاح الفرصة لنزول جنود إنجليز إلى الساحل وعددهم (٥٠٧) جندي، وخروج الحجاج ومنهم أميرة مغربية، وعاد القصف في شهر أغسطس حتى حضرت قوات مصرية بقيادة إسماعيل باشا، واستجابت للطلبات الإنجليزية بمعاقبة قتله القناصل، وغادرت البارجة الحربية في ٧ أغسطس ١٨٥٨م إلى السويس[١].

ترجع أسباب الأحداث الدموية إلى العقود السابقة في القرن التاسع عشر عندما أدخلت القنصلية البريطانية أساليب شركة الهند الشرقية التي اتبعتها في الهند سابقًا؛ لتغيير تجارة جدة لصالح الرعايا البريطانيين وغيرهم من الدول الغربية الأخرى باستغلال القوانين والمعاهدات العثمانية.

كانت الدولة العثمانية من الضعف أنها دخلت معاهدات مثل: (بالطة ليمان) ١٨٣٨م التي أتاحت للتجار الأوروبيين أن يتمتعوا برسوم جمركية منخفضة في أنحاء الدولة العثمانية. انخرط العالم في مباحثات ما يعرف اسم (المسألة الشرقية)؛ حيث كانت الدول تتفاوض على مقدار المساحة الجغرافية التي يجب أن تحافظ عليها الدولة العثمانية وفي أي شكل وبأي طريقة، وكانت الدولة العثمانية تتماشى مع هذه الجهود خوفًا من تفكك الإمبراطورية بشكل كامل. الأمر الذي مهد الطريق أن تدخل في اتفاقيات ومعاهدات الامتيازات الأجنبية، وإصدار السلطان عبد المجيد فرمان خط شريف كلخانة في عام ١٨٣٩م، بعد ذلك صدر الخط الهمايوني في عام ١٨٥٦م وغيرها.

---

(١) محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، قدم تحليلًا متكاملًا للأحداث التي أدت إلى هذا القصف في ١٨٥٨م استنادًا إلى وثائق الأرشيف الإنجليزي والفرنسي ومراجع أكاديمية رصينة، وتفنيد الأسباب الاقتصادية الحقيقية وراء الأحداث، وضعف القدرات الإدارية والعسكرية العثمانية في جدة التي سمحت بانهيار الأمن، ومقتل القناصل لأسباب تجارية وأغراض السرقة.

أصبحت القنصليات الأجنبية في جدة مسلحة بهذه الاتفاقيات والامتيازات، وأصبح للقناصل الحق في إعطاء تصاريح ممارسة التجارة، وتحصّل على هذا الحق العديد من التجار الهنود المسلمين رعايا بريطانيا للإقامة والتجارة في جدة. أن يتم التقاضي أمام محاكم خاصة تابعة للقنصليات؛ حيث يكون القنصل معيّنًا من قبل شركة الهند الشرقية وسلطات واسعة لتغيير شكل التجارة[١]. في المقابل، اتسمت الإدارة العثمانية للحجاز عمومًا وجدة على وجه الخصوص بالضعف الأمني والإداري بسبب قلة الإمكانيات وانتشار الفساد بين الموظفين، وقصر فترة بقاء والي الحجاز في منصبه بحيث لا يدرك تفاصيل العمل مع نقص في الكوادر المدنية والعسكرية.

في هذه الظروف والأجواء بدأ الخلاف بين ملاك السفينة إيران [Era-nee] وهي مسجلة بريطانية ترفع العلم البريطاني، وقرر أحد ملاك السفينة رفع العلم العثماني لأسباب تجارية بعكس رغبة المالك الآخر الذي طالب برفع العلم البريطاني، وحضر القنصل وأنزل العلم العثماني بصورة مهينة ووطأه بقدمه، وطلب من سفن الأسطول مصادرة وحجز السفينة. في مساء ذلك اليوم توجهت جماهير غاضبة تقدر بعدة آلاف إلى مقر القنصلية الإنجليزية، وخرج لهم القنصل وتلفظ عليهم بألفاظ نابية؛ لهذا هاجم الحشد القنصلية وقتلوا نائب القنصل بيج [Page]، وتوجهوا إلى القنصلية الفرنسية وقتلوا القنصل وزوجته ايمانويل غابريل أفيلارد [Eveillard] وتسعة عشر تاجرًا مسيحيًّا بينهم اثنا عشر تاجرًا يونانيًّا تحت الحماية الفرنسية وكانوا تجارًا ناجحين.

---

(١) سماح علي عبد الله العماري، فتنة جدة ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م دراسة وثائقية تحليلية، مسالك للدراسات الشرعية واللغوية، دار المنظومة ٢٠٢٠م، كذلك: عبد الرؤوف سنو، تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني، مجلة المنهاج، السنة الرابعة، ١٩٩٦م، ص ١٣٥-١٤٠.

● **سجن جدة العمومي.**
شيلتيما، نيكولاس. 1906
جامعة ليدن، 26,363:5

أثنـاء الأحـداث الدامية آوى أهالي جدة بعض الأجانب في بيوتهم للحفاظ على سلامتهم، وهذا موثق في الأرشـيف الفرنسـي بتاريخ ١٨٥٨/١٢/٢٧م، أما الأرشيف البريطاني فيحوي قائمة تفصيلية بأسماء الأشخاص في جدة الذي ساعدوا الأجانب في رسالة من بولين إلى نامق باشا برقم (CAD-2M13244)، ولا يجوز إذن إضفاء الصبغة الدينية على الأحداث خاصة وأن الغوغاء هاجموا منزل صالح جوهر وهو مسلم.

تشـكلت العديد من المحاكمات والإعدامات لسـكان جدة وفرضت عليهم العقوبات المالية، وحرصت السـلطات الإنجليزية والفرنسـية على إضفاء الطابع الديني على الأحداث، وكتب وزير الخارجية البريطاني مالسـبوري [Malmes-bury] كنت فخورًا أنه كان من اللحظة الأولى إقناع العقلية الإسلامية بأن القوى النصرانية لن تتوانى عن إنزال العقاب للانتهاك ضد النصارى في جدة، وأن يكون (القصف) أثناء موسم الحج حتى يعود الحجاج بالأخبار إلى بلادهم.

أثبت التقرير النهائي للجنة المشكلة من إنجلترا وفرنسا والدولة العثمانية في عام ١٨٥٩م أن هناك دوافع اقتصادية بحتة للأحداث بتحريض من النخبة التجارية من حضارم جدة، وكانت الأهداف تهدف إلى سلب وسرقة القنصلية الإنجليزية، ومع ذلك أطلق على التقرير (مذبحة النصارى)، وهذا يتفق مع آراء الدبلوماسيين الأجانب في المنطقة[١].

توصلت أهم الدراسات الأكاديمية حول الحادثة إلى أن الأسباب اقتصادية مؤلفات (د. تهاني الحربي، د. أحمد العقبي)[٢]. وبشهادة نوبار باشا أول رئيس وزراء لمصر كتب في مذكراته عن هذه الحادثة أن القناصل كانوا يمارسون التجارة في جدة، وإذا رفعت شكوى للحاكم كانوا جزءًا من الشكوى، وطبيعي أن يطلبوا من موظفي القنصلية عدم الرد على الدعاوى المقدمة إليهم من الحكومة المحلية حفاظًا على مكانة القنصل أمام دولته، ورعايا دولته في جدة. استمر القناصل في إساءة استخدام السلطات الممنوحة لهم لصالح التجار الذين يمثلونهم على حساب الآخرين، وبالتالي وجدت حالة من الظلم وعدم العدل ضحاياها التجار أهل البلاد وأيقظت المشاعر المتطرفة لديهم[٣]. وهذه

---

(1) Marston, T: Britain's Imperial Role in The Red Sea Area 1800 – 1878", The Shoe String Press, Pag 267.

انظر أيضًا: محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، للوثائق الفرنسية والإنجليزية حول الموضوع، والدراسات الأكاديمية المهمة.

(٢) تهاني الحربي، القنصليات الأجنبية في جدة...، مرجع سابق. أحمد حسين العقبي، دراسة وثائقية جديدة لبعض جوانب أحداث جدة، ورقة بحثية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١.

(٣) نوبار باشا، مذكرات نوبار باشا، ترجمة: جارو طبقيان، تقديم ومراجعة: لطيفة محمد سالم وإلهام ذهني، مركز الدراسات التاريخية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٣٩٢-٣٩٣.

كانت نهاية القناصل التجاريين. واتبعت بريطانيا سياسة جديدة، وهي إرسال قناصل من الدبلوماسيين المحترفين من وزارة الخارجية.

جـ - التلويح باستخدام القوة :

ترك الاستخدام المفرط للقوة العسكرية ضد جدة في ١٨٥٨م آثارًا سيئة على مكانة بريطانيا في المنطقة؛ حيث أظهر أهل السويس تعاطفًا كبيرًا مع جدة، وفي الشام كثر الحديث عن طرد القناصل الغربيين، واندلعت أعمال عنف لأسباب دينية بين الدروز والمسلمين من ناحية واليهود والموارنة في ١٨٦٠م، وحدثت لاحقًا مذبحة الإسكندرية وازداد التوتر الديني في المنطقة؛ لهذا أرسلت بريطانيا خطاب اعتذار عن قصف جدة للدولة العثمانية. أدركت بريطانيا أن جدة تستمد قداستها من وقوعها في المجال الثقافي لمكة ولمكانتها المتزايدة عند المسلمين؛ لهذا رفضت الدعوات من الفرنسيين، وبعض الأصوات في الصحافة والبرلمان باحتلال جدة خوفًا من رد فعل المسلمين خاصة في شبه القارة الهندية ضد عمل عسكري ضد جدة.

انتهجت بريطانيا سياسة التلويح باستخدام القوة من البوارج وذلك في أكثر من مناسبة، واقترح القنصل ستانلي سنة ١٨٦٣م أن تتبع إنجلترا سياسة ثابتة بأن تزور سفنها الحربية جدة بصورة منتظمة لزرع الخوف في قلوب العامة والمتعصبين؛ حيث إنهم خبروا ماذا يمكن أن تفعله هذه السفن الحربية والدمار الذي تلحقه بهم، ومن المناسبات على سبيل المثال:

إبان ثورة عرابي في مصر الذي أرسل يطلب المدد من حاكم الحجاز أسوة بالدعم الذي قدمه أهل الحجاز إبان الحملة الفرنسية، وكان هناك تعاطف كبير مع عرابي وانتشار الشائعات عن هزيمة الإنجليز؛ لهذا قررت بريطانيا إرسال السفينة سي جل [Sea Gull] والتلويح باستخدام

القصف إذا حدث تحرك لنصرة عرابي[١].

- بعد حادثة الاعتداء على القناصل في ١٨٩٥م عندما اعتدى العربان على قنصل إنجلترا وروسيا ورئيس كتاب القنصلية الفرنسية نتج عنه مقتل الدكتور عبد الرزاق نائب القنصل الإنجليزي وإصابة الآخرين، وجاء الاعتداء احتجاجًا على الإجراءات الصحية ضد الكوليرا. أيد القناصل اقتراح القنصل الإنجليزي بإحضار سفينة حربية إنجليزية إلى شواطئ جدة، وطالب القنصل الفرنسي أن تحضر سفينة فرنسية حربية معها، واحتلال مؤقت للثكنات العسكرية حتى يتم تسليم الجناة[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنه إبان الحرب العالمية الأولى نفذ الأسطول البريطاني حصارًا اقتصاديًّا على ميناء جدة على اعتبار أن جدة تتبع الدولة العثمانية التي انضمت إلى دول المحور في تلك الحرب، مما كان له أسوء الأثر على الحياة الاقتصادية في الحجاز[٣].

١- ثالثًا: الشكل الاستراتيجي:

حرصت بريطانيا أن تضع جدة وموسم الحج في صميم استراتيجيتها في السيطرة على أقاليم العالم الإسلامي وبصورة خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ حيث كانت بريطانيا تتخوف من الاجتماع السنوي في الحج وتأثيره على مسلمي الهند على اعتبار أن الحجاز هو مركز العالم الإسلامي ومكان التقاء العلماء والمصلحين، ويخرج منه الدعم لحركات التحرر الوطني

---

(١) أحمد حسين العقبي، التنافس الإنجليزي...، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٢) تهاني جميل الحربي، القنصليات الأجنبية في جدة ١٢٥٢-١٣٤٤هـ/١٨٣٦-١٩٢٥م، مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، ١٤٤٠هـ، الرياض، ص ٢١٩-٢٢١.

(٣) تم الإشارة بالتفصيل في مكان آخر من الكتاب لهذه الحادثة.

من الاستعمار، وساهم لجوء كثير من القيادات الهندية إلى الحجاز والعلماء الهنود في رفع درجة التخوف هذه.

كتب القنصل البريطاني في جدة بتاريخ يونيو ١٨٨١م أن تواجد الأغنياء من الهند في موسم الحج يتم لاعتبارات سياسية بهدف تشكيل الاتحادات وإنشاء التحالفات بعيدًا عن العيون لوجودهم في مكة[١]. وكان التفكير هو إنشاء خلافة أو دولة إسلامية تكون تحت السيطرة الإنجليزية بديلاً عن الدولة العثمانية لإجهاض أي حركات تحرر من الاستعمار على أساس الجهاد، وقد لخص رئيس وزراء بريطانيا الوضع في رسالته إلى السفير الإنجليزي «جزيرة العرب هي كابوس السلطان ونقطة ضعفه، ففي أي ساعة من النهار يمكن أن يظهر فيها إمام المؤمنين المعارض له».

يمكن توثيق محاولتين لإنشاء الدولة الإسلامية البديلة، وهما :

١ محاولة استمالة الشيخ الجليل عبد الرحمن سراج إمام وخطيب المسجد الحرام ومفتي الأحناف وكبير العلماء في مكة أن يصدر فتوى شرعية تجيز وجود خلافتين للمسلمين، واحدة في إسطنبول والأخرى في الهند وذلك في وقت واحد. عرض المعتمد البريطاني على الشيخ أنه بهذه الفتوى سوف يصبح قاضي القضاة في الهند ويفرقون عليه الأموال. كان الشيخ يمرّ بأزمة مع الشريف عون وهارب من مكة إلى جدة واختبأ عند صياد في كوخ فقير، وأكد المعتمد أنه بمجرد موافقته سوف يبحر بطراد عسكري إلى خارج البلاد، ورفض الشيخ العرض وقال : لا أبيع ديني بدنياي[٢].

(1) F. O. 195-1375-07429.

(٢) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز...، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٤٦.

تسربت أخبار توجه بريطانيا إلى إقامة دولة عربية في الحجاز بديلًا عن الدولة العثمانية في ١٨٩٢م؛ حيث علمت السلطات الروسية ومنها عرفت السلطات الفرنسية التي حذرت السلطان العثماني، وكان المخطط هي ضمّ الحجاز ومصر في دولة واحدة ذات توجه إسلامي، وبحكم أن مصر تحت الاستعمار الإنجليزي أصبح الأمر ممهدًا لذلك، ولأسباب عديدة فشلت الفكرة[١].

التمثيل الدبلوماسي البريطاني في جدة:

م	اسم الممثل الدبلوماسي	صفته الدبلوماسية	الفترة الزمنية
١	شركة الليفانت البريطانية The Levant company	رعاية مصالح بريطانيا، وكانت الشركة هي من تقوم بتعيين المسؤول عن رعاية تلك المصالح، وهو مسئول أمامها وليس أمام وزارة الخارجية التي ليس لها سلطة مباشرة عليه.	من ١٨٠١-١٨٢١م
٢	شركة الهند الشرقية البريطانية East India Company	رعاية مصالح بريطانيا، وكانت الشركة هي من تقوم بتعيين المسؤول عن رعاية تلك المصالح، ولكنه مسئول أمام وزارة الخارجية لا بالجهة التي عينته ظل الأمر هكذا حتى عام ١٨٥٨م.	١٨٢١ - ١٨٥٨م
٣	ألكسندر أوقليف Alexander Ogilvie	ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية	١٨٣٦-١٨٥٢م/ ١٢٥٢-١٢٦٩هـ
٤	سي.جي. كول C. J. Cole	ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية، ونائب القنصل	١٩ نوفمبر ١٨٥٢ - ٢٠ نوفمبر ١٨٥٨م/ ١٢٦٩-١٢٧٥هـ

(١) أحمد حسين العقبي، التنافس الإنجليزي...، مرجع سابق، ص ٢١٠.

م	اسم الممثل الدبلوماسي	صفته الدبلوماسية	الفترة الزمنية
٥	السير بيج Page	ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية، ونائب القنصل	تقريبًا من ١٨٥٥-١٨٥٨م/ ١٢٧٢ - ١٢٧٥هـ، قُتل في اضطرابات جدة يونيو عام ١٨٥٨م، وبعد ذلك صار تعيين القناصل وعزلهم ومسؤوليتهم بيد وزارة الخارجية فقط
٦	جي.أي. ستانلي G. E. Stanley	نائب قنصل وقنصل	من ١٣ يونيو ١٨٥٩-٢٥ أبريل ١٨٦٤م/ ١٢٧٦-١٢٨١هـ
٧	ريتشارد ستيفنس Richard Stevens	قنصل	٣٠ يوليو ١٨٦٤-١٥ مارس ١٨٦٥م/ ١٢٨١-١٢٨٢هـ
٨	جي بيتس G. Beyts	قنصل	١٣ فبراير ١٨٧٤-١ نوفمبر ١٨٧٨م/ ١٢٩١-١٢٩٥هـ
٩	أي. بي. وايلد A.B.Wylde	نائب قنصل	١٤ ديسمبر ١٨٧٥-٢٩ يونيو ١٨٧٨م/ ١٢٩٢-١٢٩٥هـ
١٠	جيمس زوهراب James Zohrab	قنصل	٥ أكتوبر ١٨٧٨-١يوليو ١٨٨١م/ ١٢٩٦-١٢٩٩هـ
١١	ويليام بوريل William Burrell	القائم بأعمال القنصل	٣١ يوليو إلى ٢ نوفمبر ١٨٨٠م/ ١٢٩٨هـ
١٢	الكومندر إل.إن. مونكريف Commander L.N. Moncrieff	القائم بأعمال القنصل	٢٣ يوليو ١٨٨١-٦ نوفمبر ١٨٨٣م/ ١٢٩٩-١٣٠١هـ
١٣	توماس جاغو Thomas Jago	قنصل	من ١ أبريل ١٨٨٢-١٤ يوليو ١٨٨٢م/١٢٩٩-١٣٠٠هـ سبتمبر ١٨٨٣-يوليو ١٨٨٨م
١٤	أرثر ألبان Arthur Alban	قائم بأعمال القنصل	١٨٨٥-١٨٨٦م
١٥	دكتور عبد الرزاق DR. Abdur Razzack	نائب قنصل، القائم بأعمال القنصل، قنصل.	من ١٧ أغسطس ١٨٢٢-حتى مقتله ٣٠ مايو ١٨٩٥م/١٣٠٠-١٣١٣هـ
١٦	جورجي ديفي George Dewey	قنصل	١ ديسمبر ١٨٩٦ - ٥ ديسمبر ١٩٠٥م

م	اسم الممثل الدبلوماسي	صفته الدبلوماسية	الفترة الزمنية
١٧	الشيخ محمد حسين Shaikh Mohammad Hussain	نائب قنصل، ثم وكيل قنصل	١٢ مارس ١٨٩٦-١٩٠٨م
١٨	جي ريتشارد سون G. Richardson	قائم بأعمال القنصل، قنصل	خلال عام ١٩٠٩م

■ المصدر:

تم عمل هذه القائمة اعتمادًا على عدد من المصادر منها:

- صالح العمرو: تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية، مجلة العرب، مجلد ١١، عدد ١١ و١٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م.
- سلوى سعد سليمان الغالبي: الدور السري للقنصلية البريطانية في جدة من خلال وثائق الأرشيف البريطاني (١٨٧٩-١٨٨٤م/١٢٩٧-١٣٠٢هـ)، مجلة دار الحكمة، المجلد٢، عدد ١، ١٩٩١.

٢- الوجود الفرنسي في جدة:

● **القنصل الفرنسي فيليكس لوستالوت دي باتشوى مع زوجته وكامل عائلته وموظفي القنصلية.**
سنوك، كريستيان. (بين 1884–1885).
جامعة ليدن، 26-404-3

مع بدايات العصر الحديث تطلعت فرنسا كغيرها من القوى الأوروبية إلى الاتجاه نحو الشرق وثرواته، كانت الطرق البحرية هي الأفضل في الاتصال مع المستعمرات، وأصبحت من القرن السابع عشر قوة بحرية تجوب بحار العالم، وتوجهت نحو الشرق من أجل السيطرة على خيرات الشرق الوفيرة، ومن ثم اتجهت إلى الهند مرورًا بمنطقة الخليج العربي من خلال إنشاء شركة الهند الشرقية الفرنسية ١٦٦٤م. استطاعت هذه الشركة إقامة علاقات تجارية ناجحة في جنوب البحر الأحمر في القرن السابع عشر والثامن عشر، وتوصلت فرنسا أن أفضل الطرق لحماية مصالحها في الشرق وضرب مصالح إنجلترا والسيطرة على البحر الأحمر الطريق إلى الهند هو أن تحتل مصر، ومن هنا جاءت حملة نابليون ١٨٩٨م.

طلب والي جدة «سعيد حامد» من قائد القوات البريطانية في البحر الأحمر سنة ١٨٩٩م جون موري Murrey إرسال قوة بحرية لمنع احتمال تقدم القوات الفرنسية، في الوقت نفسه عرض الشريف على البريطانيين التعاون معهم مؤكدًا أن الفرنسيين يتولون جمع القوارب والحيوانات في السويس للتهيؤ لعمل عسكري في الحجاز، وأرسل «يوسف باشا» أمير المدينة وميناء جدة رسالة إلى المنصور بالله إمام اليمن بضرورة التعاون مع البريطانيين «فمن أتاكم من أصدقائنا الإنجليز أعطوهم ما يهوى من مطاعم الشهوات وشارب الحلوى»[١].

أثناء الحملة الفرنسية على مصر تواصل نابليون مع الشريف غالب بن مساعد، وتم إرسال السفن التجارية والهدايا بين الطرفين من (بندر جدة المعمورة). التحرك الرئيسي الآخر لفرنسا للسيطرة على المنطقة وطرق التجارة فيها هو قناة السويس التي حفرت بإشراف فرنسي في عام ١٨٦٩م، الأمر الذي هدد طرق الملاحة للهند بالنسبة لبريطانيا، وبعد تطورات تاريخية احتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢م، وسيطرت على شمال البحر الأحمر في السويس، كما سبق وأن سيطرت على عدن في الجنوب، وأمنت البحر الأحمر ليكون ممرًّا مائيًّا تحت السيطرة البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر.

بداية القنصليات في جدة كانت في القرن التاسع عشر؛ ولكن اهتمام فرنسا بجدة بدأ قبل ذلك، ويعود إلى زيارة السيد شارل جاك بونسي [Charles Jacque Poncei] وذلك في ٥ ديسمبر ١٧٠٠ ميلادية، وتطورت العلاقات التجارية لاحقًا[٢]. هدف فرنسا من التمثيل الدبلوماسي والقنصلي في جدة مثل هدف بريطانيا

---

(١) صبري فالح الحمدي، العلاقات بين أشراف الحجاز والقوى الأوروبية ١٧٠٠-١٨٠٠، مجلة الوثيقة، مجلد ٢١، العدد ٤١، مركز عيسى الثقافي، يناير ٢٠٠٢م، ص ٩١.

(٢) ابن عبد المؤمن محمد، النشاط الدبلوماسي الفرنسي بعمان وجدة خلال القرنين ١٩-٢٠، =

من قبلها، وهو الاستحواذ على النفوذ التجاري والاقتصادي في البحر الأحمر سواء ذلك بالتجارة أو السياسة، وهي مسألة تنافسية مع بريطانيا وغيرها. واستخدمت وجود حجاج من المستعمرات الفرنسية ذريعة لهذا التمثيل وخاصة من حجاج الجزائر.

بدأت الوكالة القنصلية الفرنسية التي أصبحت فيما بعد قنصلية ونائب قنصلية وتأسيسها رسميًّا في عام ١٨٣٩م، وكان على الممثل المحلي وهو أرمني اسمه «جورج ساركيز» أن يتجادل مع السلطات العثمانية حتى حظي على القبول، وحضر القنصل في ١٨٤٥م؛ حيث أخر العثمانيون قدومه لأن التجارة الفرنسية لم تكن مهمة؛ ولكن الدول الأوروبية لها أهداف أخرى من السباق للسيطرة على طرق التجارة الدولية وأهمية جدة المكانية لهذا الغرض ومراقبة حجاج المستعمرات. أول قنصل فرنسي في جدة هو المستشرق فولجنس دي فريسنيل [Fulgence de Fresnel][(١)].

حضر إلى جدة عدد من المستشرقين الفرنسيين في القرن التاسع عشر أهمهم شارل ديدييه الذي قدم صورة شاملة عن الحياة في جدة والتركيبة السكانية فيها، وهو من أهم من كتب عن جدة والجزيرة العربية، كذلك كورتلمون وهو رحالة ومصور، وجاء إلى جدة في مهمة سرية، وكان يرسم أيضًا؛ ولكن الهدف الرئيسي كان سياسيًّا بامتياز، وأيضًا فولجنس فريسنيل الذي عاش في جدة قبل الأحداث الدامية، وكان يعتقد أنه يعيش محاطًا بشعب متعصب ضد المسيحيين.

انتقد ديدييه القنصل الفرنسي في جدة من أنه لم يكن له حظ من الثقافة ولا من التعليم، ولم يكن مهيأ ليعطي العرب فكرة إيجابية عن فرنسا. كان

= مجلة الدراسات التاريخية، المجلد ٢٤، عدد ١، جامعة الجزائر، ٢٠٢٣، ص ٤٦٤.

(1) Ulrike Freitag 'Helpless Representatives of the Great Powers? Western Consules in Jeddah. Journal of Imperial and Commonwealth History. Vol 40, No 3, Sep 2012, P 359 -360.

بلا أسـرة ولـم يكـن اجتماعيًّـا ويعيـش منعـزلًا في منـزل ضخـم، وأن علاقته بالقنصـل الإنجليـزي سـيئة وكذلـك مع من يعملـون مع القنصليـة، أما جيل – جرفيـه كورتلمـون فأطلق على نفسـه الحاج عبد الله بن البشـير، وكان في مهمة سياسـية من الدولة الفرنسـية، واستخدم آلة التصوير في توثيق الحياة في جدة، وكذلك الرسومات؛ حيث كان رسامًا وكان مثقفًا يريد أن يسبر أغوار الحياة في الحجاز، بالإضافة إلى المهمة السياسية التي جاء من أجلها، وفريسنيل له عدد من النصوص الأدبية الرفيعة التي كتبها في جدة.

شـهدت جـدة وفاة اثنيـن من القناصل الفرنسـيين وإصابة الثالـث؛ حيث إن القنصل روشيه ديريكور [D Hericourt Rochei] مرض أثناء وجود شارل ديدييه في جدة وتوفي وشـارك ديدييه في مراسـم دفنه البسيطة، وأشاد باحترام أهل جدة للمتوفى المسيحي أثناء مرور الجنازة بشوارع المدينة، وكان يتبعها اليونانيون الذين يحظـون بالحماية الفرنسـية في جـدة. القنصل الآخر الذي لقـي مصرعه في جدة إبان الأحداث الدامية عام ١٨٥٨م مع زوجته وهو السـيد/ إفيلارد [Evellard]، والقنصل الثالث أصيب أثناء حادثة اعتداء العربان على القناصل عام ١٨٩٥م[١].

دعـا الفرنسـيون إلى احتلال جدة واسـتخدام القوة العسـكرية ضـد أهلها، في مناسـبتين: المـرة الأولى بعد الأحـداث الدامية ١٨٥٨م واجتمعـت اللجنة الخاصة بالتعويضات ومندوب فرنسا السيد/ سبايتر على أن يدفع الأهالي ضريبة عالية رفضتها بريطانيـا وأمـام عدم تعاون الدولة العثمانية مع لجنة التعويضات أصرت فرنسـا على احتلال جدة بالقوة العسكرية لفرض التعويضات وتحصيلها ورفضت بريطانيا ذلك.

فـي حادثـة اعتداء العربان على القناصل أرسـلت فرنسـا سـفينتين حربيتين إلى جدة حتى يتم القبض على الجناة، واقترح القنصل الفرنسـي احتلالًا مؤقتًا

(١) تهاني الحربي، القنصليات الأجنبية...، مرجع سابق، صفحات متعددة.

لمدينـة جـدة حتى يتم القبض على الجناة والتأكد من تطبيق التدابير الصحية في الحج، وأن يشمل ذلك الثكنات العسكرية العثمانية وذلك في عام ١٨٩٥م[١].

كانت القنصلية الفرنسـية في جدة تعنى بالأمور السياسية في المقام الأول، ولهذا فقد أعدت تقييمًا شاملًا للحياة الاقتصادية ومكانة جدة في تقرير للخارجية الفرنسية في عام ١٨٤٠م، يقول الكثير عن جدة:

١ تجارة جدة من الأهمية بمكان أن نعتبر السويس مخزنًا لتجارة جدة ومصر، ومن يطلقون على أنفسهم تجار السويس هم مندوبين لتجارة جدة.

٢ مدينـة جـدة لا يضاهيهـا أي مدينة أخرى في الحجاز بـإدارة حكومية أو بتجارتها العالية المتميزة بالنظام.

٣ اقتصاد جدة قائم على الرق ولكنه أكثر رحمة من الرق في الغرب.

٤ معظـم التجـار في جدة من الحضارم وهم يمتازون بالاسـتقامة والذكاء، ويوجد عدد كبير من التجار من أصل هندي.

٥ توجد مؤسسـات تجارية عديدة برؤوس أموال من أربعين إلى خمسـين ألف جنيه إسترليني[٢].

وقـد حاولت فرنسـا فتح قنصليـة لها في مكة لرعاية الحجـاج الجزائريين، وكان القنصل فلوري وراء هذه الفكرة، ورفض السـفير الفرنسـي في الآسـتانة الاقتراح لأسباب سياسية، وفي عام ١٨٦٢م طالب القنصل بفتح فرع في مدينة ينبـع للاهتمـام بقضايـا الحجـاج الجزائريين، وربمـا كان وراء الطلب أسـباب سياسية أخرى واستخبارية.

---

(١) تهاني الحربي، القنصليات الأجنبية...، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٢) وردت فـي أحمـد حسـين العقبـي، التنافـس الإنجليزي الفرنسـي...، مرجع سـابق، ص ١٥٧، التقرير كاملًا A.E445 Vol 1.

كما تدخلت القنصلية الفرنسية في جدة في الشؤون السياسية للحجاز، وانحازت إلى بعض الأشراف ليتحصلوا على منصب الشرافة مثل ما حدث مع الشريف عبد الله بن محمد عون ومراقبة أداء الشريف مع القبائل وغيرها، ولكن عندما تولى الشريف الحسين توجه لطلب الدعم من بريطانيا، وانتهى الدور السياسي الفرنسي.

التمثيل الدبلوماسي الفرنسي في جدة - المملكة العربية السعودية (١٨٣٩-١٩٢٥م):

أولاً: الوكالة الفرنسية:

م	اسم الوكيل	فترة الوكالة
١	فولجنس فريسنل Fulgence Fresnel	١٨٤١ - ١٨٤٥م

ثانيا: القنصلية:

م	اسم القنصل	فترة توليه القنصلية
١	فولجنس فريسنل Fulgence Fresnel	١٨٤٥-١٨٤٩م
٢	تشارلز فرانسوا روشيه ديريكورت Charles François Rochetd'Héricourt	١٨٤٩-١٨٥٤م
٣	ماكسيم أوتري MaximeOutrey	١٨٥٤-١٨٥٥م
٤	إدارة الترجمان ديلي ثم شوفان بيلارد: Gérance des drogmansDekiépuis Chauvin 1856 juillet - 1855 Beillard: juin	يونيو ١٨٥٥م - يوليو ١٨٥٦م
٥	لافاليت دي مونتبرون Lavalette de Montbrun	١٨٥٦-١٨٥٨م
٦	إيفيلارد Eveillard	مارس-يونيو ١٨٥٨م
٧	ألفونس روسو Alphonse Rousseau	١٨٥٨-١٨٦١م

م	اسم القنصل	فترة توليه القنصلية
٨	إدارة الترجمان لوسيان مونج Gérance du drogman Lucien Monge	١٨٦١-١٨٦٢م
٩	لاغارد Lagarde	يناير- يونيو ١٨٦٢م
١٠	بيير بيليسييه دي رينو Pierre Pélissier de Reynaud	١٨٦٢-١٨٦٤م

ثالثًا: نائب القنصل خلال الفترة ١٨٦٦ - ١٨٨٨م:

م	اسم نائب القنصل	فترة النيابة بالقنصلية
١	برنارد شنيب (طبيب) Bernard Schnepp (docteur)	يناير- يوليو ١٨٦٦م
٢	إدارة إي دي جاسباري ثم نيكولا ماردروس، تراجمة Gérances d'E.de Gasparypuis Nicolas Mardrus, drogmans	١٨٦٦م
٣	دوبريل (طبيب)؛ أثناء إجازته إدارة نيكولا ماردروس ثم لياندر لو غي Dubreuil (docteur); pendant sescongés, gérance de Nicolas MardruspuisLéandre Le Ghy	١٨٦٧-١٨٧٢م
٤	أشيل(أخيل) إراسم بويز (طبيب)؛ خلال إجازته بإدارة لياندر لو غي AchilleÉrasmeBuez (docteur); pendant sescongés, gérance par Léandre Le Ghy	١٨٧٢-١٨٧٣م
٥	نيكولا ماردروس، إدوارد برتراند، ريتشارد جوريل Nicolas Mardrus, Édouard Bertrand, Richard Jorelle	١٨٧٣-١٨٧٨م
٦	سوريت (طبيب)؛ الإدارة أثناء إجازته بواسطة ألكسندر لوسيانا، نيكولاس ماردروس Suret (docteur); gérance pendant sescongés par Alexandre Luciana, Nicolas ,Mardrus	١٨٧٨م
٧	مالبرتوي Malpertuis	١٨٧٨-١٨٨٢م

م	اسم نائب القنصل	فترة النيابة بالقنصلية
٨	لوستالوت. الإدارة أثناء إجازته بواسطة برتراند، كرويت، دي فيك، ماردروس، جينييه **Lostalot; gérance pendant sescongés par Bertrand, Kruyt, de Vicq, Mardrus, Jeannier**	١٨٨٢م
٩	بلانشون **Blanchon**	١٨٨٢-١٨٨٨م

رابعًا: فترة القنصلية من ١٨٨٨ حتى ١٩٢٥م:

م	اسم القنصل	فترة توليه القنصلية
١	إرنست واتبلد **Ernest Watbled**	١٨٨٨-١٨٨٩م
٢	ليون هوجونيت **Léon Hugonnet**	١٨٨٩-١٨٩٠م
٣	لابويسيه؛ الإدارة أثناء إجازته لدورفيل **Labosse; gérance pendant sescongés de Dorville**	١٨٩٠-١٨٩٣م
٤	إميل جويوت؛ الإدارة أثناء إجازته لدورفيل **ÉmileGuiot; gérance pendant sescongés de Dorville**	١٨٩٣-١٨٩٤م
٥	ألبرت إدوارد بوبوتديسكوتوريس؛ الإدارة أثناء إجازته لهنري رايس ثم كويري **Albert ÉdouardBobotDescoutures; gérance pendant sescongés de Henri RaispuisQuerry**	١٨٩٤-١٨٩٧م
٦	أوغست سوماريبا **AugusteSummaripa**	يناير - يوليو ١٨٩٧م
٧	جيوس؛ الإدارة من يوليو إلى نوفمبر ١٩٠٠ بواسطة دبليو دي زيمرمان **par 1900 Gues;gérance de juillet à novembre W. de Zimmermann**	١٨٩٧-١٩٠٣م
٨	دوبيف **Dubief**	١٩٠٣-١٩٠٤م
٩	إدارة تشارلز فير **Gérance de Charles Feer**	١٩٠٤-١٩٠٦م
١٠	برتراند؛ إدارة ملزاك خلال صيف عام ١٩٠٧ **Bertrand; gérance de Malzac pendant l'été 1907**	١٩٠٦-١٩٠٩م

م	اسم القنصل	فترة توليه القنصلية
١١	ليون كرايفسكي Léon Krajewski	١٩٠٩-١٩١٠م
١٢	إدارة بواسطة ليبيسييه Gérance de Lépissier	١٩١٠-١٩١١م
١٣	روبرت أرمز Robert Armez	١٩١١-١٩١٣م
١٤	ريتل Rettel	١٩١٣-١٩١٤م
١٥	إغلاق القنصلية Fermeture du consulat	من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٩م
١٦	ليون كرايفسكي Léon Krajewski	١٩١٩-١٩٢٣م
١٧	يوجين موري EugèneMourey	١٩٢٣-١٩٢٦م

■ **تم عمل قائمة التمثيل الدبلوماسي الفرنسي في جدة اعتمادًا على كتاب:**

**UNE HISTOIRE PARTAGÉE: SOURCES FRANÇAISES SUR L'HISTOIRE DE L'ARABIE. HEDJAZ ET NAJD - 1839 ,1943 Dar ,(éd.) Philippe Pétriat
.14-13 p .2015 ,al-Furat, Beyrouth**

٣- الوجود الروسي في جدة:

طبقًا لاتفاقية (كيوتشوك كينارجي) ١١٨٧هـ/١٧٧٤م والتي وضعت حدًّا للحرب الروسية العثمانية (١٧٦٨-١٧٧٤م) وانتهت بهزيمة العثمانيين، حصلت روسيا على إمكانية أن تفتح قنصلياتها في الدول العربية (الإسكندرية، دمشق، بيروت). في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ازداد اهتمام الإمبراطورية الروسية بالعالم العربي والإسلامي خاصة بعد أن تزايدت أعداد السكان المسلمين في الإمبراطورية الروسية نتيجة التوسع الجغرافي.

ويأتي اهتمام روسيا بالجزيرة العربية والخليج لعدة أسباب :

١ المصالح التجارية والاقتصادية؛ حيث اكتشف التاجر الروسي أفانسي نكيتين من القرن الخامس عشر مسار آسيا الوسطى، أو مسار البحر الأسود ومنه إلى البحر الأبيض والأحمر.

- البعد الإسلامي لتطلع ملايين المسلمين لزيارة الأماكن المقدسة.
- البعد الاستراتيجي لمواجهة الدولة العثمانية العدو التقليدي.

مع ازدياد التنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية وبين الدولة العثمانية، وظهور قضايا حماية الحجاج وقضية الحجر الصحي في مرحلة التسعينات من القرن التاسع عشر، وبعد تزايد الخلافات حول وضع الحجاج دعم الإمبراطور ألكسندر الثالث في ١٨٩٠م تقرير وزير الخارجية (ن. ك. جيرسي) حول فتح قنصلية روسية في جدة، الأمر الذي تم في ١٨٩١م وكان ش. م. إبراهيموف أول قنصل لها[١].

حددت الإمبراطورية الروسية في إستانبول أهداف القنصلية في جدة والتي ركزت على أهم هدف من تأسيسها وهو حماية حجاجها المتوجهين بأعداد كبيرة إلى الأماكن المقدسة، وعلى القنصل مهمة مراقبة الحجاج وإعداد قواعد مكتوبة لعلاقة القنصلية بالحجاج. كذلك أرادت السفارة من القنصلية القيام بدور تجسسي واستخباراتي على الحجاج أولًا لمعرفة تأثير رحلة الحج عليهم من الناحية السياسية، وما هي مكانة السلطان العثماني في نفوسهم هل يكنون له التبجيل؟ وهل السلطات العثمانية تستغل وجود الحجاج الروس لإشعال الفتنة بين الطوائف الدينية في بلادهم عند عودتهم؟

وكانت القنصلية مسؤولة عن النواحي الاقتصادية والتجارية أسوة بالقنصليات الأخرى في جدة[٢]. واستطاع الرحالة القادمون من الإمبراطورية الروسية أن

---

(١) جينادي جارياتشيكن، من هم القناصل الروس في شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟ مجلة الوثيقة، المجلد ٢٣، العدد ٤٦، مركز الوثائق التاريخية، مركز عيسى الثقافي، يوليو ٢٠٠٤م، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) فيتالي نعومكين، الدبلوماسية الروسية في الجزيرة العربية والخليج العربي أواخر القرن =

يخلفوا أثرًا ثقافيًّا مهمًّا؛ حيث وضحت الأعمال التي كتبها الرحالة الروس عن بلاد الحجاز أبعاد مهمة في دراسة وفهم الحالة السياسية والاقتصادية والدينية والصحية وغيرها، وهي من أهم المصادر لتدوين تاريخ الحج الحديث[١].

زاولت القنصلية الروسية بانتظام قضايا الحج، وكانت ترسل إحصائيات وتقارير دقيقة عن الأوضاع في الحجاز، ومثل القناصل الآخرين في جدة فقد تجاوزوا نطاق إطار واجباتهم المباشرة، وكان هناك تدخل في العديد من القضايا مثل تدخلهم في تجارة الرق وآرائهم الصريحة عن هذا الموضوع، وتلاعب السلطات المحلية بهذه التجارة. كذلك محاولات القنصلية توفير المياه الصالحة للشرب في جدة، وأعد القنصل فون تسيرمان عام ١٩٠٠م/١٣١٧هـ تقريرًا عن أوضاع المياه في جدة واقتراحات لتطويرها، وحاول القنصل الروسي (توخلوكا) أن يجمع القنصلين البريطاني والفرنسي لإقناع الدولة العثمانية (إنشاء منظومة إسالة صحيحة في جدة تضمن حسن تزويدها بالماء)؛ ولكن دون جدوى لأنهما لا يقيِّمان أي قيمة لتحسين ظروف الحجاز والحج، غير متناسب مع مصالح الدول الأوروبية ويسعون لمنع الحج أو تقليصه[٢].

أتاح الوجود الدبلوماسي الروسي في جدة فتح نافذة تعرفت منها الإمبراطورية الروسية على مجتمع الجزيرة العربية عن كثب، وكان القناصل ينالون التحصيل الاستشراقي في جامعة سان بطرسبرغ وجهات أكاديمية

= التاسع عشر أوائل القرن العشرين، مجلة الدارة، دارة الملك عبد العزيز، السنة الثالثة والثلاثون، مجلد ٣٣، العدد ٢، ٢٠٠٧م، ص ١٤٣-١٤٤.

(١) صبري فالح الحمدي، أخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية (١٨٧٩ – ١٩٠٧م)، مجلة الآداب، العدد ١٠٦، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٣، ص ٣١٧-٣٣٨.

(٢) فيتالي نعومكين، الدبلوماسية الروسية...، مرجع سابق، ص ١٥٧-١٥٩.

أخرى، وجميع القناصل الروس في جدة أنهوا الدراسة في القسم العربي، الفارسي، التركي. من أهم الجامعات الروسية في القسم الأوروبي من الإمبراطورية[١].

(١) جينادي جارياتشيكن، من هم القناصل...، مرجع سابق، ص ١٣٨.

من القصص التي يرويها القناصل الروس أن أول قنصل وهو إبراهيموف ذهب إلى الخديوي في مصر في طريقه إلى جدة، أخبره الخديوي بضرورة تغيير ميناء جدة لاستقبال الحجاج. أوضح الخديوي أن الطريق إلى المدينة المنورة عبر سيناء إلى ينبع خطير، وطلب إقناع شريف مكة بنقل نزول الحجاج إلى رابغ، وهي المنتصف بين جدة وينبع، وهذا ما سبق أن طلبه الخديوي من الشريف سابقًا بلا جدوى. انظر: فيتالي نعومكين، مرجع سابق، ص ١٥٠. وتفشل دائمًا محاولات استبدال الأهمية المكانية لمدينة جدة.

٤- الوجود الهولندي:

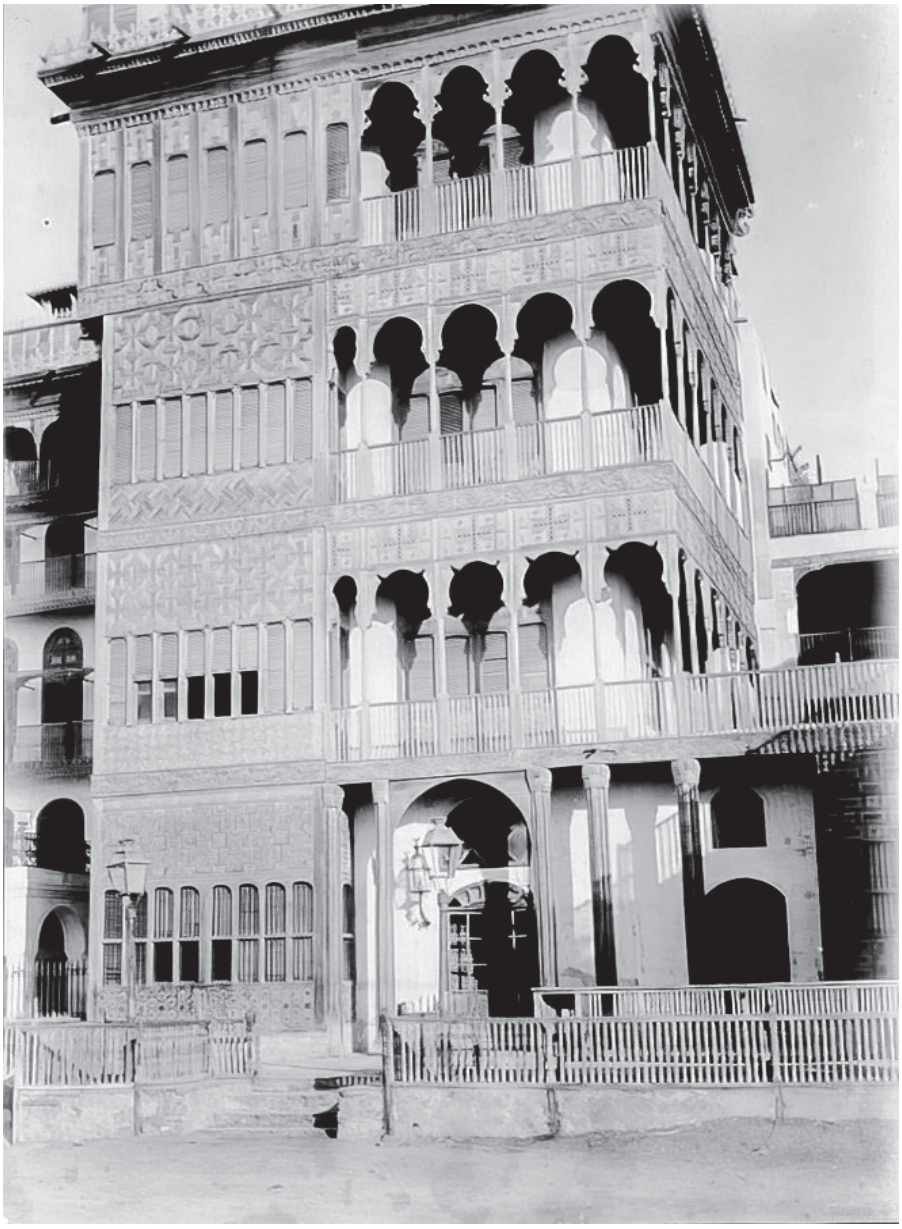

● **مبنى القنصلية الهولندية بجدة.**

تعود ملكية المنزل إلى آل السقاف وكذلك مبنى القنصلية الفرنسية.

المصور: شيلتيما، نيكلوس. 1907 - 1911.

جامعة ليدن، 26. 365: 1

● مبنى القنصلية الهولندية بجدة.

المصور: شيلتيما، نيكلوس. 1907 – 1911.

جامعة ليدن، 26. 365: 2

● العاملون في القنصلية الهولندية بجدة.

المصور: سنوك، كريستيان. عام 1884 – 1885.

جامعة ليدن، رقم 26. 370: 2

بداية معرفة الهولنديين بمدينة جدة تعود إلى عام ١٧٢٩م عندما وجه حاكم جدة الدعوة لهم من أجل إرسال سفن شركة الهند الشرقية الهولندية، خاصةً بعد النجاح التجاري الذي تحقق مع موانئ جنوب البحر الأحمر قبل ذلك، وبالفعل وصلت السفن التجارية جدة في عام ١٧٥١ – ١٧٥٢م، وللأسف لم تكن النتائج إيجابية من الناحية التجارية؛ حيث قد سبقتهم إلى أسواق جدة شركات صغيرة أوروبية أو سفن لدول أوروبية رئيسية. قامت الشركة بعمليات مسح دقيق لساحل البحر الأحمر ورسم خرائط بحرية دقيقة بما في ذلك سواحل جدة.

وجاء اهتمام هولندا بالحجاز بعد أن تحولت هذه الشركة الكبرى في عام ١٨٠٠م تقريبًا إلى حكومة استعمارية في جزر الهند الشرقية (إندونيسيا)، خاصةً أن موسم الحج كان له أثر مهم على السكان في هذه البقاع؛ لأنه بعد عودتهم يكون لديهم أفكار ضد المستعمر؛ لهذا اعتبرت السلطات الهولندية أن الحج عنصر تحدٍّ في بقائهم في المستعمرات المسلمة. من أكثر الأقاليم التي تأثرت بالحج على المستوى السياسي هو إقليم (آجه كانا) وكان المجاهدون يهربون إلى الحجاز والبقاء فيه، أما الحجاج فكانوا يعودون بأفكار جهادية واضحة ضد الاستعمار ومساعدات فعلية[١].

الرغبة الهولندية أن يكون لهم قنصلية في جدة كانت لأسباب سياسية واضحة، وهي الاهتمام بالحجاج الذين كانوا يتعرضون للابتزاز ومشكلات إنسانية كبيرة، ورغبة في فهم تأثير الحج على الحركات المناهضة للوجود الاستعماري، وتجدر

---

(١) بن – سلوت، بين الخليج العربي والبحر الأحمر: الهولنديون على سواحل شبه الجزيرة العربية، ضمن كتاب: هولندا والعالم العربي منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين، تحرير: هانس فان دايك بروك، ترجمة: أسعد جابر، الناشر وزارة الخارجية الهولندية، ١٩٨٧، ص ٣٠.

الإشـارة إلى أن حجاج الهند الشـرقية (إندونيسـيا) كانوا على قدر كبير من الثراء والأكثـر إسـرافًا وإنفاقًـا للأموال والصدقـات، وافقت السـلطات العثمانية على تعيين (السيد منتون باكي) قنصلًا في جدة، ويتبع القنصلية الهولندية في إسطنبول للاهتمام برعاية أحوال الحجاج ومراعاة مصالحهم الصحية والمالية، وإرشادهم إلى أفضل الطرق لأداء الحج وذلك ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م.

كثيرًا ما تعرض الحجاج الإندونيسيون لأزمات صحية وأمور تتعلق بالسلامة الشخصية، وهجوم قبائل العربان على قوافل الحج وممارسة السلب والنهب، ومـع ازدياد أعداد الحجاج نتيجة اسـتخدام السـفن البخاريـة، زاد الطلب على الخدمات الصحية في الوقت الذي لم تقم فيه السـلطات العثمانية بجهود كافية لزيادة وتطوير هذه الخدمات[١].

● **الحجاج من الجزر الإندونيسية في باحة القنصلية الهولندية.**
المصور: شلتيما، نيكلوس. 1907 – 1911
جامعة ليدن، 26. 365: 23 - CSH-K.5 288-OR.12

(١) دلال محمد السعيد، القنصلية الهولندية في جدة نشأتها ومهامها، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٨، إبريل يونيه ٢٠٢٠م، ص ١٠-١٩.

● عدد من الحجاج من جزر إندونيسيا تعثر عودتهم إلى بلادهم لتأخر السفينة في العودة إلى جدة ويحملون تذاكر العودة في أيديهم، الحجاج يلجؤون إلى القنصلية الهولندية كل صباح للحصول على بعض الأرز مساعدة لهم.

المصور: شلتيما، نيكلوس. 1909. جامعة ليدن، 26. 363: 5

● بعض شيوخ الحجاج المسؤولين عن الحجاج الإندونيسيين - ١٨٨٤م.

المصدر: (البعثة الهولندية في الجزيرة العربية -1300 1370هـ لمحات تصويرية)

دار (ل م) للنشر بمدينة إيدام.

● **حجاج من أهل جاوا قاصدين مكة المكرمة وهم على ظهر إحدى السفن المتجهة إلى جدة ١٩٣٠م.**

المصدر: (البعثة الهولندية في الجزيرة العربية 1300-1370 هـ لمحات تصويرية)

دار (ل م) للنشر بمدينة إيدام.

في البداية، اقتصر دور القنصلية الهولندية على مهمة ترتيب أمور الحجاج والحرص على أن يكون لديهم بطاقة العودة على السفن الأوروبية، والمهمة الثانية كانت مراقبة الحجاج من خلال نظام متطور للتأشيرات ووثائق السفر؛ لكن أهمية القنصلية الهولندية ظهرت عندما دعا القنصل كرويت [Kruyt] في محاضرة عامة إلى إجراء بحث علمي في مجال الجغرافيا وفقه اللغة وعلم النبات وظاهرة الحج، كذلك طالب هذا القنصل في عام ١٨٨٣م أن يكون هناك دراسات شاملة عن مدينة جدة خاصة والحجاز عامة، لها طابع أنثروبولوجي، ومن ضمن تصورات هذا القنصل تطوير مؤسسة تجارية هولندية في جدة تكون بديلًا عن بورسعيد المصرية ومركزًا لتجارة أوسع مع أوروبا[١].

كما أن هذا القنصل هو الذي دعا سنوك هرخونيه للعمل والقدوم إلى الحجاز، ويعد سنوك من أهم الرحالة المستشرقين في تلك الفترة، خاصة وأن القنصلية استطاعت أن تشكل مجموعة إثنوغرافية فريدة من نوعها تشمل قناصل متعاقبين ومساعدين من المجتمع المحلي ومستشرقين تهدف إلى دراسة المجتمع المحلي والإسلام والنواحي الاقتصادية والاجتماعية.

سنوك : وهو مستشرق هولندي متخصص في دراسة اللاهوت واللغات السامية وآدابها وله اهتمامات بالإسلام. رحل إلى الحجاز سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م بعد عام واحد من مؤتمر الاستشراق في جامعة ليدن بدعوة من القنصل في

(١) عقد مؤتمر المستشرقين في عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م، وفيه دعي القنصل الهولندي كروات [Kruyt]، ومن ضمن الحضور كان سنوك وأمين المدني الحلواني، وتعرف سنوك في المؤتمر على الحلواني الذي باع وثائق هامة ومخطوطات نادرة في ألمانيا في مدينة برن، وكذلك إلى جامعة ليدن. وللمزيد انظر:
Luitgard Mols, Arnoud Vrolijk, Western Arabia in the Leiden Collection. Traces of a Colorful Past. Leiden Publications, 2016, P183.

جـدة التـي أمضـى فيها من خمسـة إلى سـبعة أشـهر، وأعلن إسلامـه على يد القاضـي واثنيـن مـن الشـهود (الكثيـر يشـككون من حقيقـة إسلامـه)، كان له علاقـات اجتماعية واسـعة في جـدة وبعد ذلك في مكة، ويمكـن القول أنه من أهـم المصـادر التـي بنت عليهـا هولندا فهمهـا للعقليـة الإسلاميـة للتعامل مع المسـتعمرات، وكان للوطـن الأم كل الأهميـة، وسـاهم في تقوية الاسـتعمار الهولندي ضد الإندونيسيين. حذر سنوك في تقاريره للحكومة من خطر الضغط علـى حريـة المسـلمين الدينيـة أو وضـع عقبات أمـام الحـج، وكان يعمل قبل ذلـك في تدريب الكوادر الدبلوماسـية الهولندية للعمل في جزر الهند الشـرقية وتعليمهـم عـن الإسلام والعقليـة الإسلامية، ومن المؤمنين بـدوره الوطني في خدمة بلاده أولًا وقبل كل شيء.

لخص سنوك رؤيته بقوله: «احتفظت الشريعة بتأثير واسع المدى على حياة المسـلمين الفكرية؛ لهذا فهي موضوع مهم للدراسـة لأغـراض علمية، فكلما ازداد صلات أوروبـا الوديـة مع الشـرق الإسلامـي وازداد معها وقـوع الأقطار الإسلامية تحت سـيطرة أوروبا. أصبح الأمر مهمًّا لنا نحن الأوروبيين أن نكون علـى معرفـة بالحياة الفكريـة ومفاهيم الإسلام وشـريعته الدينيـة»[1]. وكانت له علاقـة واسـعة مع العلماء فـي مكة، وغادر الحجاز في ظـروف غامضة؛ حيث أثير اسـمه في مقتل المستشـرق هوبر [Huber] الذي اسـتولى على حجر تيماء المهم أثريًّا والذي انتهى به الأمر في متحف اللوفر، وهو لوح عليه نقوش آراميه ومشهد ديني بارز، اتهمته صحيفة فرنسية بالمشاركة في محاولة سرقة الحجر، ونقلت الخبر صحيفة عثمانية ثم وشي به القنصل الفرنسي عند الوالي العثماني

(١) قاسـم السـامرائي، الاستشـراق بيـن الموضوعيـة والافتعاليـة، دار الرفاعـي للنشـر، الرياض، ١٤٠٣هـ، ص ١٠٧-١١٠.

وتم إبعاده فورًا، وغادر جدة مخفورًا بالجنود قبل موسم الحج بأيام[١].

من إنجازات سنوك أنه استطاع تسجيل الأصوات بجهاز فونغراف بدائي، سجل فيه الأذان، وتلاوة القرآن، والفنون الشعبية، والنداء في الأسواق الشعبية ما يمثل ١٥٠-٢٠٠ أسطوانة شمعية أثناء وجوده في جدة. جدة كانت بمثابة النافذة الثقافية التي اطلع منها سنوك على الفكر الإسلامي وأبعاده، وفيها أعلن ووثق إسلامه، وتعتبر مساهمة سنوك في متحف فولكينكوندي الملحق بجامعة ليدن مهمة، وهي مجموعة إثنوغرافية عن ثقافة الحجاز تعكس الظواهر الاجتماعية التي تمثل الجوانب العملية للحياة اليومية والممارسات الدينية. تم تجميع المجموعة في المتحف بين ١٨٨٠ – ١٩٣٩م من قبل عشرة هولنديين: ستة قناصل في جدة، ونائب قنصل في جدة، وأكاديميّان ومهندس. كان سنوك أكثر مساهمة يليه القنصل كرويت، وشكلت الصور الفوتوغرافية التي التقطها سنوك أهمية ثقافية بالغة لجدة ومكة والحياة الاجتماعية فيها، ساعده في ذلك عبد الغفار بن عبد الرحمن البغدادي وهو طبيب التقط صورًا لمكة أثناء وبعد إقامة سنوك ويصفه أنه تلميذه[٢].

---

(١) عرفة عبده علي، أوروبيون في الحرمين الشريفين، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠١٤م، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) كان أهم مساعدي سنوك اثنين من المترجمين الجاوا، وهم الارستقراطي رادين أبو بكر جاجاد، والحاج السومطري أجوس سالم، وقدموا معلومات مهمة عن المجتمع المحلي والحجاج الإندونيسيين، ومساهمتهم وفكرهم أثر في الفهم العلمي الغربي للمجتمع الإسلامي، وقد أدى سنوك دوره التجسسي لخدمة بلاده بشكل ناجح بمساعدة مجموعة المساعدين

L. Mols, A. vrolijk opt, P190.

● **فرقة من العبيد تمارس موسيقى الطنبورة على الطبول الخشبية والقيثارة ذات الألوان الستة.**

المصور: شيلتيما، نيكلوس 1909.

جامعة ليدن، 26. 365. 48.

● **فرقة الطنبورة.**

المصور: سنوك كريستيان 1884 - 1885.

جامعة ليدن، رقم 26. 404: 44.

فنون القارة الأفريقية كان لها أثر واضح على الفنون في جدة وبصورة خاصة الإيقاعات، وهذه نموذج من الفنون الغنائية تسمى الطنبورة، وأطلق عليها سنوك صفة (الأوركسترا الأفريقية)، وهذا مثال للإضافة الثقافية الأفريقية على مجتمع جدة خاصة الموسيقى المرتبطة بالإيقاعات والرقصات المرتبطة بها.

من النقاط المهمة في حياة سنوك أنه تعرف على الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - عندما كان نائبًا للملك عن الحجاز أثناء زيارته إلى أوروبا لتوثيق علاقات الدولة مع الأقطار الأوروبية، والتقاه أول مرة سنة ١٩٢٦م في جامعة ليدن، وكتب مقالات عن الدولة السعودية ودورها في تأمين طرق الحج، وعن الدولة السعودية عمومًا وكانت مقالات إيجابية.

قائمة القناصل (الدبلوماسيين) الهولنديين في جدة خلال الفترة من ١٨٧٢-١٩٢٥م:

م	القنصل	فترة توليه القنصلية	الميلاد والوفاة
١	رودولف منتون باكي Rudolph W.J.C. de Menthon Bake	١٨٧٢ - ١٨٧٣م ١٢٨٩-١٢٩٠هـ	١٨١١-١٨٧٤م
٢	وليام هانيكراف Willem Hanegraaff	١٨٧٣ - ١٨٧٨م ١٢٩٠-١٢٩٥هـ	١٨٣٩-١٨٧٨م
٣	يوهانس أدريانوس كرويت Johannes Adrianus Kruyt	١٨٧٣ - ١٨٨٥م ١٢٩٥-١٣٠٢هـ	١٨٤١-١٩٢٨م
٤	جوان أدريان دي فيك Joan Adriaan de Vicq	١٨٨٥ - ١٨٩٠م ١٣٠٢-١٣٠٧هـ	١٨٥٧-١٨٩٩م
٥	هندريك سباكلر Hendrik Spakler	١٨٩٠ - ١٨٩٢م ١٣٠٧-١٣٠٩هـ	١٨٦١-١٩٣٧م
٦	هندريك فان دير هوفين فان أوردت Hendrik van der Houven van Oordt	١٨٩٢م ١٣٠٩هـ	١٨٦٥-١٨٩٢م

م	القنصل	فترة توليه القنصلية	الميلاد والوفاة
٧	جيريت سيبراند إندت Gerrit Sybrand Endt	١٨٩٢ -١٨٩٣م ١٣٠٩-١٣١٠هـ	١٨٦٢-١٨٩٣م
٨	فريدريك جان هافر دروز Frederik Jan Haver Droeze	١٨٩٤م ١٣١١هـ	١٨٤٧-١٩٠٩م
٩	جاك إدوارد دي ستورلر Jacques Eduard de Sturler	١٨٩٤ -١٨٩٧م ١٣١١-١٣١٤هـ	١٨٥٥-١٩٢١م
١٠	إليزا ثيودور فان ديلدن Eliza Theodoor van Delden	١٨٩٧ -١٨٩٩م ١٣١٤-١٣١٦هـ	١٨٤٩-١٩٢٥م
١١	فرانسيسكو جيراردو أوغسطينوس فان ديلدن Franciscus Gerardus Augustinus van Delden	١٨٩٩ -١٩٠٣م ١٣١٦-١٣٢٠هـ	١٨٣٤-١٩١١م
١٢	كارل كريستيان ماريان هيني Carel Christiaan Mariaan Henny	١٩٠٣ -١٩٠٥م ١٣٢٠-١٣٢٢هـ	١٨٥٦-١٩٢٢م
١٣	نيكولاس شيلتيما Nicolaas Scheltema	١٩٠٥ -١٩١١م ١٣٢٢-١٣٢٨هـ	١٨٧٠-١٩٥٥م
١٤	جاكوب وولف Jacob Wolff	١٩١١ -١٩١٦م ١٣٢٨-١٣٣٤هـ	١٨٧٢-١٩٤٢م
١٥	إميل جوبي Emile Gobée	١٩١٧ -١٩٢١م ١٣٣٤-١٣٣٩هـ	١٨٨١-١٩٥٤م
١٦	تشارلز أولكه فان دير بلاس Charles Olke van der Plas	١٩٢١ -١٩٢٦م ١٣٣٩-١٣٤٥هـ	١٨٩١-١٩٧٧م

■ **تم عمل قائمة الدبلوماسيين الهولنديين في جدة بالاعتماد على كتاب:**

غرب الجزيرة العربية في مجموعات ليدن مع إضافة التاريخ الهجري لفترة كل قنصل. [Western Arabia in the Leiden Collections].

■ **نقلاً عن المصدر:**

Luitgard Mols, Arnoud Vrolijk: Western Arabia in the Leiden Collections: Traces of a Colourful Past, Leiden University Press, 2016, p183.

٥- قنصليات أخرى:

حرصت الدول الأوروبية وغيرها أن تتواجد في جدة بشكل قانوني من خلال إنشاء قنصليات لتصاعد الأهمية الإستراتيجية لمدينة جدة.

تم تعيين قنصل للسويد والنرويج في ١٨٧٦م وذلك بغرض تحصيل الضرائب من التجار أثناء مرورهم في البحر الأحمر.

كذلك تعين إنغراف [Ingraph] قنصلًا عامًّا لدولة النمسا، والسيد أونكليد [Owankled] نائبًا لقنصل اليونان، وصدرت موافقة الدولة العثمانية في ١٨٧٦م، ولاحقًا طلبت إسبانيا تعين نائب للقنصل السيد أباركس [Aparex] في ١٨٨٣م، وطلبت الحكومة الإيطالية تعيين كارلو مزاوري [Carlo Mzawri] قنصلًا عامًّا لمتابعة أحوال الرعايا الإيطاليين عند حضورهم إلى جدة.

كان مجال عمل بعض هؤلاء القناصل يتّسع ليشمل مناطق جغرافية واسعة انطلاقًا من جدة، وخاصة الجانب الآخر من البحر الأحمر مثل: مصوع وعصب التي تتبع زيلع[١].

خاتمة

نخلص إلى أن الدول الاستعمارية وجدت أنه من الضروري التواجد في جدة لأسباب استراتيجية تتعلق بالملاحة البحرية وسياسية واقتصادية، والانطلاق من جدة للتأثير في الإقليم. شهد القرن التاسع عشر الضعف المتزايد للدولة العثمانية، وظهور مساوئ الحكم العثماني وضعف فعاليته، الأمر الذي شجع هذه الدول للطمع في السيطرة على الأقاليم الإسلامية، وفهم العقلية الإسلامية والثقافة لتسهيل استعمارها والسيطرة عليها.

(١) تهاني الحربي، القنصليات الأجنبية...، مرجع سابق، ص ٥٠-٥١.

شـهد دور القنصليـات فـي جـدة تزايـدًا مسـتمرًّا ناتجًا عن ضعـف الدولة العثمانيـة وتكبيلهـا بالاتفاقيـات والمعاهدات مما أدى إلى أن هـذه القنصليات تجاوزت كثيرًا في دورها المرسوم لها قانونيًّا، وتدخلت حتى في تغيير الحكام والأشراف والباشوات الأتراك ورسم السياسات بما يخدم مصالحهم من خلال استغلال التناقض بين العرب أصحاب البلاد والأتراك الحكام الأجانب لها.

تزايـد التناقض بين العثمانييـن والعرب في الحجاز، ويصف ديدييه العرب بقوله: «العرب أمة عالمة مثقفه نبغت في العلوم والفن والحرب وإذا انتقلنا إلى الحاضر؛ فإنهم يتحلون بفضائل عظيمة في الشـجاعة والكرم والاسـتقامة. ليس لـدى الأتـراك ما يقدمونه مقابـل هذه المثالب، ولا يعـادل عنفهم إلا غدرهم، وهـم فاسـدون بلا رادع والارتشـاء بلا خجل في كل الأعمـال الخاصة والعامة مـن أعلـى موظفي الإمبراطورية حتـى أدناهم، إذن العـرب يتفوقون عليهم في الجانـب الأخلاقـي والعقليـة والثقافة؛ لهذا يعانـي العرب معانـاة مضاعفة من تبعيتهـم للأتـراك»[١]، وهنـاك إجماع من الرحالة أن الحكـم العثماني كان يعنيه السيطرة على جدة، وتكريس سياسة فرق تسد بين (الوالي والشريف)، ويصف الباحـث أنيـس صايـغ الوضع: «أما الحجـاز فقد ظـل قلقًا مضطربًـا إذ تعاقب الأشـراف على منصب الشـرافة واحدًا بعد الآخر إبان العصر العثماني الثاني، وتحولت الشـرافة خلاله إلى أحجار شطرنج يتلاعب السلاطين والوزراء بهم، فينتقـل الواحـد منهـم من المنفى إلـى الإمارة، أو من الإمارة إلـى المنفى دون أدنى تفسـير غير تقلب عواطف الحاكمين في الآسـتانة»[٢]. لهذا شغرت الساحة للقناصل للتدخل والتحكم من خلال وجودهم في جدة.

---

(١) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر...، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(٢) أنيـس صايـغ، الهاشـميون والثورة العربيـة الكبرى، منشـورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٣٤.

خامسًا:
حضور الآخرين إلى جدة

حضـرت الجماعات والدول والجيـوش إلى جدة باعتبارها نقطة جذب في الإقليم، واسـتقبلت جدة الحجاج والتجار والبحـارة وطلبة العلم والمهاجرين والأسـاطيل وتعاملـت معهم، وفتحت ذراعها لاسـتقبال من قـدم منهم في خير وتجارة وعلم.

هـذه نبـذة عن أهم الجماعـات التي حضرت إلى جـدة وتفاعلت مع أهلها سـلمًا وحربًا وبعضهم اسـتوطن جدة بأعداد كبيرة وآخرون عادوا منكسرين من أمام أسوارها:

- **البرتغاليون – دراسة مقارنة.**
- **الجماعات الصغيرة: الفرس والحضارم مثالًا.**
- **الصينيون.**
- **الهنود.**

هـذه القائمـة لا تعني أن هذه الجماعات والجاليـات فقط أثرت حصريًّا في جـدة علـى الإطلاق؛ لأن هناك جماعات وجاليات حضرت إلى جدة وتفاعلت مع المكون البشـري فيها وسـاهمت في الحياة الثقافيـة والاقتصادية والروحانية بهـا. قـارة أفريقيا على سـبيل المثال أعطـت الكثير من مكونها البشـري وحضر الأفارقـة إلـى جدة بأعداد كبيرة في صيـغ مختلفة، وفي ظروف تاريخية متعددة من شمال القارة ووسطها وجنوبها.

اختيرت هذه الجماعات للبحث؛ لأنها تمثل نماذج متباينة في تركيبها وأغراضها وتأثيرها واستدامتها من ناحية، ومحدودية إمكانيات البحث من ناحية أخرى، ونترك للباحثين اللاحقين تغطية الجماعات الأخرى بأشكالهم المختلفة ومن خلال الإطار المناسب.

أ - البرتغاليون - دراسة مقارنة:

تمهيد:

تعتبر الهجمات أول مواجهة بين جدة والقوى الأوروبية بشكل مباشر، وهذه الهجمات على جدة لم تحدث من فراغ ولكن على ضوء اختلال ميزان القوى العالمي وبزوغ نجم مملكة البرتغال قوة جبّارة تتحكم في البحار والتجارة الدولية وتغلق المضايق البحرية والبحار عندما تشاء.

كان للقوى الإقليمية مثل المماليك والعثمانيين تأثيرها الكبير في الإقليم والتصدي لهذه القوى العالمية ومطامعها للحفاظ على مصالحهم ودورهم الإسلامي.

لهذا فإن المدخل لفهم الهجمات البرتغالية يكون أن نعرف كيف نشأت هذه الإمبراطورية البرتغالية القوية والصراعات مع القوى الإقليمية وأهدافها، والأهمية الإستراتيجية المتزايدة لجدة في القرن السادس عشر.

تأسست مملكة البرتغال في القرن الحادي عشر، وانطلقت مع الأمير (هنري الملاح ١٤١٢م) في مرحلة جديدة من تاريخها تعتمد على الكشوفات الجغرافية. اجتمعت عوامل طبيعية وسياسية وعسكرية واقتصادية ودينية وعلمية ساعدت على نجاح البرتغاليين؛ لأنهم استخدموا العلوم الحديثة في الملاحة

البحريـة والتغلـب علـى الخرافـات التي كانت تسـكن عقـول ومخيلـة البحارة فيما يخص الإبحار حول القارات واسـتخدموا الاسـطرلاب والمدافع الحربية الحديثة.

أعطت الكنيسـة فـي روما مباركتها لحركة التوسـع البرتغالـي وأصدر البابا عـام ٨٥٩هـ/١٤٥٤م مرسـومًا بعـث بـه إلى هنـري الملاح «إن سـرورنا عظيم أن نعلـم أن ابننـا العزيـز هنـري أميـر البرتغـال قد سـار على خطى أبيـه الملك جـون باعتبـاره جنديًّا مـن جنود المسـيح ليقضي على أعداء الله من المسـلمين والكفـار». وأعطـى له البابا الحـق أن يغزو ويحتل جميع الأقاليم التي يسـودها حكم الكفار والقضاء على طاعون الإسلام مع ضمان العفو عند حساب الآخرة والجنـة له وللجنود المشـاركين فـي تلك الغزوات. جاء بعـده البابا «كاليمكس الثالـث» وأصـدر مرسـومًا بنفـس المعنـى عـام ٨٦١هـ/١٤٥٦م وكذلـك البابا إسـكندر السـادس ٨٩٩هـ/١٤٩٣م الذي أصدر ثلاثة مراسيم تدعم هذا التوجّه الصليبـي بهـدف القضاء على الإسلام. وقد سـاهم سـقوط مملكة غرناطة وهي آخـر ممالـك الأندلـس في جهود ملاحقة المسـلمين في البر والبحـر ابتداء من العام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وتطويق الأقاليم الإسلامية حتى لا يفكروا في العودة إلى الأندلس مرة أخرى[١].

فـي منتصـف القرن الخامس عشـر كتب ملـك البرتغـال «دون مانويل» إلى أمـراء وملـوك الدول المسـيحية في أوروبا أنه نجح في أن تجلب سـفنه التوابل مباشـرة من الهند لذا فإنه يأمل «أن الله سـوف يمكننا من انتزاع تلك التجارة من أيدي المسـلمين لنوزع التوابل والأحجار الكريمة على البلدان المسيحية بدون وساطة المسلمين» وهذا تطلّب منه أن يضع خطة قوامها:

---

(١) نوال سراج ششة، جدة في القرن العاشر الهجري ...، مرجع سابق، ص ٤٤-٤٧.

- **احتكار عرض وتوزيع السلع القادمة من الهند والصين والشرق الأقصى في أوروبا لتكون لشبونة والموانئ التابعة للبرتغال هي مقر تجارة إعادة التصدير والترانزيت بدلًا عن الموانئ الإسلامية.**
- **استخدام القوة المفرطة والإكراه لإبعاد التجار المسلمين عن التجارة في المحيط الهندي.**

وقد بدأت هذه الأعمال الوحشية منذ مطلع القرن حيث أصبحت القرصنة وقتل المسلمين وحرق سفنهم أعمالًا متكررة. وكان دي جاما «يعمد بعد تفريغ السفن مما بها من بضائع يحظر أي فرد من إخراج أي عربي منها وتصدر الأوامر بإشعال النار في السفن بمن فيها» انطلاقًا من أنه ليس على الأوروبيين التزامات أخلاقية عند التعامل مع الشعوب الآسيوية[١].

استمرت أعمال القرصنة ضد الحجاج المسلمين والتجار العرب، وقد كتب ألفونس البوكيرك إلى ملك البرتغال بتاريخ ١٥١٣/١٢/٤م أنه عندما كان يصادف المسلمين «أمرت بقطع أيديهم وأنوفهم وآذانهم وبإنزالهم إلى اليابسة وهي نفس المعاملة التي عملتها مع جميع المسلمين الذين صادفناهم في البحر الأحمر»[٢].

ساهم في زيادة التعصب الديني للبرتغاليين ورغبتهم في تدمير الإسلام والمسلمين أن السلطان العثماني محمد الثاني فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية الشرقية وبدء توسع الدولة

---

(١) ك. م. باينكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبد العزيز جاويد، القاهرة – دار المعارف ١٩٦٢م، ص ٤٠-٤١.

(٢) أحمد أبو شرب، الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية، إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز للدراسات التاريخية والحضارية للجزيرة العربية، الرياض ٢٠١٢م، ص ١٤١.

العثمانيـة إلـى منطقـة البلقان وأحكمـوا تواجدهم في البحر الأبيض المتوسـط باسـتخدام الأسـاطيل الحديثة المزودة بالمدافع النارية مما جعلهم قوة مسيطرة على المتوسط. لذا ابتعد البرتغاليون عن المتوسط وأبحروا نحو سواحل أفريقيا مما سـاعدهم في اكتشـاف الطريق إلى الهند. وقال الملك أمانويل «أن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشـرق» وكان أن انطلق البرتغاليـون للقضاء على التواجد الإسلامي في البحار وفي الهند بحماس ديني صليبي منقطع النظير[١].

دوافع الهجوم البرتغالي المتكرر على جدة:

احتاجـت البرتغـال دوافـع قوية لها لتبرر لنفسـها إبحار أسـاطيلها الضخمة للهجـوم علـى جدة بهـدف تدميرها. وقد تراوحـت هذه الدوافع بيـن اقتصادية وأخرى دينية.

١- الدافع الاقتصادي:

القضـاء علـى ميناء جدة باعتبـاره من أهم موانئ إعادة تصديـر البضائع الهندية والصينية وقد اكتسـبت جدة هذه الخاصية منذ العام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م منذ أن تخطى الناخـوذة إبراهيـم مينـاء عدن واسـتقر في جـدة ومعه بضائـع الهند وقد اسـتوعب السـلطان المملوكـي برسـباي أهميـة جدة ودعمهـا بالمقاتليـن والسياسـة الضريبية الحكيمة. وقد أشار المقريزي إلى أهمية ما حدث «فصارت جدة حينئذٍ بندرًا عظيمًا للغاية وبطل بندر عدن إلا قليلًا». تضاعفت أهمية جدة وجدت أصلًا باعتبارها ميناء مكة المكرمة وتقصدها جماعات الحجاج والمعتمرين وهي مركز تجاري مهم.

---

(١) محمد عبده السروري، أثر الغزو البرتغالي على النشاط البحري لجنوب الجزيرة العربية، الجزيـرة العربيـة فـي القرن العاشـر الهجري، سلسـلة إصـدارات مركز الملك سـلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها. الرياض ٢٠٢٠، ص ٤٢٣ وما بعدها.

كان لـدى البرتغاليين هـدف اقتصـادي واضح فـي أن يكونوا مركـز إعادة تصدير بضائع الهند والصين وهذا كان الدافع وراء اكتشافهم طرق ملاحة بحرية جديدة، وعملوا على عرقلة دخول تجارة الهند إلى الأراضي الإسلامية بعد أن أغلقـت الدولـة العثمانية الطرق البرية التي تربط بين أوروبا والشـرق. وبجانب اسـتخدام القوة العسـكرية المفرطة مع سفن المسلمين أوجدوا نظام التراخيص الملاحيـة مقابـل ضريبة مرتفعة على التجار الهنود إذا رغبوا في القدوم للموانئ العربيـة، مـن أجـل تدمير تجـارة المسـلمين كما يصـف النهروالـي «وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسـلمين أسـرًا ونهبًا ويأخذون كل سـفينة غصبًا إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعمّ أذاهم على المسافرين»[١].

امتدت النظرة الاقتصادية لتشـمل التحكم في البحر الأحمر كله حيث كتب البوكيـرك إلى ملك البرتغال ١٥١٣/١٢/٤م «أنـه بتحكمكم في البحر الأحمر سـوف تستحوذون على ثروات الدنيا كلها وستتمكنون من ذهب مملكة الحبشة كله وهي كميات كبيرة ستتحصل بعرض توابل وسلع الهند فضلاً عما يستخرج من لؤلؤ البحر الأحمر»[٢].

ويسـتمر البوكيـرك بإيضـاح الجانـب الاقتصـادي في رسـالة أخـرى لملك البرتغـال حيـث قال «أن السـفر إلـى البحر الأحمر سـيكون مفيدًا على أسـاس أن التوابـل الثمينـة التـي تأتي سـنويًا إلى هذه الأجـزاء من الهنـد، ونظرًا لأني أرغب في القضاء على الروم (العثمانيون) وفتح العلاقات مع برسترجون (ملك الحبشـة) سأدمر مكة، لهذه الأسـباب صممت على الذهاب إلى البحر الأحمر

(١) قطب الدين محمد النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، مرجع سابق، ص ١٧.
(٢) أحمد أبو شرب، الخليج العربي والبحر الأحمر...، مرجع سابق، ص ١٦٨.

أولًا وتحطيم قوة السلطان الغوري في هذه المياه»[١].

٢- الدافع الديني:

توجّـه الغـزاة البرتغاليون إلى جـدة محملين بالروح الصليبيـة والعداء نحو الإسلام ومتأثرين بصراعهم مع المسـلمين في الجزيرة الإيبيرية وشمال أفريقيا. وكان لديهم قناعة أنهم مسـؤولون عن نشـر المسـيحية في العالـم ورغبة عارمة في إطفاء نور الإسلام في مهده وتدمير المقدسـات الإسلامية؛ لأن هذا يشـفي الغليل في نفوس قادتهم. ومن الناحية العسـكرية يساهم في تثبيط همة المقاومة الإسلاميـة ضدهـم فـي الهنـد، ويقطـع طريـق الإمـدادات والتعاون بيـن دولة المماليك والإمارات الهندية المسلمة، ويرضي البابا في روما.

قـال القائـد ألفونس دو البوكيرك قبل احتلال مدينة ملقة (سـنغافورة): «أنه سـوف نقدم خدمة جليلة لله بطرد العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شـعلة محمد بحيـث لا يندلـع لها بعد ذلـك لهيب. إنني على يقين أننا لـو انتزعنا تجارة ملقة من بين أيديهم لأصبحت مكة والقاهرة أثرًا بعد عين وسوف يذهب التجار إلى البرتغال لشراء التوابل».

وفـي رسـالة أخـرى كتب إلى ملـك البرتغال في ديسـمبر ١٥١٣م عن تأثير تحركاته العسكرية على المنطقة علق بالقول: «ستهجر جدة من سكانها بالتأكيد فور تحكمكم في مرسـى مصوع والحبشـة بسـبب توقف وصول التوابل وباقي السـلع إليهـا. وبالتحكم في جدة سـيقضى نهائيًّا على مكة ولـن يجرؤ أحد بعد ذلك على الإقامة فيها وفي اعتقادي لن يصعب علينا تخريب مكة ولن يتطلب منا ذلك جهدًا كبيرًا». وأعاد ألفونس دوالبوكيرك تأكيد أن هدفه مكة في رسالته إلى

---

(١) أرنولد ت. ويسلون، الخليج العربي، ترجمة: عبد القادر يوسف، مكتبة الأمل – الكويت، ص ٢١٤.

ملك البرتغال ١٥١٣/١٢/٢٨م: «بإمكانكم يا سيدي التحكم في جدة بسهولة كبيرة لشدة ضعفها وسيتعذر على السلطان مدها بالرجال والمؤونة وسيؤدي هذا إلى القضاء على مكة وتخريبها، وهو أمر سهل وفي متناولنا».

وقدم أيضًا تصوّره العام إلى ملك البرتغال في أكتوبر ١٥١٤م بقوله: «إن اقتحامنا البحر الأحمر سوف يتيح لنا فرصة القضاء على الأسطول الإسلامي والاتصال بملك الحبشة بهدف التحالف معه وفتح أسواق بلاده لننطلق من هناك نحو مكة لتخريب مسجدها، وهو عمل لن يتطلّب في تقديري سوى أيام معدودة ويسمح لنا بالسيطرة على البحر الأحمر».

قائد آخر أكّد كلام ألفونس في رسالة إلى ملك البرتغال وكتب: «إن جدة ضعيفة وسهلة المنال بجنود قليلين، وأعتقد أن سكانها سوف يفرون جميعهم فور رسوّ سفننا مقابل مرسى جدة وعلمهم أننا مسيحيون. إن تخريبها سهل ولن يتطلب مجهودًا لقلة عدد المدافعين عنها لأن جلّ سكّانها من المتعبّدين»[١]، وهذا يؤكد صفة أنها مدينة الأولياء كما يقال.

بعد أن وضع البرتغاليون أهدافهم بوضوح بدأ العمل العسكري المنظّم للسيطرة على طرق التجارة البحرية. لهذا شرعوا في بناء القلاع والحصون على الساحل الهندي والأفريقي ثم قاموا بالتحالف مع ثلاث دول محيطة بالبلاد العربية وتكنّ العداء العنصري للعرب والمسلمين وهي دولة فيجاياناجار الهندوسية في الهند، والدولة اليعقوبية في الحبشة والدولة الصّفويّة في إيران التي وقعوا معها اتفاقية هرمز عام ١٥١٥م[٢]؛ ليتمكّنوا من تحقيق أهدافهم من

(١) أحمد أبو شرب، الخليج العربي والبحر الأحمر...، مرجع سابق، صفحات متعدّدة موجودة فيها ترجمة هذه الرسائل.

(٢) القائد ألفونس دوالبوكيرك كتب إلى شاه إسماعيل في الدولة الصفوية «إذا كان لديك =

تدمير جدة ومكة ونبش قبر النبي ﷺ والزّحف شمالًا حتى تبوك ثم الانتقال إلى القدس لإحياء المملكة الصليبية هناك. وتشمل الخطط استقطاب الممالك الأوروبية للمنطقة بحيث يتمّ اجتذاب ملك فرنسا ليتمركز في سواكن وملك أسبانيا يتمركز في زيلع وأن يتّخذ ملك البرتغال مصوع قاعدة له[١].

أوضح قطب الدين النهروالي – وهو شاهد معاصر للأحداث - الوضع القائم بالقول: «في أوّل القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر دخول - الفرتقال – يعني البرتغاليين اللعين من طائفة الإفرنج الملاعين إلى ديار الهند، فكثروا في بحر الهند وبنوا في – كو – يعني جوا من بلاد الدكن قلعة يسمّونها كوتا، ثمّ أخذوا هرمز وتقوّوا هناك وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرًا ونهبًا وعمّ أذاهم المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه سلطان كجرات يومئذ إلى السلطان الغوري يستعين به على الإفرنج ويطلب منه المدد والمدافع لدفع ضرر الإفرنج عن المسلمين. وحذّره من أن البرتغاليين سوف يمنعون سفائن الهند من الوصول إلى بنادر الحرمين ويقصد جدة تحديدًا»[٢].

= الرغبة في تدمير السلطان قانصوه عن طريق البحر فإنك بهذه المساعدة العظيمة التي قدمها لكم الأسطول البرتغالي ويمكنكم بصعوبة بسيطة فرض سيادتكم على القاهرة وجميع الممالك والأقاليم التي يحكمها قانصوه الغوري وبالتالي يمكن لملكي أن يقدّم مساعدة كبيرة عن طريق البحر ضد الأتراك»، وردت الرسالة وعلاقة البرتغاليين مع الدولة الصفوية في إيران في:

Palmira Brummet, Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, State of New York Press 1993 – Page 45.

(١) عبد الجليل الشاطر صليبي، الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي والبحر والأحمر، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) محمد بن أحمد قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ترجمة: =

المماليك يواجهون البرتغاليين:

شهد مطلع القرن السادس عشر سيطرة البرتغال على سواحل الهند والخليج وشرق أفريقيا مع استخدام العنف المفرط والقرصنة ضد السفن الإسلامية والعربية وتحولت البرتغال إلى أن تكون الوسيط بين تجارة الشرق والغرب جرّاء اكتشاف رأس الرجاء الصالح واستخدامه في الملاحة البحرية وجعل لشبونة مركز التجارة العالمية حيث أغرقت أوروبا بالسلع بأسعار زهيدة.

استنجد أمراء الهند واليمن بالسلطان قانصوه الغوري وكذلك سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب وعدم قدرة هذه القيادات على التصدي للبرتغاليين وأساليب الحرب الحديثة والمدافع النارية التي يستخدمونها.

انتهج السلطان الغوري الطريق الدبلوماسي لأن أوضاعه العسكرية ليست على ما يرام، لوجود حالات تمرّد، لهذا أرسل الأسقف برنادينو في العام ١٥٠٤م لإقناع البابا في روما وملوك أوروبا للضغط على البرتغاليين لوقف أعمالهم العدوانية في الممرات البحرية وحرق سفن المسلمين والتنكيل بمن على متنها وإلا فإنه سيضطر إلى إغلاق كنيسة القيامة ويمنع الحجاج المسيحيين من دخول بيت المقدس، الأمر الذي أثار فزع بابا روما[١].

رفض الملك مانويل ملك البرتغال هذا التهديد وسخر منه وقرّر القضاء على أي قوة عربية قضاءً مبرمًا، ووضع خطة للتوسع الاستعماري في بلاد المسلمين تشمل احتلال الساحل الشرقي للهند واحتلال عدن وهرمز وباب

= أحمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٦٧م، صفحات متعددة ١٨-١٩، ٣٨.

(١) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي – أبو ظبي – الإمارات العربية، ط١، ١٩٩٧، ص ١٣٧ وما بعدها.

المندب لإغلاق البحر الأحمر والخليج العربي. وتحركت الأساطيل بقيادة قائد دموي آخر هو (دي ألميدا) الذي دمر وأحرق مدنًا إسلامية وقتل من فيها من المسلمين بما في ذلك النساء والأطفال.

الدولة العثمانية ودولة المماليك، كانتا الدولتين الإسلاميتين الرئيستين في ذلك الوقت. كانت الدولة العثمانية تعطي الأولوية للتوسع في البلقان وتوطين نفوذها في البحر الأبيض المتوسط، أما دولة المماليك فكانت تعاني من الحركات الانفصالية في الكرك وفي ينبع، وهذا أدى إلى أن تكون الساحة خالية أمام التوسع البرتغالي، وتكرس الوضع بخلق كيان سياسي في الهند وتعيين نائب لملك البرتغال على الهند.

أصبح جليًّا انهيار التجارة الإسلامية والعربية والخطورة على مراكب الحجاج والرسائل تتوالى من أمراء وسلاطين الهند واليمن على السلطان قانصوه تطلب منه النصرة. في أواخر العام ١٥٠٥م أمر السلطان (باش عسكر) الأمير حسين الكردي أن يعمل على تجهيز حملة عسكرية للإبحار حتى الهند لمواجهة البرتغاليين وأن تقوم الحملة ببناء تحصينات للموانئ الإسلامية أمام الهجمات البرتغالية.

المحطة الأولى لحملة الأمير حسين الكردي كانت ينبع وقضى على التمرد فيها بقيادة الأمير يحيى بن سبيع، ثم وصل إلى جدة وبدأ ببناء التحصينات من ناحية البحر وليس سور حول المدينة ثم أبحر إلى ميناء سواكن. في هذه الأثناء دخلت الأساطيل البرتغالية في ١٥٠٦م منطقة القرن الأفريقي وهاجمت شواطئ الجزيرة العربية وحاولت تحت قيادة ألفونس دوالبوكيرك بناء حصن في سقطرى ولم يستمروا إلا بضعة أشهر.

خرج الأمير حسين الكردي بنهاية ١٥٠٥م. من عدن إلى شاول في الهند وبنى تحالفًا مع الملوك والسلاطين المسلمين ومنهم السلطان مظفر شاه حاكم

كجـرات والأميـر عزيز حاكم ديو. اشـتبك الأسـطول المملوكـي الإسلامي مع البرتغاليين في معركة شـاول [CHAUL-1508] وانتصروا وقتلوا قائدهم وهو ابن نائب الملك على الهند وأسروا عددًا كبيرًا من سفن الأسطول البرتغالي.

فـي العـام الذي يليـه وقعت موقعة ديـو [DIO-1509] وقاتـل البرتغاليون بقيـادة نائـب الملك نفسـه للثـأر لمقتل ابنه والإفراج عن الأسـرى واسـتطاعوا الانتصـار علـى الأسـطول الإسلامـي وتفكك الأسـطول وهرب الأمير حسـين الكردي إلى جدة[١].

هـذه التطورات مهدت الطريق لوضع أفـكار ألفونس دوالبوكيرك المتعصبة نحـو تدمير الحواضـر العربية والقضاء النهائي علـى الحضارة الإسلامية. حيث وضـع اسـتراتيجية الهجوم علـى جدة ومكة وفي الوقت نفسـه تحالف مع ملك الحبشـة ليحفـروا قنـاة مـن أعالـي النيـل إلـى البحر الأحمـر وتحويـل مجرى النيـل لجعـل مصر صحراء قاحلة ولـم يعد هناك قوة عسـكرية منظمة لمواجهة البرتغاليين[٢]. وبدأ التحرك الفعلي لتدمير جدة تحت قيادة ألفونس دوالبوكيرك.

وصف جدة وبناء الأسوار حولها قبل الهجوم:

توجـد عـدة نصوص برتغاليـة وعربية تصـف مدينة جدة في القرن العاشـر الهجـري، مطلـع القـرن السـادس عشـر المـيلادي وكذلـك قـدم المؤرخـون

(١) فالـح حنظـل، مرجع سـابق، ص ١٤٣ وما بعدهـا، وكذلك محمد عبده السـروري، مرجع سابق.

(٢) ويليام جيمس ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرون، بيروت – لبنان ١٩٨٨م، المجلد ٢٣، ص ٥٧ وما بعدها.
Richard Whiteway, The Rise of Portuguese in India 1497-1550, Asian Education Service.

البرتغاليـون رواية تاريخية عن أسـباب بناء السـور تختلف عـن تلك التي تتبناها المصادر العربية. وفيما يلي وصف جدة وسبب بناء الأسوار من المصدرين:

١- الروايات البرتغالية في وصف جدة وأسباب بناء السور:

وصف جدة:

- وصف **جوزيه دي بروس [Joase De Barros]** جدة إنها مدينة جدباء وميناؤها لا يعتبر مضيافًا لمن يصل إليه تراوده الأفكار العدوانية، ذلك لأن الوصول إليها صعب، ويتطلّب اجتياز أرض رطبة وصخور كبيرة قرب الميناء تمتد على مسافة فرسخ كامل ومناخها صحراوي.

يوجد ممر مائي أو مدخل مائي واحد على شكل حلقة لبلوغ المدينة بينما يقع الوجود السكاني وتجمعهم في الطرف الأعلى للحلقة أما الجزء الصخري فيزدحم بالجرف الصخري. في الجزء العلوي من الحلقة ترتفع المساكن الجميلة المصنوعة من الكلس والحجارة وبيوت أخرى مصنوعة من اللبن والطين مع وجود استحكام بارز بالمدفعية لإحباط عزيمة من تسوّل له نفسه مهاجمة المدينة.

لاحظ ندرة المياه العذبة في جدة وأن السكان كانوا يجلبون المياه من آبار تبعد عن المدينة مسافات شاسعة من منطقة بني حسن بتكلفة عالية وقد صاحب ندرة المياه العذبة المناخ الحار وبقية الأوصاف السلبية عن الميناء والنواحي الطبيعية[1].

- **دوراتي باربوسا [Durate Bar Bosa]** وصف سكان جدة أنهم من العاملين في التجارة وما يتصل إليها ولكنهم يعيشون في حالة من

(1) Da Asia de Joao de Barros: dos feitos que os portuguezes fizeram no descubrimento e conquista dos mares e terras do Oriente 111- Page 27.

الرعب والخوف من غارات الأعراب عليهم وتستهدف جدة بالنهب والتدمير والقتل[١].

- **القائد ألفونسو دوالبوكيرك** وصفها أنها ميناء صغير مطوق بحياد صخرية تشبه الجزر وتشكل شواطئ قرب البحر تغطيها المياه وليس في جدة مؤن ولكن تجلب لها المؤن من بربرة وزيلع ومصوع. ووصف البيوت في جدة أنها مصنوعة من الطين والقش وهي تابعة للشريف بركات الذي عين فيها وكيلاً تجاريًّا ومعه عشرون مملوكًا لجمع الضرائب على البهارات والبضائع التي تصل إلى الميناء[٢].

- اكتفى **القائد أليشو دي مينزش** أحد قادة حملة ١٥١٧م في رسالته إلى ملك البرتغال أن يصف ميناء جدة والدخول إليه؛ حيث قال: أن الملاحة البحرية إلى جدة صعبة للغاية إذ يتعين عليك تفادي المناطق ذات المستوى المنخفض والكثيرة الجزر، وتكثر قبالة جدة المنخفضات والحواجز وهذا فرض على الأسطول البرتغالي أن يرسو بعيدًا عن اليابسة بمسافة (ليجوا) واحدة، وحتى مع ذلك فقد كان مستوى المياه في القناة التي توصل السفن إلى المرسى منخفضًا[٣].

(1) Durat Bar Bosa, The Book of Durat Barbosa an Account of The Countries Boarding on The Indian Ocean and Their Inhabitants, Asian Education Oral Services 1989- Page 35-39.

(2) The Commentaries of The Great Afonso de Albuquerque, Second Viceroy of India, Cambridge Library Collection, Vol 4, P. 481.

(٣) أحمد أبو شرب، الخليج العربي...، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

أسباب بناء السور:

● صورة مقربة لبرج من أبراج الحماية المتصلة بأسوار جدة.

المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885

جامعة ليدن، رقم: CSH-B.12 – 288/OR.12

● بوابة مع أبراج الحماية من الناحية الشمالية الغربية.

المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885

جامعة ليدن، رقم: CSH-B.30 – 288/OR.12

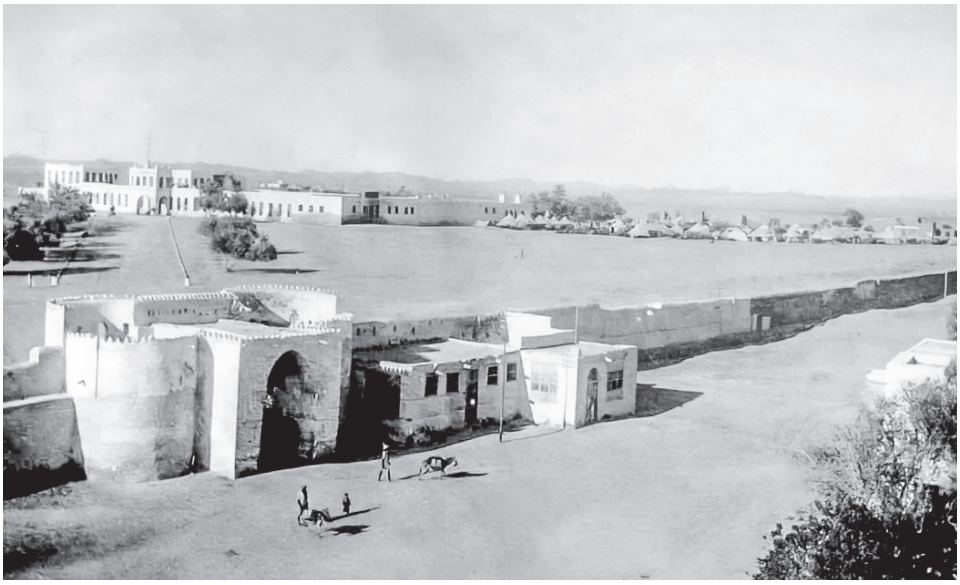

● سور جدة مع البوابة الشمالية.
المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885
جامعة ليدن، رقم: CSH-M.29 – 288/OR.12

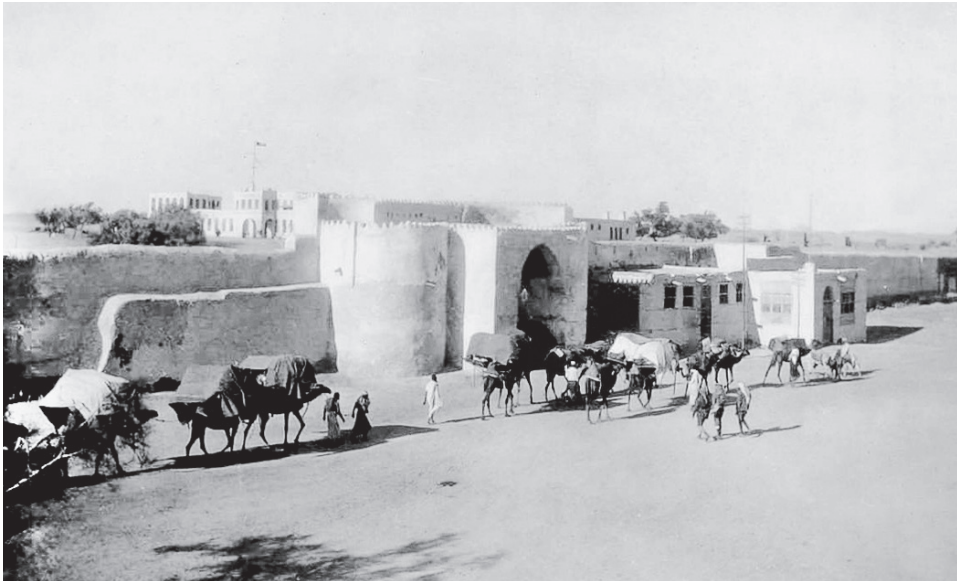

● قافلة تدخل من البوابة الشمالية للسور.
المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885
جامعة ليدن، رقم: CSH-M.2 – 288/OR.12

اتفقت المصادر البرتغالية المدنية والعسكرية ودعمتها مراجع أوروبية أخرى أن بناء سور جدة تم من قبل الأمير حسين الكردي بعد هزيمته في موقعة ديو [Dio-1509] وذلك لأغراض تخدم مصلحته الخاصة ومستقبله السياسي في المقام الأول وحماية جدة في ما يلي ذلك:

- **رواية دي بروس** : «أثر هزيمة الأمير حسين الكردي في معركة ديو وجد نفسه مجردًا من الأهمية والسلطان اللذين كان يتمتع بهما عند وصوله إلى الهند، والمجد المضاعف الذي حصل عليه بعد انتصاره في معركة شاول ١٥٠٨م التي كانت نقطة تحول وخدمة كبيرة لدولة المماليك أمام أمراء الهند واليمن وغيرهم. بعد الهزيمة في ديو وتحطم الأسطول الإسلامي رفض أن يعود مهزومًا مجرّدًا من الأهمية أمام السلطان المملوكي، لذا فكر في طريقة تجعله ينال العفو من السلطان وفي نفس الوقت يحقق أهدافه الخاصة، لهذا تردد على ملوك السلطنات الهندية ومنهم ملك (آز) وملك (كامباي) وغيرهم وأقنعهم أنه صار من السهل علينا نحن البرتغاليين التوغل في البحر الأحمر والاستيلاء على جدة ومنها ننطلق إلى مكة لتدميرها ثم إلى المدينة للاستيلاء على جثمان الرسول محمد ﷺ ونضعه تحت سيطرتنا كما يسيطرون هم على مدينة القدس التي هي قِبلة إيماننا نحن المسيحيين.

كان حسين الكردي يبرر الهزيمة في ديو أمام السلاطين أنها عقاب من الله على ذنوبه وأنه لم يكن يجاهد في سبيل الله بالقدر الكافي من الإخلاص.

كما أشار الى أن خطة الأمير حسين الكردي تقوم على أن يسوِّر جدة ويبقى فيها حتى ينتهي العمل بالأسوار والتحصينات في حال حدوث هجوم برتغالي عليها، من هنا تعاطف ملك كامباي وملك آز وكبار

القادة المسلمين في الهند وتبرعوا بكميات كبيرة من التوابل والأقمشة وقام بشحنها على ثلاثة مراكب بغرض الدفاع عن جدة ومكة. بمجرد وصوله إلى جدة أرسل كتابًا إلى السلطان في القاهرة يخبره فيها مباشرته بناء سور حول جدة بهدف حمايتها من الهجمات البحرية البرتغالية وهجمات الأعراب من البر مما يوفر الأمان لجدة. هذا الأمان سوف يتيح للسلطان الاستفادة من عائدات الحج والتجارة التي توفرها جدة وهو يلتمس المدد والعون من السلطان.

بمجرد وصوله أيضًا أقام الأهالي احتفالًا كبيرًا بوصوله مع المراكب الثلاثة ومراكب تجارية أخرى حضرت من الهند محملة بالبضائع للتجارة واطلع أهل البلاد عن سبب مجيئه ومشروعه في حماية جدة ليس فقط من سفننا البرتغالية ولكن من هجمات الأعراب أيضًا وأعطى لهذا السبب أولوية لأن غارات الأعراب أرهقتهم كثيرًا.

ويستمر دي بروس في سرد روايته عن الأمير حسين الكردي ويشير إلى أنه «كان له أهداف خاصة حيث أراد السيطرة على جدة تمامًا وأن يكون الحاكم ليس المعيّن من السلطان ولكن أكثر من ذلك، لهذا حرص على بناء قلعة أو حصن للاحتماء به ضد أي تمرد محتمل من الجنود أو من الأهالي، أعمال البناء احتاجت إلى موارد أكبر من الموجود لديه لهذا فقد فرض على التجار والأهالي التبرع لبناء السور واستخدم العمال والسكان والجنود في أعمال البناء التي تمت في أجواء من الرعب والتنكيل بأهل جدة وكان يرسل إلى السلطان أكاذيب عن الوضع القائم يهدئ به خاطره. وقد أحسن السلطان به الظن لدرجة أنه قرر أن يكون هو قائد الأسطول الجديد المدمّر الذي يعود إلى الهند لمحاربة البرتغاليين»[1].

= (1) Joao De Barros, op.cit

● **رواية دوراتي باربوسا** : تم مؤخرًا بناء تحصينات وأسوار حول جدة على يد الأمير حسين الكردي القائد المسلم الذي قاد الأسطول الإسلامي في الهند وتم تدميره في معركة ديو [Dio-1509] هذا القبطان عندما وجد أنه مهزوم لم يجرؤ على العودة إلى بلاده دون تقديم خدمة تعبر عن ولائه لملكه، لهذا تقدم بالتماس إلى محمود شاه ملك كمباي لمنحه الدعم المالي وطلب من الأشراف والأمراء في الهند منحه الدعم بهدف تحصين جدة قائلًا إن الفرنج أقوياء جدًّا ويخشى أن يأتوا

= المؤرخ دي باروس من أوائل المؤرخين البرتغاليين وأكثرهم شهرة ومصداقية خاصة عند البحث في تاريخهم في الهند وآسيا وجنوب شرق آسيا.

نشأ هذا المؤرخ في قصر الملك مانويل الأول عند توليه العرش وتقلّد وظائف مهمة في البلاط الملكي وازدادت أهميتها حتى أن أصبح مسؤولًا عمن يكون أمين صندوق البيت الهندي. أول كتاب كتبه هو عقود آسيا في ١٥٥٢م واحتفى به البلاط الملكي وكلفه بتدوين التاريخ البرتغالي المعاصر وأعد تسع مؤلفات كتب أحدها من أربعة عشر مجلدًا ويعتبر المرجع الشامل للتاريخ البرتغالي في القرن السادس عشر.

روى دي باروس قصة التاجر المسلم القادم من كاليكوت في الهند ومعه تجارة واسعة للاستقرار في جدة ويسمى آل خليفة ويصحب معه نساؤه وأطفاله والخدم وأمواله. دفعه الفضول إلى ارتياد ساحات تعميد السور والحصن وكان الأمير حسين الكردي موجودًا بالصدفة وطلب منه أن يطلعه عن أخبار قائدنا العام ألفونسو دو البوكيرك طالما أنه عائد من كاليكوت، فأخبره التاجر أن القائد يبني قلعة حصينة في كاليكوت وأشاد بالبناء وقوّته ومتانته والدقة الهندسية إلى آخره. الأمر أثار غضب الأمير حسين الذي ساءه أن يقال مثل هذا الكلام أمامه وبحضور البنائين وقال له: لكي تدرك أن هذه القلعة والسور أشد من تلك التي تتكلم عنها فإني آمرك أنت وخدامك فيها وأجبره على حمل الحجارة والكلس والمشاركة في البناء مع مرافقيه. ثم ما لبث أن عاد التاجر إلى كاليكوت وصرف النظر عن الإقامة في جدة. وهذه القصة ذكرت مع قصص أخرى في سياق القوة والعنف التي عامل بها حسين الكردي أهل جدة وزوّارها في بناء السور والحصن.

إلى جدة لتدنيس قبر النبي محمد وإلى مكة لتدمير المسجد الكبير. استجاب ملوك المسلمين وعامتهم لدعوته ومنحوه أموالًا طائلة مما مكّنه من ملء ثلاث سفن بالتوابل والبضائع الأخرى وقام ببيعها في جدة وبنى من ثمنها الأسوار والحصن[١].

- القائد ألفونس دو البوكيرك ذكر في مذكراته أنه بعد أن هزم د. فرانسيسكو دي ألميدا المماليك في معركة ديو [Dio-1509] رحل قائدهم الأمير حسين الكردي ليعيش في جدة وأحاطها بسور وشيّد أبراجًا لحمايتها خاصة من هجمات الأعراب والقوى المحلية[٢].

- يتفق المؤرخ الإيطالي أنجلو بسكو [Angelo Pesko] مع الروايات البرتغالية في أن السور قد تمّ بناؤه بعد عودة الأمير حسين الكردي من الهند وهزيمته العسكرية وتدمير الأسطول الإسلامي في معركة ديو [Dio-1509]، حيث يشير إلى أن القبطان حسين الكردي عيّن نفسه أميرًا على جدة واعتبر نفسه حاكمها وشرع في بناء السور بالأموال التي أحضرها من الهند وكان الهدف المعلن هو حماية جدة من هجمات الأعراب ولكن الهدف الحقيقي هو حماية المدينة من هجمات البرتغاليين لقناعته أن سقوط جدة يعني سقوط مكة ودمار مسجدها.

قبل هذا السور، كانت جدة مسوّرة ومحاطة ببقايا سور قديم أشار إليه كل من ناصر خسرو في ٤٩٩هـ/١١٠٥م وأيضًا ابن جبير أشار إلى السور سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م وحتى فارثيما عندما زار جدة سنة ١٥٠٣م أشار إلى وجود سور حول جدة قديم متهالك قبل عودة الأمير حسين بحوالي سنتين.

(1) Duarte Barbosa, op. cit, Page 38 - 42.
(2) The Commentaries of The Great, op.cit.

لهـذا فإنـه بعـد تحليل للروايـات والأحـداث والتوراريخ والدوافع يسـتنتج (بسـكو) أن بناء السـور قد تم الأعوام ١٥٠٩/١٥١٤م وأنه لا يمكن أن يشـرع الأمير حسـين في بناء أسـوار بهذا الحجم والتحصين إلا بعدما تواجه عسـكريًّا مع البرتغاليين وأدرك حجم قوّتهم العسكرية وعمق كرههم للإسلام والمسلمين وعدائهم العقائدي للإسلام. أدرك القائد أن البرتغاليين سوف يلاحقونه شخصيًّا عندمـا يعلمـون بمغادرتـه الهند بعد الهزيمة لذا لا بـدّ أن يكون له مكان حصين يدافع به عن نفسـه حتى لا يظفروا به، وهذا يفسـر الاسـتعجال في بناء السـور واستخدامه أساليب قاسية ووحشية في تسخير موارد جدة ورجالها والجنود في بناء السور والتحصينات حتى أنه هدم مساكن بعض السكان لاستخدام الحجارة في البناء، ودفن العمال المتقاعسين في السور نفسه وهم أحياء.

أشـار (بسـكو) إلى الروايات البرتغالية التاريخية حول بناء السور واستشهد بها ومؤيدًا لها واعتمد بعض التفاصيل التي وردت بها[١].

٢- الروايات العربية في أسباب بناء السور:

في القرن السـادس عشـر كان مجتمع جـدة مجتمعًا متمدّنًـا وعلى قدر من ثقافـة المـدن العريقة في المنطقة؛ حيث انتشـر في ذلك الوقـت التعليم وحفظ القـرآن وانتشـار للمسـاجد ومراكـز الفـرق الصوفيـة الرئيسـية، ويوجـد مركز للإنشـاد والسـماع، ويتلاقى فيها علماء من العالم الإسلامي لإعطاء الإجازات العلمية[٢].

---

(1) Angelo Pesce, Jeddah, Portrait of an Arabian City, Falcon Press – London 1976, P 88.

(٢) سلوى السليمان، جدة في العصر المملوكي، النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٤٣١هـ، ص ٢٠٣.

● **قافلة الحجاج خارج أسوار جدة قبل المغادرة إلى مكة.**
المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885
جامعة ليدن، رقم: CSH-F.10 – 288/OR.12

● **سور جدة ويظهر في الخلف مقام أمنا حواء.**
المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885
جامعة ليدن، رقم: CSH-B.22 – 288/OR.12

وتميل الروايات العربية المهمة عن توقيت بناء سور جدة إلى أنه حدث قبل ذهاب الأمير حسين الكردي إلى الهند بتكليف مباشر من السلطان قانصوه الغوري، وبعض الروايات تميل إلى أن البناء تم على مراحل زمنية متباعدة، وأخرى تميل إلى إغفال التوقيت مع ملاحظة أنه لا يوجد اتفاق على سنوات بناء الأسوار في الروايات العربية.

- **رواية النهروالي** : «جهز السلطان الغوري الأمير حسين الكردي وأرسل معه طائفة كبيرة من اللوند كبيرهم سليمان ريس وحجز لهم (عمارة) عظيمة و(أغربة) نحو الخمسين بمدافع كبيرة وولّاه نيابة جدة وعظّم شأنه وكان مقدامًا شجاعًا فاتكًا كثير الظلم شديد السياسة، فأول ما جاء بنى على جدة سورًا محاطًا بها في عام سبعة عشر وتسعمائة (٩١٧هـ/١٥١١م) وهدم ما أراد من بيوت المسلمين وغصبها وأدخل حجارتها في البناء، ووضع بعض التجار في البناء ليبني عليه وإنما بنى ذلك السور صونًا عن متخطفة العربان. وتستمر الرواية إلى قوله «لما فرغ الأمير حسين من بناء جدة توجّه بأغربته إلى الهند ودخل ديو واجتمع مع السلطان مظفّر شاه وحصل منه على إمداد كبير، غير أن الفرنج ارتفعوا إلى كوه وما أمكن للأمير حسين أن يستمر في الهند فعاد من غير محمل»[١].

يصف النهروالي مرحلة ما بعد عودة الأمير حسين من الهند «بأنه كان ظالمًا وشديدًا على أهل جدة وقال إنهم عادوا الحادي عشر من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة توجهوا إلى جدة المعمورة واستمر حاكمًا

(١) اصطلاح عمارة وأغربة هي صفات للسفن وأحجامها. واصطلاح التوسيط والشنكلة هي أساليب إعدام غاية في الوحشية.

في جدة لا يد على يده ولا معارض له فيما يفعل وكان لا يخلو كل يوم من شنق أو توسيط أو شنكلة وكلّما نزل مكانًا يوضع فيه مشنقة ومحمل الشنكلة وآلاتها فيقع من شاء الله من المظلومين فيتلفه بأدنى سبب»[١].

- رواية عبد القادر الشافعي في السلاح والعدة ترجع بناء الأسوار إلى العام تسعمئة وأحد عشر ٩١١هـ/١٥٠٥-١٥٠٦م، وإن بناءها جزء من جهود السلطان قانصوه في حماية جدة من هجمات القبائل العربية من بني إبراهيم. ذلك أنه حدث نهب ودمار لكل من جدة ومكة من أهل ينبع من بني إبراهيم لهذا أرسل لهم الأمير «قيت الرجبي» في جيش سنة تسعمئة وثمانية وكتبوا للأمير «قيت» المواثيق وأنهم يرجعون عن الفساد، وكتبوا للسلطان الغوري ولكنهم نكثوا العهود وعادوا للهجوم على جدة ومكة.

وبعد أن تصدى لهم الأشراف وعدد من جنود المماليك قرر السلطان إرسال الأمير حسين الكردي ومعه العسكر والسفن ونزلوا ينبع وفرقوا شمل العدو ثم جدة وبنى فيها السور والأبراج الشامي واليماني نزل الغواصون في البحر اثني عشر ذراعًا لوضع أساسها[٢].

- رواية أحمد بن محمد الحضراوي تقول إن بناء السور تم في العام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وقيل ٩١٧هـ/١٥١١م عندما أرسل السلطان الغوري الأمير حسين لدفع ضرر الإفرنج في بحر الهند وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك بجدة، نهبت جدة مرارًا وكانت غير مسورة ويستشهد بالقرطبي. كان العربان كثيرًا ما ينهبوا جدة حتى أنّ عربان زبير كانوا يأخذون كبار التجار مقابل فدية.

---

(١) النهروالي، البرق اليماني...، مرجع سابق، ص ١٩-٢٤.

(٢) عبد القادر أحمد محمد الشافعي، السلاح والعدة....، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.

كما أن الحضراوي يصف الأمير حسين أنه كان ظلومًا غشومًا يسفك الدماء، وأقام جلادين للقتل والتسويط والضرب، وكان أكولًا يستوفي الخروف وحده وأصله كردي، ويقال إنه من بنى السور في دون عام من شدّته وغشمه وإقدامه وظلمه.

ثم مازال الأمير حسين الكردي يقتل ويشنق في جدة بغير وجه حق حتى توجّه إلى الهند وسفك الدماء في اليمن وافتتح في طريقه مملكة بني طاهر ظلمًا وعدوانًا. وبعد هزيمته عاد إلى جدة وكانت دولة الشراكسة وقد انقرضت بمصر[١].

- رواية جار الله بن فهد تقول إن السور بني على مراحل بدأت في العام ٩١٢هـ/١٥٠٦م وقدّم وصفًا لهذه المراحل: «ثم بعد التاريخ الماضي زيد في سور جدة مرات عديدة، منها في سنة سبعة عشر وتسعمئة عندما عمّر (باش مكة) برجًا سابعًا وسط البحر ثم في سنة عشرين وتسعمئة عمّر نائب جدة الحسامي الكردي برجًا ثامنًا جهة الشام ومما يليه باب كبير لجهة البحر»[٢].

مصرع صاحب السور:

تتفق الروايات العربية والبرتغالية على أن حسين الكردي قضى نحبه غريقًا أمام ميناء جدّة مع اختلاف تفاصيل الأحداث التي أدّت إلى ذلك الإغراق.

- أهم الرّوايات العربية التي أوردها النهروالي: «وكان السّيد بركات أرسل ولده الشريف أبو نمي لتقبيل بساط السّلطان العثماني وأمر له

(١) أحمد بن محمد الحضراوي، الجواهر المعدة في فضائل جدة، مرجع سابق، ص ٣٥.
(٢) جار الله بن فهد، حسن القرى في أخبار أودية أم القرى، حمد الجاسر، مجلة العرب، العدد ١-٢، ١٩٨٣م، ص ٣٩.

بكتابة الأحكام السلطانية على حسب المراد وكتب له حكمًا سلطانيًّا على حسب المراد وكتب له حكمًا سلطانيًّا بقتل الأمير حسين الكردي أمير جدّة، ورجع الشريف أبو نمّي مجبورًا مسرورًا إلى مكة». ويستمرُّ النهروالي فيقول: «ثم جلس السيّد عرار في مقام الحنفي وطلب الأمير حسين الكردي ليسمعه الأحكام السلطانية، فجاءه حاسرًا ذليلًا بعد التّيه والعظمة.... فلمّا وصل إلى السيّد عرار لم يقم له وقال له: ورد حكم السلطان أن يجهز له إلى مصر. فقال: السمع والطّاعة. فرسم عليه بعض العبيد وكان في ترسيمهم إلى أن نزلوا به إلى جدّة وأركبوه جلبة (مركب). فلمّا وصل إلى بين العلمين غرقوه في البحر هناك وأكلته الحيتان» كان هذا في العام ٩٢٢هـ - ١٥١٦م[١].

- **رواية أحمد الحضراوي** : «توجّه الشريف أبو نمّي بن بركات وعمره اثنا عشر عامًا إلى مصر ورجع مسرورًا بما طلب من السلطان سليم وأمره بقتل حسين الكردي فنصره الله عليه وأُخِذ الأمير حسين الكردي مقيّدًا من مكة إلى جدة وربط في حجر كبير وغرق في بحر جدة في موضع يقال له (أم السمك) فأكلته الأسماك بعد أن كان من الأملاك وتفرق في البلاد جنوده وأوانه بددًا»[٢].

- الرواية العثمانيّة الرسمية ظهرت في الوثيقة التي أرسلها سليمان ريس إلى السلطان [Tsma.E.0858]؛ حيث ورد في أجزاء منها «وعندما وصل المرسوم الشريف جرد الأمير حسين الكردي من منصبه وأخذت أمواله وأغرق في البحر» وهذا يعني أن الإغراق تم بالأمر المباشر من

(١) النهروالي، البرق اليماني...، مرجع سابق، ص ٥، وص ٢٧.
(٢) الحضراوي، الجواهر المعدة في فضائل جدة، مرجع سابق، ص ٣٦.

السلطان سليم وسليمان الريس يبلغه بالتنفيذ[١].

- ويروي السنجاري في «منائح الكرم»: «وأغرق حسين الكردي المذكور في البحر بعد أن ربط في ظهره صخرة»[٢].

ويتضح أن الروايات التاريخيَّة العربية في جميع المصادر تتفق على رواية واحدة وتدعمها الوثائق العثمانية مع اختلافات بسيطة.

تعود الرّوايات البرتغالية قليلًا في تاريخ العلاقة بين حسين الكردي وسليمان ريس والتي انتهت بمصرع الأول. يرجع العداء إلى تجهيز الأسطول المملوكي الكبير الذي غادر إلى الهند في العام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وكان السلطان قد وعد الأمير حسين الكردي أن يكون هو قائد الحملة الثانية لمحاربة البرتغاليين في الهند، ولكن السلطان اختار سليمان ريس للقيادة وجعل حسين نائبًا له. في الطريق إلى الهند قصف الأسطول عدن وفشل في احتلالها لهذا توقف في جزيرة كمران لبناء حصن وظلّ عليها الأمير حسين، أما سليمان ريس فقد أخذ القوّات وغزا (زبيد) وحصل منها على غنائم كثيرة. ولمّا تأخّر في العودة قام حسين الكردي بعمليّة تمرّد وخطب في القوات أن سيّدنا السلطان (المملوكي) قد قضى نحبه وعلينا أن نبحر بالأسطول لندافع عن بلادنا، وأن سليمان ريس ما جاء ليعمل في خدمة السلطان إلا لأنه مطرود من بلاده بعدما اتّهم بجرائم وسرقات وسوف يعود إلى ولائه القديم وسينحاز إلى السلطان التركي لينال عفوه ويكدّس الثروات التي نهبها من (زبيد) وأن من الضروري أن نبحر سريعًا إلى جدّة للحفاظ عليها وعلى الأسطول وكنت قد شيدت فيها الأسوار والحصون لحمايتها.

---

(١) الأرشيف العثماني، وثيقة طوب كابي رقم [Tsma. E. 0858].

(٢) علي بن تاج الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق: ماجدة زكريا، إحياء التراث الإسلامي – مكة المكرمة ١٩٩٨م، المجلد ٣ ص ٢٣٢.

في مرحلة لاحقة أبحر سليمان ريس بما تبقى من الأسطول إلى جدة، إلا أن حسين الكردي رفض أن يسمح له بدخولها خاصة مع توالي أخبار هزيمة السلطان المملوكي وادّعى أنه لن يوافق طالما لم يتلقَّ تعليمات، وكانت الحرب واقعة بينهم وتدخّل الشريف من مكة وبذل جهدًا كبيرًا في تفرقة المتخاصمين. وتم الاتفاق أن يدخل سليمان ريس إلى جدة ويبقى كل منهما على رأس قوّاته حتى يبعث الشريف كتابًا إلى السلطان في مصر. ولكن سليمان بعد أن دخل المدينة لم ينتظر الردّ من السلطان أو حكمه في الخلاف وخلال بضعة أيام ألقى القبض على حسين الكردي وأسرته بتهمة الخيانة. على الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الأخير.

ولما كان سليمان لا يجرؤ على قتله أو الإبقاء عليه أسيرًا فإنّه أسرّ إلى قبطان إحدى السفن بأن ينقله على متنها إلى مصر لمقابلة السلطان ليلقى جزاءه. ولكن بمجرد أن صعد على المركب تم ربط حجر كبير في عنقه ورُمي في البحر وكان ذلك ١٥١٦م[1].

الهجمات البرتغاليّة الأربع على جدة:

تحركت الأساطيل البرتغالية مع مطلع القرن السّادس عشر لغزو جدّة من أجل تحقيق أهداف صليبية وأهداف اقتصادية واضحة وموثقة في كتابات أهم المسؤولين في مملكة البرتغال.

بعد انكسار الهجمات الأربع على جدة - كما سيأتي تفصيلها - حدثت أحداث إقليمية وعسكرية مهّدت الطريق لأن يقوم البرتغاليون بحملة خامسة بأهداف مختلفة عن الغزوات الأربع الأولى قصفت ميناء جدة بالمدافع سنة ١٥١٤م ولم تنزل إلى الشاطئ وتسمى حملة السويس.

(1) Joao De Barros, op. cit, Page 35-39، Da Asia De.

المحاولة الأولى: غزو جدة ٩١٩هـ/١٥١٣م:

(١)

● القائد البرتغالي ألفونس دو البوكيرك[١]. Alfonso de Albuquerque

ألفونس دو البوكيرك قاد الحملة الأولى والثانية، عاش من ١٤٥٣-١٥١٥م. يعتبر من رموز العسكرية في البرتغال وحصل على كل أشكال التكريم الشعبي والرسمي. يلقب أسد البحر، قيصر الشرق، القائد العظيم، قاد الأسطول لإخضاع منطقة المحيط الهندي لسيطرة البرتغال، وكاد أن يحول المحيط

(1) National Museum of Ancient Art. Lisbon, Portugal.

إلـى بحيـرة برتغالية مغلقة لقدرته علـى إغلاق المضايق والبحار وبناء الحصون والحاميات لدعم الأسـطول، وعرف عنه وحشـيته في الحروب، وهو صاحب فكرة تدمير جدة ومكة المكرمة.

كانـت الحملـة بقيادة القائد الدموي ألفونس دو البوكيرك صاحب اسـتراتيجية تدميـر جـدّة ومكّة لتحقيق أهداف صليبية - كما سـبق الحديث عنها سـابقًا - وقد بدأت الحملة بحصار عدن ولكنّه فشـل في اقتحامها وتوغّل الأسـطول شمالًا حتى جزيرة كمران وقتل سكّانها ودمّرها بما عرف عنه من اللجوء إلى الأساليب الوحشية فـي حرق وتدمير المدن والمنشـآت والسُّـفن الإسلامية. وهذا مـا كتبه في مذكّراته عن التّوجّه إلى جدة في الفصل التاسـع من هذه المذكّرات تحت عنوان «الإصرار على الإبحار من كمران إلى جدّة وما حدث أثناء الإبحار وعن علامة السماء»[1].

«بعد مرور أيام كثيرة من وقوف أسطولنا أمام كمران بسبب الرياح الغربية، بدأت الرياح الشرقية تهب خلال الليل ولأننا متحمسون لإتمام الرحلة إلى جدة فقد أرسلت إلى القباطنة والقادة للاستعداد للإبحار في اليوم التالي. في الصباح رفعنـا المراسـي وأبحرنا إلـى بعض الممرات المائية بين الجـزر الرملية وكانت تلك الممرات ضيقة جدًّا لإبحار السـفن الكبيرة مثل سـفننا فاتجهنا إلى جزيرة وسـط البحر لنسـتريح بها فـإذا بالرياح الغربية تهب من جديـد وظللنا على هذا الحال أيامًا كثيرة».

«أرسـلت جـواو جوميز في سـفينة من نـوع الكارفيلا ومعه مرشـد ويدعى دومينجو فاندر للذهاب ناحية جزيرة زبيد في وسط المضيق لمعرفة اتجاه الريح والتيارات البحرية، لأني أصبحت أؤمن أنه بسبب خطايانا فإن الرياح غير مواتية

(1) The Commentaries of The Great Afonso Afonso de Albuquerque, Second Viceroy of India, Volume 3, P- 13.

لنـا وتعاكـس رغبتنا في الإبحار. وقال بعد عودته من المهمة الاستكشـافية أنهم وجـدوا عمق المياه تشـابه عمق الأغوار التي يرسـو عندها أسـطولنا ولا يوجد تيارات مائية قوية ولكن يوجد حركة المد والجزر المعتادة، وكانت تسـمح بأن نأخذ طريقًا متعرجًا حتى نصل إلى جدة».

«رفض المرشدون هذه الفكرة لوجود مناطق ضحلة كثيرة تشكل خطرًا على سـفن الأسـطول الكبيرة الحجم، وفي المقابل أوضحوا أنه يمكن أن تسـاعدنا الرياح للوصول إلى جدة حيث إن الرياح تتغير اتجاهاتها في البحر الأحمر كل فترة وهذا أمر طبيعي، لذا فإنه عندما يظهر نجم في السماء يدعى توريا [Turia] ناحية الجنوب عندئذ تهب الرياح باتجاه الشرق وتحملنا إلى جدة».

«قررت أن نسـتريح قليلًا انتظارًا للرياح الشـرقية وهنا ظهر شـيء غريب في السماء إنه (الصليب الكبير). نعم ظهر صليب كبير بشكل واضح باتجاه الحبشة وكان الصليـب متألّقًـا ولامعًا وعندما كانت السـحب تمر أمامـه تتمزق دون أن تمـس ذلـك الصليـب ودون أن تحجـب ضـوءه. كل فرد من الأسـطول شـاهد الصليب فانهمرت دموعهم وركعوا بمواجهته وأخذوا يوقرونه ويصلون، عندئذ عرفت أن الله يوجهنا إلى الحبشـة وليس إلى جدة وما دام الله قد أظهر لنا تلك العلامة وفي النهاية خلص الصليب إلى ربنا واختفى عن الأنظار».

«اتخـذت قـرارًا بالإبحار ناحية البر الأفريقي ولكن بعض رجالنا سـببوا لي كثيـرًا مـن الإزعاج والقلق لقلّة إيمانهم وإصرارهم على الاسـتمرار في الإبحار نحو جدة. الأمر الذي دفعني لأن أفتح تحقيقًا يشمل جميع الرجال في الأسطول حول مشـاهدة الصليب فأقر الجميع أنهم شـاهدوا الصليب في السـماء بشـكل واضح فترة طويلة من الزمن، فتم توثيق ذلك وإعداد محضر توثيق أرسلناه إلى الملك عمانويل».

«بعد الانتهاء من موضوع الصليب وما ترتب عليه من تغيير وجهة الأسطول كانت الحاجة قد أصبحت ملحة للماء العذب ونحن في آخر شهر مايو، فأمرت الجنود بالإبحار والتخلّي عن فكرة حصار جدة بعد أن أنهكتنا الظروف الصحية والطقس السيء وندرة المياه مما أدى إلى مرض كثير من الجنود، وعاد الأسطول إلى كمران للتجهيز للعودة إلى الهند».

في الروايات الأخرى للصليب كما وردت في مصادر برتغالية أخرى يقال إنه بعد ليلة من العواصف شاهد البوكيرك والجنود نارًا في السماء تحول شكلها إلى شكل الصليب العملاق ثم سار اللهب فوق السفن البرتغالية وتوقفت فوق الساحل الأفريقي باتجاه الحبشة، فتصايح الضباط والقادة من الدهشة وأيقنوا أنها رسالة من السماء أن النار سوف تحرقهم إذا توجهوا لتدمير جدة، وعليهم النكوص إلى بلد مسيحي هو الحبشة لحماية الأسطول، خاصة وأن الجنود كانوا يتساقطون جراء أمراض غريبة وهلك عدد كبير منهم، لهذا اقتنع القائد البوكيرك وعاد، وفي طريق العودة كان كلما اقترب من جزيرة رسم عليها صليبًا يكتب عليه (جزيرة الصليب المؤمن)[١].

استمرت جهود البرتغاليين في تثبيت مواقعهم في التجارة الدولية ومع الهند خاصة مع العمل على تدمير تجارة العرب والمسلمين بشكل ممنهج من خلال عدة وسائل، ومنها العنف والقرصنة. وقد ذكر ابن إياس في (بدائع الزهور)

---

(١) وردت قصة الصليب في عدد من المصادر القديمة ومنها كتاب باللغة البرتغالية:

Jose Santos, Afonso de Albuquerque: O Sonho da India, Coimbara Teracitos, 2008, P 278.

Manuel de Faria e Sosa, The Portugues Asia, or, the History of the discovery and conquest of India, Translated by: John Stevens, 1965, Vol 2, Pages 190- 194.

في حوادث ٩١٦هـ/١٥١٠م أن عدد السفن البرتغالية التي كانت على شواطئ الهند تهاجم سفن العرب والمسلمين بلغ خمسين سفينة. وبعد عدة سنوات ذكر ابن إياس في أحداث ٩٢٠هـ/١٥١٤م، أن بندر الإسكندرية وبندر جدة لم يعرفا مثل هذا الخراب بسبب عبث الكفار في بحر الهند فلم تدخل البضائع إلى بندر جدة نحو ست من السنين أي من ١٥٠٨م - ١٥١٤م.

تزامن هذا العنف من اعتماد طرق ملاحية جديدة باستخدام رأس الرجاء الصالح، وأساليب تعسفية مع السفن الهندية التي ترغب في التجارة مع الموانئ العربية بشكل نظام التراخيص التجارية حيث يعطى الترخيص مقابل ضريبة عالية لكل سفينة في كل رحلة. هذه الممارسات وغيرها دفعت إلى وضع اقتصادي جديد، ويرصد باينكار أن البرتغاليين استطاعوا إيقاف تجارة العرب وإبعادهم عن البحر (المحيط الهندي) وتدمير الاحتكارات التجارية التي تمتعوا بها طويلًا، وكانت خسارة مواقهم لأن البرتغاليين استخدموا القوة العسكرية الباطشة في إجلائهم[١].

المحاولة الثانية: غزو جدة ٩٢١هـ/١٥١٥م:

هذه الحملة بقيادة نفس القائد ألفونس دو البوكيرك[٢] مرة أخرى حيث غادر الهند على رأس حملة أكبر من الحملة السابقة مكونة من ستٍّ وعشرين سفينة رئيسية وألف وخمسمئة فارس متوجهة لحصار جدة وتدميرها.

---

(١) ك. م. باينكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبد العزيز جاويد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٥٠-٥٢.

(٢) رسائل ألفونس كلها نقلًا عن: أحمد أبو شرب، الخليج العربي والبحر الأحمر...، مرجع سابق ص ١٨٥- وص ٢٠٨ وما بعدها.

أرسل في بداية الحملة رسالة إلى ملك البرتغال بتاريخ ١٥١٤/١٠/٢٠م يفصّل فيها طريقة سيره وأنه سوف يخضع عدن وبربرة وزيلع ثم يتوجه إلى مصوع في بلاد الحبشة لإعادة تنظيم القوات والتحشيد قبل الانطلاق منها إلى جدة لتدميرها ثم مكة.

في الرسالة التالية بتاريخ ١٥١٤/١٠/٢٥م أوضح أنه بعد أن يصل إلى مصوع سوف يقوم باحتلال جزيرة دهلك وبعدها ستكون حملة البحر الأحمر مريحة، وبعد تدمير مكة سأتوجه إلى السويس لتدمير أسطول سلطان مصر. هذه كانت الخطة الأصلية ولكن بعد هذه الرسالة بشهر قرر مهاجمة هرمز وأرسل لملك البرتغال رسالة بتاريخ ١٥١٤/١١/٢٧م يوضح أن هرمز فيها تجارة مزدهرة في مجال التوابل والأحصنة العربية وهناك إمكانية أخذ هذه التجارة منهم علاوة على قلة الموارد المتاحة له ومخاوف من عدم التمكن من دفع رواتب الجنود لأن الحملة إلى البحر الأحمر سوف تستغرق شهورًا.

شهدت هرمز تمرّدًا قبل وصوله، واحتلّ المتمرّدون القلعة البرتغاليَّة فيها من قبل قوّات فارسية. وعند وصول ألفونس أخمد هذا التمرّد بوحشية بالغة وعقد تحالفًا مع الشاه الإيراني الصفوي بعدها بدأ المرض الشديد في جسمه قبل أن يغادر هرمز. وقد عزله ملك البرتغال من جميع مناصبه العسكرية والمدنية. ثم غادر هرمز في ١٥١٥/١١/٨م عائدًا إلى (جوا) وهلك من هذا المرض ولم يحدث الإبحار إلى جدة ولكن ترك خطة متكاملة لغزو البحر الأحمر مع التركيز على احتلال جدة لأنها أصبحت المركز الرئيسي للمماليك في الدفاع عن البحر الأحمر[١].

(١) في رسالته الأخيرة عندما اقترب موته أرسل بتاريخ ١٥١٥/١٢/٦م رسالة إلى ملك البرتغال يوصيه فيه بابنه وأن يعطيه أعلى المناصب تقديرًا لخدماته ويفتخر بما حققه في الهند وإخضاع ملوكها لسلطان البرتغال. أبو شرب، ص ٢٢٧، مرجع سابق.

المحاولة الثالثة: غزو جدة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، بقيادة لوبو سواريز[١]:

● القائد البرتغالي لوبو سواريز

وهذه أكبر حملة برتغالية من ناحية إعداد السفن الرئيسية وإعداد المقاتلين، حيث شملت أربعين سفينة رئيسية وألفين وخمسمئة مقاتل مع تصور استراتيجي واضح لضرورة احتلال جدة على ضوء سقوط دولة المماليك وسيطرة العثمانيين على مصر والحجاز. وتورد المصادر البرتغالية تفاصيل هذه الحملة.

---

(١) لوبو سواريز ١٤٦٠-١٥٢٠م هو ثالث حاكم برتغالي للهند البرتغالية وخليفه القائد الأسطوري ألفونس دو البوكيرك في قيادة الأسطول إلى البحر الأحمر، وكان معه في رحلته إلى جدة سفراء الإمبراطور إلى ملك أثيوبيا.

National Museum of Ancient Art. Lisbon, Portugal.

كما جاء في توثيق [Barros] "رست السفن البرتغالية خارج مرفأ جدة لأن الدخول يتم من خلال ممر مائي متعرج ومزدحم بالصخور المرجانية، وكانت تعليمات القائد أن تكون السفن التي تسير بواسطة المجاديف في المقدمة والسفن الكبيرة في مدخل الميناء بطريقة تكون فيها مقدمة السفن نحو جدة".

كان الجرف الصخري يلامس الرصيف لدرجة أنه كان يصبح شاطئًا في فترات الجَزْر. وفي هذا الموقع وبعد ثلاثة أيام من وصول القائد شوهد رجل على اليابسة يلوّح بيديه. فأوفد القبطان رودريغيز في قارب صغير ليستطلع الأمر، وكان الرجل يجيد لغتنا ويحمل رسالة تحدّي وتهديد من سليمان ريس إلى سواريز وفيها من التبجّح الكثير مما عرف عن الأتراك، ويقترح فيها النزال في شكل قتال فردي أو قتال بين مجموعات مقاتلة لتفادي وقوع ضحايا بين الجانبين.

طلب كل من (جاسبار داسيلفا) و (ألفونس دي سينزيس) من القائد أن يمنحهما شرف خوض هذه المبارزة، فأوفد رسولًا إلى الرجل العربي ليبلغ سليمان أن لوبو سواريز سيحمل إليه الردود شخصيًّا على طلبه في اليابسة. في اليوم التالي أرسل القائد كلاًّ من داسيلفا ودي سينزيس على متن سفنهم لتفقد مدخل الميناء، وفي غضون ذلك تحرّك بقية القباطنة وأضرموا النيران في بعض السفن الراسية على مدخل الميناء مما أدى إلى اشتعال النيران في إحدى السفن التجارية الشراعية وأخرى حربية، أدى إضرام النيران إلى انتشار الهلع بين السكان وبدأوا في الرحيل عنها.

خطب سليمان ريس[١] في أهل جدة وقال: إلى أين ترحلون أصدقائي ومن تخشون؟ ألم تروا أن هؤلاء البرتغاليين موجودون منذ ثلاثة أيام على مدخل

(١) سليمان ريس من الشخصيات المهمة في تاريخ جدة وهو قبطان جاء من أراض بعيدة. ووفقًا للمصادر البرتغالية فإنه ولد في جزيرة (ستيلان) اليونانية من أصل وضيع وكان =

جدة ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا سوى أن يحرقوا هذه السفينة الشراعية دون مقاومة. ولو أرادوا القدوم إلى اليابسة لاستولوا على السفينة ولم يحرقوها، عودوا إلى دياركم فهم لن يقدروا على جدة.

وضع سليمان ريس خطة ذكية لرمي الرعب في قلوب المهاجمين اعتمادًا على جسارة السكان المدنيين؛ حيث نجح في تشكيل موكب من سكّان جدة الذين خرجوا حاملين البيارق ومشوا بمحاذاة أرصفة الميناء وهم يحدثون كثيرًا من الضوضاء والجلبة، وكان الموكب الجماهيري يخرج من باب ويدخل من

= تركي الجنسية ويعمل نجّارًا. صنع لنفسه مركبًا وعمل في القرصنة لهذا طرد من تركيا تلاحقه عدد من اتهامات السرقة والإجرام. توجه إلى ساحل صقلية وأصبح لديه ثمان سفن، وكسب معارك بحرية كثيرة وازدادت أهميته حتى سيطر على ساحل (آبولي) وهو مقاطعة من إيطاليا القديمة.

كان سليمان ريس لا يكنّ الود للسلاطين العثمانيين، وقرّر أن يعمل لحساب السلطان المملوكي. وتوطّدت العلاقة مع السلطان قانصوه عندما علم أنه بصدد إعداد أسطول ضخم للعودة إلى الهند. وعلى إثرها أبحر بسفنه إلى الإسكندرية واثقًا من نفسه وانتصاراته، وأن قانصوه سوف يجعله قائدًا للأسطول.

على الرغم من أن السلطان سبق وأن وعد حسين الكردي أن يكون قائدًا لهذا الأسطول العظيم إلا أن سليمان ريس أصبح القائد ويساعده الأمير حسين الكردي، وتحرك الأسطول الضخم في ٩٢١هـ/١٥١٥م بعد أن خطب فيهم السلطان قانصوه الغوري.

كان سليمان ريس يعرف باسم سليمان الرومي وسليمان العثماني وتقول بعض المصادر أنه خدم في الترسانة التركية وكان مسؤولًا عن تدريب الضباط المصريين على البحرية.

John Francis Guilmartin, Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the 16th Century, Novel Inst. Press 2004, p 27-29.

باب آخر، وتسلق البعض أسوار المدينة وكانوا يطلقون الصرخات العالية التي تصل إلى أسماع البرتغاليين من مسافة فرسخ. «أطلقت الحامية قذائف مدفعية تبلغ كراتها المقذوفة بحجم الرأس البشري وكانت تنفجر بين سفننا ولكنها لم تحدث ضررًا».

شنت الرياح هجومًا على الأسطول، فشتت السفن وأصبح من المستحيل السيطرة على القطع البحرية مع استمرار الزوابع والرياح، الأمر الذي دعا القائد العام سواريز أن يعقد مجلس الحرب على سفينته وأقرّ الجميع صعوبة المهمة على ما لمس الجميع من التحصينات والمقاومة التي أبداها الأهالي وتنظيمهم مع الرياح الهوجاء جعلت المهمة مستحيلة. قرّر مجلس الحرب صرف النظر عن احتلال جدة والانسحاب من قبالة ساحل جدة والعودة إلى جزيرة كمران[1].

في رسالة تفصيلية إلى ملك البرتغال من دي سينزيس يوثق ويصف ما صادف الأسطول من صعاب حيث قال: «أنه يكثر قبالة ميناء جدة المنخفضات والحواجز مما حال دون اقتراب سفننا منه، وأيضًا كان مستوى المياه في القناة التي توصل السفن إلى المرسى منخفضًا، وعندما ذهب القباطنة لإحراق السفن الراسية لم يصلوا إلا بعد جهد جهيد وتورطت مراكبهم في مناطق كان مستوى المياه منخفضًا.

جدة محاطة من جهة البر بسور عالي به أبواب تصل المدينة بالبحر، ولديهم أبراج شيّدوها في أقسام من السور كلفوا بها محاربين متمرسين ومعهم مدافع كثيرة. طبيعة الميناء وتنظيم المقاومة اقتضى أن يستخدم الأسطول القوارب الصغيرة لإنزال المحاربين وفي هذا مخاطرة كبيرة بحياة الرّجال وبمصير دولة الهند كلها».

(1) Joao De Barros, Da Asia, Dos Feitos..., op.cit, Page 22-27.

علمت المقاومة في جدة مبكّرًا بقدوم البرتغاليين واستعدّوا بإصلاح المدافع وبناء التحصينات والتموضع الجيد لقواربهم وتنظيم إشرافهم على الميناء. وساهمت العواصف والرياح في شكل فعّال في إفشال الحملة في أن تصل إلى أهدافها؛ حيث ساهم سوء الأحوال الجويّة في بعثرة السفن واتجاهاتها[١].

وثقت الوثائق العثمانية في خطاب سليمان ريس إلى السلطان ما حدث في رسالته بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وهذا نصها: «إني أقبل تراب قدمكم الطاهر ومن أجل تطبيق الأمر فقد رفعت إلى عتبة الدولة أنا الشخص المسمى سليمان ريس موجزًا بأحوالنا. خرجت إلى أرض الحرب في ميناء جدة وقد حضرت وقت العصر اثنتان وثلاثون سفينة أرادت الدخول عنوة إلى الميناء ودخلنا إلى مكان فسيح لاستطلاع الأخبار، قبل هذا وصلت سفن أسطول الشخص المدعو تركي يوسف المكون من خمس وعشرين قطعة. وفي اليوم الثاني أرسلنا إلى الشريف أبو البركات مكتوبًا ورقيًّا ولكنّ الشريف كان قد غادر جدة وأسلم حكم جدة إلى أخيه وأفراد آخرين ووصل إلى رؤوس الجبال».

«عندنا في معيّتنا ستمئة من البحّارة المغاربة والعثمانيين وهو عدد قليل جدًّا خاصة وأن هذا البلد (جدة) في حالة يرثى لها، فقبل أن يظهر البرتغاليون كانوا يبيعون قربة القمح بعشرين أشرفيًّا وعندما علم القوم بقدوم الغزاة البرتغاليين ارتفع السعر يومًا بعد يوم حتى وصل إلى مئة أشرفي».

«لقد حدث بحكمة الله أن هبت عاصفة على ميناء جدة وفقدوا فيها سفنهم وتشتت شملهم».

كتب سليمان ريس على هامش الوثيقة بعض السطور جاء فيها: «لقد كتبنا هذا الخطاب عندما يأتي الكفار اليوم واليوم الذي بعده بتاريخ السادس

---

(١) أحمد أبو شرب، الخليج العربي...، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

والعشرين من ربيع الأول وفعلًا جاء الكفار اليوم إلى ميناء جدة. دافعنا عن الميناء وأطلقنا عليهم المدافع وأجبرناهم على الخروج من الميناء ولم يعرف الكفّار إلى أين يذهبون وقد ثارت عليهم الرياح. جاء شخص كان محبوسًا عندهم وقال إن الكفار قبل قدومهم إلى جدة ذهبوا إلى حاكم عدن الذي أكرمهم وقال لهم أسرعوا بالذهاب إلى جدة واستولوا عليها إنها فارغة الآن وأرسل مع الكفار أربعة مرشدين أوصلوهم إلى ميناء جدة»[١].

عند انسحاب الأسطول البرتغالي تتبع سليمان الريس سفن الأسطول عند ميناء اللحية واستطاع أسر أحد سفنهم بعد أن ضربها بالمدافع وكان عليها سبعة عشر جنديًّا برتغاليًّا أخذهم أسرى إلى جدة ثم أرسلهم لاحقًا إلى القاهرة ومنها إلى سلطان الترك. وقد جاء في قلادة النحر أن البرتغاليين رسوا في بندر جدة وبها الأمير سلمان في جمع من الترك وغيرهم، وكانوا قد علموا بمسيرهم إلى جدة فاستعدّوا لقتالهم فلم ينزل أحد من الإفرنج إلى ساحل جدة. بل قصدهم الأمير سليمان إلى البندر فلما قرب منهم رماهم بالمدافع فأتلف عليهم من مراكبهم مركبين أو ثلاثة.

رحلة العودة لهذا الأسطول كانت فاشلة أيضًا حيث حاولوا السيطرة على عدن وفشلوا في ذلك. واتجهوا إلى الجانب الأفريقي من البحر الأحمر وأحرقوا زيلع وهبّت الرياح الهوجاء مرة أخرى على الأسطول مما أدى إلى أن تجنح سفينة كبيرة رئيسية وتحطّمت وقتل مئات البحارة على متنها[٢].

---

(١) رقم الوثيقة في طوب كابي [TSMA.E.0858].

(٢) أبو محمد الطيب بامخرمة، قلادة النحر في وفيّات أعيان الدّهر، تحقيق: بو جمعة فكري، خالد زواري، دار المنهاج – جدة ٢٠٠٨م، ج الثامن، ص ٥٨٤-٥٨٥.

انظر أيضًا عن هذه الحملة: =

لخّص المؤرخ البرتغالي جيرنمو أوسـوريز الحملة بأنها فشـل ذريع في كل شـيء «وبعـودة القائـد إلى هرمز فإنه بعد أن فشـل في تأسـيس حصـن برتغالي فـي عـدن وفشـل فـي أن يحارب في جدة وفشـل في إيصـال السـفير البرتغالي والبعثة الدبلوماسية إلى الحبشة كما هي أوامر الملك. عاد ومعه الجنود جوعى ومرضى ويعانون من العش وألقاهم على الساحل»[1].

المحاولة الرابعة: غزو جدة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م:

● القائد البرتغالي ديوجو لوبيز دي سكويرا

= Gobor Agoston, Guns for The Sultan: Military Power and Weapons Industry In The Ottman Empire, Cambridge University Press 2055, P 80-120.

(1) Jeronimo Osorio, Da Vida E Feitos De El Rai, Ed. J. Ferreita Porto 1944. II, P200.

قاد هذه الحملة نائب ملك البرتغال على الهند ديوجو لوبيز دي سكويرا[١] وقد جاءت هذه الحملة بعد فترة طويلة من الحصار الاقتصادي على البحر الأحمر عمومًا وجدة على وجه الخصوص ومع ذلك ظهرت أهمّية جدة لدى الدولة العثمانية التي اعتبرتها نقطة التحكم في مساحات شاسعة من الإقليم ومركزًا للحكم[٢].

لم تستمر هذه الغزوة في الوصول إلى جدة وتدميرها كما كان مرسومًا لها وذلك لسببين رئيسين :

- **الاستعدادات العسكرية المنظمة في جدة، وقد وردت الأنباء إلى القائد أن هناك جهودًا عسكرية وأعدادًا من العساكر الموريين في جدة بانتظار الحملة البرتغالية.**
- **قامت الدولة العثمانية بنشر قوات عسكرية وسفن حربية مجهّزة مقابل بعض المستعمرات البرتغالية والموانئ الموجودة تحت سيطرتهم وتولدت لديهم خشية من أن العثمانيين ينتظرون الهجوم على جدة ليهاجموا هذه الموانئ والمدن.**

هذه الأسباب كانت الدافع الرئيسي لأن يصرف القائد النظر عن مهاجمة جدة وأن يكتفي بتنفيذ جزء مهم من توجيهات ملك البرتغال وهو إيصال البعثة الدبلوماسية إلى الحبشة بعد أن فشلت الحملة في انسحابها السريع من أن تفعل ذلك وقررت قيادة الأسطول إعطاء هذا الأمر أولوية وعادوا إلى بلادهم[٣].

---

(١) ديوجو لوبيز دي سكويرا ١٤٦٥-١٥٣٠م مستكشف وقائد عسكري برتغالي مرموق عين حاكمًا للهند البرتغالية (١٥١٨-١٥٢٢) قاد الأسطول البرتغالي إلى البحر بغرض تدمير جدة. National Museum of Ancient Art. Lisbon, Portugal.

(2) Clifford Bosworth, Historic Cities of The Islamic World, Brill Academic Publisher 2007, P 308.

(3) Pesce, Jeddah Portrail..., op.cit, P 88.

جاء في قلادة النحر: «أما الإفرنج فإنهم توجهوا إلى جدة فلما كانوا بالقرب منها علموا أن في جدة عسكرًا كثيفًا من الترك والأورام والمغاربة وغيرهم فعادوا إلى مصوع وأقاموا بها ثم رجعوا من حيث جاءوا فوصلوا بندر عدن شهر رجب ٩٢٦هـ/١٥٢٠م فأمرهم الأمير مرجان بالماء والزواد واتجهوا إلى هرمز»[١].

وقد ذكرها صاحب تاريخ الشمر: «وفيها وصل الإفرنج في نيف وعشرين خشبة ما بين غراب وغليون وبرشة، وفيها برشة كبيرة بها غالب زوادهم ومدافعه فغلط معلمهم ووقعوا في ريح أزيب فغرقت عليهم البرشة الكبيرة فحملوا ما خفّ منها وتوجّهوا بزعمهم إلى جدة».

«لما كانوا بالقرب من جدة علموا أن بها عسكرًا كثيرًا من الترك والأورام والمغاربة وغيرهم فأدخلهم الفشل والخذلان فعادوا إلى دهلك وصاروا بها إلى أن رد الشمال ثم رجعوا من حيث جاءوا فوصلوا إلى بندر عدن واستفك منهم الأمير مرجان بعض الأسارى وعزموا إلى هرمز»[٢].

الغزوات البرتغالية الأربع على جدة انكسرت لأسباب مختلفة لكل غزوة، من المهم أن نضع هذه الغزوات في الإطار الأوسع؛ حيث إنها كانت جزءًا من استراتيجية متكاملة، صليبية - اقتصادية طورها القائد ألفونس دوالبوكيرك منذ أن بدأ عملياته الحربية في الهند وإقامة المراكز التجارية على ساحل الهند ابتداء من عام ١٥٠٦م وبعد أن نجح في إبعاد العرب والمسلمين عن التجارة مع الهند حيث اعتبر ذلك واجبًا دينيًّا وقال: «الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله

(١) محمد عبد العال أحمد، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه، الهيئة المصرية للكتاب – الإسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢١٧.

(٢) محمد عمر بافقيه، تاريخ الشمر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد – صنعاء، ص ١٣٣-١٣٤.

بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة محمد بحيث لا يندلع لها لهيب بعد ذلك» وقال إنَّ السيطرة على سنغافورة حاليًّا (ملقا) سوف تتحول القاهرة ومكة إلى دمار لأن تجارة البندقية سوف تتحول عنها[١]. وقد عمل بشكل ممنهج على إيقاف التجارة من الهند إلى مصر وجدة لكي يتوجهوا إلى لشبونة لشراء البضائع ويتم إعادة التصدير من هناك.

وقد سبق وأن ذكرنا ما قاله ابن إياس في حوادث ٩٢٠هـ/١٥١٤م من الدمار الذي لحق بندر الإسكندرية وبندر جدة من تعبث الإفرنج على التجار في بحر الهند فلم تدخل البضائع إلى بندر جدة نحوًا من ست سنين.

استراتيجية تدمير جدة ومكة وتجفيف منابع النيل هي الخطط التي وضعها بعد أن أصبح نائب الملك في الهند سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م.

استمرت جدة صامدة بعد كل هذا الحصار والهجمات، ويكتب البوكيرك قبل وفاته إلى ملك البرتغال معتذرًا أنه لم يستطع إغلاق البحر الأحمر أمام الملاحة البحرية في معرض تقديم المبررات لوصول البهارات من كاليكوت بعشرين سفينة إلى جدة ومنها إلى مكة. وفي رسالة أخرى يصف حال جدة أنها مستمرة في توزيع ما يجلب إليها من قوات من زيلع وبربرة ودهلك ومصوع[٢].

أعمق التفسيرات قدمها المؤرخ البرتغالي دي كستينيوا من أن موقع جدة الجغرافي يجعلها في منتصف المسافة على البحر الأحمر بين باب المندب والسويس ولهذا أصبحت قبلة السفن المحملة بسلع الهند القاصدة القاهرة والإسكندرية وفي الاتجاه الآخر أي سلع تشحنها مصر إلى الهند، وهذا ما يعرف بتجارة الترانزيت في العصور الحديثة، وأن جدة مفتاح للتجارة الوسيطة

(١) باينكار، آسيا والسيطرة الغربية...، مرجع سابق، ص ٤٧-٤٨.
(٢) أحمد أبو شرب، الخليج العربي...، مرجع سابق، صفحات متفرقة.

بين الهند والدول العربية[١].

الأهمية المكانية وسيطرة الجغرافيا مكّنت جدة من أن تنتصر على أعتى الإمبراطوريات واستمرّت في تأدية دورها التجاري وصناعة الحياة والازدهار استنادًا على طبيعة أهلها ودورهم التجاري والحضاري.

وكان كل هذا الهجوم دافعًا للدولة العثمانية في السعي إلى جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية حماية لجدة والأماكن المقدسة من ورائها وأيضًا السعي من قبل العثمانيين إلى ضم كل من مصر واليمن والحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية لتوفير حماية أكبر لهذه البلاد.

وهذا يقدم الخلفية التاريخية والفهم الأعمق لعلاقة الهجمة البرتغالية الأخيرة على جدة وهم في طريقهم إلى السويس في العام ٩٤٧هـ/١٥٤٠م والأسباب الداعية إلى ذلك.

وكانت البداية بحملة عثمانية على البرتغاليين تعرف باسم حملة سليمان الخادم.

حملة سليمان الخادم[٢]:

أنشأ السلطان سليم ترسانة بحرية في السويس وجعلها قاعدة للعمليات العسكرية في البحر ضد البرتغاليين لحماية البحر الأحمر وجعله بحيرة إسلامية، وكذلك لتأمين طرق الحج إلى مكة.

---

(1) Fernao De Castanheda, Historia De Descobrmento Conquista Da India Pelos Portugueses, Porto, Lello Ed 1979, P 886-888.

(٢) سليمان الخادم من القادة العثمانيين الذين لعبوا دورًا مهمًّا في فترة عدد من السلاطين آخرهم سليمان القانوني وكان والي مصر في الفترة من ١٥٢٥م إلى ١٥٣٨م وعيّنه السلطان صدرًا أعظم بعد عزله من ولاية مصر عندما قام بهذه الحملة كان في الثمانين من عمره.

لم يكن سهلًا على العثمانيين بناء أسطول لمواجهة البرتغاليين لأنهم تعوّدوا على بناء السفن لتناسب البحر الأبيض المتوسط وليس المحيطات بالإضافة إلى عدم توفر الأخشاب اللازمة ومستلزمات بناء السفن في السويس وأصحاب المهارات، وتغلب العثمانيون على هذه العقبات تباعًا حتى أنهم سخروا البحارة الأسرى من معارك البندقية لبناء السفن الضخمة. واستطاعوا أن يخرجوا بعض الحملات المذكورة في المراجع البرتغالية ومنها حملة بقيادة الأمير مصطفى وهو ابن أخت سليمان باشا في العام ١٥٣١م وحققت النجاح في الاشتباك مع البرتغاليين على شاطئ الهند وحملة ثانية إلى اليمن في ١٥٣٥م ولكن الحملة الرئيسية كانت في العام ١٥٣٨م بتكليف من السلطان إلى حاكم مصر[١].

حملة ١٥٣٨م المعروفة تاريخيًّا باسم حملة سليمان الخادم، كانت حربًا جهادية لغزو الهند وإنهاء الوجود العسكري البرتغالي بها وفي الطريق البحري المؤدي إلى مكة وتحرك أسطول مهيب من عدد كبير من السفن الحربية الكبيرة المزودة بالمدافع الحديثة والآلاف من المقاتلين وجاءت استجابة لمصرع حاكم كجرات المسلم «بهادر شاه» غيلة من البرتغاليين واستغاثة من بعده وأيضًا لإعادة فتح طرق التجارة القديمة التي استبدلها البرتغاليون بهدف إنعاش تجارة مصر والشام والمشرق العربي الذي أصبح يدين بالولاء للسلطان العثماني.

توقفت الحملة في جدة وقد وصفها النهروالي: "ذكر توجه سليمان باشا الخادم من مصر إلى السويس ووصوله من البحر إلى جدة: وبعد تسلم داود باشا البلاد من سليمان الخادم سافر إلى السويس وركب البحر فسخر الله له الريح كما سخر له مردة الأنس من ذلك العسكر الفسيح فوصل إلى بندر

(١) محمد فريد بك المحامي، (تاريخ الدولة العلية العثمانية)، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس ١٩٨١م، ص ٢٣٩-٢٤٢.

جدة بعد سبعة أيام مع عساكره وجيوشه فأهال أهل جدة ما رأوا من الأجناد واضطربت لخشيته البلاد غير أنه ضبط العسكر أقوى ضبط ولم ينزل هو ولم يمكّن أحدًا من عسكره من النزول وطلع إليه جماعة مولانا الشريف وهم يرتعدون فرقًا وينتفضون خوفًا فتلقاهم بالإكرام وألبسهم الخلع والتشاريف ومضى عنهم شاكرًا حميدًا"[١].

توجّه الأسطول إلى عدن ورحب بهم حاكمها عامر الطاهري عندما عرف بالهدف الإسلامي النبيل للحملة ولكن سليمان الخادم قتله غدرًا واستباح عدن واعتبر ذلك فتحًا وعيّن عليها سنجق وكان تعامله مع السكان فيه الكثير من القسوة وطارت أخبار غدره وقسوته إلى الهند وعندما وصل إلى ظفر آباد تخوّف منه أهل البلاد ولم يعجبه مظهر المبعوث الهندي ولم يحسن استقباله، وبناء عليه رفض السلطان محمود بن بهادر شاه هديته لأنها ليست من السلطان سليمان القانوني نفسه، فغضب سليمان الخادم وأضمر الانتقام. احتال السلطان محمود بحيلة ليخيفه بهول حشود الفرنج له حيث أوقع في يد سليمان باشا رسالة مزورة تذكر أن البرتغاليين يحشدون له فخاف سليمان باشا وترك مدافعه الكبيرة تحت تصرف صاحب ظفر أباد وحاصر القلعة في ديو لشهر كامل وفشل في اقتحامها وكانت آخر عمل له قبل أن يعود إلى اليمن بعد أن أدرك أنه فشل في تكوين جبهة إسلامية موحدة ضد البرتغاليين بسبب سوء تصرفاته وغدره. حيث أضرت أعماله بسمعة العثمانيين عمومًا وأنهم ليسوا بأقل سوءًا من البرتغاليين، واتفقت بعض القبائل في اليمن مع البرتغاليين ضد العثمانيين. وفي طريق العودة أخذ معه ثمانين أسيرًا برتغاليًّا وهنديًّا، أرسل رؤوس بعضهم

(١) النهروالي، البرق اليماني، مرجع سابق، ص ٨٧، توجد روايات أخرى أنه هدد الأشراف وحصل منهم على مبالغ مالية كبيرة.

إلى السلطان العثماني ليوحي إليه بنجاح مهمته. عندما وصل إلى مخا في اليمن ٩٤٥هـ/١٥٣٨م غدر بصاحبها الناخوذة أحمد بعد أن أمّنه وعيّن مكانه ابن أخته مصطفى بك وأرسل إلى السلطان يبشره بفتح اليمن[١].

فأرسل له السلطان العثماني: "لم أرسلك إلا من أجل طرد الفرنجة من ديو ومساعدة أميرها وليس من أجل الاستبداد بالمسلمين في الهند ولا من أجل أن تفعل ما فعلته في زبيد ولا أن تسلك كما سلكت مع عامر بن داود حاكم عدن"[٢].

انتهت هذه الحملة إلى استفزاز البرتغاليين بوصول الأساطيل إليهم في الهند ومن هنا جاء الردّ بحملة مضادّة.

(1) Gabor Agoston, Guns for the Sultan: Military Power and The Weapons Industry in The Ottoman Empire, Cambridge University Press 2005, P 80-82.

(٢) وردت في محمود عبد الله الغزلاني، الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي، في مرجع سابق الجزيرة العربية في القرن العاشر الهجري، مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٤١هـ، سجل الندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ص ٣٤٤.

حملة السويس ١٥٤١م:

● القائد البرتغالي استيفادو دي جاما

جهّز البرتغاليون حملة رئيسية من ثمانين سفينة بقيادة الابن الثاني للمستكشف فاسكو دي جاما واسمه استيفادو دي جاما[١] ويساعده جوا دي كاستروا والذي أصبح لاحقًا نائب الملك في الهند وقد كان كاستروا مسؤولًا عن وضع الخرائط الجغرافية للبحر الأحمر وكانت أعمالًا رائدة في هذا المجال من الناحية العلمية.

---

(١) استيفادو دي جاما ١٥٠٥-١٥٧٦م شغل منصب الحاكم البرتغالي لساحل الذهب البرتغالي ١٥٢٩-١٥٣٥م والهند البرتغالية ١٥٤٠-١٥٤٢م وسمي على اسم جدة.
Don Juan de Castro, The Voyage of Don S. de Gama from Boa to Suez in 1540, Volume 6, Chapter 3. National Museum of Ancient Art. Lisbon, Portugal.

الهدف الرئيسي لهذه الحملة أن يثبت البرتغاليون للعثمانيين وللعالم أنهم سادة البحار القادرين على الوصول إلى شمال البحر وتدمير الموانئ الإسلامية بالقصف المدفعي وغيره حتى لا تخرج منها حملات أخرى إلى الهند. والأهداف المعينة لهذه الحملة بصورة أكثر تحديدًا هي:

١. **تدمير الأسطول العثماني في السويس وكذلك تدمير ترسانة بناء السفن فيها بشكل مفاجئ وتام.**
٢. **إعداد خريطة تفصيلية للكشوفات الجغرافية للبحر الأحمر والموانئ الرئيسية فيه. وقد نجحت فعلًا في إنتاج ما يعرف باسم [Roteiro Do Mar Roxo].**
٣. **شن الهجمات وقصف الموانئ على البحر الأحمر.**

نظرًا للأهمية التاريخية والعلمية لهذه الحملة فقد وثقت المصادر البرتغالية والأوروبيّة المعارك المرتبطة بها ومتى وأين نزل المقاتلون إلى اليابسة والموانئ التي اكتفوا بقصفها من البحر مثل جدة.

ويلاحظ انتفاء الأهداف الصليبية التي وصفها ألفونس دوالبوكيرك قبل الهجمات الأربع السابقة مثل تدمير جدة ومكة واستبدالها بأهداف جديدة.

في نص بافقيه: "سنة ٩٤٧هـ (١٥٤٠م)، وفيها خرج المخذول الإفرنجي في نحو سبعين خشبة صغيرة وكبيرة من جوا إلى السويس يريدون حرق العمارة، فسمعوا أن عندها عسكرًا فرجعوا إلى دهلك فنهبها وأهلك أهلها، أما سواكن فقد صالح أهلها... فلما دخل تجهيز الإفرنج الطور وقف بها خمسة أيام صرا يبغي السويس"[١] وكان هذا ملخصًا سريعًا للحملة ويقول في نص آخر

(١) محمد عمر بافقيه، تاريخ الشمر ...، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

"بينما نحن في جدة وصلتنا أخبار أن الفرنجة قد مروا من ميناء عدن وأطلقوا عليه مدافعهم ثم واصلوا مسيرهم باتجاه سواكن ودهلك وقاموا بقتل البحارة المسلمين وكانوا ثلاثمئة أو يزيد ونهبت بضائعهم وسلعهم كاملة"[١].

الوضع في جدة يختلف، وقد ترك لنا الفاكهي نصًّا يوصِّف الحالة في جدة من كتابه (مناهج السرور والرشاد): "أنه لما حدث في ذي القعدة من عام سبعة وأربعين وتسعمائة أرجاف وخرق عظيم وخطب مدلهم ليلهُ بهيم، كاد أن تنحل به عروة الإسلام الوثقى وتتسور بسببه الكفرة على حمى بيت الله وترقى، كيف وقد قربوا من ثغر جدة حتى صاروا منه على نحو يوم وليلة على فجأة، مع غاية من العُدد، والعُدد لولا نصرة الله لدينه التي لا تفتقر لحيلة، حتى تقهقر من ذلك الأمر أوفر الأجناد لما حلّ بهم من الخوف الذي كاد أن يقطع نياط القلوب والأكباد، ولا زال هذا الرجيف يتعاظم في القلوب ويترادف على أهل الحجاز بسببه مدلهمات الكروب، حتى تعطلت معايشهم من الوجل لما عظم عليهم من هذا الأمر وجل، وأعلنوا بالقنوت لتلك النازلة العظيمة في سائر الصلوات، وجأروا إلى الله بالبكاء، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وسالت العبرات من أودية المحاجر، ورجفت قلوب كثير منهم ظنًّا أن لا ملجأ من هذا الكافر اللعين سيما لما أن حج الحجيج أوائل ذي الحجة واجتمع منه ما لا يوجد مثله في كل حجة عددًا وعُددًا وكثرة، ومازال الأمر يشتد ويتفاقم وأخبار اللعين تظهر وتتعاظم، والناس بعرفات والناس في أمر مريج خصوصًا وقد أيسوا من نصرة الأجناد والحجيج"[٢].

---

(1) R.B. Serjeant, The Portuguese Off the South Arabian Coast, Clarendon Press 1963, P 98.

(٢) عبد القادر الفاكهي، مناهج السرور والرشاد في الرمي والسباق، تحقيق: أحمد الشوكي، عباس زواش، دار جداول – بيروت ٢٠١٦م، صفحات متفرقة.

قصفت الحملة البرتغالية ميناء جدة من البحر ولم يتمكنوا من الرسوّ في الميناء لازدحامه بسفن الحجاج المتوقفة انتظارًا لانتهاء موسم الحج والعودة بالحجاج إلى بلادهم، ولم ينزلوا لأن هدف الحملة كان السويس وليس جدة.

الاشتباكات الفعلية لهذه الحملة على الأرض كانت وفقًا للمصادر البرتغالية والأوروبية في الجهة المقابلة من البحر الأحمر على أراضي الحبشة أو ما يعرف باسم [Abyssinia] وهو الاسم القديم لأرض الحبشة والقرن الأفريقي، وهذا يتفق مع نص بافقيه الذي ذكر: "تحريره الإفرنجي الذي وصل السويس وأنهم لما دخلوا دهلك طلعوا إلى بر الحبشة خمسمئة إفرنجي معونة لملك الحبشة الحطي لما غلب عليه الإمام المجاهد أحمد بن إبراهيم الماخض وملك جميع الحبشة وملك بعض من أولاده أيضًا. فاستغاث بالإفرنج فخرجوا له وطلعوا بعددهم كاملًا واجتمع إليهم النصارى أهل الحبشة وقاتلوا المجاهد مجتمعين. وتعب المجاهد تعبًا عظيمًا فأرسل الإمام المجاهد إلى زبيد يطلب من الباشا مصطفى نشار الرومي (العثماني) فأمدّه بخمسمئة رومي (تركي) فطلعوا معه من ساحل بيلول فقاتلوا معه الإفرنج ونصرهم الله"[١].

"الإمام المجاهد كان يحكم منطقة عدل وهي منطقة إسلامية، وبعد النصر دخل جماعة من الأورام (الترك) خيمة الإمام وقالوا نبغي هذه الساعة عشرة آلاف أوقية ذهب وإلا قتلناك، فأجابهم بأحسن جواب وأعطاهم ما طلبوا وسرحهم وطلب من القرى التي يمرون فيها أن لا يقع شيء عليهم وأعطاهم الزاد والدليل حتى خرجوا إلى ساحل بيلول وسافروا إلى «زبيد». وهكذا غادر الجنود العثمانيون أرض الحبشة. وتجدد القتال بعد أن أمد البرتغاليون حلفاءهم على الأرض بخمسة (غربان) واستطاعوا هزيمة الإمام المجاهد الذي استشهد

(١) محمد عمر بافقيه، تاريخ شمر...، مرجع سابق، ص ٢٧٩-٢٨٢.

وأبادوا المسلمين في تلك المناطق على عادتهم الدموية بقتل النساء والأطفال والمدنيين"[١].

الاشتباكات العسكرية في أبو الدوائر أو الجهة المقابلة من البحر الأحمر لمدينة جدة لم تكن وليدة اللحظة ولكنها حلقة من مسلسل المواجهات الإسلامية المسيحية منذ عشرات السنين في تلك المناطق. منذ أن ظهرت الأساطيل البرتغالية في البحر الأحمر تحالفت دولة الحبشة المسيحية معهم وفي المقابل فإن الممالك الإسلامية على شواطئ البحر الأحمر في الحبشة والصومال حاليًا تحالفت مع الدولة العثمانية الإسلامية الذين زودوا في المساعدات مع تنامي الخطر البرتغالي بصورة خاصة لحاكم مملكة هرر الإسلامية الذي يدعى أحمد بن إبراهيم ويلقب بالإمام واستطاع أن يجمع كلمة مسلمي الحبشة تحت رايته وأصبحت حروبه جهادًا إسلاميًا.

ارتفعت وتيرة المصادمات العسكرية على أرض الحبشة بعد أن تولى الإمبراطور «كلاوديوس» أمر الحبشة وطلب الدعم العسكري البرتغالي ضد مملكة «هرر» وفي المقابل طلب الإمام أحمد القرين الدعم العثماني الذي وصله من والي «زبيد» التركي وحقق انتصارات مذهلة في البداية وقتل القائد البرتغالي كريستوفر دي غاما في ١٥٤٢م ولكن انتقام البرتغاليين كان سريعًا وانتهت مملكة هرر الإسلامية تمامًا بعد معركة أبو الدوائر وما تلاها[٢].

وبالعودة إلى الغارة على جدة، فإن النصوص توثق دور الشريف أبا نمي الذي غادر مكة وجاء في شجاعة منقطعة لحماية جدة التي تركها العثمانيون

---

(1) Angelo Pesce, Jeddah..., op.cit, Page 89.

(٢) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية والأفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٢٦-١٢٨.

بـدون حاميـة ولا حماية. يقول الفاكهي "منّ الله على الناس - لنصرة هذا الدين وأذن لـه فـي خـذلان أولئـك الملاعيـن - نجم الدنيـا والدين الشـريف محمد أبا نمي بن بركات، وقد بذل فيها نفسه وأمواله الجزيلة حتى تكاملت لديه آلات الحرب وحق له كشف ما حل بالناس من مدلهمات الوجل والكرب، فسار إلى ثغر جدة بخيله ورجله وهنّنه وطله وبنيه وأهله، فدخل على أبهة الملك والقوة وعظم المزية في الشجاعة والفتوّة، فصار الثغر المذكور مبتسمًا، ولم يجر هذا الملك المجيد والنجم السـعيد على عادة الملوك تفويض ذلك لِغيره بل باشـره بنظره السـديد وحسـن التدبير، ثم لا زال يدأب في تقوية هذا الثغر حتى صيّره أحسن الثغور"[١].

يوضـح نـص الفاكهي أنه لم تحدث معارك وهذا هو الصحيح؛ حيث خرج أهالـي جـدة ومكة والقبائل تحـت راية الشـريف، وكان هذا دافعًـا للبرتغاليين أن يدركـوا أن جـدة محصنـة بالمقاتلين. ولديهم خبرة سـابقة أن الطبيعة المائية للميناء لا تسـمح لسـفنهم الكبيرة بالاقتراب وعندما حاولوا اسـتخدام القوارب وجدوا صعوبات ذكروها في رسائلهم إلى ملك البرتغال وذكرت في مكان آخر من الكتاب في الحملات السابقة.

توجـد نصـوص أخـرى مثـل الإتحـاف «للسـمرقندي» المدنـي ونقـل منه «السـنجاري» ثـم نقـل منه «زيـن الديـن دحلان» تقريبًا بنفس الكلمـات، وهذا مثال صارخ على ظاهرة (الميت يقبض على الحي) حيث يهيمن المؤرخ السابق علـى اللاحـق بدون تمحيص وبدون فحص، ومما قالوا: "من مناقب الشـريف أبي نمي قتاله الإفرنج وذلك أنه في سنة تسعمئة وثماني وأربعين خرجت طائفة عظيمة من الإفرنج خربت غالب البنادر ثم قصدوا جدة في أواخر السنة ونزلوا

(١) عبد القادر الفاكهي، مناهج السرور والرشاد...، مرجع سابق.

المرسى المعروف أبي الدوائر[١] في خمسٍ وثمانين برشة مشحونة بالسلاح والرجال، فقاتلهم مولانا الشريف بنفسه وترك الحج ونزل إلى جدة في جيش

---

(١) أبو الدوائر، الموقع الذي حدثت فيه الاشتباكات العسكرية، أجمعت المصادر البرتغالية أنه في أفريقيا، المصادر العربية توضح ذلك في العديد من المراجع إما بذكره صراحة أو بوصف طبيعته الخلابة النادرة تحدده في أفريقيا، وأهم من وثّق وجوده في أفريقيا:

ⓐ في توثيق حياة ووفاة الفقيه نجم الدين موسى الكناني المعروف باسم القمرواي، ومولد القمراوي سنة إحدى وتسعين وخمسمئة تقديرًا، وتوفي راجعًا من اليمن بموضع يقال له رأس دواير بين عيذاب وسواكن، كما جاء في كتاب وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٣٣٤.

ⓑ رحلة ابن بطوطة (ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك، ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن، ونزلنا به وفيه كثير من قشور بيض النعام)، ويقدم وصف للبيئة والأسماك فيه والغزلان والحياة البدائية فيه، ثم يذكر ابن بطوطة في موقع آخر: ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح إلى مرسى يعرف برأس دوائر، ص ١٩٨. رحلة ابن بطوطة، مؤسسة هنداوي نسخة إليكترونية، ٢٠٢٠م، ص ١٧٣-١٧٤.

ⓒ ورد في معجم المشاريع الحسينية ذكر مرسى رأس دوائر التي تسمى اليوم (درور) ويقع المرسى على ساحل البحر الأحمر ما بين عيذاب وسواكن وهو تقريبًا يوازي جدة من الجهة الأخرى من البحر. كما ورد في كتاب العمارية: قصة حي من ذاكرة جدّة، للأستاذ خالد صلاح أبو الجدائل، كنوز المعرفة، جدة، ٢٠٢٣م، ص ٤٠.

ⓓ ابن حوقل - عاش في القرن العاشر الميلادي - في كتابه صورة الأرض، ص ٤٨، وإذا أخذت من أرض القلزم من جانب البحر الغربي على ساحله سرت في مفاوز من حدود مصر حتى تنتهي إلى جزائر تعرف ببني حدان، وبين سواكن وعيذاب سنجلة جزيرة بين رأس جبل داوي وجبل ابن جرشم راس دواير وبها مفاص للؤلؤ ويقصد في كل حين بالزاد وبينها وبين جدة يوم واحد. ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٤٨. =

عظيـم بعـد أن أمـر بالنـداء في مكة من صحبنـا فله أجر الجهـاد وعلينا السلاح والنفقـة. فبلـغ أهـل الجهـاد مبلغًا عظيمًا ونفقة مولانا الشـريف شـاملة الجميع وعيون الكفار عليهم كل حين، فشـاهدوهم يزيدون عددًا وعيشًـا رغيدًا. وأمر ابنه الشريف أحمد أن يحج بالناس ويقابل الأمراء ويلبس الخلع الواردة، فلما وصـل أمـراء الحج بلغوا مـا قصدوه (أي الحـج). بعدها توجهـوا للقاء مولانا الشريف أبي نمي في جدة لإلباسه الخلع فقابلهم وهو شاكي السلاح لابسًا درعه على هيئة القتال".

"لمـا رأى الإفرنج صبـره وحصاره لهم انقلبوا خائبيـن مخذولين. ولما بلغ مولانا السـلطان سـليمان القانوني سـمح لـه بنصف معلوم جـدة وغير ذلك من الإنعامات التي لا تحصر"[١].

= يتضح من الوصف البيئي والجغرافي لمكان مرسى أبو الدوائر الذي قدمه كل من ابن بطوطة وجون لويس بوركهارت عن الموقع في الجانب الأفريقي، وقد ذكر ابن بطوطة أن اسمه أبو دوائر، أما بوركهات فقد أورد الوصف فقط وهناك تطابق بين الاثنين.

ابن بطوطة ذكر أنه خور مثل الوادي يخرج منه البحر فكان الناس يأخذون الثوب من أطرافه وقد امتلأ بالسمك وفيه كثير من بيض النعام، وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاه لا يأكلونها فهي تأنس بالآدمي، وسماها في النص أبو دواير.

بوركهارت: بعد الظهر دخلنا خليجًا ضيقًا والسير فيه محفوف بالمخاطر ويسمونه دحور أتاج ثم دخلنا خليجًا جميلاً فيه جزيرة اسمها (جبل مكور) وهي في عرض أعلى من عرض جدة مما يتيح للسفن الاستفادة من الريح الشمالية ويستغرق الوصول إلى جدة ليلة واحدة، وذكر بيض النعام والطبيعة الخلابة.

الأرجح أن رأس دواير هو جزيرة مكور في خليج دنقناب حيث سجل الاثنان توفر البيض الكبير وهي اليوم محمية طبيعية ضمن محمية خليج دنقناب.

(١) علي بن تاج الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، مرجع =

الشيء الذي لا يختلف عليه أن موقف الشريف وحشد المجاهدين والمقاتلين كانت أحسن رادع للبرتغاليين في أن ينزلوا إلى أرض جدة أو الحجاز، وأيضًا أن السلطان سليمان القانوني أمر له بنصف خراج جدة وإذا نقص عن مقدار معين يتم تعويضه من خزينة الدولة. أما المعارك فهي وردت بصورة مبهمة بدون تفاصيل ولا يساند هذا القول المراجع البرتغالية؛ لأنها وقعت في الجانب الأفريقي من البحر الأحمر.

خلد التاريخ موقف الشريف بما قاله مفتي مكة عبد العزيز زمزمي يمتدحه:

لِيَحْتَسي الصّهباءَ من يَحْتَسي حَسْبِي لما مرشَفِكَ الأَلْعَسِ
سَلِ النصارَى عنهُ مُذْ قاربُو جدَّةَ عن جَدِّهِم الأتْعَسِ

يلاحظ أنه قال قاربوا جدة ولم يقل نزلوا جدة.

استمرت الحملة البرتغالية في طريقها إلى السويس وتوقفت في ميناء سواكن حيث بعث لهم حاكمها أنه يرغب في الصلح معهم، والحقيقة أنه كان يماطلهم حتى يرسل الرسل إلى مصر لتنبيههم إلى الخطر القادم إلى السويس. وبعد أيام قرّر البرتغاليون غزو سواكن ودمّروها وحرقوها وقتلوا أهلها، وبدلًا من أن يتجهوا إلى السويس قرّروا مهاجمة الميناء التالي وكان ميناء القصير وقصفوا الميناء ودمروا واجهته ولكن لأن سكان القصير من المسيحيين السوريين فقد نجوا من بطش البرتغاليين. الميناء التالي كان الطور في سيناء ودمروه بالقصف ولكن القساوسة في منطقة سانت كاثرين نجحوا في استضافة القائد وإقامة قداس.

= سابق، ص ٣٠٠-٣٠٤.

انظر أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، تحقيق: محمد فارس الشيخ، مطبوعات البلد الحرام، ص ١٢٧-١٢٨.

ثـم أبحـروا إلى السـويس وهـي الهـدف الرئيسـي لهـم، وكان العثمانيون يعلمـون بوصولهـم وأعـدّوا لهم العـدّة للحرب وجمعـوا الجيوش والفرسـان بانتظـار نزولهـم أرض السـويس، وهاجمهم ألفان من الخيالـة العثمانيين. وفي المقابل اسـتخدم الأسطول البرتغالي المدفعية وتكبّد الطّرفان خسائر فادحة في الأرواح. وانسحب الأسطول البرتغالي إلى مصوع ومنها إلى الهند[١].

اعتبـرت القيادات البرتغالية في الهند أن هذه الحملة فاشـلة بجميع المقاييس وأنها تسببت في إفلاس الخزينة العامّة وأرجعوا ذلك إلى سوء إدارة قائد الحملة وعناده كما جاء في رسـائل القادة إلى ملك البرتغال. منها رسـالة «مانويل كوتينيو» فـي ١٥٤١/١١/٢٦م "أن عنـاد القائـد أثار اسـتياء النبلاء مما أدى إلى أن تسـوء علاقته بهم وهم معه في نفس الأسطول. واعتبروا أن وقوفه في ميناء القصير أعطى العثمانيين متسعًا من الوقت ليستعدّوا لملاقاة الأسطول بعد أن عرفوا بأمره".

فـي رسـالة أخرى مـن قائد آخر هـو «ألفونس دميلو» فـي ١٥٤١/١١/٦م "انتقد فيها سـوء التوقيت للحملـة وخاصة توقيت مغادرة مصوع وكيف أن قائد الحملـة تـرك محاربيـن كثر لدى ملك الحبشـة لمسـاعدته ضد الوالي المسـلم وأنفـق أمـوالًا طائلـة في الحرب البرية في الحبشـة مما أدى إلـى تعثره في دفع مخصصات النبلاء ورواتب الجند"[٢]، وهذه تشمل موقعة أبي الدوائر. لم تذكر الرسائل عن أي اشتباكات في جدة والحجاز إطلاقًا.

اسـتمرّت الصراعـات البرتغاليّة مع الدّولة العثمانية فـي مواقع مختلفة مثل الخليج العربي وهرمز وغيرها. لكن هذا خارج نطاق بحثنا.

---

(١) محمـود الغزلانـي، الصـراع العثمانـي البرتغالي فـي البحر الأحمر والخليـج العربي، مرجع سابق، ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) أحمد أبو شرب، الخليج العربي...، مرجع سابق، ص ٤٥٦، ٤٥٤.

خاتمة واستنتاج:

تمثل الهجمات البرتغالية على جدة في مطلع القرن السادس عشر حدثًا مهمًّا في تاريخ هذه المدينة عندما واجهت أعتى الأساطيل وقوى التعصب في أوجها وهي الميناء الناجح الهادئ، وقد شتّت الله شمل المهاجمين المرّة بعد الأخرى مما أكسب جدة صفة أنها مدينة محروسة يسكنها أهل الله المتعبّدين مستجابو الدعاء.

هذه الهجمات أظهرت جسارة أهل جدة عندما خرجوا محاربين في اثنتين من هذه الهجمات، المرة الأولى مع سليمان ريس في ٩٢٣هـ/١٥١٧م لإخافة الأسطول البرتغالي وتسلّقوا أسوار جدة وحملوا البيارق وأطلقوا الصرخات واستخدموا المدافع وتمركزوا في الأبراج مما كان أفضل الأثر في دحر المعتدين. المرة الثانية في الحملة الخامسة سنة ١٥٤١م خرج أهل جدة تحت قيادة الشريف أبي نمي مع المجاهدين من مكة ومن البادية وشكّلوا جميعًا حشودًا رهيبة متراصة كانت بمثابة عامل ردع للمهاجم البرتغالي أن ينزل إلى اليابسة.

الوثائق البرتغالية وتدقيق الروايات العربية تدفعنا إلى إعادة النظر في توثيق التاريخ الفعلي لمدينة جدة في نقطتين مهمتين :

1. **بناء السور من قبل حسين الكردي لم يتم بناء على توجيه ومبادرة من السلطان قانصوه الغوري لأنه وجّه ببناء تحصينات فقط من ناحية البحر مثل غيرها من المدن الساحلية حيث إن الهجوم متوقع من البحر. أي أن بناء السور تم للأسباب والطموحات الخاصة بالأمير حسين الكردي بعد هزيمته في ديو واستخدامها كقاعدة لنفوذه كما توثق ذلك الوثائق والمؤرخون البرتغاليون المعاصرون له، وخوفه من الأعراب الذين سبق وأن هزمهم في ينبع.**

منازلة البرتغاليين الفعلية كانت بالقصف المدفعي لأنه لم يحدث اشتباك على أرض الحجاز مع البرتغاليين وفقًا لمصادرهم والمصادر الأوروبية. اقتصرت الاشتباكات في الجانب الآخر من البحر الأحمر في الحملة الخامسة ١٥٤١م في أراضي الحبشة والقرن الأفريقي المقابلة لمدينة جدة في أبو الدوائر التي تقع في شمال السودان حاليًّا.

استمر الوضع التجاري لجدّة في الازدهار حتى أنه في عام ١٥٣٨م كتب القادة البرتغاليون إلى الملك أن جدة أصبحت قبلة القوافل التجارية وأن التوابل والعقاقير تنقل منها إلى مصر والبحر المتوسط لهذا يطلب القادة احتلال عدن للقضاء على تجارة جدة تمامًا. وبحلول العام ١٥٤٠م تحولت جدة إلى المحطّة الرئيسية لأقاليم معيّنة في الهند ترسل محاصيلها إلى جدة وساعد فشل الحصار البرتغالي لباب المندب على هذا الازدهار، وقد انعكس هذا النمو الاقتصادي على منازل جدة وأصبحت حسنة البناء ومشيّدة بالحجر والجير وذات طوابق وتنظيمٍ عالٍ، واستمر الحال إلى بداية القرن السابع عشر في الازدهار[١].

انتصرت جدة بموقعها وحبّها للحياة والتجارة على خطط وعنف البرتغاليين وكان هذا أول تفاعل أوروبي منظّم مع إقليم الحجاز وتبعته أشكال أخرى في السنوات والقرون اللاحقة.

(١) كذلك انظر بالتفصيل:

R. B. Serjeant, The Portuguse Ibid, P 135 – 142.

ب - الجماعات الصغيرة: الفرس والحضارم مثالاً:

استوطن جدة في مراحل تاريخية مختلفة اثنان من الجماعات الإثنية، وكان هذا الاستيطان لأغراض تجارية بحتة وهم الفرس والحضارم، وقد حضروا على شكل أفراد وجماعات تجارية، وليس تحت راية جيش أو قوة غازية؛ ولكن بعد استقرارهم في جدة أصبحوا قوة مؤثرة في المجال الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وجزءًا أصيلاً من الموازييك الإنساني الذي تتشكل منه جدة، وأفضل مثال هم الفرس والحضارم، وفيما يلي نبذة عنهم:

ب - أولا: الفرس:

تواجد الفرس في جدة في مراحل تاريخية متعددة، ولا يوجد لدينا مصادر أكاديمية رصينة توثق لهذا التواجد إلا عبارات الرحالة وبعض المؤرخين المسلمين، والروايات عن تواجدهم في جدة تتسم بعدم التناغم وكثرة المتناقضات.

يؤكد الشيخ عبد القدوس الأنصاري أن كلاً من البشاري والبلخي والاصطخري في حديثهم عن جدة في القرن الرابع الهجري يتفقون على عبارة البشاري: (أن قوام تجارتها الفرس) أي أن الفرس هم من يسيطرون على التجارة في جدة[١].

ذكر محمد بن عبد الله الحميري أن جدة كانت مركزًا لاستيطان ملوك الفرس، وأنهم أول من بنوا سورًا حولها، وكانت مركزًا تجاريًّا مهمًّا للتجارة مع الهند ومصر. هناك اعتقاد أن البحر الأحمر سمي كذلك نسبة إلى الملك الأحمر من ملوك الفرس يسمى [Erythraean]، وقد عاش وقت الإمبراطور ميديا عندما كان للفرس نشاط ملحوظ في المحيط الهندي والخليج العربي، الأمر الذي يجعل الرواية قابلة للتصديق. كان الفرس في تلك العصور يتوسعون

(١) عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ جدة، مرجع سابق، ص ١٢٤.

على حساب إمبراطورية الروم، وخاصة التوسع البحري في المناطق الساحلية والبحار، ويروى أن الملك (دارا الثالث) سنة ٣٣٣هـ/٨٣٣م كان يأمر التجار بالإبحار إلى موانئ البحر الأحمر وتكوين الصلات التجارية معهم[١].

وأشار ابن جبير في زيارته إلى جدة، إلى وجود آثار باقية تدل على استيطان الفرس جدة، وأن تقنية صهاريج الماء الموجودة بها هي تقنية فارسية. أما جار الله بن فهد فقد ذكر آثار السور القديم حول جدة وأرجعه إلى الفرس الذين استوطنوا جدة. أول من أشار إلى سور جدة كان الرحالة ناصر خسرو في منتصف القرن الخامس الهجري عندما قال: أن المدينة محاطة بسور كبير له بابان واحد بجهة مكة والآخر جهة البحر وخندق مليء بالماء، ويذكر ابن فهد الخندق المائي بحيث أصبحت جدة شبه جزيرة في البحر.

ويقدم الرحالة جمال الدين ابن المجاور ثلاث روايات تربط بين الفرس وبين جدة وهي أحدث تاريخيًّا

- **الرواية الأولى تقول أن جدة من بناء خسرو كسرى بن فيروز بن يزدجر في القرن السادس الميلادي، وهذا أحدث كثيرًا من ما هو معروف في السابق، ويستدل بذلك بقصة إبحار سيف بن يزن الذي حصل على دعم الفرس وأبحرت السفن الحربية باتجاه اليمن.**

(١) دائمًا ترد الإشارة إلى زيارة الإسكندر المقدوني إلى مكة وجدة نقلًا عن الشيخ عبد القدوس الأنصاري من رواية أحمد الدينوري في كتابه الأخبار الطوال وهي من الأخطاء الشائعة. قدمت في كتابي بحثًا محكمًا اعتمادًا على المصادر الكلاسيكية تفند أسطورة أن الإسكندر المقدوني وصل إلى الحجاز والأساطير التي حامت حوله. محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، ص ١٠٧-١١٩. وأنه لا أساس لهذه الرواية بأي شكل من الأشكال والتي يرددها البعض في الصحف السيارة والمحاضرات الشعبية.

- **الرواية الثانية لابن المجاور أنه بعد خراب سيراف في القرن السابع الهجري جاء اثنان من أهل فارس (سيَّار) والآخر (ميَّاس) وعمروا جدة وبنوا حولها سورًا من الحجارة لحمايتها، وبعد السور حفروا خندقًا مائيًّا عظيم السعة والعمق وهي تقنية فارسية معروفة لحماية المدينة، وعلموا أهلها حفر الصهاريج لحفظ مياه الأمطار والسيول، وهي الصهاريج التي عاشت على مياهها جدة لقرون بعد ذلك، وبهذه الرواية يكون الفرس عمروا جدة مرتين في فترتين تاريخيتين.**

- **الرواية الثالثة لابن المجاور هي الربط بين جدة وأهل الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه وأن أهله قدموا من فارس إلى المدينة المنورة، وبعد أن أسلموا توجهوا إلى جدة واستوطنوها، وهو قول ضعيف فيه الكثير من المآخذ[1]، وهذه ذكرها ابن فهد.**

نخلص إلى أن هناك إشارات غير واضحة وغير موثقة في كتب التراث وروايات الرحالة تحاول الربط بين جدة والفرس وأنهم استوطنوها بشكل دائم في حقب تاريخية بعيدة، وفي كل الأحوال كان الاهتمام بجدة تجاريًّا بحتًا ويهدف للاستفادة من موقعها على البحر الأحمر، وفي المقابل أحضروا معهم تقنيات بناء الصهاريج والأسوار.

عدم الوضوح وقلة التوثيق للأسف شائع في كتابات كثير من الرواة والقصاصين في التراث الإسلامي والعربي، وفي الوقت الذي لا يمكن القبول بها كما هي إلا أنه أيضًا لا يمكن رفضها، وهي تدل على أنه بشكل أو بآخر حدث استيطان تجاري من أهل فارس لجدة، واستمر علاقة جدة حسنة مع

(١) حمساء بنت حبيش الدوسري، جدة النشأة والتطور التاريخي، مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، ديسمبر ٢٠٢١م، عدد ١١، ص ٦١-١١٦.

الفـرس علـى مـر العصور خاصـة وأن هناك تبـادلًا تجاريًّـا ومصالـح اقتصادية مشـتركة، وسـكنت عوائل وأسـر فارسـية مدينة جدة ولها مكانتهـا الاجتماعية والتجارية الرفيعة المستوى، وحتى وقت قريب كان بنك ملي إيران موجودًا في جدة لرعاية المصالح الاقتصادية المشتركة وتطوير الحركة التجارية.

ب - ثانيًا: الحضارم:

الحضـارم مـن الجنسـيات التي أثرت في جـدة وفي مكونها الإنسـاني عبر القرون الماضية وخاصة من القرن الثامن عشر وما بعده. الهجرة الحضرمية إلى الحجاز عمومًا وإلى جدة كانت ذات طبيعة استيطانية في بعض جوانبها، وعلى الرغـم مـن ذلك لم يكن لهم طموح سياسـي، وأي تنظيم لهم في جدة كان يتم على أسس تجارية أو صوفية.

ارتبـاط أهـل حضرموت بالهجرة يعود إلى قرون بعيـدة لأنه من ثقافة إقليم حضرموت؛ حيث سـاهم الجيل الأول من الحضارم في الفتوحات الإسلامية، وساهمت أجيال من التجار الحضارم في الفتوحات ونشر الإسلام إلى مجتمعات جنوب شـرق آسـيا والهند وشـرق أفريقيا. وكانـت الهجرة الحضرميـة تتم إلى شـواطئ المحيط الهندي، واسـتطاع الحضارم تأسـيس ممالك مثل: مملكة آل العيـدروس في سـرّت بالهند، وآل بافقيه في الفلبيـن، ومملكة آل الغدري في جزر القمر وغير ذلك من الممالك والكيانات التي وجدت تقديرًا للحضارم في هذه الأصقاع.

ترجـع ثقافـة الهجرة من حضرموت إلى قلة الموارد؛ لأن الإقليم يعاني من قلـة الميـاه وتأثير ذلك علـى الزراعة باعتبارها المهنة الأساسـية لكسـب الرزق والصراعـات حول حيـازة الأراضي الزراعية المحدودة، مصائد الأسـماك هي

المصـدر الثانـي لكسـب الرزق وهـي محدودة. فـي المقابل بـرع الحضارم في التجـارة؛ حيث تمر طرق التجارة الشـرقية بالموانـئ في حضرموت، وارتبطت جـدة بالتجارة البحرية مع ميناء الشـحر مباشـرة أو بعد المـرور على عدن وهي تجارة نشيطة عبر القرون[١].

من القرن العاشـر الهجري أو السادس عشر الميلادي ظهر الوجود الحضرمي في جدة بسبب تواجدهم بجوار الحرمين الشريفين، فجدة تشعرهم بأنهم في وطنهم لطبيعة جدة الجغرافية الساحلية وأنها مدينة تقوم على التجارة في كسب الرزق[٢].

اعتبارًا من القرن الثامن عشر والتاسع عشر توسع وجود الحضارم في جدة، غالبية الحضارم الذين قدموا إلى جدة كانوا من وادي (دوعن)، وكانت الأسـر الموجودة في جدة تحسـن اسـتقبال الوافدين الجدد وتوفير سبل العمل لهم من الصفر، وهكذا ساعدت شبكة العلاقات الاجتماعية والأسرية في نمو المجتمع الحضرمي في جدة، ويمكن تلخيص تأثير الحضارم في جدة في ثلاثة محاور:

١. التعليم الديني.
٢. التجارة.
٣. الوجاهة الاجتماعية.

---

(١) نويـل بريهونـي، حضرمـوت والمهجـر، مركز الملـك فيصل للبحوث والدراسـات، ترجمة: بشير العيسوي، الرياض، ١٤٤٠هـ، صفحات متعددة.

(٢) خالـد حسـين الجوهي، الحضـارم في الحجاز ودورهم في الحيـاة العلمية والتجارية، مركـز الملك سـلمان لدراسـات الجزيـرة العربيـة وحضارتها، جامعة الملك سـعود، الرياض، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م، ص ٢٨-٢٩.

١- التعليم الديني:

أثر الحضارم بشكل رئيسي في الحركة العلمية بالحجاز عمومًا وجدة على وجه الخصوص. السعي وراء العلم الشرعي كان من الأسباب الرئيسية لهجرة الحضارم إلى الحجاز وهاجرت أسر بأكملها إلى مكة المكرمة وتبوّأت مكانة عظيمة في الأوساط العلمية والقضاء والإفتاء ومنهم مفتي مكة وأقطاب صوفية معروفين، وشهدت العلاقة بين علماء حضرموت وعلماء الحجاز تبادلًا في الإجازات العلمية ورسائل متبادلة، وإنشاء الحضارم العديد من الأربطة والمدارس والزوايا لأسباب دعم العلم وطلبة العلم وإنشاء المكتبات ومجلس العلم[١].

أول زاوية صوفية حضرمية في جدة أنشأها عمر بن إبراهيم بن محمد القديمي اليمني وذلك في أواخر القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي، وظهرت بعد ذلك الزوايا ومجالس العلم. فآل باعلوي ذوو الأصل الحضرمي استوطنوا جدة وهي طريقة ظاهرها غزالية وباطنها شاذلية، وتقوم على المذهب السني الأشعري. ومن قبيل تقدير أهل جدة لمشايخ آل باعلوي، سميت أهم الأسواق والشوارع والبرحات على أسماء هؤلاء المشايخ، ومنها: سوق العلوي نسبة إلى الشيخ أبو بكر بن أحمد المولود في مدينة الشحر سنة ألف ونيف وتسعين للهجرة، ودفن في جدة سنة ١١٢٨هـ وله ضريح معروف إلى الآن، وزاوية الشيخ العيدروس أيضًا له باسمه برحة شعبية وبرج في السور باسمه، وتوجد أكثر من زاوية للحضارم أهمها تلك الموجودة في سوق النداء. أي أن الحياة العلمية كانت نشيطة لآل باعلوي في جدة إبان القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وكان لهم كتاتيب وأربطة وزوايا ومعروف عنهم تبادل الإجازات

---

(١) توثيق الأسر الحضرمية والإجازات العلمية وأهم الأربطة وردت في خالد حسين الجوهي، الحضارم في الحجاز...، مرجع سابق، ص ١٥١-١٥٣.

العلمية مع علماء الحجاز والمناظرات وتبادل الرسائل العلمية معهم[١].

٢- التجارة:

اشتهرت حضرموت بأنها من المراكز التجارية الواقعة على طرق التجارة الشرقية، وكذلك بها من الأسواق المحلية في مدينة الشحر والمكلا، وظهرت فيهم المهارات التجارية. وعندما انتقلوا إلى جدة شكلوا تكتلات اقتصادية قائمة على الترابط الأسري، واختارت الأسر الحضرمية التوجه إلى جدة لقربها من الوطن الأم، وتشابه المكون الإنساني فيها والوضع الجغرافي الساحلي مع حضرموت. كانت العلاقات التجارية وثيقة مع جدة ليس فقط من خلال التجارة البحرية ولكن البرية أيضًا لوجود تجارة قوافل مع جدة.

تخصص التجار الحضارم في جدة في عدد من الأنشطة الاقتصادية أهمها المواد التموينية من الأرز والحبوب والعدس، وكان السمسم يستورد لحساب هؤلاء التجار وترتب على ذلك أن أسواق بأكملها سيطر عليها التجار الحضارم من ناحية أعدادهم وأهميتهم إبان القرن التاسع عشر، مثل: سوق النداء، والخاسكية، وسوق البدو، أما سوق العلوي فقد كان يختص بتجارة الأقمشة[٢].

بعض التجار الحضارم كانوا مؤثرين في تجارة الرقيق بجدة، ومنهم شخص يدعى حسن العمودي، وتجارة المياه والصهاريج كانت من الأنشطة التي تواجد فيها الحضارم، ولهم تأثير وتواجد في مهن لها علاقة بالتجارة، مثل: مهنة الدلالة ومهنة المخرجّين وغيرها.

ويذكر أن الأسر الحضرمية أسست ما يعرف باسم البيوت التجارية من أجل مأسسة مهنة التجارة؛ حيث يعملون مدارس صغيرة في مكان العمل يتعلم فيه

---

(١) محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٢) خالد حسين الجوهي، الحضارم...، مرجع سابق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

الشباب أعمال الحسابات التجارية، ويمسكون دفاتر الحساب للتجار إلى أن يصلوا إلى مرحلة يتحولون فيها إلى تجار بعد أن فهموا المهنة، بشكل ساعد على تطوير العمل التجاري في جدة[١].

وصفهم تقرير القنصلية الفرنسية في عام ١٨٤٠م أن معظم تجار جدة من أصل حضرمي أو من الهند، ويمتاز أهل حضرموت بين جميع المسلمين بالاستقامة والذكاء وندرة تعاملهم مع النصارى، أما الرحالة سنوك فكانت ملاحظته أن التجار الحضارم أصل تجارتهم في جدة، ثم يفتحون فرعًا لها في مكة "عادة يبدؤون تجارتهم من لا شيء"؛ حيث يعملون عند أصحاب المحلات التجارية وبسبب مهارتهم المهنية وبعض الصفات الحميدة، مثل: الصبر والأمانة وإتقان العمل يعملون لحسابهم الخاص، أما بوركهارت فقد وصف الحضارم أنهم العرق الإثني الوحيد الذي عرفته مثابرًا بين سكان الجزيرة العربية. استمر التواجد الحضارمي في جدة إلى يومنا هذا، وللحضارم مكانتهم المتميزة اجتماعيًّا واقتصاديًّا في المملكة العربية السعودية[٢].

٣- الوجاهة الاجتماعية:

كانت الوجاهة الاجتماعية في جدة في القرن التاسع عشر لآل باعلوي لمكانتهم الدينية وكبار التجار الحضارم، وجاهة تستمد قوتها من تأثيرهم في المجتمع ورضا الدولة العثمانية عليهم.

ولآل باعلوي فتاوى واضحة بعدم جواز الخروج على الدولة المسلمة وضرورة السمع والطاعة لها، وبالتالي لم يكن لهم أي طموح سياسي الأمر

---

(١) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز...، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٢) تقرير القنصلية مذكور بالتفصيل في مكان آخر بالكتاب. انظر: جون لويس بوركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة...، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤٣. كذلك سنوك.

الذي لقي تجاوبًا مع السلاطين العثمانيين، وأصدر السلطان محمود خان فرمانًا في ١٢٣٧هـ/١٨٢١م أن تكون أمور الحضارم التجارية والقضائية تحت إشراف مشيخة العلوي ويحق لهم بيع وشراء العقارات، وحلّ خلافاتهم تحت مظلة هذه المشيخة، ولم يسبق لأي جماعة إن حظيت بهذه الصلاحية.

بعض المشايخ من آل باعلوي المقيمون في جدة أغدق عليهم السلاطين العثمانيون المنح والدعم، وبعضهم حصل على درجة وزير ويتم استضافتهم في إسطنبول[١].

جـ - الصينيّون

يعود التواصل الحضاري بين الصين والحجاز إلى صدر الإسلام وما قبله؛ حيث يذكر التاريخ العلاقة الودية التي اتسمت بها علاقة إمبراطور الصين مع الدولة الإسلامية عند بداية إنشائها، ويعود أول تفاعل موثق تاريخيًّا عندما طلب ابن ملك الفرس فيروز بن يزدجرد المساعدة من الإمبراطور الصيني في قتال المسلمين الذين اكتسحوا بلاده وقتلوا أباه؛ ولكن إمبراطور الصين اعتذر له عن المشاركة لبعد المسافة، وفي المقابل أرسل سفيرًا يشرح وجهة نظر الفرس إلى الخليفة عثمان بن عفان في المدينة المنورة، يذكر التاريخ أن الخليفة الراشد أحسن استقبال سفير الصين، وحتى أنه أرسل أحد القادة لمرافقة السفير في طريق العودة عام ٦٥١م لحمايته، وأشاد المؤرخون الصينيون بالدين الجديد وأصحابه.

أول من أدخل الدين الإسلامي إلى الصين هو سعد بن أبي وقاص الذي سافر مبعوثًا من الخليفة عثمان بن عفان إلى مدينة تشانغان، وذلك إبان فترة الإمبراطور تانغ قاو تسونغ، ويقال إنه ازدهرت الهجرة العربية الإسلامية للصين

(١) محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، ص ٣٤١.

حتى سكن الصين أكثر من أربعة آلاف أسرة عربية في مدينة تشانغان في عهد أسرة تانغ[١].

بفضل استخدام طريق الحرير ازدادت المعرفة بين الصين والعرب، وإبان الدولة الأموية (٦٦١-٧٥٠م) سمتهم الصين التازان الأبيض، وإبان الدولة العباسية أسمتهم التازان الأسود، وكانت العلاقة تجارية وتبادل هدايا[٢].

وصل الصينيون إلى جدة ومكة منذ العصور القديمة؛ ولكن توثيق ذلك جاء في القرن الثامن الميلادي في كتاب ألفه جيا دان (٧٣٠-٨٠٥م) في عهد الإمبراطور ده تسونغ؛ حيث ذكر أهم خطوط الملاحة بين الصين ودول العالم، وسوف نذكر الخطين اللذين ذكرهما ولهما علاقة بالمنطقة:

١. **خط يمتد من شط العرب باتجاه الجنوب إلى صحار الواقعة على شاطئ عمان، ويمتد باتجاه الجنوب الشاطئ الشرقي**[٣].

---

(١) متى دخل الإسلام الصين، الصين اليوم، ٢٠٠٤/٥/٨م.

(٢) قوه ينغ ده، تاريخ العلاقات الصينية والعربية، الصين اليوم، ٢٠٠٢/٥/٥م.

(٣) توثيق التاريخ الصيني القديم يختلف عن تدوين تاريخ كثير من الدول للطريقة التي كتب بها واللغة الصينية المستخدمة، يعتبر تاريخ أسرة مينج أهم الأعمال التاريخية والتي تعرف باسم التواريخ الأربعة والعشرون تغطي الفترة من ١٣٦٨-١٦٤٤م، وقد عكف على تجميعه وكتابته عدد من المسؤولين الرسميين بتكليف من أباطرة أسرة تشينغ في عام ١٦٧٩م في عهد الإمبراطور شوان، وانتهى في عام ١٧٣٩م في عهد الإمبراطور لونغ، وخضع العمل لعدد من المراجعات في السنوات القادمة.

احتوى الجزء الأخير من تاريخ أسرة مينغ على السير الشخصية والجماعية، وبلغ عدد الفصول ٢٢٠ فصلًا، وكان للجزيرة العربية والخليج نصيبٌ فيها وأهمها الفصل ٢٠٤ التي تركزت على ذكر شبه الجزيرة، وتشمل السيرة الذاتية للقائد المسلم تشينغ خه وهو قائد مسلم صيني قاد أسطول الكنز لبلدان المحيط الهندي والبحر الأحمر، بالإضافة إلى فصول أخرى. =

٢ خط يمتد من الشاطئ الجنوبي الغربي من شبه جزيرة الهند صوب عدن مباشرة ومنها إلى جدة، ثم يتجه شمالًا مع الشاطئ الغربي حتى يصل إلى فلسطين والشام، أو يدخل البحر الأحمر فيتجه شمالًا إلى جدة ثم ينتهي إلى مصر.

وتسمى هذه الخطوط طريق الخزف الصيني أو طريق الحرير البحري، وكان البحر الأحمر من أهم طرق المواصلات البحرية بين الشرق والغرب. وردت هذه الخطوط وتفصيلها في القرن الثاني عشر في كتاب مفتش التجارة تشو جو كوا، وجاء فيه:

يمكن الوصول إلى جدة وهي ميناء مكة [Ma-Kia] إذا سافر المرء من مدينة (مالوبا) [Ma-Lo-Pa] مليبار في رحلة تستغرق ثمانين يومًا غربًا، وهو المكان الذي ولد فيه النبي محمد ﷺ، وفي دار النبي (الكعبة) جدران المنزل مصنوعة من حجر اليشم أو الأحجار الكريمة من كل لون. كل عام عند ذكرى وفاة النبي يتجمع الناس من كل أنحاء العالم العربي (التاشي) [Ta-Shi]، وعندما يجتمعون مع بعضهم يتنافسون في تقديم الهدايا، وبعد ذلك يزين المنزل بكسوة من الحرير المطرز.

وردت جدة في سجلات أسرة مينج أنه في عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م وفي العام الخامس من حكم الإمبراطور هسوان - الإمبراطور الخامس في أسرة مينج -

= أهم المراجع باللغة الإنجليزية التي تناولت هذه السجلات من جزيرة العرب حتى عدن.

R. Keith Schoppa, Revolution and it's Past: Identities and Change in Modren Chinese History. Pearson Hill 2010.

Lynn A. Struve: Voices from The Ming – Qing Cataclysm: China in Tigers' = Jaws. Yale University Press, Yale, 1968.

وصل أمر من البلاط يأمر المبعوث الرئيسي شنغ هو كبير الخصيان أن يذهب إلى جميع البلدان الأجنبية ليتلو أوامر الإمبراطور ويسلم هداياه، وعندما وصل قسم من الأسطول إلى كاليكوت لاحظ كبير الخصيان هونغ مبعوثي تجار مكة يصلون إليها عن طريق ميناء جدة، فاختار ترجمانًا وسبعة سفراء وأرسلهم إلى جدة مع حمل من المسك وأصناف أخرى، وصعد المبعوثون في مركب متوجهة إلى جدة، واستغرقت سفرتهم سنة كاملة ذهابًا وإيابًا، واشترى المبعوثون جميع أصناف الحاجات والنفائس، ومنها: الزرائف والأسود والنعام، ثم إنهم رسموا صورًا دقيقة للحرم، وكذلك أرسل ملك بلاد مكة (الأشراف) مبعوثين حملوا معهم سلعًا محلية، ورافقوا المبعوثين الصينيين السبعة، وقدم سفراء مكة هداياهم إلى البلاط الصيني[١].

= ● أهم الوثائق التي تذكر مكة المكرمة/ جدة:

مكة المكرمة/ جدة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	التاريخ الصيني	السجل
الوثيقة الأولى	٢٧ محرم ٨٣٧هـ	١٤ سبتمبر ١٤٣٣م	سنة ٨ شهر ٨ يوم ١	مجلد ٢١ سجل ١٦٠١
الوثيقة الثانية	١٦ صفر ٨٣٧هـ	٣ أكتوبر ١٤٣٣م	سنة ٨ شهر ٨ يوم ٢٠	مجلد ٢١ سجل ١٦٠١
الوثيقة الثالثة	٢٧ محرم ٨٤٠هـ	١١ أغسطس ١٤٣٦م	سنة ١ شهر ٦ يوم ٢٤	مجلد ٢٣ سجل ١٦٩٤
الوثيقة الرابعة	٢٤ ربيع الآخر ٨٩٢هـ	٢٠ أبريل ١٤٨٧	سنة ٢٣ شهر ٣	مجلد ٥٠ سجل ٢٤٨٥

هذه السجلات موجودة باللغة التي كتبت بها، وتوجد تراجم متفرقة باللغات المختلفة لأجزاء منها، وقد تحصلت على بعضها باللغة الألمانية، وتم ترجمة مقتطفات منها من خلال مترجم محترف، وأيضًا لغات غربية أخرى أهمها اللغة الإنجليزية.

(١) إبراهيم خوري، العرب والصين علاقات ودية وتبادل سفارات، ترجمة لوثائق صينية، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٢٤، دمشق ١٩٨٦م، ص ٢٨. وينظر أيضًا: Lynn. A. Struve.، مرجع سابق.

رحلة ماهوان[١]:

بلاد المربع السماوي أي مكة، انطلقت السفينة من كولي (كاليكوت) وسارت في الاتجاه الجنوبي الغربي، وتصل بعد مضي ثلاثة أشهر قمرية إلى بندر البلاد التي تسمى جدة، وفي جدة زعيم كبير يديرها، ويذهب المرء إلى الغرب (الصحيح إلى الشرق) ويسير يومًا من جدة، ويصل إلى المدينة التي يسكنها الملك وتسمى مكة، ويدين أهلها بالإسلام؛ حيث قام فيهم رجل مقدس عرض معتقده ونشر تعاليمه فيها (رسول الله ﷺ)، ويطبق أهل البلاد مبادئ الإسلام في أعمالهم، وهم طوال القامة، أقوياء البنية، وسيمو الهيئة، ولون أوصالهم ووجوههم ضارب إلى اللون الأرجواني الكامد جدًّا، ويلبس الرجال العمائم، ويرتدون ثيابًا طوالًا وأحذية جلدية، وتلبس النساء الحجاب ولا يشاهد أحد وجوهنّ، واللغة العربية هي لغتهم، تقاليدهم رائعة وسليمة، ويحظرون شرب الخمر، وليس فيهم فقراء، فهم يعيشون في أسعد بلاد، ويطبقون مبادئ دينهم في كل أمورهم بما في ذلك الزواج ودفن الموتى.

---

(١) لقبه تسونغ داو، ويجيد اللغة العربية، فسهل عليه الالتحاق بالأسطول، وزار البلاد العربية عدة مرات، وتعرف على عادات وتقاليد الشعوب العربية، وتخصص في ترجمة رسائل المبعوثين العرب لبلاط الإمبراطور الصيني، وقد قابل الحكام العرب كمترجم مع تشينغ خه، وبدأ كتابه بقصيدة رائعة (تلقى المبعوث الإمبراطوري المجيد الوصايا الإلهية، وأطلق في الخارج الأصوات الحريرية، ومضى إلى أراضي البرابرة).

اعتمدنا على ترجمة مايلز في كتابه المنشور من جامعة كامبريدج:

Ma Huan: Ying – Yai Shing – Lan, " The Overall Survey of the Ocean's Shores 1433" Translated J. V. Mills, Cambridge University Press 1970.

انظر أيضًا: قونغ تشن، سجلات البلدان في المحيط الهندي، مراجعة وملاحظات شيانغ دا، دار الصين، بكين، ١٩٦١م.

البيت السماوي واسمه الكعبة، ويحيط به جدار له ٤٦٦ بابًا، وعلى جانبي الأبواب ترتفع عواميد مصنوعة من اليشب بكاملها وعددها ٤٦٧ عمودًا، منها ٩٩ في الواجهة، و١٠١ في الخلف، و١٣٢ على اليسار، ١٣٥ على اليمين، بني البيت على خمسة مداميك، وشكله مربع، وأعلاه مسطح، وفي داخله تتألف الأعمدة من خمسة أسهم كبيرة من العود الثقيل، ومن رف من الذهب الأصفر، وقد بنيت الجدران من غضار ممزوج بماء الورد والعنبر الذي يفوح منه عبير دائم، وتغطي البيت كسوة من حرير، وفي كل سنة في اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر القمري يأتي مسلمون غرباء بعد سفر طويل يستغرق سنة أو سنتين في حالات قصوى، ويحجون البيت ويصلون فيه، ويقتطع كل حاج قطعة من الكسوة تذكارًا، وتوضع كسوة جديدة مكانها، ويقع قبر إسماعيل (كما ورد في النص) على يسار البيت، وهو من أولياء الله، وتوجد أربع مآذن في زوايا البيت الأربعة، ويصعد المؤذنون في أوقات الصلاة إليها وينادون على الصلاة، تقع أروقة الأئمة الأربع على جانبي الحرم على اليمين وعلى اليسار، وهذه الأروقة مبنية من مداميك حجارة ومزخرفة على أجمل وجه.

إذا ذهب المرء إلى جهة الغرب وسار يومًا واحدًا وصل إلى بلدة اسمها المدينة (الاتجاه والمسافة خطأ) وفيها قبر القديس (النبي) محمد، ويرتفع من القبر حتى اليوم نور ساطع يخرج من أعلاه ويدخل في السحاب، وتقع وراءه بئر فيها ماء عذب تسمى زمزم (بئر زمزم في مكة وليس في المدينة)، ويأخذ السُّفّار هذا الماء ويخزنونه في مراكبهم، فإذا أصابهم إعصار في البحر رشوا منه فوق الماء فتسكن الريح والأمواج.

توجد في هذه المدن المقدسة منتجات أصلية محلية وهي ماء الورد المقطر والعنبر، وتوجد حيوانات مثل الغزلان والزرافة والفهود والظباء، ويوجد أيضًا

الحصان والجمال والنعام، والحمير الوحشية والبغال. أما الزهور فتوجد زهرة الخروب، وهي تشبه شجرة التوت الكبير، ويوجد العنب والخوخ والمشمش والرمان والكمثرى والبطيخ والشمام.

الجو في مكة حار ولا تسقط الأمطار، كما أنه لا وجود للبرق أو الصقيع أو الرعد أو الثلوج، والفصول الأربعة لطيفة يمكن تحملها بارتياح، ويتساقط الندى الحلو، وتوجد الحبوب الخمسة المعروفة والحيوانات المستأنسة والمنزلية[1].

التجارة بين جدة ومكة من ناحية والصين بشكل منظم بدأت تقريبًا من سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م عندما وصلت عدة سفن إلى عدن ولم تستطيع بيع البضاعة المحملة لاختلال الأمن في عدن، وطلبوا الإذن من الشريف بركات بن حسن عجلان، ومن والي جدة سعد الدين بن إبراهيم بالحضور إلى جدة، ووافق السلطان الذي طلب إكرامهم، وبعد ذلك بعامين في عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م وصلت بعثة تجارية كبيرة من الصين للتعرف على حالة الأسواق في جدة وفي مكة المكرمة ونوعية السلع التي تحتاجها.

هذه الرحلة كانت البداية الحقيقية للعلاقة بين جدة ومكة وبين ميناء خانقوه (كانتون) التي ذكرها بعض المؤرخين المسلمين أنها مرفأ للسفن ومجتمع تجارات العرب، وأيضًا مدن تجارية أخرى مثل: (تشوان – شو) كذلك زيتون صاحبة العلاقة الوثيقة مع الموانئ العربية الأخرى اليمن ومصر والشام، وتحضر بضاعة إلى جدة من التوابل وعود الند والأبنوس وخشب الصندل من الهند الصينية والحرير الصيني والمسك من التبت، وفي الطريق إلى بلاد العرب

(1) Zheng Yijun, Collection of Documents of Zheng He Voyages, England Edition.

تقف السفن في الهند تحمل البضائع الهندية من الجواهر والأحجار الكريمة والفلفل، كذلك شهدت هذه الخطوط تجارة البورسلاين الصيني باعتباره من المنتجات التي برع في صناعتها أهل الصين، ويأتي إلى جدة الكافور وعرق الكافور، ويعتبر الكافور الصيني من أجود الأنواع من هناك.

كانت جدة سوقًا عظيمة لبضاعة الصين، وأحيانًا يتم التبادل بطريق المقايضة؛ حيث إن تجار الصين يحصلون مقابل هذه البضائع على سلع قادمة من أفريقيا، مثل: العاج والذهب، وبعض منتجات مصر وبلاد الشام المصنعة، وبضائع من أوروبا، وتجدر الإشارة إلى أنه في العصور الوسطى كانت علاقة جدة مع الهند ممتازة، وحرص حكامها على استخدام ميناء جدة للتجارة والمقايضة مع شعوب العالم، وهو ما توافق مع رغبات سلاطين المماليك[١].

ختامًا فإن العلاقة التجارية بين الصين وجدة بدأت مبكرًا، وتظهر تاريخ مينج الرسمي[٢] [Ming Shi] أو ما يعرف باسم وثائق السيرة الذاتية للمناطق الغربية ذات الرقم ٢٢٠/ الفصل ٣٣٢، أن القرن الخامس عشر شهد العديد من الرحلات إلى جدة ومنها إلى مكة، وكذلك القرن السادس عشر. استمرت هذه العلاقة وكانت الخيول العربية أهم ما يبحث عنه التجار الصينيون سواء بالشراء المباشر، أو أن يقدم لهم الأشراف هذه الخيول كهدايا ونوع من الجزية، بالإضافة إلى رغبة الصينيين في تسويق البضائع والمنتجات في أسواق جدة ومكة. توضح الوثائق أنه في عام ١٥٣٢م وصلت بعثة من التجار السفراء

---

(١) عبد القوي عثمان شوقي، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم الفكر ١٥١، الكويت ١٩٩٠م، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) استغرق أعداد تاريخ أسرة مينج الرسمي ٩٥ عامًا، وهي أطول فترة أخذها كتابة تاريخ رسمي لأي أسرة حكمت الصين.

عبارة عن تجمع من (٣٧) تاجرًا من جدة ومكة أطلقوا على أنفسهم صفة ملوك الأمراء، وللأسف لم يجدوا أي ترحيب من الجانب الصيني بل العكس هو الصحيح؛ حيث قدمت لجنة الشعائر تقريرًا للإمبراطور عنهم سيئًا للغاية، اتهموهم بالحضور إلى الصين للتجسس على البلاط الإمبراطوري، وأنهم ادعوا كذبًا أن سبب الحضور هو التجارة وتقديم الجزية[١].

في عام ١٥٣٨م رفض البلاط طلب أحد تجار جدة بالحضور إلى الصين خوفًا من أن يكون جاسوسًا.

جاء في الوثائق أيضًا أنه في عام ١٥٤٣م قدمت الوفود من العديد من البلاد، ويشار لها (تيان فانغ، سوهان، تولونان، هامي، لو – مي) وبلاد أخرى سويًّا بتقديم الجزية على شكل خيول ومنتجات أخرى، وتلا ذلك إرسال جزية من تيان فانج كل خمس أو ست سنوات في فترة حكم الإمبراطور وان – لن (١٥٧٣-١٦٢٠م)، واستمرت العلاقة ودية مع إقليم تيان فانغ، وهذا اسم إقليم جدة ومكة، وتوصف تيان فانغ أنها مملكة عظيمة في الـ سي يو (الجزيرة العربية) من البلاد المباركة يحرم فيها شرب الخمر، وعندهم معابد يصلون فيها، ويحرص النساء على عدم كشف وجوههن ويغطون رؤوسهنّ.

تعج الوثائق بقصص إنسانية عن علاقة أهل جدة ومكة بالصين، ووصف مكة بالاحترام والتقديس الذي تستحقه، وجدة أنها ميناء تجاري. بعض هذه القصص ذات طابع إنساني عن أخ مفقود في الصين ذهب بغرض التجارة، أو مشروعات تجارية مشتركة، مما يؤكد عمق العلاقة الإنسانية بين جدة وهذه البلاد البعيدة.

---

(١) ورد في النص اصطلاح الجزية وفي الغالب أنهم من قبيل تعظيم الإمبراطور يعتبرون الهدايا بمثابة جزية من الآخرين.

● **صورة لمدينة جدة.**

محفوظات جامعة إسطنبول، 0009a---90749، الصورة بدون تاريخ يرجح أنها تعود لنهاية القرن التاسع عشر.

● **منظر شامل لأسوار جدة.**

محفوظات جامعة إسطنبول، 0010a---90749، الصورة بدون تاريخ يرجح انها تعود لنهاية القرن التاسع عشر.

● **منظر عام لميناء جدة.**

المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885

جامعة ليدن، CSH-K.4 288-OR.12

● **خارج البوابة الجنوبية لسور جدة - ١٩٣٠م.**

البعثة الهولندية في الجزيرة العربية -1300 1370هـ (لمحات تصويرية)

دار (ل م) للنشر بمدينة إيدام

د - الهنود[١]

يعتبر الهنود من أكثر الأجناس الأجنبية التي استوطنت جدة، وارتبط وجودها بازدهار جدة ونموها عبر القرون، وذلك للعديد من الأسباب التي أوجدت الرابط الثقافي والاقتصادي والإنساني بين الهند والحجاز.

تعود العلاقة بين الهند والحجاز إلى صدر الإسلام وجهود المسلمين الأوائل في فتح هذه البلاد، وأهمها فتح إقليم السند بقيادة محمد القاسم، وجاء بعده الفتح الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي، استمر حكم الغزنويين في الهند حوالي مئة وخمسين عامًا، وذلك قبل الحكم المغولي للهند الذي وحّدها وأن تكون دولة إسلامية موحدة من العام ٩٣٢ – ١٢٧٤هـ/ ١٥٢٦ – ١٨٥٨م إلى أن وقعت الهند تحت الاستعمار البريطاني.

عبر القرون، كان لبعض ولايات الهند مثل: البنغال، والكجرات، والدكن، وبعض السواحل ارتباط قوي بالحجاز على أسس دينية ومبرر لأن يسكن الكثير من أبناء هذه الأقاليم في مكة المكرمة والحجاز عمومًا. يمكن أن نوجز أسباب استيطان الهنود في مكة وجدة إلى الأسباب التالية:

١- أسباب دينية:

تدفق الهنود بأعداد كبيرة على مكة المكرمة بسبب الحج ومجاورة الحرم، ومن هؤلاء علماء أجلاء، ومنهم القضاة ومعلمو الحديث والفقه والقراءات والبلاغة، ومنهم النساخ وطلبة العلم، وقد ساهم السلاطين في تمويل رحلات هؤلاء العلماء إلى مكة والمجاورة فيها.

---

(١) العلاقة بين الهند والحجاز علاقة قديمة ومتشعبة ويحتاج الإلمام بها إلى مجلدات ودراسات متشعبة، نحن هنا نذكر رؤوس أقلام لغرض البحث وتدعيم حقائق وفرضيات. المقصود بالهند هو شبه القارة الهندية كلها (الهند، باكستان، بنغلاديش).

تخصصت أسر هندية في مجال الفقه في مكة مثل: بني الضياء، ومنهم إمام الحنفية في مكة، ومنهم أيضًا قاضي مكة على المذهب الحنفي ابن ضياء الهندي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م، ومنهم قاضي آخر لمكة له نفس الاسم ابن الضياء؛ ولكن هذا الآخر أضيفت له الحسبة وأن يكون ناظرًا على الحرم، والقائمة طويلة من القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده عن مكانة العلماء الهنود في المذهب الحنفي بصورة أساسية. في المذهب الحنبلي أيضًا كان للهنود إسهامات؛ حيث إن قاضي الحنابلة في مكة كان شاذي الهندي، ومن الأسر التي تركت أثرًا علميًّا، منهم أسرة شاه ولي الدين الدهلوي التي ساهمت في ترجمة القرآن إلى اللغة الفارسية لغة الهند الرسمية، وابن آخر لنفس الأسرة ترجم القرآن إلى اللغة الأوردية وجميعًا قاموا بدور مهم ضد الاستعمار الإنجليزي[١].

وقدّم السلاطين وأمراء الهند مساعدات مالية، وبنوا المدارس في الحرمين، وساعدوا في بناء الأربطة المخصصة لطلبة العلم، وأربطة لأغراض الصدقة وأعمال الخير[٢].

---

(١) حمساء بنت حبيش الدوسري، العلاقات العلمية بين الحجاز والهند ٩٢٣-١٠٦٨هـ/ ١٥١٧-١٦٥٧م، دراسة تاريخية، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، عدد ٨٣، أيلول ٢٠٢٢، ص ٦٣٤-٦٣٩.

(٢) أهم المدارس التي أنشأها الهنود في الحجاز:

أ المدرسة البنجالية الغياثية، وذلك بتبرع من الملك أعظم شاه بن إسكندر شاه بن شمس الدين سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م؛ حيث أرسل هدية طائلة مع رسوله ياقوت الغياثي الذي اشترى دارين متلاصقتين مجاورين للمسجد الحرام، وتم تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان مدرسوها عند الفراغ منها هم القضاة الأربعة بمكة على المذاهب الأربعة، وأعيد تجديد وبناء المدرسة في ٨٩٤هـ/١٤٨٨م.

ب المدرسة البنجالية الغياثية بالمدينة المنورة، وقام ببناء هذه المدرسة غياث الدين أبو المظفر في عام ٨١٣هـ/١٤١٠م، وندب السلطان لبنائها حاجي إقبال =

كثير من هؤلاء العلماء والمجاورين الذين حضروا من الهند والأمراء استوطنوا الحجاز وبصورة أساسية مكة المكرمة وبالتبعية جدة، ولقد أورد كتاب سكان مكة بعد انتشار الإسلام للشيخ عبد الله الغازي سردًا للعديد من هذه الأسر المعروفة وأصحاب العلم الشرعي، وهي من الأسر المعروفة اليوم في مكة وجدة، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الحجاج الهنود الفقراء الذين استقروا في جدة بعد أن تقطعت بهم سبل العودة إلى بلادهم من القرن السادس عشر وما بعده[١].

= مولى خان جهان، وأمره بإعمار مدرسة للسلطان الهندي بالمدينة، وشراء أوقاف لها وتوزيع الصدقات، وكانت المدرسة في الحصن العتيق بالقرب من باب السلام.

ج المدرسة الكلبرقية بمكة المكرمة بأمر من السلطان كلبرجه شهاب الدين أبو المغازي أحمد شاه ٨٣٠هـ/١٤٢٦م ولها أوقاف بمكة.

د المدرسة البنجالية بمكة المكرمة تبرع بها الملك محمد بن قندو الجلال أبو المظفر ٨٣٧هـ/١٤٣٣م.

هـ المدرسة الكلبرجية بالمدينة المنورة في ٨٣٨هـ/١٤٣٤م.

و المدرسة الخلجية بمكة المكرمة تبرع بها صاحب مندورة من الهند محمد بن مغيث الخلجي، ولها أوقاف عظيمة وأموال مخصصة لها.

ز المدرسة الكنبايتية التي ذكرها ابن فهد عام ٨٦٧هـ/١٣٦٢م.

وردت هذه المدارس بالتفصيل في يسرى أحمد زيدان، دور الهنود في الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين، مجلة المؤرخ العربي، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٢٤٣-٢٥٤.

(١) عبد الله الغازي المكي، سكان مكة بعد انتشار الإسلام: عوائل مكة عبر العصور، تحقيق: محمد الهيلة، دار القاهرة، ٢٠٠٦م. مع وصول البابوريين إلى السلطة تم إيلاء اهتمام وثيق بشؤون الحجاز، وهذا يشمل هدايا للقيادات والفقراء في الحجاز وبناء أكبر نزل للحجاج في مكة، وسكن كثير من أحفاد هذه الأسرة في مدن الحجاز بشكل دائم، وهذا في القرن السادس عشر الميلادي. =

وساهم علماء الهند الشرعيون في حركة الهجرة إلى الحجاز لأسباب دينية؛ حيث أفتى الشيخ شاه عبد العزيز في عام ١٨٠٢م/١٢١٨هـ أن جميع المناطق الواقعة تحت حكم الإنجليز والممتدة من دلهي حتى كلكتا هي (دار حرب) وليست (دار إسلام) مما ساعد على الهجرة إلى الحجاز دار الإسلام، وولدت حركة ثورية إسلامية لتحرير البلاد بهدف إقامة حكومة إسلامية.

أضاف الهنود في ثقافة الحجاز عملاً ثقافيًّا مهمًّا في خدمة الإسلام وهو أدب (الرحلات الهندية إلى الحج)، والذي يعتبر فرعًا معرفيًّا مهمًّا وتوثيقًا لدراسة الحجاز وتاريخ مدن الحجاز ورحلة الحج في جدة ومكة، وشاهدًا على التطور الحضاري والعمراني والسياسي والاجتماعي عبر القرون؛ حيث رصدت هذه الرحلات الأنشطة الاجتماعية والثقافية، وقدمت رؤيا أنثروبولوجية غير مسبوقة ولا يوازيها نشاط مشابه حفظ للإقليم ذاكرته الأنثروبولوجية. من المؤلفات الرائدة على سبيل المثال: رحلة الشيخ عبد الحق الدهلوي ٩٩٧هـ/١٥٨٩م من أقدم رحلات الحج الهندية وكتبت باللغة الفارسية، وتعد رحلة الأمير صديق حسن بهو بالي ١٢٦٨هـ/١٨٥١م أول توثيق باللغة الأوردية.

يوجد حوالي أربعمئة مؤلف عن رحلات الحج الهندية أو (أدب الرحلات الحجازية) كما يطلق عليها، وأخذت كافة الأشكال واللغات؛ حيث كتب بعضها شعرًا والغالبية نثرًا، رحلات تعمقت في الجانب الروحاني أو تفسير أحكام الحج، بعض هذه الرحلات فردية وأخرى جماعية، بعضها كتبها فقراء وأخرى كتبها أغنياء، رجالاً ونساءً، واقعًا أو خيالاً[1]. رحلات الحج الهندية

= بيرنا رينجر الثالث، المسلمون الهنود في الحجاز حتى القرن الحادي عشر، مجلة اتجاهات للعلوم الاجتماعية، مجلد ٥، العدد ٢، ٢٠٢١م، (اللغة التركية) مترجم.
www. Dergipark. gov. Tr. Ictimalyat.

(١) حمساء بنت حبيش الدوسري، العلاقات العلمية بين الحجاز والهند...، مرجع سابق، =

أو أدب رحلات الحجاز تراث إنساني مهم تمت ترجمته إلى العديد من لغات العالم، وأصبح صنفًا أدبيًّا منفصلاً له أطره العلمية ودوافعه الأخلاقية.

الجانب الآخر لعلاقة الهند بالحج هو الاستيطان؛ حيث إن هناك مناطق في مكة المكرمة وجدة استوطن فيها الحجاج الذين لا يملكون تكلفة العودة إلى بلادهم أو لا يستطيعون العودة، واستغلت السلطات البريطانية وجود هؤلاء الحجاج الفقراء وطلبة العلم في جدة ومكة لأغراض سياسية[١].

٢- أسباب تجارية:

العلاقة التجارية بين الهند وجدة علاقة وثيقة؛ حيث إن الجغرافيا وطدت هذه العلاقة باتصال البحر الأحمر مع بحر العرب في كتلة مائية واحدة وتتصل كلها بالمحيط الهندي، الأمر الذي جعل هناك علاقة تكاملية بين هذه البحار والمدن على سواحلها، علاقة ساهمت في استمرار وازدهار هذه المدن مع دخولها في فضاء ثقافي مشترك تساهم الحركة التجارية في توطيد أواصره.

تعتبر حادثة التجوير الشهيرة البداية الحقيقية للعلاقات التجارية، وساعدت سياسات دولة المماليك الاقتصادية على أن تبدأ العائلات الهندية استيطان جدة للحفاظ وتنمية التجارة مع الهند، وهذا بداية ما يعرف باسم قصبة الهنود.

قصبة الهنود عبارة عن خان لإقامة التجار المسافرين وملحق بها مخازن للبضائع وحوانيت تخصصت في بيع المنتوجات الهندية والصينية، وعلى مر السنين توسعت وازداد ارتباط أهل جدة بالبضائع الواردة من الهند، وساعد انتظام وصول السفن الهندية والتزامها بموسم الرياح سنويًّا، وحضور القوافل

= ص ٦١١-٦٩٦.

(١) بيرنا رينجر الثالث، نص تركي مترجم، مرجع سابق.

من الشام ومن مصر لمقابلة هذه السفن والتجارة معها على ازدهار تجارة جدة مع الهند، وتزايد أعداد المستوطنين من الهند لرعاية هذه التجارة.

ويوضح التنظيم الذي قامت عليه التجارة الشرقية منذ فترة المماليك أن جدة وليس مكة هي الهدف من هذه التجارة، وهذا ما توصل إليه (مايكل بيرسون) علمًا أن هذه التجارة تستفيد من موسم الحج، وذلك تاليًا في الأهمية من استخدام جدة نقطة للتوزيع البحري والبري للبضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى.

ميناء جدة هو نقطة استقبال السفن الهندية الكبيرة القادمة في الموسم السنوي للرياح، وتتحول البضائع من هذه السفن الكبيرة المخصصة للمحيط؛ ولكن لا تستطيع الإبحار إلى شمال البحر الأحمر بسبب الشعب المرجانية، وبالتالي تنقل إلى سفن ملائمة أكثر لطبيعة البحر وإيصالها إلى السويس ومنها إلى أوروبا وأفريقيا. جزء آخر من هذه البضائع ينزل في ميناء جدة وتنقل عن طريق القوافل البرية نحو شمال الجزيرة العربية، ومنها إلى الشام أو في الاتجاه الآخر نحو المدينة المنورة، ومنها إلى بلاد العراق، وقوافل أخرى إلى عمق الجزيرة العربية[1]. هذا التنظيم المحكم للتجارة الشرقية هو الذي مكن لجدة مكانتها التجارية، وأصبحت تستقبل هذه السفن بالفرحة والأهازيج، ومنها الأهزوجة المعروفة من القرن الثامن عشر للشاعر يحيى عمر أبو معجب:

يا مركب الهند يا بو دقلين ... يا ليتني كنت ربانك
يحيى عمر قال قف يا زين ... سألك بمن كحّل أعيانك
من علمك يا كحيل العين ... من ذا خضّب أبنانك

(١) مايكل بيرسون، الحج إلى مكة المكرمة من شبه القارة الهندية ١٥٠٠-١٨٠٠م، ترجمة: د. معراج مرزا، ١٤٣١هـ، مركز تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة، ص ٢٥٣.

يوضح مايكل بيرسون لماذا أن الهدف من التجارة الهندية هو جدة في الأساس؛ لأن حركة السفن تتبع التقويم الشمسي، والأشهر التي يتم فيها الإبحار بين الهند وجدة محددة سلفًا، بينما موسم الحج يحدده التقويم القمري الذي يزحف عشرة إلى أحد عشر يومًا في السنة. ويورد رأي البرتغالي (باروس) من القرن السادس عشر الذي وصف جدة بأبنيتها وتجارتها أنها أكثر بلد يحظى بالاحترام، ويحاط بالتقدير على طول الساحل العربي وعلى البحر الأحمر، وكيف أن القائد البرتغالي سواريز لوبو [Soares Lopo] وجد أن مبررات بناء قلعة على مدخل البحر الأحمر سوف يؤدي إلى إغلاق تجارة الهند، وسيضبط المليباريين الذين ليس لهم مصدر رزق سوى تجارتهم مع جدة. في تلك الحقبة اضطربت التجارة مع الهند نتيجة الغزو البرتغالي، وبعد أن سيطروا على قاليقوط سمح القائد البوكيرك للتجار الهنود أن يخرجوا ومعهم زوجاتهم وأولادهم وتجارتهم إلى جدة ويستوطنوا هناك وعدم العودة للهند[١].

واستلزم حجم التجارة الكبير بين جدة والهند أن يكون هناك استيطان بشري من الهند في جدة لمتابعة هذه التجارة وتنميتها. كما تقّدم في القرن السادس عشر كانت تصل إلى جدة ما بين أربعين إلى خمسين سفينة عظيمة محملة بالتوابل والأقمشة، ويوثق الإنجليز أنه في مطلع القرن السابع عشر توسعت التجارة عن ذلك، وأصبحت جدة تستقبل أعدادًا أكبر من السفن مما أضفى على تجار جدة سمعة عالمية ومكانة عالية في الهند؛ بحيث إذا أراد الناس أن يدللوا على قيمة شيء وغلائه فإنهم ينسبونه إلى سفينة قادمة من جدة ميناء البحر الأحمر الرئيسي[٢].

---

(1) Angelo Pesce, Jeddah..., op. cit, P 62.

(٢) مايكل بيرسون، الحج إلى مكة...، مرجع سابق، ص ٢٥٦-٢٥٧.

قـدّر الرحالة نيبور في القرن الثامن عشـر عـدد القوافل التي تحمل البضائع الهنديـة وتتحـرك بـرًّا خارجـة مـن جـدة بأنها تصل إلى خمسـين ألـف جمل، وهذا نفس الرقم الذي اسـتخدمه موديف في وصف القوافل الخارجة من جدة بالبضائع الهندية حمولة خمسين ألف جمل[١].

ازدهـرت التجـارة فـي جدة، وهنـاك إجماع بيـن الرحالة الذيـن قدموا إلى جدة في القرن التاسـع عشـر تحديدًا والقناصل أن التجارة في جدة يسيطر عليها الحضارم والهنود. الهنود بالتحديد كانوا يحظون برعاية شركة الهند الشرقية التي شجعتهم على الاستيطان في جدة والسيطرة على تجارتها بالقوانين والتسهيلات والخبـرة فـي التعامل مـع الاقتصاديات المتحولة نحو أسـواق الثـورة الصناعية. اسـتيطان التجار الهنود في مدينة جدة ومنافسـة التجار الحضارم هو الذي أشعل فتيـل الأحـداث الداميـة فـي عـام ١٨٥٨م، ونتـج عنهـا مصرع قناصـل وتجار مسـيحيين ما مجموعه اثنان وعشـرون شخصًا، وما ترتب على ذلك من أحداث عسكرية وقصف جدة والتنكيل بأهلها، وذلك لأن بريطانيا اتخذت سياسة تسهيل الهجرة إلى جدة من الهند والتوسـع في قصبة الهنود حتى نهاية الحرب العالمية الأولى باعتبارهم رعايا بريطانيا، وما لبث هؤلاء أن اندمج أكثرهم مع المجتمع المحلي، وأصبحوا من خلال العمل التجاري جزءًا أصيلًا من مجتمع جدة.

أدركـت بريطانيـا أهميـة العلاقـة الهندية بالجزيـرة العربية وأنشـأت مكتب الهنـد، وهـو إدارة حكوميـة فريدة في نطـاق تخصصها وسـلطاتها، ومن لندن تعامـل هـذا المكتب مع وزارة الخارجية وإمارة البحر والأسـطول بشـكل وثيق مع شؤون الخليج والجزيرة العربية وبصورة خاصة كل ما يتعلق بمدينة جدة في القرن التاسع عشر قبل وأثناء الأحداث الدامية في عام ١٨٥٨م.

---

(١) علي السيد محمود، الحياة الاقتصادية في جدة ...، مرجع سابق، ص ٢٧.

بوركهارت أثناء زيارته إلى جدة وثّق أنه يقيم بها ما يزيد عن مائة عائلة هندية أكثرهم من سورات وبعضهم من بومباي، حافظ أكثرهم على عاداتهم وتقاليدهم ويعملون بالتجارة المتنوعة، منهم ثمانية عشر بائع أدوية من سورات ويعملون في تجارة الشموع والورق العطور والبخور، أما الهنود من بومباي فإنهم أصحاب متاجر صغيرة تباع فيها بضائع الهند مثل: المرايا والسبح والسكاكين والملاعق الخشبية إلخ[١].

٣- أسباب أخرى:

هاجرت قطاعات كبيرة من المجتمع الهندي لأسباب غير التي سبق وأن ذكرناها، ومنها فئة السلاطين والأمراء، وأيضًا فئة المتسولين بتشجيع من بريطانيا.

مثال السلاطين والأمراء: الأمير عز الدين بن شمس الدين الغزنوي الدهلوي الذي كان أمير كجرات وبيهار ولقبه (الخان الأعظم) بعد أن رفض أن يزور الإمبراطور بسبب عدم استحسانه للسجدة التي يفرضها الإمبراطور على الزوار؛ لذا هاجر إلى الحجاز مع أبنائه وبناته ومئة رجل من خاصته في أواخر القرن السادس عشر. كذلك أمير منطقة اجمير وهو الشيخ الصالح حسين بن أبي الحسن الجشي الأميري عندما غضب عليه الإمبراطور هاجر مع أهله إلى الحجاز.

فئة العلماء الشرعيين أيضًا كانوا يهاجرون إلى الحجاز إذا غضب عليهم الإمبراطور، مثل: الشيخ شمس الدين الأنصاري السلطانبوري، ويلقب بشيخ الإسلام لمكانته العلمية العالية، وحكيم الملك الكيلاني الشيخ شمس الدين هاجر إلى الحجاز عندما غضب عليه الحاكم، والشيخ عبد النبي بن أحمد الكنكوهي والقائمة تطول، وكلهم يهاجر إلى الحجاز مع أبنائه وخاصته،

---

(١) جون بوركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية...، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٠.

وبعض هؤلاء يعودون إلى الهند في فترة ما ولكن الغالبية يستوطنون الحجاز[١].

فئة أخيرة هم المتسولون وهم فقراء الهنود الذين يحضرون لأداء فريضة الحج ولا يملكون الأموال لعودتهم للهند، ويمارسون التسول في مكة وجدة بشكل مستمر، وبعضهم يستوطن مدن الحجاز لأجيال كما لاحظ بوركهارت.

شجعت بريطانيا المتسولين وفقراء الهند للقدوم إلى مكة وجدة من أجل إشاعة الأمراض، وإظهار أن الدولة العثمانية غير قادرة على الإشراف على موسم الحج بدليل انتشار الأوبئة والأمراض التي يحملها هؤلاء المتسولون معهم، وتبالغ بريطانيا في كتابة التقارير الصحية المسيسة عن الحالة الصحية للحجاج المسلمين، وهذا يشكل ذريعة للتدخل في شؤون الحج وفرض الحظر الصحي، والتدخل في إدارة شؤون الحجاز، والاستفادة من الموقع الاستراتيجي لمدينة جدة. هذه السياسة البريطانية بدفع أعداد المتسولين الهنود إلى جدة ومكة ازداد الاعتماد عليها بعد إعلان الجامعة الإسلامية من السلطان عبد الحميد باعتبارها وسيلة لضرب التجمع الإسلامي وإضعاف الدولة العثمانية في مركز قوتها وهو الحجاز والحج.

يشير تقرير للقنصلية البريطانية بجدة إلى أن أغنياء الهند يرسلون مجموعات من الفقراء إلى الحج، وهذه أعمال في غير محلها ومثبطة للهمم؛ لأن دور المحسن ينتهي بدفع أجرة السفر، ويصبح هؤلاء متسولين يزعجون المسافرين في الباخرة، وبعد أن يصلوا لا يكفون عن التسول أثناء الحج وبعد الموسم، وتهدهم الأمراض والجوع والقاذورات الموجودة في مساكنهم هي سبب تفشي الأمراض[٢].

---

(١) حمساء بنت حبيش الدوسري، العلاقات العلمية...، مرجع سابق، صفحات متعددة.

(٢) سلوى بنت سعد الغالبي، وباء الكوليرا في الحجاز...، مرجع سابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.

كتب كثير من الرحالة الأجانب عن ظاهرة المتسولين الهنود في جدة وفي مكة والذين ظهروا من القرن السادس عشر، ولكن بلغت الأعداد ذروتها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وفي وثيقة تكشف بالتفصيل طريقة عمل المتسولين الهنود في عام ١٣٠٥ هـ في جدة ومكة أو عند عودتهم إلى الهند.

يقول الملا عبد القيوم ديبي كمشنر: "منهم من يزوِّر مكاتيب أنها من أمير مكة أو من والي الحجاز بطلب المساعدة في بناء الحرم الذي هدمه السيل وغيرها من الأكاذيب الوقحة، ويطلب المساعدة من أغنياء الهند، وبعضهم جماعة يجأرون ويصرخون بالصوت يصلون على النبي، ومعهم صندوق يزعمون أن بداخله جبة النبي، وبعضهم معهم صندوق يزعمون أن فيه سن النبي ﷺ، ويأتي العوام أفواجًا على هذه الصناديق المحشوة كذبًا وبهتانًا، ولا تجد أحدًا من علماء الهند ينكر تلك البدع ومن ينكرها يرمونه، وصار العوام يقلدونهم ويقولون لولا أن السؤال والشحاتة حلال لما ارتكبها علماء، وانظر لبعض علماء الهند يدعي النسب العلوي والطريقة النقشبندية وهو قوى البنية مثل الفيل وليس له حرفة إلا السؤال والشحاتة، ويستطرد: ولا رأيت شحاتًا ولا سائلًا إلا وهو يزعم أنه شريف علوي، أو أن جده الصحابي الفلاني ويختلق لنفسه نسبًا كذبًا.

في موقع آخر يقول: أن الأغراب الواردين إلى الحرمين بنية الهجرة مثل أهل الهند متى سكن الواحد فيهم الحرمين إلا وفاق في الشحاتة على الموجودين براتب، فبدل أن تعلمت وقلدت السفهاء في الشحاتة والوقاحة ليتك أخذت العلم، وفاق الدخلاء أهل الحرمين الأقدمين في الدجل والتسول والكذب"[١].

(١) عبد القيوم ديبي كمشنر، كشف الزور والبهتان من صنعة بني ساسان، ١٣٠٥ هجرية. وثيقة مترجمة من الإنجليزية.

ويصف الرحالة الفرنسي كورتلمون المتسولين في جدة ومكة بصورة أدبية، ويحاول أن يلخص وضعهم الحزين ويقول: أنهم حضروا وراء أمل غامض يتعلق بالثراء أو الموت، وقد خانهم الثراء وها هو الموت يبعدهم عنه، فبأي مخلفات يقتاتون وكيف يعيشون؟ لم يُعد أمام هؤلاء التعساء إلا المساجد يلجؤون إليها ويعيشون في الهامش، مثل النباتات الصحراوية[١].

في دراسة تحليلية عن الإستراتيجية البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتعاملها مع الحجاز، تعاملت مع هذا الإقليم كأنه منطقة ضائعة بين الإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية، وأن الهنود بمثابة حصان طروادة الذي سوف يمكن الإنجليز من السيطرة على الحجاز من خلال استغلال التوتر والصراعات الموجودة بين الأشراف والولاة والقوى المحلية، واستخدام الهنود باعتبارهم أكبر جالية أجنبية عددًا، وأكثر الحجاج عددًا لتنفيذ خطة إخضاع الإقليم كله، والجزيرة العربية والعراق تحت الحماية البريطانية؛ لأن الهنود بهذه الأعداد المتزايدة كانوا وسيلة لفرض الضوابط القانونية والأساليب الصحية، والتدخل في شؤون الحجاز بالمنهج الاستعماري، وإسقاط شرعية الخلافة العثمانية مع الإقليم، وقد عمل الأشراف ضد هذه السياسة بمراقبة الهنود بشكل جماعي؛ ولكن بدون جدوى لازدياد الأعداد القادمة على السفن البخارية والضعف الذي أظهرته الدولة العثمانية[٢]، ولا يعرف عن الهنود أنهم قاموا بأي جهد سياسي منظم في الحجاز.

جاء في كتاب سويلمز أوغلو أن الإنجليز اتبعوا سياسة ممنهجة بمعاملة مسلمي الهند بشكل لطيف، وإرسالهم إلى الحج خاصة كبار السن والفقراء؛

---

(١) جيل جروفيه كورتلمون، رحلتي إلى مكة، مؤسسة التراث، الرياض، ٢٠٠٣م، ص ١٢١.

(2) Michael Low, Imperial Mecca, Columbia University Press, New York, N.y, 2020.

لتظهر بمظهر الدولة الحريصة على المسلمين، ثم تقذف بهم عرايا ومرضى إلى السفن، وما أن تطأ أقدامهم جدة حتى يبدأون في التسول، ويتجولون ناشرين الأمراض والأوبئة، ولا يملكون قيمة العودة إلى بلادهم بعد أن يتموا الحج، ويبقون في جدة ومكة متسولين، ومن يرجع إلى بلاده يذكر الصعاب والمعاملات غير اللائقة من موظفي الدولة العثمانية، ويرجعون أعداء للدولة العثمانية[١].

وتجدر الإشارة إلى أن موظفي القنصلية البريطانية في جدة قاموا بواجبهم المهني في التحذير من ضرورة وجود سياسة تلزم الحجاج الهنود أن يكون معهم قيمة تذكرة العودة بدلًا من اللجوء إلى التسول، وكيف أن الدول الأخرى لديها أنظمة بهذا الشأن مع تزايد أعداد الحجاج بالسفن البخارية؛ ولكن من الواضح أن هناك سياسة عليا بهذا الشأن لأغراض استراتيجية وخطط بريطانيا الاستعمارية.

ختامًا: قدمت الهند هذا الخليط العجيب من فئات البشر المختلفة الذين استوطنوا جدة ومكة إما بصورة مؤقته أو دائمة، وكانوا إضافة حقيقية لثقافة الحجاز من الناحية العلمية والاقتصادية والإنسانية، وأضحوا جزءًا لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي، ولعب العلماء منهم دورًا مهمًّا في تدريس العلم الشرعي، والمؤلفات الفقهية، وترجمة النصوص الإسلامية من العربية.

ابتعدت الجالية الهندية عن العمل السياسي في الحجاز، وأفشلوا المخططات الاستعمارية للدول الغربية التي سعت لاستخدامهم لأغراض السيطرة على الحجاز، واكتفوا بالمساهمات العلمية والاقتصادية العميقة في مدن الحجاز، وساهموا في إضفاء الحيوية والتنوع على ثقافة المدن في أبعادها المختلفة خاصة وأنهم من أكثر القادمين عددًا.

---

(١) صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة...، مرجع سابق، ص ٢٠١-٢٠٢.

سادسًا:
الملاحة البحرية وإرهاصات الحداثة

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر نموًّا كبيرًا في حركة الملاحة البحرية من وإلى جدة، الأمر الذي كرس اعتبار جدة مدينة كونية، وبلغت الأمور ذروتها في نهاية القرن التاسع عشر؛ حيث أصبحت مدينة انعكست فيها العولمة الاقتصادية بمفهومها الشامل باعتبارها نقطة النهاية للخط الملاحي القادم من المحيط الهندي ويوجد بها الإنتاج الهندي والصيني والتركي والمصري والشامي والأوروبي والأمريكي، ولكل سلع تمر أو تنزل بساحلها دلالة وحتى الأكل والملبس لهما ثقافتهما الخاصة، في جعل أهل جدة وروادها على قدر كبير من المعرفة بالعالم المحيط القريب والبعيد، خاصة وأن معظم قادة السفن والتجار كانوا ينزلون بالمدينة ويتعاملوا مع أهلها مباشرة، الأمر الذي جعل لديهم انفتاحًا ذهنيًّا على الحداثة والمخترعات الجديدة.

أ - الملاحة البحرية:

تكرس موضع جدة باعتبارها معبرًا حيويًّا لحركة السفن بين الهند وفارس وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية والحبشة، وكان العرب يأتون بالبن؛ حيث يباع في جدة إلى الأتراك الذين يشحنونه بدورهم إلى السويس، ومن مصر تنقل الشحنات إلى مراكز البيع الأخرى، ونستنتج من تقرير القنصل الإنجليزي في جدة في عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م عن الوضع التجاري بها، أن واردات جدة كانت أكثر من مليون إسترليني، وكان حوالي ٣/٤ أو أربع أخماس هذه الواردات

– سواءً عن طريق مباشر أو غير مباشر – من الإمبراطورية البريطانية، وقد كان هناك ثلاثة أنواع من الشحنات: الأولى وهي: شحنات السفن المحلية إلى جدة ومنها إلى الموانئ الأخرى على البحر الأحمر والجزيرة العربية وفارس، والثانية: شحنات تجارية على سفن أكبر وأوسع نطاقًا من موانئ الهند وسنغافورة وجاوة، وإن كانت السفن التي تبحر إلى البلاد الأخيرة بواسطة الأوروبيين، والثالثة: شحنات السفن التي تصل عادة إلى جدة من أوروبا والشركات التجارية الأخرى التي كان بعضها يخص مصر، وتقوم برحلات منتظمة بين جدة والسويس[١].

إن شبكة حركة سفن التجارة العالمية منذ افتتاح قناة السويس، وخاصة السفن القادمة من جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا تمر عبر البحر الأحمر إلى أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا الشمالية، وبالعكس فإن السفن القادمة من الشمال (أوروبا وأمريكا الشمالية) عبر قناة السويس تمر إلى البحر الأحمر، فبالتالي أصبحت جدة محطة (ترانزيت) مهمة. مدينة انعكس فيها العولمة الاقتصادية بمفهومها الشامل باعتبارها نقطة النهاية للخط الملاحي القادم من شواطئ المحيط الهندي، الخط المحمل بثقافة ومفاهيم المجتمعات التي يمر بها، ويوجد بها الإنتاج الهندي والصيني.

تدون لنا الخرائط العالمية التي سجلت خطوط المواصلات البحرية بوضوح أن البحر الأحمر وموانئه أصبح من أهم خطوط الملاحة البحرية في نهاية القرن التاسع عشر.

ونشطت أيضًا حركة السفن البخارية الكبيرة التي تصل إلى ميناء جدة، والجدول التالي يرصد حركة السفن البخارية التي وصلت إلى ميناء جدة خلال

(١) صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة...، مرجع سابق، ص ٧٢-٧٣.

الفترة من ١٨٩٨-١٩٠١م، وإجمالي حمولتها بالطن ومرفق جدول بهذا[1]:

م	الجنسية	١٨٩٨		١٨٩٩		١٩٠٠		١٩٠١		المجموع	
		عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن
١	البريطانية	١٠٦	١٣٣,٧٣٥	١٠٥	١٤٢,٣٦٥	١٢٨	١٥٧,٥٢٧	١٥٨	٢١٦,٤٣٢	٤٩٧	٦٥٠,٠٥٩
٢	التركية	٢٥	١٨,٨٠٩	٢٣	٢١,١٦٦	١١	١٢,٨١١	٥١	٥٦,٤٩٨	١١٠	١٠٩,٢٨٤
٣	الهولندية	٢٨	٤١,٤٣١	١٧	٢٧,٤٧٤	١٨	٢٩,٧١٩	٢٦	٤٦,٥٥٣	٨٩	١٤٥,١٧٧
٤	الفرنسية	..	..	..	..	٤	١,٣١٩	١١	١٢,٢١٠	١٥	١٣,٥٢٩
٥	اليونانية	..	..	٢	١,٣١٤	..	..	١٠	٨,٩٨٥	١٢	١٠,٢٩٩
٦	النمسا – المجر	٦	٥,١٧٥	..	..	١	١,٨٢٧	٥	٦,٦٨٤	١٢	١٣,٦٨٦
٧	الروسية	..	..	..	..	..	..	٤	٦,٣٩٢	٤	٦,٣٩٢
٨	المصرية	٢٧	٥١,٧٢٧	٤٤	٣٩,٩٥٥	٨	٧,٥٣٦	٢	١,٦٢٠	١١١	١٠٠,٨٣٨
٩	الإيطالية	..	..	..	..	..	..	١	١,٣٦٢	١	١,٣٦٢
١٠	الفارسية	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..
١١	السويد – النرويج	١	٢,١٧٧	..	..	..	..	..	..	١	٢,١٧٧
١٢	الألمانية	١	١٣٢	..	..	..	..	..	..	١	١٣٢
	المجموع	٢٤٤	٢٥٣,١٨٦	١٩١	٢٣٢,٢٧٤	١٧٠	٢١٠,٧٣٩	٢٦٨	٣٥٦,٧٣٦	٨٥٣	١,٠٥٢,٩٣٥

جدول يوضح حمولة السفن بالطن وجنسيتها في الفترة من ١٨٩٨-١٩٠١م التي وصلت إلى جدة.

ويوضح لنا الجدول السابق حالة السيطرة الكبيرة للسفن البخارية البريطانية على التجارة والبضائع الواردة إلى مدينة جدة، وربما يكون ذلك مفهوم لنا في ضوء العلاقات السياسية المهمة التي كانت تربط بين الأشراف في مكة والبريطانيين، ومن الأسباب الأخرى أيضًا لهذه السيطرة، الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢م وتحكمها في الشريان البحري بقناة السويس والبحر الأحمر من جهة الشمال والجنوب أيضًا في ظل السيطرة البريطانية على باب المندب وعدن منذ عام ١٨٣٩م، أضف إلى ذلك أن الأسطول التجاري البريطاني كان

(1) Diplomatic and consular reports, Trade of Jeddah and Hodeida 1899-1901, London 1903, P 6-7.

يملك سفنًا كبيرة الحجم تعمل بالبخار، وكانت متطورة عن الأساطيل التجارية التي تعمل في منطقة البحر الأحمر، ويأتي في المرتبة الثانية بعد البريطانيين وفقًا لهذا الإحصاء الأتراك والمصريون والهولنديون بتفاوت بسيط بعدد السفن التجارية عام ١٨٩٨م، أما عام ١٩٠٠م و١٩٠١م فقد انخفض بشكل كبير عدد السفن التجارية المصرية التي تصل إلى جدة، ويعود السبب في ذلك إلى انتقال الإشراف على الشركة الخديوية المصرية للجانب البريطاني.

كما أن تقارير القنصلية البريطانية تشير إلى أنه بنهاية القرن التاسع عشر كان يوجد بمدينة جدة أكثر من ٣٠ وكيلًا تجاريًّا يتعاملون مع بومباي وكلكتا، بالإضافة إلى حوالي ستين من تجار التجزئة العرب في جدة وبعض الأتراك والفرس وجزائريِّيْن، كما يشير التقرير صراحة إلى أن تجارة اللؤلؤ وتصديره من أهم الأعمال التي يمارسها بعض التجار في جدة، وخاصة أن البحر في تلك المنطقة هو بيئة جيدة لاستخراج اللؤلؤ، أما بخصوص السفن الشراعية فقد كان هناك أكثر من ٢٤٠ سفينة شراعية مسجلة لدى إدارة ميناء جدة[1].

أما السفن الشراعية التي سيطر عليها أهل جدة (التجار الرعايا المحليين في جدة تم إدراجها على أنها سفن تركية)؛ لأن بلاد الحجاز كانت تابعة للدولة العثمانية في تلك الفترة، فقد سيطرت بشكل كبير على حركة السفن الشراعية والتي كانت قادرة على الدخول إلى الميناء. ويوضح لنا الجدول التالي والخاص بالسفن الشراعية التي تم رصدها بميناء جدة في تقرير القنصلية البريطانية خلال الأعوام من ١٨٩٨-١٩٠١م، والتي جاءت على النحو التالي:

(1) Diplomatic and Consular Reports, Trade of Jeddah and Hodeida 1899-1901, London 1903,P 6-7.

(سفن شراعية)										
م	الجنسية	١٨٩٨		١٨٩٩		١٩٠٠		١٩٠١		المجموع	
		عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن	عدد السفن	الحمولة بالطن
١	البريطانية	٣	٨٩٧	١	٨٤٧	٢	٩٠٧	١١	٢٧٠	١٧	٢,٩٢١
٢	التركية	٥٥٧	١١,٣٦٨	٥٧٨	١٢,٠٩٣	٦٣٥	١٣,٥٩٥	٢٧٦	١٧,٨٥٩	٢,٠٤٦	٥٤,٩١٥
٣	الهولندية	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..
٤	الفرنسية	٨	٢٨٠	١٠	٣٩٠	٩	٤٤٠	٨	٣١٠	٣٥	١,٤٢٠
٥	اليونانية	..	..	١	٤٠	..	..	..	..	١	٤٠
٦	المصرية	١٣	٩٦٣	٩	٦٤٠	١٤	٩٦١	١٧	٧٦٩	٥٣	٣,٣٣٣
٧	الإيطالية	..	..	١	٢٠	٢	٨٩	١	٥٦	٤	١٦٥
٨	الفارسية	٥	٢٢٠	٤	١٧٦	٧	٤٣٤	١٢	٦٤١	٢٨	١,٤٧١
٩	الألمانية	..	..	..	..	..	..	..	..	..	..
	المجموع	٨٥٦	١٣,٧٢٨	٦٠٤	١٤,٢٠٦	٦٦٩	١٦,٤٢٦	٣٢٥	١٩,٩٠٥	٢,١٨٤	٦٤,٨٦٥

جدول يوضح عمليات الشحن من وإلى جدة خلال الأعوام ١٨٩٨-١٩٠١ أعداد السفن وجنسيتها والحمولة بالسفن الشراعية[1].

وبنهاية الربع الأول من القرن العشرين، وتحديدًا في عام ١٩٢٢م، أشار تقرير بريطاني إلى وجود علاقة تجارية بين جدة و٢٢ ميناء آخر (لنقل الحجاج والبضائع) وأكثر تلك الموانئ العالمية التي كانت مصدرًا للواردات إلى ميناء جدة، هو ميناء كلكتا في الهند، في حين كان ميناء نيويورك أقل الموانئ تعاملاً مع ميناء جدة، ومن الموانئ العربية جاء ميناء السويس كأكثر الموانئ الذي يورد بضائع إلى جدة، وذلك لطبيعة العلاقات المصرية الحجازية القوية، وقد جاءت أقل كمية بضائع من ميناء بيروت، كما ارتبط ميناء جدة بصلات تجارية مع ميناء البصرة في الخليج العربي، وكانت الحكومة في الحجاز تحصل رسومًا جمركية على السفن والبضائع الواردة إلى الميناء والمصدرة منه، وقد بلغت

(1) Diplomatic and Consular Reports, Trade of Jeddah and Hodeida 1899-1901, London 1903, P 13.

حوالي ٢٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي سنويًّا، وهو رقم ضخم في تلك الفترة[١].

ب - إرهاصات الحداثة:

بدأت إرهاصات الحداثة والتفاعل مع الحضارة الغربية مبكرًا في جدة، وتحديدًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد أن تحركت القوى الغربية بأشكال مختلفة نحو جدة وتفاعلت معها، ووضعت الخطط الاقتصادية والهندسية لاستيعاب منتجات الحضارة الغربية.

وقد لخص حالة جدة شارل ديدييه في ١٨٥٤م عندما كتب: "أخبروني في القاهرة أن جدة ليست إلا حيًّا صغيرًا، وقد تكرر ذلك على مسامعي حتى أنني لم أكن أنتظر رؤيتها على ما هي عليه، كم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدتها على العكس من ذلك مدينة جميلة، مكينة البناء، جيدة التأسيس، تعج بالسكان، نابضة بالحياة، ومزدحمة"[٢].

وضعت هذه القوى جدة على مسارات خطوط الملاحة البحرية العالمية مبكرًا، وكانت هناك أفكار رائدة بإدخال خدمات السكة الحديدية والترولي إلى جدة، وجهود الاتصالات البريدية والبرقية كانت رائدة في المنطقة، وإحضار المعدات العسكرية والطيران وغيرها. القبول الاجتماعي لأصحاب الاختراعات الحديثة والتعامل الإيجابي مع الغربيين كان من أهم سمات السكان مما ساعد في قبول هذه الاختراعات وأصحابها، ويعتبر ما كتبه الرحالة وتقارير القناصل الغربيين أهم مصدر لتوثيق هذا الجانب الإيجابي من تاريخ جدة الثقافي والاجتماعي.

---

(١) جبر محمد الخطيب، حركة التجارة والحجاج في ميناء جدة ١٩٢٢-١٩٢٣م، دراسة وثائقية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، عدد ٣٨، ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر...، مرجع سابق، ص ١٣٧.

ولخص الرحالة شارل ديدييه الوضع: "إن المسيحيين يتمتعون اليوم في جدة بكامل حريتهم وبأمن يوازي ما يجدونه في مصر وإستانبول، لقد تجولت في أنحاء المدينة في كل أوقات النهار والليل وحدي في غالب الأحيان ولم يتعرض لي شخص بشتم قط، ووجدت من الناس كلهم لطفًا وفضلاً"[١].

سوف ننظر إلى عدد من الأنشطة المختلفة للأجانب في جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي تعكس طبيعة ثقافة جدة وتركيب مجتمعها، وأهمها :

أ - الاحتفالات الدينية:

شهدت جدة احتفالات دينية علنية لأصحاب ديانات مختلفة أو من أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة ولاقت عدم الاعتراض من أهل المدينة، ومثال ذلك أن قامت فرقة إنجليزية في عام ١٨٨٠م/١٢٩٨هـ بالعزف الموسيقي في شوارع جدة احتفالاً بالكريسماس وأعياد الميلاد، وقد وثق القنصل الإنجليزي أن عزف الفرقة الخاصة بالسيد فيلوميل [Philomel] لم تترك أي أثر سلبي أو اعتراض من السكان؛ ولكن السلطات المحلية ترى أنه من المفروض إبلاغهم بهذا العمل قبل أن يحدث ولو أن هذا الأمر حدث في أي جزء من الإمبراطورية العثمانية فإنه كان سيؤدي إلى خلق اضطرابات؛ ولكن لم يترتب عليه هنا في جدة أي مشاعر مضادة للأوروبيين[٢].

---

(١) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر...، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢) سلوى سعد الغالبي، ملامح من أوضاع المسيحيين في جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي من خلال وثائق الأرشيف البريطاني ١٨٦١-١٨٩٤م، بحث مقدم إلى جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، إبريل ٢٠٠٨، ص ٢٠.

ووصف الرحالة سنوك احتفالات الفرس من المسلمين من أصحاب المذهب الشيعي لتكريم الأولياء الشيعة؛ حيث أقيمت في شهر المحرم في منزل السيد مختار، وكان احتفالًا عامًّا فيه الكثير من الفرس والأجانب، وشاركت فيه أعدادٌ كبيرة من الرجال والأطفال الذين مارسوا الإنشاد باللغة الفارسية مع القرع على الطبول.

أشار سنوك أيضًا إلى طقوس الزار، وهي ممارسات لطرد الأرواح الشريرة باستخدام الموسيقى والطبول في منزل تملكه سيدة تركية، وقد شاهد هذه الممارسات من نافذة مبنى القنصلية الهولندية[١].

ب - الطعام والشراب:

وهذه من أكثر الممارسات التي شهدت فيها جدة انفتاحًا على الثقافات الأخرى؛ لأن كل جالية أجنبية تحضر معها أصناف الأطعمة والأشربة التي تعودت عليها، وهذا يشمل الأطعمة الأوروبية والمشروبات المحرمة؛ حيث وثق الرحالة جون فرايدكين (الحاج أمين) أثناء رحلته وجود مطعم فرنسي في جدة يقدم أصناف الطعام والشراب الأوروبي؛ حيث ذكر: "لم أتناول إفطاري الذي هو أرز بالكاري، هرعت إلى الخارج وأنفقت روبية على شريحة لحم مع الخبز الأبيض والقهوة في مطعم فرنسي لا يبعد كثيرًا عن النزل. في المطعم الفرنسي تناولت الحديث مع اثنين أو ثلاثة من الفرنسيين مع لفافة من التبغ وكأس من الكونياك، وبعد أن احتسيته أفصحت لهم عن بلدي الأم وعرضوا عليَّ تزويدي بملابس أوروبية"[٢].

(1) Before Mecca, The Jeddah Diary of Snouck Hurgronje 1884 – 1885, by Jan Justwikom From Scholarship in Action, P12.

(٢) جون فرايد كين، الحاج محمد أمين، ستة أشهر في الحجاز ١٨٧٧-١٨٧٨م، ترجمة: =

كانت الخمور تُباع في جدة بضغط من القناصل الغربيين ومن يتمتعون بحماية هذه القنصليات، وكانت جموع السكان والسلطات المحلية تطالب دائمًا بإغلاق محلات بيعها. البداية الرسمية كانت عندما وافقت الدولة العثمانية على السماح ببيع الخمور في الأقاليم التابعة لها وتنظيم ذلك، وقد كتب القنصل البريطاني إلى سفارة حكومته لدى الباب العالي في ١٨٦٧/١٢/٢٣م، الموافق ١٢٨٤هـ أنه وصلني المنشور الخاص بالتنظيمات الجديدة التي وافق عليها الباب العالي بخصوص بيع الكحوليات بالتجزئة وإلزامي بمتابعة ذلك مع رعايا جلالتها الذين يهمهم الأمر.

كانت تجارة المشروبات الكحولية في جدة تدار من قبل التجار اليونانيين تحت حماية القنصلية الفرنسية، وفي عام ١٨٦٧م/١٢٨٤هـ وقعت اضطرابات أمنية بسبب المخمورين، وطلب القائمقام العثماني من القنصل الإنجليزي بيتس [Beyts] أن يستخدم نفوذه وذكاءه مع القنصل الفرنسي دا ديوكس [Da Duex] من أجل إلغاء تراخيص بيع الخمور، وبالفعل توافق القناصل كلهم على ذلك، وللأسف لم يستمر الأمر طويلًا؛ حيث رفض التجار هذا التوجه؛ لكن القائمقام نجح بالدعم الشعبي من السكان في إغلاق أماكن البيع، وتم تحريم ومنع بيع المشروبات الكحولية في الحجاز في عام ١٨٦٠م/١٢٧٧هـ بعد أن تولى السلطان عبد العزيز الحكم في جهوده لمحاربة النفوذ المسيحي في الدولة العثمانية وأنشطة التبشير، ودعا إلى مراجعة القوانين العثمانية التي سمحت للأجانب والمسيحيين بالنفوذ الواسع في الدولة، وكان النصارى يسمون عام ١٨٦٤م/١٢٨١هـ عام الانتكاسة[١]. طلب القنصل البريطاني ويليام ريتشاردس

= د. إنعام أيبش، أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١، أبو ظبي، ص ٣٤٠.

(١) أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان سليمان، مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٩٠ صفحات متعددة.

[William S. Richards] فـي ١٨٩٤م/١٣١٢هـ وضـع آليـة تنظيم بيع الخمور في جدة للرعايا الأجانب لاستخدامهم الشخصي على أساس أن هذا حافز لبقاء الأوروبيين في جدة، وإنشاء مستودع خاص في الجمرك لحفظ الكحوليات فيه، وأشار إلى استمرار التجار اليونانيين في بيع الخمور في جدة على الرغم من المنع الرسمي، وقدر عددها في التقرير أنها عشرة حوانيت، وكان اقتراحه أن يحدد مقدارًا معينًا من الخمر لكل شخص وأسرته وضيوفه حسب مكانته[١].

جـ - دفن الموتى غير المسلمين:

وثق شارل ديدييه جنازة القنصل الفرنسي في جدة؛ حيث ذكر أنه في فترة وجوده في جدة كان القنصل مريضًا وتوفي من ذلك المرض، وكانت جنازته بسيطة؛ حيث حمل القنصل مثل عامة الناس إلى مثواه الأخير على أكتاف أربعة رجال من العرب يجرون بالجنازة مسرعين، وكنا نتبعهم أنا ورفيق رحلتي والسيركول والإخوة ساوه، وأبدى الناس التسامح والاحترام للجنازة، وكتب كيف "حذرونا من تطرف العامة ولكنهم بدوا على العكس خلال مرورنا هادئين ومحتشمين وتبدو عليهم علائم الوقار"[٢].

مقبرة غير المسلمين موجودة من أواخر القرن الثامن عشر؛ لأنه قبل ذلك كانوا يدفنون النصارى خارج جدة في إحدى الجزر القريبة باعتبار جدة محرمة على غير المسلمين، تشير أكثر المصادر أن الشكل الأول لهذه المقبرة كان عبارة عن دفن عشوائي في الجزيرة قرب جدة؛ ولكن عند وجود محمد علي في جدة تم تسويرها والاهتمام بها خاصة وأن جيشه كان يحوي عددًا من

(١) سلوى الغالبي، ملامح من أوضاع المسحيين...، مرجع سابق، صفحات متعددة.
(٢) شارل ديدييه، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر، مرجع سابق، ص ٣٠٣.

الفرنسيين والأرمن، وتشير المؤرخة أورليك فرتيج إلى أن المقبرة موجودة في خريطة نيبور وخريطة العثمانيين لمدينة جدة، مما يؤكد تاريخ وجودها في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر[١]؛ حيث إن جدة كانت محرمة على غير المسلمين أحياء وهم أموات أيضًا، وقد قام الشريف سرور آل زيد بإجلاء النصارى من جدة في القرن السابع عشر لاعتبارات دينية، وأكثر المكاتبات حول هذه المقبرة كانت من القنصلية الإنجليزية والتي هي المسؤولة عنها، وقد كتب القنصل البريطاني ستانلي [Stanle] في ١٨٦١م/١٢٧٨هـ أنه سوف ينفق مبلغ خمسين جنيهًا لإصلاح المقبرة، وكتب القنصل زوهراب [Zohrab] في ١٩٨٩م/١٢٩٧هـ يؤكد أن مساحة المقبرة ٣٢ × ١٨ ياردة للمسيحيين واليهود وازدحمت، ولا يوجد فيها مكان للموتى وحالة المقبرة سيئة، وطالب بمقبرة كبيرة شمال جدة، وأرسل ذلك إلى القائمقام الذي أيد طلبه وقال أنه سيرفعه إلى الشريف، وطلب أن تكون نموذجًا للإصلاحات في جدة. وتم جمع مبالغ مالية من القناصل المعتمدين للدول الأوروبية، وفي النهاية رفض الوالي التركي إنشاء مقبرة حديدة خوفًا من أن تثير مشاعر الغضب، واقترح إصلاح المقبرة الحالية، وهي موجودة إلى الآن ومسورة[٢].

تجدر الإشارة إلى أن الحاجز المائي الذي يفصل بين جدة وبين منطقة مقبرة غير المسلمين تم ردمه، وأصبحت المقبرة في منطقة الهنداوية جنوب جدة.

---

(1) Ulrike Freitag: A History of Jeddah: The Gate To Mecca in the Nineteenth and Twentieth Centuries, Cambridge University Press 2020, P 156.

(٢) سلوى الغالبي، ملامح من أوضاع المسيحيين...، مرجع سابق، ص ٥-٨.

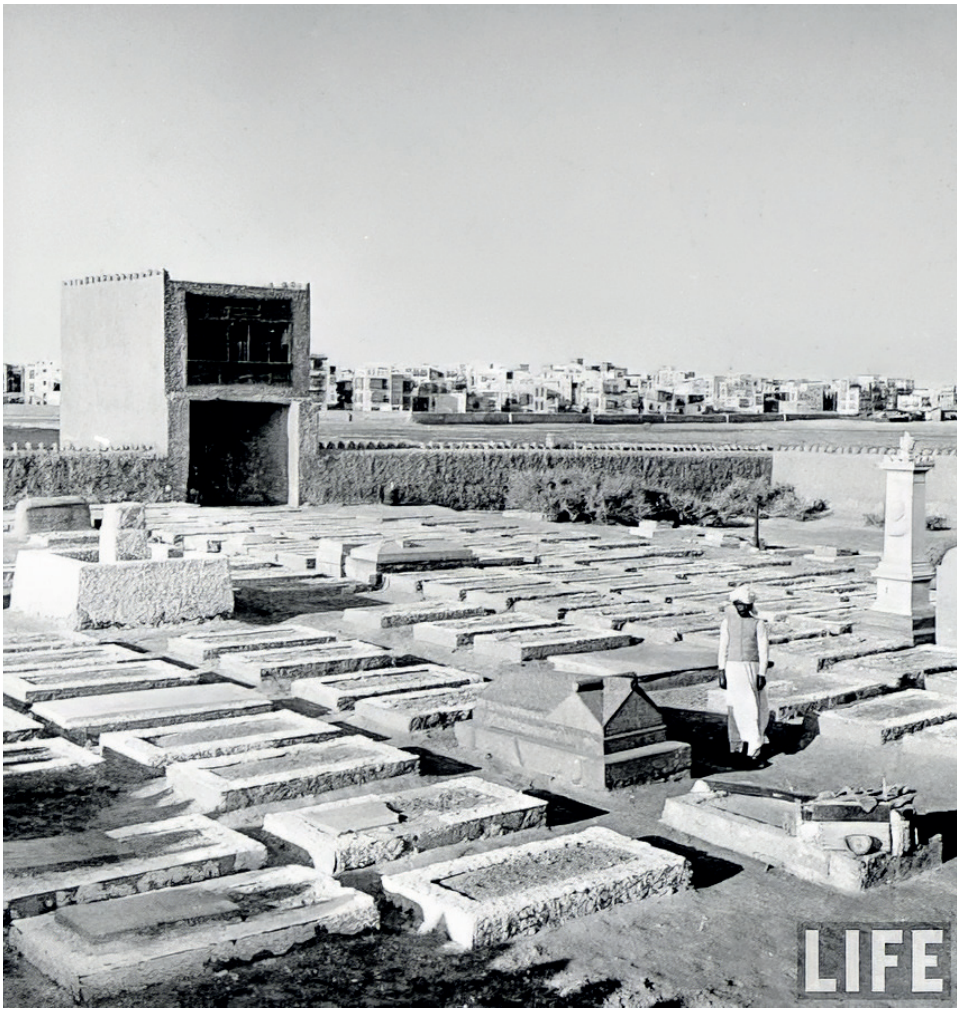

● مقبرة غير المسلمين في جدة.
مجلة لايف الأمريكية

● خريطة نيبور لمدينة جدة ١١٧٥/١٨٦٢م وتظهر فيها موقع مقبرة غير المسلمين.
.Travels Through Arabia and Other Countries in the East. R. Morison and Son, 1792

د- شهادة غير المسلمين في المحاكم:

يُعَـدُّ النظـام القضائي فـي أي مجتمع هو الضمانة الأساسـية لتحقيق العدل والازدهـار الاقتصـادي، وقد وثق السـيد وليام بوريـل [Wiliam Burrell] في ١٨٨٠م/١٢٩٨هـ في تقرير بعث به إلى البرلمان الإنجليزي عن النظام القضائي فـي جـدة، وذكر فيه "أنه بعد اجتماع مجلس القضاء المدني الجنائي والتجاري في جدة تم قبول شـهادة المسـيحيين أمام السـلطات العثمانية، ولا يوجد لدى القنصليـة كتـب عـن القوانيـن العثمانيـة"، وهذه خطـوة تبعث علـى الاطمئنان للمستثمر الأجنبي والشركات التجارية[١].

هـ - السكة الحديد والترامواي والسيارات:

اعتمدت منطقة الحجاز في القرن التاسـع عشـر على الوسـائط التقليدية في حركـة التنقـل الداخلي والخارجي بيـن المدن؛ لكن ظـروف الحداثة والتطور السـريع في وسـائل النقـل والمواصلات فـي العالم جعلت مـن الطبيعي وضع الخطـط والدراسـات لإدخـال وسـائل النقل الحديثـة إلى جدة بحكـم أهميتها الإستراتيجية من الناحية الدينية والتجارية.

المحاولـة الأولـى كانت من خلال خط من سـكة حديـد الحجاز إلى جدة وذلك في عام ١٩١٠م؛ حيث إن سكة حديد الحجاز عندما دعا إليها السلطان عبـد الحميـد الثاني كان من أهدافها تقليل المصاعب أمام تنقل الحجاج وتقوية الرابطة بين المسلمين، وكذلك طبعًا تشديد قبضة الدولة العثمانية على الحجاز والأماكن المقدسة[٢].

---

(١) سلوى الغالبي، ملامح من أوضاع المسيحيين...، مرجع سابق، ص ١١.

(٢) السلطان عبد الحميد كانت له أهداف سياسية عميقة من وراء مشروع سكة حديد الحجاز، أهمها تقديم نفسه باعتباره أمير المؤمنين، وأن يعمل هذا المشروع لخدمة زوار الأماكن =

الدول الغربية وبالذات بريطانيا وفرنسا أخذت موقفًا معارضًا لمشروع سكة حديد الحجاز، واستغلت الأوضاع الصحية لمهاجمة هذا المشروع؛ ومنها الدراسة التي قدّمها البروفيسور «شانتيميس» وهو المفتش العام للصحة الفرنسية ويطالب فيها بمؤتمر دولي لمنع انتشار وباء الكوليرا الذي ترتب من هذا الخط،

= المقدسة والحفاظ عليهم، وكان للمشروع أبعاد استراتيجية من خلال إنشاء طريق بري موازي لقناة السويس من إستانبول إلى الحجاز مرورًا ببلاد الشام، وسرعة نقل الجنود من تركيا. لقي مشروع سكة حديد الحجاز معارضة شديدة من أطراف عديدة، أولها كانت القبائل العربية التي كانت تستفيد اقتصاديًّا من نقل الحجاج، ويعتبر مصدر دخل مهم لهم، وكذلك بعدهم عن قبضة القوات العسكرية العثمانية.

وعارض الشريف حسين المشروع؛ لأنه يخل بالتوازن السياسي في الحجاز بين الشريف والوالي العثماني لصالح الوالي، وكانت تلك فترة جمعية الاتحاد والترقي التي لم تحمل الود للشريف، والسكة الحديد سوف تجعل نقل العتاد والجنود يتم سريعًا إلى الحجاز، الأمر الذي يجعل القوة تميل لصالح الوالي.

وعارضت فرنسا هذا لمشروع؛ لأنه يمس مصالحها في بلاد الشام، وحاربت إنشاءه من خلال الضغط على رفع أسعار أجور نقل قضبان الحديد، ومنعت المسلمين في أفريقيا والشام من التبرع للمشروع.

أما بريطانيا فوجدت الخط يهدد مصالحها في طريق الهند بحكم اقتراب السكة الحديد من البحر الأحمر، وكذلك اعتماد المشروع على المهندسين الألمان وفيه دعم للمصالح الألمانية المنافسة لهم.

المعارضة من كل مكان لا تقلل من أن مناطق كثيرة من العالم الإسلامي ساهمت في حملة التبرعات لإنشاء الخط والتي بدأت من السلطان نفسه، وكان لمسلمي الهند الدور البارز في تمويل المشروع من منطلق إسلامي؛ حيث تشكلت لجنة مركزية في مومباي تحت إشراف إمام جامع مومباي، وأن هدف المشروع حماية الأماكن المقدسة، وبلغ ما جمع من الهند سبعمئة وخمسون ألف ليرة عثمانية. انظر عماد عبد العزيز يوسف، الحجاز في العصر العثماني ١٨٧٦-١٩١٨م، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، صفحات عديدة.

ودعمه الدكتور «روفر» رئيس اللجنة الصحيّة في مصر أن هذا الخط الحديدي ينقل الحجاج إلى دمشق في أربعة أيام، بدلًا من مسيرة أربعين يومًا بالقوافل في الصحراء تمثل حاجزًا طبيعيًّا ضد انتقال الأوبئة.

الدول الغربية أعلنت عن خوفها من إصابة سوريا وآسيا الصغرى وجنوب شرق روسيا بالعدوى، وبريطانيا كانت تخشى من الإصابة التبادلية مع الهند في انتشار الكوليرا بسبب سرعة انتقال الحجاج .

تشير توصيات اجتماعات مسؤولي الصحة الغربيين إلى عدم ثقتهم في أن تنفذ الحكومة العثمانية أي إجراءات فعّالة وليس لديها الموارد ولا المنشآت، ولن تفرض أي إجراءات تؤثر على الحج أو مكانتها في إدارة الحج، ومن هنا يطالب هؤلاء المسؤولين بضرورة عقد مؤتمر صحي دولي لممارسة الضغوط على الدولة العثمانية لإيقاف سكة حديد الحجاز لنقل الحجاج[1].

في القرن التاسع عشر، تفصح لنا إحدى المراسلات التي أرسلتها الشركة العزيزية المصرية إلى الباب العالي في عام ١٨٦٧م عن انزعاجها من الأخبار التي تداولتها جريدة الحوادث بخصوص إسناد خط السكة الحديد بين جدة ومكة إلى شركة إنجليزية.

وجاء في هذه المراسلات أن المخطط يشمل، بالإضافة إلى السكة الحديد بين جدة ومكة، إنشاء رصيف بحري يمكن للسفن أن ترسو عليه، وإنشاء مخازن ومبنى كبير. استنكرت الشركة العزيزية ذلك وأنهم الأولى بهذه المشاريع؛ لأنهم الأقدم في البحر الأحمر، والنجاح الذي حققته بفضل الرعاية السلطانية حتى أصبحت شركة إسلامية رائدة تتشرف بحمل العلم العثماني، ولذلك كان من الواجب تقديمها على الشركات الأخرى في الحصول على هذا

(1) The British Medical Jounral, March 7-1908, P 580-581.

الامتياز، وإنشاء السكة الحديد ما بين جدة ومكة والإنشاءات الأخرى[١].

نشرت جريدة المؤيد في عددها (٨٤٢) الثلاثاء ٢ جمادي الأولى ١٣١٠هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٨٩٢م ما يلي: إن دولتو عثمان باشا والي عموم الحجاز اقترح على الباب العالي مشروع إنشاء السكة الحديدية بين جدة ومكة المكرمة، وأن الباب العالي يشتغل الآن بالنظر في هذا المشروع من جميع جوانبه حتى إذا أتمه بحثًا أظهره إلى حيز الوجود.

المقال أشار إلى الفوائد العظيمة لهذا المشروع، خاصة من الناحية الأمنية من أجل تفادي غارات الأعراب على قوافل الحجاج، والفوائد الاقتصادية العظيمة لمنطقة الحجاز كلها. ويستمر المقال المنشور في الصفحة الأولى إلى ضرورة أن يساهم العالم الإسلامي في مشاركة تكاليف إنشاء هذا الخط الحديدي مع الدولة العثمانية العلية، وبصورة خاصة دعوة مصر إلى المساهمة في دفع التكاليف عطفاً على الفوائد الاقتصادية على تجار مصر وازدياد أعداد الحجاج المصريين .

أما إدخال الترامواي إلى جدة فقد تمت المطالبة بذلك في عام ١٨٩٣م، وفي فوضى انتشار وباء الكوليرا في مكة وجدة تشكلت لجنة طبية لوضع الحلول التي تمنع حدوث هذه الأوبئة في المستقبل، وخلص التقرير إلى العديد من الاقتراحات منها إنشاء ترامواي بين الرويس وجدة لنقل الحجاج، وزوار المدينة الذين يتم وضعهم في الحجر الصحي لفترة، وبعد الاطمئنان إلى حالتهم الصحية يتم نقلهم بالترامواي من الرويس إلى جدة.

---

(١) شوقي عطا الله الجمل، الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر ١٨٦٣ – ١٨٧٩م، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٣٨١.

للأسف لم ينفذ كلا الاقتراحين، ولو نفذ اقتراح الترامواي إلى جدة لكان سابقًا لكل مدن العالم العربي؛ حيث إن الترامواي دخل إلى القاهرة بعد ذلك في عام ١٨٩٦م، والسكة الحديد كانت موجودة في مصر فقط.

في تقرير الدكتور القائمقام شاكر المرفوع إلى السلطان عبد الحميد عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م حول الأوضاع الصحية والبلدية في جدة ومرافق الحج اقترح الدكتور شاكر ضمن أمور أخرى إنشاء خط سكة حديد بين جدة وعرفات لتصعيد الحجاج بيسر وسهولة، وحفاظًا على الصحة العامة تحت اسم (سكة الحديد الحميدية)، وللأسف لم ينفذ[١].

وقفت قلة الموارد وانعدام الرغبة في تطوير الحجاز من قبل العثمانيين حجر عثرة أمام هذه المشاريع العملاقة. ذكر الإنجليز في تقييم شامل لوسائط النقل المذكورة في تقرير مستر غرافتي – سميث ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م أن مشروع خط سكة حديد بين جدة إلى مكة يجتذب اهتمام أصحاب رؤوس الأموال، ولا جدال في أن المشروع يعود بالفائدة على الحجاج؛ ولكن هناك حساسية من حكومة الأشراف من أي تواجد لغير المسلمين، وإعطاء اهتمامٍ مبالغٍ فيه لمصالح أصحاب الجمال والبغال[٢].

السيارات: أولى محاولات إدخال سيارات الركاب إلى جدة كانت من قبل تاجر إيطالي في عام ١٩١٩م/١٣٣٨هـ الذي اقترح إنشاء شركة من ثماني سيارات ويحصل على نسبة من أرباح التشغيل، وقد رفض الشريف هذا الاقتراح.

---

(١) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، دار الساقي، بيروت ١٩٩٦م، م٧، ص ٦٣٥.

فـي العـام التالي عاد نفس التاجـر الإيطالي ويدعى تليوباسـتوري إلى تقديم مقترح شـامل يشـمل مصنعًا للثلج، ومعمل تحلية مياه، وأسـطولًا لنقل الركاب بالسيارات من جدة إلى مكة ماركة فيات، يكون فيه شريكًا بالدخل مع الحكومة، ويعمـل مـا لا يقل عن أربعمئة رحلة في العام، وقد رفض الشـريف هذا الاقتراح أيضًا[١].

يوثـق الشـيخ محمـد علي مغربـي أن اسـتعمال السـيارات كان ممنوعًا في العصر الهاشـمي؛ إذ كانت سياسـية الشـريف حسـين تتلخص في أن السيارات سوف تستنزف ثروات البلاد؛ لأن وقودها وصيانتها من الخارج بعكس الجمل؛ حيـث تعيـش البادية على الجمال ومصدر دخل قـوي لهم، وبهذا يحفظ الثروة المحـدودة داخـل حدود البلاد، ولهذا لم يكن في العهد الهاشـمي أي نوع من السيارات يسمح به باستثناء سيارة الملك نفسه فقط. كان في مكة المكرمة ثري كبير اسـمه (السـيت جان كندواني) من أصل هندي ويرغب في استيراد سيارة، فاسـتأذن الشريف حسـين فلم يجب عليه بشيء، فظن أن معنى ذلك الموافقة، وعندما اسـتعمل السـيارة في مكة تعرض له الصبية والسفهاء فقذفوها بالحجارة وأتلفـوا أجزاءهـا، ولما لم يجد من يعترض على هذا الأذى أدرك أن الشـريف لم ولن يوافق على استيراد السيارات[٢].

(١) نجدة فتحي صفوة، مرجع سابق، ص ١٩٣ و٣٩٤.

(٢) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز...، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٨.

و - البرق والبريد:

● مكتب البريد في جدة (أول خدمة بريدية في الجزيرة العربية).
المصور: سنوك، كريستيان. 1884 - 1885
جامعة ليدن، CSH-K.8 288-OR.12

تأسس أول خط للتلغراف على الأراضي العثمانية ١٨٥٤م، وبناء على تشجيع من بريطانيا وفرنسا بدأت الشركات في تقديم عروض للدولة العثمانية لربطها بأوروبا، وكانت العمالة والمهندسون أوروبيين، ورأس المال عثمانيًّا، وبدأت في مرحلة تالية تظهر خطوط التلغراف في أنحاء الدولة العثمانية، وأعطت الإنجليز الحق في تأسيس خطوط التلغراف في المواقع التي يرغبون فيها مثل جدة وسواكن واليمن، وأصدرت إعفاءً جمركيًّا لإدخال الآلات اللازمة، وتأسس خط جدة وسواكن قبل عام ١٨٨١م، وجرى الاتصال الفعلي عام ١٨٨٢م، وكانت اللغة العربية هي اللغة المستخدمة بين جدة وسواكن والقاهرة[١].

(١) التلغراف أو البرق [Telegraph] هو جهاز اتصالات استخدم من منتصف القرن التاسع عشر لإرسال البرقيات والنصوص يعتمد على إرسال الحروف على شكل نبضات الكهرباء ويرسلها عبر الأسلاك إلى جهاز آخر يطبع تلك النبضات، وتسمى في البلاد العربية (البرقية) ويعود اختراعه إلى العالم الأمريكي صمويل موريس في عام ١٨١٠م. =

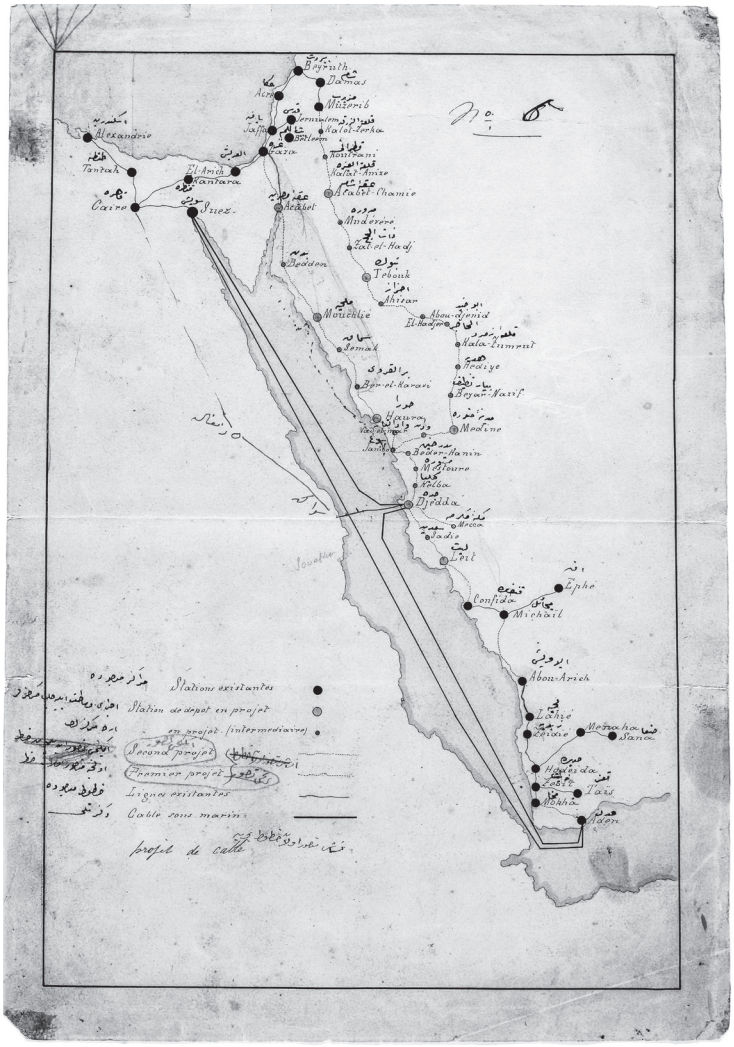

● خريطة توضح خطوط التلغراف في شبه الجزيرة العربية

من إعداد أحد موظفي البريد العثماني حول إنشاء خطوط التلغراف في الحجاز والبصرة في العهد العثماني وهي من ضمن دفتر يحتوي مراسلات صادرة سنة 1317 (1900-1901) من موظف مسؤول عن الخطوط في أركان الحربية برتبة فريق.

ART4001031 من مجموعة Oriental Art Auctions B.V – هاتيمربروك – هولندا.

= انظر بكيل محمد الكليبي، البريد والتلغراف ودورهما الإعلامي في ولاية الحجاز العثمانية ١٨٨٣-١٩١٨م، مجلة رؤى في العلوم والآداب الإنسانية، جامعة ذمار، اليمن، ٢٠٢٠، ص ٧٢.

وحرصت بريطانيا على وجود هذه الخدمة لأنها تمكنها من معرفة أدق التفاصيل السياسية والاقتصادية والدينية التي تدور في الحجاز والجانب الشرقي من أفريقيا ومصر، مما يعطيها سرعة في اتخاذ القرار في المناطق الواقعة في أهم طريق لمستعمراتها في الهند درة التاج البريطاني، وحدث جدل كبير بين القناصل الإنجليز ومشغلي الخدمة في سواكن وفي جدة؛ حيث يصر القناصل على إرسال رسائل مشفرة وهو ما يتناقض مع نظام البرق العثماني[١]. في القرن العشرين وتحديدًا في يوليو ١٩٢٣م انقطع الاتصال البرقي بين جدة والعالم الخارجي؛ لأن الأسلاك (الكابلات) قديمة ومتهالكة بين جدة وسواكن، وشركة التلغراف الشرقية لا يوجد لديها مقدرة فنية للتعامل مع الكابلات على الشاطئ الصخري بالقرب من جدة.

وفي تقرير مفصل للقنصل الإنجليزي إلى اللورد كرزن في ٣١ أكتوبر ١٩٢٤م/١٣٤٣هـ تحدث عن خطورة انقطاع الحجاز عن الاتصال بالعالم الخارجي، وأن هذا التخبط وسوء التنظيم تضاعف بمنع السلطات السفن من إرسال واستقبال الرسائل البرقية حتى في حالة الطوارئ، وقائمة شكوى القنصل تشمل أن الحكومة تقوم بقراءة الرسائل المرسلة في الخط الداخلي بين جدة ومكة والطائف بانتظام، وفك رموزها وأسرارها التجارية وغيرها، وكانت الأجور للبرقيات إلى أوروبا تدفع بالجنيهات الذهبية مقدمًا[٢].

وبدأت خدمات البريد بين جدة والعالم الخارجي مع مصر؛ حيث كانت رحلة البريد تستغرق (مئتين وخمسين ساعة) باستخدام السفن التجارية، وتم

---

(١) أنعم محمد الكباشي، خط تلغراف سواكن جدة على ضوء الوثائق العثمانية، مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، عدد ١٤.

(٢) تهاني الحربي، القنصليات الأجنبية في جدة...، ص ٢٩٨.

الاتفاق على تأمين مسار البريد مع مشايخ القبائل المقيمين على طول الطريق، وتم تحديد الرسوم بين مدن مصر والحجاز في عام ١٨٤٤م[١].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر - بعد خروج محمد علي - تشير الوثائق العثمانية إلى أن مكتب البريد في جدة كان يضم رئيس المكتب ونائبه، وبائع الطوابع الذي يسمى مأمور كشك، ومأمور المسجلات، ومأمور البريد العادي، وكانت المدة التي يستغرقها البريد من جدة إلى مكة حوالي أربع عشرة ساعة، أما إلى خارج البلاد مثلًا إلى مصر أو السودان فإنها تتم مرة في الأسبوع بالنقل البحري، أما الهند فإن الشحنة البريدية تستغرق عشرين يومًا بالنقل البحري[٢].

كان البريد المصري ينقل على بواخر الشركة العزيزية بالبحرين الأحمر والأبيض المتوسط منذ مايو ١٨٦٥، وحيث إنه لم يكن لهم مقرٌّ في جدة، فقد اتفقت الشركة العزيزية على إقامة وكيل البريد عبد السلام أفندي الحباك والكاتب الذي يعاونه في قسم خاص بمقر توكيل الشركة، وكان للشركة العزيزية مكانة كبيرة في جدة؛ حيث سبق وأن قامت بإصلاحات لميناء جدة وتوسعته وإنشاء علامات إرشاد فيه على نفقتها، وقد أدى البريد خدمة مهمة لإيصال توجيهات السلطة والأوامر الإدارية للموظفين بشكل سريع[٣].

مع ازياد أهمية التواصل البريدي مع جدة أسست شركة البوستة الخديوية المصرية في عام ١٨٦٥م أقدم مكتب بريد للشركة في مدن البحر الأحمر في

---

(١) حسين بن عبد العزيز شافعي، البريد والبرق بمدن الحجاز إبان العهد العثماني ١٩١٥-١٩١٧م، مجلة جامعة السودان المفتوحة، ٢٠١٥م، ص ٨٧.

(٢) حسين عبد العزيز شافعي، البريد والبرق...، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٣) خلف عبد العظيم الميري، تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤/١٨٧٩م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٥١٤.

مدينـة جـدة، وهو المكتـب الوحيد في الحجاز، وفي العام الذي يليه أسسـت مكتبًا في مصوع، والعام الذي يليه في مدينة زيلع[١].

توضح الوثائق البريطانية أن البريد إلى أوروبا من جدة كانت تحمله السفن البخارية التابعة لشركة (ايتاليا) [Italia]، وتستغرق للوصول إلى أوروبا من ١٠ إلى ٢٠ يومًا، ومع مطلع القرن العشرين تأسست دائرة للبريد في جدة تحكمها قوانيـن للطوابع، وكيفية تحصيل قيمـة الطوابع لمصلحة دائرة وكالة المالية من قبل أشـخاص أو جهات مرخصة بذلك، ومن يخالف ذلك أو يسـتخدم طوابع مزيفـة يكون عرضة للسـجن فتـرات طويلة؛ لهذا فإن موظـف مكتب البريد هو الشخص المخول عادة بوضع الطوابع على الظروف[٢].

أول ذكر للهاتف في جدة جاء من إبراهيم المازني عندما تحدث عن وجود التلفون أو الهواتف في بيوت الأعيان والمسؤولين وليس لها أرقام بل عليك أن تـدق الجـرس ويجيب عليـك المركز، فتطلب منه أن يصل مـا بينك وبين فلان في بيته أو مكتبه، وإذا أبطأ عليك العامل تناديه: يا فلان ماذا جرى أعطني بيت فلان أعمـل معـروف ذلك أنَّك تعرف عامل التلفون كما يعرفك، وكانت رحلته في عام ١٩٣٠م[٣].

---

(١) انظر الخريطة المرفقة.

(٢) نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مرجع سابق، ص ٦٤٠-٦٤١.

(٣) إبراهيم المازني، رحلة إلى الحج، مؤسسـة هنداوي، القاهرة، النسـخة الإلكترونية، ٢٠١٧م، ص ٣١. في طفولتي كان والدي مسؤولًا مهمًّا في الخطوط الجوية السعودية، ولدينـا هاتـف مـن هذا النوع فـي منزلنا بالعمارية مـن أول السـتينات الميلادية، ويتبع سنترال الكندرة.

ز- تحلية المياه:

علاقة مدينة جدة بالمياه فيها الكثير من المتناقضات الجادة، فهي من جهة تعاني من كثرة المياه المحيطة بها والمياه الجوفية، ومن ناحية أخرى تعاني من شح المياه العذبة بشكل يهدد وجودها وتوسعها، وهذه الظاهرة من المتناقضات الجغرافية المهمة التي تشكل الصورة الوجودية لهذه المدينة.

جدة بطبيعتها نقطة التقاء (الروافد، المعابر، الأفئدة)، وفي تعريف التقاء الروافد؛ لأنها نقطة التقاء المياه القادمة من الجبال، ومن الأودية الرئيسية من ناحية الشرق متجهة نحو البحر سواء على سطح الأرض أو في جوفها، والتاريخ حافل بمحاولات ومساعي أهل جدة والسلطات بتدبير وسائل للمياه العذبة، وكانوا من الرواد في هذه المحاولات. وقبل أن نتطرق إلى المحاولات الحديثة نلقي الضوء على مصادر المياه في جدة[١].

يقسم الدكتور عبد الله الثقفي مصادر المياه في جدة إلى ستة مصادر وهي: الآبار، الصهاريج، العيون، الأسبلة، البازانات، الكنداسة، ويقسم الباحث خالد أبو الجدايل مصادر المياه في جدة إلى أربعة مصادر: الصهاريج والحفر، المصدر الثاني الآبار، المصدر الثالث مياه العيون، وأخيرًا الكنداسة[٢][٣].

---

(١) محمد أنور نويلاتي، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، ص ٨٥ وما بعدها.

(٢) عبد الله زاهر الثقفي، العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني، دارة الملك عبد العزيز، ٢٠١٥م، الرياض، ج ١، ص ٢٩٠ وما بعدها.

(٣) خالد صالح أبو الجدايل، العمارية...، مرجع سابق، ص ١١٣، هذا الكتاب يحوي تفصيلًا شاملًا لموضوع المياه في جدة والصهاريج وأماكنها والآبار، ومعلومات تفصيلية عن معاناة جدة عبر السنين مع مشكلة المياه الصالحة للشرب، فهو مرجع شامل عن الموضوع.

● كنداسة جدة

ونظـرًا لأن جـدة مدينـة قليلة الأمطـار ولا يوجد بها أنهـار جارية ويجلب لهـا الماء؛ لهذا حاولت السـلطات جلب المياه مـن العيون، وكانت المحاولة الأولى للسـلطان سليمان القانوني سـنة ٩٧٤هـ، الموافق ١٥٦٦م عندما حاول إيصال المياه من عين جدة وفشلت المحاولات، وحاول السلطان محمد الرابع سنة ١٠٩٥هـ -١٦٨٣م إيصال المياه من عين قوص واستمرت فترة، وأيضًا تم تمديـد المياه من عين الحميدية وهي بئر تقع شـرق جـدة، ومحاولات أخرى لجلـب المياه في القرن الحادي عشـر الهجري لإيصال عين فرج يسـر؛ ولكن الصهاريـج كانـت أكثر المصادر اعتمدت عليها جدة، وتقوم على فكرة تخزين مياه الأمطار والسيول.

تعود نشأة الصهاريج في جدة إلى العهد العباسي والوزير (جعفر البرمكي) الذي بنى أول صهريج بها عندما حضر للحج على طريقة أهل فارس واقتدى الناس به.

يصـف بوركهارت المـاء العذب الموجود في جدة بأنـه نادر الوجود، وأن المياه تجلب من آبار تبعد ميلًا ونصف الميل من جنوب المدينة، وطعمه سيء

المذاق ونادرًا ما يكون صالحًا للشرب؛ لأن هذه المياه لو جلست في الإناء مدة أربع وعشرين ساعة لامتلأ بالحشرات، وهذا من أسباب تدني الحالة الصحية للسكان[١].

وكان كورتلمون أكثر صراحة عندما قال إن الماء في جدة فاسد والجو حار ورطوبة عالية، ولا يوجد فيها أثر للخضرة يمكن أن يبدد كآبة المنظر[٢].

الكنداسة أو تقطير مياه البحر [Condenser] أو المكثف هي الآلية البدائية لتحلية المياه، ووجدت على متن السفن التي تسافر فترات زمنية، وبالفعل يجمع كثير من المؤرخين أن جدة عرفت في مطلع القرن العشرين أول كنداسة في العام ١٣٢٨هـ الموافق ١٩١٠م حصلوا عليها من سفينة غارقة بالقرب من الساحل ونصبت في الميناء[٣]. جدة لها محاولات قديمة لإدخال هذه التقنية من القرن التاسع عشر، وهذا يتسق مع أنها تتبع كل جديد في العلوم والحداثة.

- **المحاولة الأولى:** تقدم التاجر سليم سلطان أحد التجار المعروفين إلى الوالي بطلب استقدام جهاز يعمل بالفحم لتحلية مياه البحر ويجلبه من أوروبا وذلك في عام ١٨٦٩، وتحمس الوالي ومنحه قطعة أرض حكومية خالية مجانًا بجوار البحر مع عقد لمدة خمسة وعشرين عامًا، وللأسف تعثر المشروع[٤].
- **المحاولة الثانية:** مع ازدياد أعداد الحجاج وجدت السلطات العثمانية نفسها في موقف حرج أمام العالم الإسلامي، وقررت في عام ١٩٠٤م

(١) بوركهارت، رحلات في شبه الجزيرة العربية...، مرجع سابق، ص ٢٤.
(٢) جيل كورتلمون، رحلتي إلى مكة...، مرجع سابق، ص ٦٢.
(٣) خالد صالح أبو الجدايل، مرجع سابق، صفحات عديدة.
(٤) خالد صالح أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٣٤.

إحضار آلة الكنداسة إلى جدة، وخصصت نظارة الصحة ثلاثة آلاف ليرة عثمانية لتتمكن الإدارة البحرية من طلب جهازي تقطير على وجه السرعة من لندن إلى جدة وإلى ينبع قبل موسم الحج، وكانت على أنواع: منها ما هو مرحلة تنقية واحدة أو مرحلتا تنقية أو ثلاث مراحل، واستغرق الأمر مناقشات ومداولات كثيرة، وتأخر المشروع ثلاث سنوات حتى أصدر السلطان بإحضارها فورًا، وعملت مناقصة لماكينة تقطير ذات ثلاث مراحل متحركة تعمل بالفحم وتكون في جدة، ورست المناقصة على الإخوة (موارطيان) ودفع ثمنها من صندوق الإعانات لعين زبيدة في مكة المكرمة، وتم نصبها في عام ١٩٠٦م على شاطئ البحر غرب حارة الشام، ولها مبنى خاص للأجهزة والمعدات والمضخات والأفران وللأسف لم ينجح المشروع؛ فقد أنتجت الكنداسة أقل من نصف المياه المأمول إنتاجها وكانت تحتاج إلى تكاليف صيانة، وتواجد فنيين بشكل دائم ولم يكن هذا متوفرًا. أرسلت السلطات آلالتها الخَرِبة إلى مدينة السويس لإصلاحها عام ١٩١١م، ولم تستمر طويلًا لأن المواصفات الفنية منذ البداية لم تكن بالشكل المطلوب لعدم توفر المال اللازم[١].

استمرت معاناة أهل جدة والحجيج من هذه الآلات أو تلك التي استخلصوها من السفينة الغارقة حتى دخول الملك عبد العزيز آل سعود - طيب الله ثراه - الذي أخذ القرارات الكفيلة بإنهاء معاناة جدة مع المياه العذبة، وكان أولها شراء كنداسة جديدة أضعاف أضعاف طاقة الكنداسة القديمة من شركة (ودسن مايليير) الإنجليزية التي رفعت الكنداسة القديمة ونصبت الجديدة والمشاريع

(١) دلال بنت محمد السعيد، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢.

الزائـدة في جلب المياه من وادي فاطمـة، وكانت هذه البداية الحقيقية لدخول جدة العصر الحديث بالسياسة الحكيمة للملك عبد العزيز، وقد أدت إمدادات العيـن العزيزيـة إلـى طمـر الصهاريـج والحفر؛ حيـث إن بعضهـا كان مصدرًا للأمراض المعدية من خلال الناموس على المياه الراكدة وغيرها[١].

ح - المستشفيات الحديثة:

دخـل الحجاز طوعًا تحت الحكـم العثماني منذ عام ١٥١٧م، وطوال هذه القرون لم تبنِ الدولة العثمانية أي مستشفى أو مستوصف يقدم الخدمات الطبية الحديثـة التـي كانت متوفرة فـي عاصمة الدولـة العثمانية والعديـد من الأقاليم والولايـات التابعـة لهـا. اسـتفادت الدولـة العثمانيـة مـن وجودها فـي الحجاز مـن نواحـي عديدة، أهمها ترسـيخ الهويـة الإسلامية للدولة مـن خلال الدعاء للسلاطين في الحرمين الشريفين، واستفادت من الموقع الجغرافي لمدينة جدة في دعم الإسـتراتيجية العسـكرية والحزام الأمني للإمبراطورية بخلاف الدخل المالي من ميناء جدة والتجارة الشرقية.

كانـت الخدمـات الصحيـة في جـدة عبـارة عن الطـب الشـعبي والتداوي بالأعشـاب، وتجبير الكسـور بالصورة البدائية، وبالطبع الاعتماد على أساليب التدين الشعبي في العلاج ببركة الأولياء وأضرحتهم.

أول مستشفى في جدة على النمط الحديث تم إنشاؤه ضمن الحملة العسكرية لمحمد علي في عام ١٨٣٦م لتقديم الخدمات الطبية للفيالق العسـكرية، وكان المستشـفى يتبـع ديـوان الجهاديـة، وفيما يلي وثيقـة توضح الأشـياء المطلوبة للمستشفى بخلاف المعدات الطبية وطريقة توزيعها:

---

(١) خالد أبو الجدايل، العمارية...، مرجع سابق، ص ١٣٤.

لحف من قماش القلوع	سجادات صوف	لحف من قماش القلوع
عدد (٢٠٠)	عدد (٣٥٠)	عدد (٢٠٠)
	عباءات صوف	قروانات صفيح
	عدد (٢٥٠)	عدد (٢٠٠)
مخدات كتان	مراكيب بالزوج	قرب شعاري
عدد (٢٠٠)	عدد (٥٠)	عدد (٢٠٠)
ملاعق خشب	حبل يماني	جلد حدر
عدد (٤٠٠)	عدد (٥٠)	عدد (٢٥)
فرش من كتان	لبده صوف	كيزان صفيح
عدد (٢٠٠)	عدد (٢٥٠)	عدد (٢٥٠)
قماش كتان مقطع	مستهلكات	مكانس
عدد (٢٠٠)	عدد (٣١٩٥)	عدد (٢٥)

إن هذه الطلبات من سر عسكر الأقطار الحجازية، وتصديق أرباب المشورة الطبية الكائنة في الحجاز وتوجيهات إلى نظار المخازن، وأن يأخذوا إيصالاً بها مع تفصيل للإجراءات في الصرف والحفاظ على المواد[١].

شهد القرن التاسع عشر تطورات صحية مهمة ذات انعكاسات سياسية خطيرة؛ حيث ظهر وباء الكوليرا الأمر الذي وجدت فيه الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا ذريعة للتدخل في شؤون الحجاز والتمكن من الاستفادة من الموقع الاستراتيجي لميناء جدة، وضرب حركة الجامعة الإسلامية في مكة المكرمة.

(١) وثيقة دار الوثائق القومية – القاهرة، دفتر رقم ٧٩٨، ديوان الخديوي في ٧ شوال ١٢٥١هـ/٢٦ يناير ١٨٣٦م. وردت في عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، من وثائق الحجاز في عصر محمد علي، مرجع سابق، ص ٤٨٠.

أول ظهور للوباء في الحجاز عام (١٢٤٦هـ/١٨٣١م)، وظهور خفيف في الأعوام (١٢٥٣هـ/١٨٣٨م) و (١٢٥٤هـ/١٨٣٩م) و (١٢٥٥هـ/١٨٤٠م)، وبشدة في (١٢٦٢هـ/١٨٤٦م)، وانتشر الوباء بشكل شديد في الأعوام (١٢٧٦هـ/١٨٦٠)، ثم في عام (١٢٨١هـ/١٨٦٥م) وفي هذه المرة انتشر خارج الحجاز بشكل كبير[١].

مارست بريطانيا ضغوطًا كثيرة على الدولة العثمانية وكذلك الدول الغربية الأخرى، وقد ادعت بريطانيا أن مصدر وباء الكوليرا هو بئر زمزم، وطالبت أن يكون هناك مؤتمر دولي يبحث الأوضاع الصحية في موسم الحج؛ ولكن أخطر إجراءات الإنجليز كانت في إغراق مدن الحجاز مكة وجدة خاصة بأعداد هائلة من فقراء الهند (كانوا يسهلون عملية سفرهم لأداء فريضة الحج هم وعيالهم ويحملونهم مجانًا، وبالتالي يطهرون مستعمراتهم من الفقراء، ويظهرون في نظر الحمقى كما لو كانوا مهتمين بشؤون المسلمين، وكانت تقذفهم وهم عرايا، وكانوا جميعًا ما أن تطأ أقدامهم أرض جدة حتى يبدأوا في التسول ويتجولون ناشرين العلل والأوبئة أينما اتجهوا مالئين بلادنا بشتى أنواع الأوبئة)[٢].

وجدت الدولة العثمانية نفسها مضطرة إلى تقديم خدمات صحية حديثة في جدة إذا أرادت الاستمرار في الاحتفاظ بالحجاز، خاصة وأن بعض الدول خفضت التمثيل الدبلوماسي خوفًا من الأوبئة، مثل فرنسا في وباء عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م، واكتفت بوجود طبيب في منصب نائب القنصل؛ لهذا

---

(١) سلوى سعد الغالبي، وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٢) سويلمز أوغلو، السياحة في بلاد الحجاز، ضمن ملاحق كتاب: صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة...، مرجع سابق، ص ٢٠١-٢٠٢.

أنشأت الدولة العثمانية مستشفى في عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م فيه طبيب أول ومساعد له وأربعة ممرضين وصيدليٌّ ومندوب لميناء جدة، وبعد ذلك بعامين في ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م أنشئ إلى جانب المستشفى العام مستشفى عسكري في حي العيدروس عند باب مكة، ويتكون من مائة سرير وفيه ثلاثة أطباء ويقبل علاج الفقراء بأمر السلطان، في نفس العام أنشئ المحجر الصحي الذي يشمل رئيس الهيئة الطبية وطبيبًا وأمين صندوق وكاتب إدارة التحفظ؛ ولكن في العام التالي ١٣٠٦هـ/١٨٨٧م لم يكن في المحجر إلا موظف النظافة وكاتب إدارة التحفظ بدون أطباء ولا خدمات طبية.

ويصف القنصل الإنجليزي ألبان حالة المستشفى المدني بجدة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م أنه مستشفى مهمل جدًّا لدرجة أن المريض يفضل الموت في الشارع في الهواء الطلق على أن يذهب إلى هذا المستشفى ليموت وسط البؤس والخراب في مكان يسمى مستشفى، أما المحجر الصحي فقد وصفه عبد الرحمن نائب القنصل عام ١٣٢٨/١٩١٠ أنه مكان مهمل من جميع الوجوه وفي حالة يرثى لها، والمرضى يشكون بعدم صرف أدوية لهم[١].

للسيطرة على الأمور الصحية في الحجاز عمومًا وجدة على وجه الخصوص بعث السلطان عبد الحميد الدكتور قائمقام شاكر في عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م الذي أعد دراسة متكاملة، واقترح خطة متكاملة للوعي والإجراءات الصحية والبلدية، ومنها إنشاء مستشفى في جدة تحت اسم مستشفى الغرباء؛ بحيث يجد فيه زوار جدة والحجاج الدواء والرعاية الطبية اللازمة، وكذلك مستشفى آخر لعلاج الأمراض المعدية، وإنشاء نظام للمجاري والصرف الصحي في جدة، وإنشاء مستشفى للولادة أو على الأقل افتتاح جزء ملحق بالمحجر الصحي في جدة لحالات الولادة

(١) وردت في صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة...، ص ١٥٢.

وقائمة طويلة من الاقتراحات الصحية ورفع مستوى الوعي والنظافة العامة[١].

انتهت الأمور أن كثيرًا من الدول أصبحت ترسل أطباء مع الحجاج وتوافقت الدول مع الدولة العثمانية على إنشاء نظام للحجر الصحي، ولم تعرف جدة النهضة الحقيقية في المجال الصحي إلّا بعد دخول الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه – إلى مدينة جدة[٢].

ط - الصحافة:

شهدت جدة مع مطلع القرن العشرين صدور صحيفة (الإصلاح الحجازي)، وذلك في ٢٦ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ، الموافق ١٧ مايو ١٩٠٩م من قبل شخص سوري الأصل هو راغب مصطفى توكل، والمسؤول عن التحرير شخص لبناني هو أديب هراري، وكانت تصدر مرة في الأسبوع تغطي موضوعات سياسية وأدبية وتجارية، ولها مطبعة خاصة اكتتب في تكلفتها أهالي جدة، وكذلك الشريف حسين ولكن المصاعب المالية أدت إلى تعثرها ثم توقفت الجريدة[٣].

وقد طبع في مطبعة الإصلاح كتابان: (كفاية المحتاج في معرفة الاختلاج، وضع ذي القرنين عليه السلام) للإمام السيوطي، والكتاب الثاني: (أنوار الشروق في أحكام الصندوق) للشيخ محمد علي المالكي مفتي المالكية، وبعد وفاة صاحب المطبعة آلت إلى الشيخ محمد علي زينل الذي تبرع بها لمدرسة الفلاح، ثم اشتراها محمد رمزي أفندي وأسماها المطبعة الشرقية حسب رواية عثمان حافظ، واستمرت في طباعة كتب ذات الطبيعة الدينية.

---

(١) صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة ...، مرجع سابق، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) موضوع وباء الكوليرا وتدخل الدول المختلفة له تفاصيل كثيرة وخارج نطاق بحثنا هذا.

(٣) محمد الشامخ، نشأة الصحافة في الحجاز ١٩٠٨-١٩٤١م، دار الأمانة، بيروت، ١٩٧١م، ص ٤٤-٤٥.

وأصدر بعد ذلك أحمد رأفت الإسكندراني جريدة (صفا الحجاز) في ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م وكانت صحيفة صغيرة الحجم لم يصدر منها سوى عددين[١].

ويذكر أن الشيخ محمد صالح نصيف أصدر جريدة بريد الحجاز في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م وحصل على امتياز إصدار جريدة صوت الحجاز بعد ذلك في عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م واستورد مطبعة من مصر[٢].

أثناء الحرب في الحجاز أصدر الأشراف جريدة بريد الحجاز وصدر العدد الأول في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ، الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٢٤م لتكون لسان حال الحكومة الحجازية وصدرت في جدة، وأصدر الملك عبد العزيز صحيفة أم القرى لترد على ما تبثه (بريد الحجاز) وتكون هي الناطق الرسمي، وقد صدر من بريد الحجاز ٥٦ عددًا فقط، واختفت بعد استسلام الملك علي بن الحسين وانضمام جدة إلى الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه -[٣].

ي - الطائرات والمدرعات:

استقبلت جدة العتاد العسكري الحديث مبكرًا في مطلع القرن العشرين، وذلك أثناء الحروب التي شهدتها في تلك الفترة، وكانت جدة هي المقر الرئيسي لمملكة الحجاز من حيث إن الميناء البحري يسهل وصول العتاد العسكري من الخارج.

---

(١) محمد الشامخ، نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٢، ص ٦٤.

(٢) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز...، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٣) أحمد بن يحيى آل فائع، العلاقة بين الملك عبد العزيز والملك الحسين بن علي وضم الحجاز، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٣هـ، ص ٣٠٣.

أول طائرة حلقت في سماء جدة كانت طائرة إنجليزية قامت بإلقاء منشورات على أهالي جدة لصالح الإنجليز إبان الحرب العالمية الأولى، وتقديم وعود لضمان ولاء السكان لجانب الشريف والإنجليز وذلك في عام ١٩١٥م، الموافق ١٣٣٣هـ[١]. وفي العام التالي أيضًا حلقت طائرات إنجليزية في سماء جدة وألقت قنابل في فترة الثورة العربية الكبرى. عمل الأشراف على فكرة استقدام طائرات حربية مقاتلة مع بناء مطار لاستخدام هذه الطائرات، وقد اشترى الشريف حسين ست طائرات إيطالية، وكان في الخدمة اثنان من الطيارين الروس، ومن الناحية الفعلية لم يكن يصلح للطيران إلا اثنتين من هذه الطائرات، سقطت الأولى في معارك مع الجيش السعودي وقتل الطيار، وبقيت واحدة مع الطيار شيركوف الذي غادر عندما تنازل الشريف حسين عن الحكم لابنه الشريف علي وسافر إلى مصر[٢].

في يناير ١٩٢٤م اشترى الأشراف ثلاث طائرات من مخلفات الحرب وصلت إلى جدة على متن الباخرة (نور)، وعاد الطيار شيركوف بمرتب شهري قدره ستون ليرة ذهبية، وحتى مع الطائرات الجديدة كانت واحدة منها فقط صالحة للاستخدام وتطير من جدة ولم تصل إلى ارتفاعات عالية. انتهى الأمر بانفجار الطائرة في الهواء؛ لأنها كانت محملة بذخيرة غير مخصصة للطيران وقتل من عليها.

في عام ١٩٢٥م وصل إلى جدة من مصر أربعة طيارين ألمان وتبع ذلك وصول ست طائرات ألمانية مجهزة بالرشاشات الحربية والقنابل المخصصة لاستخدام الطائرات؛ ولكن جوبهت هذه المحاولة بمشكلتين، أولهما: عدم

---

(١) حسين محمد نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص ٢٢.

(٢) خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، بيروت ١٩٧٧م، ج ٢، ص ٥٨٤-٥٨٥.

وجـود وقـود طائرات كفاية، والثانية: عدم دفع رواتـب الطيارين الذين ما لبثوا أن غـادروا، وبقيـت الطائرات رابضـة في جدة حتى دخول الملـك عبد العزيز وانضمت إلى الجيش السعودي[١].

شـهدت جدة لاحقًا تحليق أول طيار سعودي وبناء أول مطار في الحجاز، وكان الزعيم عبد السلام سرحان هو أول طيار حلق بطائرته في سماء جدة، وكانت الرحلة لمدة نصف ساعة فوق الميناء بطائرة من طراز (بدروم)، وهبط في المهبط الترابـي أمام بحر الأربعين، المرة الثانية للزعيم عبد السلام سـرحان كانت عام ١٣٤٤هـ بطائرة إنجليزية بحضور الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه – الذي وجهه بالإشراف على بناء مطار أو مهبط، الأمر الذي نفذه في عام ١٩٣٨م بمساعدة فنيين إيطاليين[٢].

شـهدت الفترة قبل الحرب العالمية الثانية شـراء ما مجموعه سـت طائرات إيطاليـة، ثلاث طائـرات ذات محـرك واحـد، وثلاث أكبـر فـي الحجم تتسـع الواحـدة إلـى أربعـة عشـر راكبًا، وجـاء مع هذه الطائـرات عدد مـن الطيارين والفنيين والمهندسـين، وكانت تحت إشـراف القيادة العسكرية في المهبط أمام بحر الأربعين بجدة[٣].

---

(١) حسين محمد نصيف، تاريخ الحجاز...، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٢) مجلـة الطيـران المدنـي، عبد السلام سـرحان، العدد الخامس، جـدة، ١٤١١هـ. أنه أثناء جهود استخراج البترول ونقله وجد مهبط ترابي في عام ١٣٤٥هـ بعيدًا عن المدن بالقـرب مـن خطوط نقل النفط؛ ولكن جدة شـهدت أول مطار متكامل مع برج مراقبة جوية وإجراءات السلامة في حي الكندرة سنة ١٣٦٧هـ.

(٣) حمـزة محمـد علـي الدبـاغ، مـن الجمل إلـى الطائـرة، دار المرسـي للنشـر، جدة، ١٤٢٥هـ، ص ٣٧.

ووصلت المدرعات إلى جدة في عام ١٩٢٥م من ألمانيا عندما استورد الأشراف خمس سيارات نقل عسكرية من مخلفات الجيش الأمريكي في ألمانيا، ومعها أربعة عشر صندوقًا تضم صفائح من الحديد بغرض تصفيح السيارات؛ ولكن فشلت في الاستخدام الفعلي لثقل وزنها وحاجتها إلى المياه بكثرة.

في شهر آذار من نفس العام وصلت مصفحتان متكاملتان خفيفة وصغيرة الحجم سريعة الحركة ومجهزة بثلاث رشاشات، ويقود كل مدرعة طاقم متخصص جاء من مصر من الجنسية السورية، وبعد دخول الملك عبد العزيز أصبحت ضمن معدات الجيش السعودي[١].

ك - التعليم الحديث:

اعتمدت جدة على مواردها الذاتية وقناعات أهلها بأهمية التعليم في إدخال التعليم على طريقة الكتاتيب ثم التعليم الحديث؛ حيث تجاهلت الدولة العثمانية إدخال التعليم الحديث على مر مئات السنين التي سيطرت خلالها على الحجاز، وكان الأمر مثار استغراب الزوار والرحالة، ومنهم (تاميزيه) الذي استنكر عدم وجود مدارس في جدة عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، أما البتنوني فقد وصف المستوى الدراسي للمدرسة الرشدية المتوسطة أنها أقل من مستوى الكتاتيب التي تشرف عليها الأوقاف في مصر في زيارته ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

تحركت الدولة العثمانية لمواجهة ظاهرة تفشي الأمية والجهل على مستوى التشريعات؛ حيث اجتمع مجلس الإعمار أو مجلس أمور نافعة بتقديم تقرير عام ١٢٥٤هـ/١٨٦٨م أشار إلى ضرورة إنشاء المدارس بنسبة عدد السكان،

(١) علي الوردي، قصة الأشراف وابن سعود، الوراق للنشر، الطبعة الثالثة، ٢٠١٥م، لندن، ص ٢٦٤.

وفي العام التالي بدأ إنشاء المدارس الرشدية في الولايات، ومنها جدة ومكة؛ حيث صدرت موافقة السلطان في ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م بإنشاء مدرسة رشدية في جدة وأخرى في مكة على الرغم من أن جدة بموجب عدد السكان تستحق ست مدارس ولا يوجد ذكر لتعليم الفتيات[١].

يذكر أن عدد طلاب المدرسة الرشدية الابتدائية عشرون طالبًا، ورفض الأهالي إرسال أبنائهم؛ لأنها تدرس باللغة التركية، والمدرسون محبطون من قلة الرواتب، وكان استخدام اللغة التركية ليصبح الخريجون موظفين عموميين، أو ينضموا للقوات العسكرية، وفشلت الخطط على أرض الواقع لقلة الموارد، والمدرسة الرشدية المتوسطة قامت على تبرعات الأهالي، وفي (السالنامه) أنه في عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م بلغ عدد الطلبة ثمانية وثلاثين طالبًا، وعدد المدرسين اثنين أحدهما رياضيات[٢].

من أهم المدارس الأهلية التي أقيمت بالجهود الذاتية مدرسة النجاح في عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، وقامت على التبرعات المالية والعينية والخدمات؛ ولكن أغلقت أبوابها في عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م؛ حيث فرض عليها التتريك، أما مدرسة الطرابلسي التي أنشئت ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م واقتصرت على اللغة العربية، فقد قامت على تبرعات أهل جدة، وبعد سنتين أغلقت أبوابها.

في مطلع القرن افتتحت على مراحل أيقونة جدة في العلم والحداثة، وهي مدارس الفلاح أسسها الشيخ محمد علي زينل، وكان ينفق ثلاثة آلاف جنيه ذهب سنويًّا على مدارس الفلاح، بالإضافة إلى الأوقاف والصدقات من أهالي جدة لدعم المدارس وتأسست عام ١٩٠٥م. تقول القصة الشعبية: إن اسم

(١) عبد الله زاهر الثقفي، العمارة بمدينة جدة...، مرجع سابق، م ١، ص ١٧٤-١٨١.
(٢) محمد نصيف، ماضي الحجاز...، مرجع سابق، ص ١١١-١١٢.

الـفلاح جـاء من الفلاح الـذي يدعو إليه المؤذن عنـد كل صلاة، وكان الجهل متفشّـيًا إلـى درجة أنه لم يسـتطع شـخص أن يسـتدل على عنـوان مكتوب لديه ليوصل بضاعة مع الحامل؛ لأن سكان جدة لا يجيدون القراءة.

بداية الأوقاف كانت من أصحاب المباني المحيطة بالمدرسة، وكانت بيوت وأملاك الحاج محمد علي زينل نفسه من أهم أوقاف المدرسة، ويذكر التاريخ أن السـيدة: خديجـة بنـت عبـد الله علي رضا، وهـي ابنة عم مؤسـس مدارس الـفلاح قـررت عندما نقصت الأموال من زوجها في تمويل المدرسـة، فما كان منها إلا أن تبرعت بكامل مجوهراتها ومالها لدعم المدرسـة، وانتشـر خبر هذا التبرع في الدول المحيطة، وكان دافعًا لأميرات الأسرة الحاكمة في مصر للتبرع لإنشـاء الجامعة المصرية في القاهرة بعد أربع سـنوات من تبرع السيدة خديجة علي رضا وبمجهودات وأملاك الأميرات قامت جامعة فؤاد الأول جامعة القاهرة حاليًّا[١]، وكان للمدرسـة مجلس إدارة للإشـراف على مناهج المدرسة وتطوير مصادر الإيرادات، وقد نجحت مدارس الفلاح نشـر الثقافة العربية والإسلامية وتطوير المجتمع في الدولة الفتية على أساس من العلم.

بعـد دخـول الملك عبـد العزيز - رحمه الله - إلى جدة قـام بزيارة مدارس الفلاح في عام ١٣٤٤هـ وتبرع للمدرسة بمئة جنيه ذهبًا، وكان الملك عبد العزيز قـد أنشـأ فـي ذلك العـام ١٣٤٤هـ مديرية المعـارف العامة، وفـي عام ١٣٤٦هـ أصدر قرارًا بإنشاء مجلس المعارف الذي وضع أول نظام تعليمي للبلاد، وفي عام ١٣٥٥هـ تأسسـت مدرسـة تحضير البعثات في مكة المكرمة لإعداد الطلبة

(١) محمد يوسف طرابلسي، جدة حكاية مدينة، الطبعة الثانية، ١٤٢٧، جدة، ص ٤٥٠. وردت هـذه القصـة بالتفاصيل في كتاب آخـر للمؤلف، رائدات من أهالي جدة، كنوز المعرفة، جدة، ٢٠١٨.

قبل ابتعاثهم لاستكمال دراساتهم العليا على نفقة الحكومة السعودية[١].

يتذكرون أهالي جدة (قرش الفلاح)، وهو مبادرة شعبية حظيت بدعم الدولة، وهي أنه عندما قلت الموارد في الصرف على مدارس الفلاح وهو تخصيص قرش عن كل طرد بضائع يرد على جمارك ميناء جدة، ويخصص لدعم المدرسة. وقد بعث الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه – بالبرقية رقم ٤٦١٢ مؤرخة في ١٣٥٤/٧/٢٧هـ إلى وزير المالية بطلب دعم مدارس الفلاح، والموافقة على الاقتراحات وإفادته بما يحدث، وكانت الدولة وأهالي جدة يدًا واحدة في دعم التعليم الرسمي النظامي[٢][٣].

ل - البنوك والشركات المساهمة:

جدة مدينة رائدة في صناعة الصيرفة والنقود، وتأسس أول بنك باسم الشركة التجارية الهولندية في عام ١٩٢٦م لخدمة الحجاج الإندونيسيين وتحويل العملات لهم وتلقي أموالهم، واستخدمته الدولة السعودية لاحقًا

(١) مشاعل شافي العتيبي، الأوضاع العلمية في جدة، مركز تاريخ البحر الأحمر وغرب المملكة العربية السعودية، ٢٠٢٤م، جدة، ص ٨٠ وما بعدها.

(٢) خالد صلاح أبو الجدايل، وقوف الملك عبد العزيز ودعمه لمدارس الفلاح، ٢٠٢٢/٨/٩م، صفحته على فيس بوك.

(٣) خارج نطاق الإطار الزمني للبحث تجدر الإشارة إلى أن جدة عرفت الجامعة بمبادرة وتبرعات الأهالي؛ حيث تم انتخاب هيئة تأسيسية عام ١٣٨٤هـ في مدارس الثغر النموذجية، وأهم التبرعات ما قام به محمد أبو بكر باخشب باشا الذي تبرع بمليون ريال وهو مبلغ هائل، وتبرع الشيخ السليمان بالأرض. وتوالت التبرعات العينية والمادية، وخرجت جامعة جدة الأهلية إلى النور بقيادة وكيل الجامعة الدكتور أحمد محمد علي، ثم تبنت الدولة هذه الجامعة ووفرت لها الإمكانيات وأصبحت جامعة الملك عبد العزيز وأضحت واحدة من أهم الجامعات العالمية.

لاستقبال الدخل العائد من النفط وتحول إلى اسم البنك الهولندي[١].

في مطلع القرن تألف مجلس لتطوير الصناعات الوطنية من عشرين رجل أعمال لوضع الخطط في عام ١٩٢٠م، وإنشاء معامل يتم تطويرها لتصبح مصانع ومشاريع تجارية وصناعية حسب نجاحها التجاري. في العام الذي يليه ١٩٢١م أعلن عن إنشاء شركة الاستثمار الصناعي وهي شركة مساهمة يكتتب فيها الناس ويتم جمع المساهمات في غرفة جدة التجارية. من المشاريع الطموحة لدى أهالي جدة في تلك المرحلة كان إنشاء حوض جاف لإصلاح السفن والآلات البخارية، واعتبار ميناء جدة مركزًا إقليميًّا لإصلاح البواخر العربية، وللأسف لم ينفذ[٢].

هذه كلها مبادرات ومشاريع وأنشطة كانت تدل على شغف أهل هذه البلاد بالحداثة والتطور والحيوية التي يتصف بها مجتمع جدة، وقدرتهم على تطويع الإمكانيات المالية والبشرية المحدودة جدًّا من أجل تحقيق الأهداف الكبيرة. قبول الأفكار الجديدة والأشخاص الذين أحضروها هي من السمات التي جعلت من جدة رائدة في المجال الاقتصادي بشكله الحديث، ولكن وقفت الدولة العثمانية عقبة أمام تطبيق كثير من هذه الأفكار وتوفير الموارد لها.

(١) موقع المرسال: [ALMRSAL].

(٢) نجدة فتحي صفوة، وثائق الجزيرة العربية...، مرجع سابق، م ٥، ص ٢٩٢. وجاء في محاضر مجلس الوكلاء في ١٢ ذو القعدة ١٣٠٦هـ المحضر رقم ٤٥ التوصية بإنشاء ترسانة بحرية في جدة وللأسف لم ينفذ أيضًا.

خاتمة:
ملامح شخصية جدة الثقافية

الهوية الثقافية رؤية غير ساكنة؛ لأن المجتمعات عليها باستمرار اكتساب هويتها وتحديثها بدينماكية باعتبارها نموذجًا مستقبليًّا وليس نموذجًا ماضويًّا مغلقًا ومنجزًا. الثقافة هي نتاجٌ إنسانيٌّ لتفاعل المجموعات البشرية وعبر حواجز الزمان والمكان من خلال تقاطعات مبدعة وخلاقة وتأثيرات ضمنيّة كما يقول البروفيسور مارتين بوشنر [Martin Puchner]؛ حيث يقرر أن المعارف البشرية هي مشروع دائم لإعادة تدوير واسع النطاق يتم فيه استرداد أجزاء صغيرة من الماضي واستعارتها من شعوب أخرى لإبداع طرق جديدة في صنع المعاني في بيئات متغايرة. هذا لأن الثقافة المحلية تنتج من تلاقح الثقافات وتقاطعها والاستعارات المتبادلة بينها واستلهامها لبعض، وإعادة اكتشاف ثقافات سابقة وإحيائها، وهكذا تصنع المجتمعات هويتها الثقافية عبر الأجيال والجغرافيات والحدود المكانية والزمانية[1].

جدة منذ القرون الماضية تعاملت باستمرار مع مجتمعات العالم القديم على قدم المساواة، وتفاعلت مع تجار يمثلون الحضارات القديمة كلها تقريبًا (الفرس، المصريون، اليمن، الهند، الصين، بلاد ما بين النهرين، الشام، الأوروبيون، العثمانيون والقائمة تطول) كل الشعوب تعاملوا معهم بدرجات مختلفة من التفاعل والاستمرارية، وليس بالضرورة أنهم مسلمون ولكن

(1) Martin Puchner, Culture: A New World History, Ithaca Press, N.Y. 2023.

من مختلف الأديان والمذاهب والملة تعاملوا وتفاعلوا معهم بانفتاح عقلي وتجاري، مما أعطى الهوية الثقافية لجدة فرادة معينة وحيوية وسمات محددة يندر وجودها في الإقليم.

تميزت جدة بتوازن الموقع والموضع على اعتبار أن الموقع هو المنطقة المحيطة بالمدينة التي تمدها بأسباب النمو والتطور وترسخ حيويتها، وهو الحاضن والممول لما تحتاجه المدينة، أما الموضع فهو المكان الذي تقوم عليه المدينة وحيزها الحضري الذي هو قابل للتغيير استجابة لمتطلبات المدن، وممكن كما حدث في جدة أن يتغير أكثر من مرة في محيط الموقع ويعتبر العنصر البشري من عناصر الموضع، وهذا وفقًا لنموذج الدكتور جمال حمدان؛ حيث إن هذا التوازن هو ما يفضي إلى انطباق متطلبات ظاهرة عبقرية[1] المكان المتعددة الأبعاد، والتي تظهر قدرتها على الاستمرار والنمو والتأثير الحضاري في ما حولها. هذه العبقرية الناتجة من التلاقح الثقافي عبر التاريخ والقدرات الجغرافية والعنصر البشري شكلت ثقافة جدة والتي ساهم فيها رافدان مهمّان:

١- الرافد الديني:

منذ الظهور الأول لمدينة جدة إبان زيارة الخليفة الراشد عثمان بن عفان واعتبارها ميناء مكة المكرمة، اكتسبت جدة نوعًا من القداسة مستلهمة من هذه العلاقة تصل إلى درجة أنها في فترات زمنية منعت دخول غير المسلم إليها أو دفنه فيها عملاً بالقاعدة الشرعية في تحريم مكة على الكفار، وطوال القرون عملت جدة بدأب وإخلاص في خدمة الحجيج والزوار، وكما راقب أوكسنولد في القرن التاسع عشر "أن هناك طبقة عميقة من الإيمان تحف

(١) نويلاتي، محمد أنور، جدة وعبقرية المكان...، مرجع سابق، صفحات متعددة.

بالأشكال والمنظمات الدينية في جدة وكلا الجانبين الرسمي أو الشخصي يكون مخلصًا في ذلك. يدعم هذا وجود العديد من الشواهد والدلائل للمبادئ الأخلاقية الشخصية والمعتقدات الدينية المتأصلة في النفوس والالتزام الاجتماعي للأوامر الدينية، وأن هناك إخوة دينية وروحية وتجارب وممارسات ومعتقدات تقليدية تصهر المجتمع في بوتقة واحدة تتمحور حول الدين"[١]، واكتسبت جدة صفة أنها مدينة للتعبد والاعتكاف من صدر الإسلام وتوصف أنها مدينة الأولياء والمتعبدين، وهذا أعطى جدة نوعًا من التميز الأخلاقي والمكانة المرموقة في العالم الإسلامي.

٢- الرافد الحضري:

أوجدت الجغرافيا لجدة موقعًا متميزًا جعلها في مكان تتفاعل فيه مع الحضارات الإنسانية المختلفة عبر العصور من منظار تجاري اقتصادي. هذا البعد الحضري ساعد على تميز جدة وأن تكون مستقلة ثقافيًّا إلى حد كبير عن مكة المكرمة على الرغم من العلاقة المتميزة معها بل وحتى أنها تكاملية في أجزاء منها؛ لهذا لجأنا إلى العرض التاريخي في كتابنا هذا لنوضح البعد الاستراتيجي والحضري في وجود جدة، وكما ذكر جمال حمدان: "أن البعد التاريخي هو مدخل أي دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا الاستراتيجي، وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة وتخرج الصورة كلها ولها سطح ولكن ليس لها عمق. التاريخ هو المعمل الجغرافي والمخزن الاستراتيجي الذي يستمد منه خامته"[٢].

---

(١) أوكسنولد، وليام، (الحجاز تحت الحكم العثماني)، ترجمة: د. عبد الرحمن العرابي الحارثي، ط ٢، ٢٠١٦م، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ص ٥٠.

(٢) جمال حمدان، (شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان)، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٩ وما بعدها.

بعد هذه السياحة الثقافية ذات الأبعاد التاريخية والجغرافية في مسيرة جدة يمكن أن نستخلص أن هناك ملامح عامة للهوية الثقافية لمدينة جدة نوجزها في ما يلي :

٣- التسامح الإسلامي:

تتميز جدة بقبولها للآخر المختلف في المذهب أو المعتقد، وهذا نابع من الفهم العميق لجوهر الإسلام الذي يعطي الإنسان الحق في المخالفة هذه وحقه في الاحتفاظ بعقيدته؛ لأنها المشيئة الإلهية أن يكون الناس مختلفين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ لأنه كما جاء في سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾. التسامح الإسلامي لم يكن على حساب أساسيات الدين وضوابطه؛ ولكنه يوصف بالتسامح الإيجابي الذي يرتكز على مشاعر الصداقة وحسن الجوار، أو ما نطلق عليه مصطلح (المروءة) مع المختلف دينيًّا أو مذهبيًّا، وهذا يفسر وجود تجار من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن المذاهب الإسلامية المختلفة والفرق والطرق وخلافه.

٤- التجانس الاجتماعي:

تتميز جدة بقبولها الآخر المختلف من الناحية الاجتماعية والعرق الإثني والمنطقة الجغرافية القادم منها، واستقبلت جدة بالترحاب عبر القرون المهاجرين والحجاج والتجار والبحارة وطلبة العلم الشرعي الذين استوطنوها وتزوجوا منها وأصبحوا جزءًا منها. هذا ما يسمى نظرية الاختلاط الشامل؛ حيث انصهر الجميع في نمط إنساني موحد ومتجانس في ثقافة قوامها العروبة

والإسلام واتباعًا للهدي النبوي (إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب)، ويقوم هذا التجانس على مفاهيم الإخاء الإسلامي التي تروج للتواصل الإنساني على أسس إسلامية واضحة حتى مع وجود الاختلاف الديني والمذهبي لقدرة الإنسان في جدة على التوصل إلى الأرضية المشتركة مع الآخر أساسها الاحترام والمصالح المشتركة والإخاء الإنساني.

٥- التجارة لا السياسة:

يتميز إنسان جدة بالعمل التجاري وإنشاء الأسواق الموسمية والثابتة وبناء التحالفات الاقتصادية، وهذا أساس الثقافة الحضرية لجدة؛ لأنها من المدن التي ظهرت أهميتها لعلاقتها بالتجارة والموقع، وكان الميناء نقطة الاهتمام العالمي.

لم يخرج من جدة أباطرة أو ملوك أو قيادات عسكرية وفيالق لاحتلال الجوار والتوسع بل العكس هو الصحيح. جدة تعرضت للغزو باستمرار من القريب والبعيد، وحكامها في الأغلب من الخارج؛ حيث حكمها حكام مصريون إبان دولة المماليك وأتراك أيام الدولة العثمانية، وعلى الرغم من أن أهلها يتبعون المذهب السني إلا أنه حكمها حاكم شيعي زيدي هو جابر بن عبد الله الحراشي ٨٠٦هـ - ٨٠٩هـ، وحكمها صوفي هو تنم الصوفي الفقيه، أو تنم الصوفي الخزندار سنة ٨٩٥هـ لمدة ثلاث سنوات. مهنة أهل جدة التجارة والازدهار الاقتصادي وقادتها المحليين من النطاق الديني أو التجاري لا السياسي أو العسكري. ترتب على ذلك من الناحية العملية أن عقلية إنسان جدة عقلية اقتصادية قادر على التفاوض مع الآخر المختلف للوصول إلى حلول للصعاب وتبني منهج التعاون على المدى الطويل مع الآخر، واستخدام الأساليب الائتمانية والمالية المعتمدة على الثقة في الآخر، وربما كان هذا أحد

أسباب عدم تدوين تاريخ جدة بدقة لعدم وجود قيادات سياسية فاعلة، وكتابة التاريخ ترتبط بالأحداث السياسية والقادة الفاتحين.

٦- الإقبال على الحداثة والتطور:

صبغت السمات السابقة إنسان جدة بالقدرة على الانفتاح الذهني والحيوية، ونبذ التعصب بكافة أشكاله سواء في الدين أو التعصب للأصل العرقي أو الرأي، وبالتالي انعكست هذه الصفات على أرض الواقع بممارسة قبول الفكر الجديد وأساليب الحداثة وأدواتها في الاقتصاد والصناعة وخلافه، هذه الخاصية لعبت دورًا مهمًّا عندما انضمت جدة للدولة السعودية الفتية؛ حيث لعبت دور الواجهة لقبول القناصل والشركات الأجنبية والبنوك والمطار؛ بل إن توقيع اتفاقية البترول حدثت في جدة، وتحصيل أموال البترول في جدة كذلك.

وفرت جدة بيئة حاضنة خصبة لقبول المخترعات الحديثة وأدوات الحضارة الغربية ومن ينفذها من الأجانب، واستخدام الأساليب الائتمانية مع البنوك والمؤسسات المالية الدولية، والتوسع في العمل الاقتصادي مع العالم الأمر الذي ساهم في انطلاق الدولة الفتية بالعلم والعمل الحديث.

هذه السمات وغيرها ما أضفى على جدة الحيوية والتفاعل مع الجديد للتطور والتحديث والمروءة التي يتصف بها العنصر البشري فيها مع الوقوف على أرضية صلبة من العقيدة الإسلامية.

كل أملي أن يكون هذا الجهد دافعًا للآخرين أن يدرسوا ويقيّموا ويصححوا هذه الفرضيات والأفكار والأحداث وإخراج الأفضل منها.

تم بحمد الله.

ملحق:
ما بعد النص: الظهور الرابع لجدة

ظهرت جدة للمرة الرابعة بعد دخول الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - في عام ١٩٢٥م وانضمامها إلى الدولة الفتية، ووضعها على طريق التطور والتوسع العمراني والإنساني الذي مكنها من أن تكون من أهم مدن العالم.

بدخول الملك عبد العزيز إلى جدة التقت عبقرية القائد الفذ مع عبقرية المكان لما فيه الخير والنماء، وأدرك برؤيته أن جدة تعاني من معوقات بنيوية تعيق انطلاقها لتحقيق أهدافها وأهداف الوطن الأكبر.

الدولة الجديدة دولة وطنية نابعة من أهل البلاد مستقلة لا تتبع استراتيجية أجنبية ولا هي جزء من مخططات استعمارية كبرى كما كان يحدث في القرون الماضية، دولة لا شرقية ولا غربية تعنى بأمن وسلامة الحجاج وأهل البلاد بعد أن عصفت مشكلة الأمن بهم مرارًا وتكرارًا، ومن هذه البداية الوطنية انطلق المشروع الإصلاحي ذو البعد الإسلامي والعروبي الواضح الذي يعتمد على صحيح الدين بعيدًا عن التدين الشعبي وما يرتبط به من تجاوزات، وتم هذا بصورة قاطعة لا مجاملة فيها.

كانت الموارد المالية محدودة؛ ولكن وضوح الرؤية وهمة الرجال دعمت المشاريع الإصلاحية وأهمها مشكلة المياه، وهي أكثر مشكلة وجودية تعاني منها جدة، وجاء مشروع وقف الملك عبد العزيز وشراء كنداسة جديدة الأمر الذي وضع حدًّا لمشكلة مياه الشرب النظيفة، وردم الحفر والصهاريج التي

كانت مصدرًا للأمراض وتدهور الصحة العامة، وبعد ذلك بدء دعم مشاريع التعليم القائمة وبدء التعليم الرسمي الحكومي، وانطلقت قافلة العلم والعمل لبناء الدولة الحديثة[١].

المسيرة التعليمية التي انطلقت قبل قرابة قرن من الزمان بعد قرون من الإهمال أتت هذه المسيرة ثمارها في المجمعات التعليمية العمومية للجنسين التي تذخر بها جدة، والتعليم المتخصص والتدريب المهني بأشكاله ومستوياته والجامعات بما تشمله من كليات متخصصة في العلوم الحديثة التي تمنح الدرجات العلمية بمختلف مستوياتها للطلاب من الجنسين، والمستشفيات الجامعية لتخريج الأطباء من الجنسين ومساعديهم كل هذا ساهم في رفع المستوى التعليمي والثقافي لأبناء الوطن.

حظي الأمن في جدة وساحل البحر الأحمر باهتمام الملك عبد العزيز باعتبار أن ضياع الأمن كان السبب الرئيسي في عدم استقرار البلاد والاعتداء على الحجاج؛ لذا اتبع عددًا من السياسات التي اتسمت بالحكمة والقدرة العسكرية والحنكة السياسية مما أدى إلى توطيد الأمن وتطبيق الشريعة الإسلامية

---

(١) عندما دخل الملك عبد العزيز إلى الحجاز ١٩٢٤-١٩٢٥م هاجر مؤسس الحزب الحجازي الوطني السيد محمد طاهر الدباغ إلى العراق. بعد سنوات طلب الصفح من الملك والعودة إلى مكة، وعندما تشرف بالسلام على الملك ذكره بما كان يكتب ويقول عن الجهل السائد وأسند إليه مسؤولية المعارف العمومية شكل من أشكال التحدي، وبهذا بدأت مسيرة التعليم النظامي الرسمي في البلاد، وحظيت هذه المسيرة بالدعم الكامل من ملوك البلاد بالشكل الذي نقل البلاد والمجتمع إلى مصاف الدول المتعلمة المنتجة.

وردت في كتاب: إنسانية ملك، د. عبد العزيز الثنيان، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٤هـ.

وترسيخ الوحدة الوطنية.

حيث تعامل مع القبائل بصورة ممنهجة لحفظ أمن الحجاج من خلال إزالة الخلافات داخل كل قبيلة وبين القبائل نفسها وفقًا للعرف والشرع حتى تتطور إلى اشتباكات مسلحة وإلا في هذه الحالة يتدخل الجيش النظامي لفرض الأمن. أنشأ نظام المجاهدين وهو مزيج من التقاليد البدوية والتنظيم العسكري، وانضم إليه المقاتلون في القبائل التي تعتمد على الهجن وذلك بمرسوم ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م وتوحيدها، ثم تطورت أن تكون قوات المجاهدين. أنشأ وزارة الداخلية قبل ذلك ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م ويتبعها خفر السواحل لحماية الشواطئ والثغور البحرية.

حرصًا على الاقتصاد الوطني اتبعت الدولة سياسة واضحة في مكافحة التهريب للبضائع بعيدًا عن الجمارك، وضد تهريب الذهب والفضة من وإلى البلاد أو الأسلحة أو الرقيق، وكلها تأتي من الجانب الآخر من البحر الأحمر، وأشرك القبائل في مراقبة الطرق البرية لكشف المهربين وإعطائهم مكافآت على البضائع التي تضبط ومعاقبة المهربين. كذلك ضبط الحدود أمام المتخلفين من الحجاج والزوار من خلال تفعيل خدمات لمتابعة الأجانب الذين يحضرون ويقررون البقاء بصورة غير شرعية من قبل مديريات الشرطة في جدة ومكة وغيرها. استتباب الأمن في الحجاز وجدة كان الإنجاز الذي سمح للمواطنين بالانطلاق في بناء الوطن بفعالية وأمن وولاء للقائد[١].

(١) زهير عبد الله الشهري، سياسة الملك عبد العزيز في حل مشكلات ساحل البحر الأحمر الأمنية، دارة الملك عبد العزيز ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م، الرياض.

حظي الميناء باهتمام الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه –؛ حيث استخدمه في أول زيارة خارجية له إلى مصر في ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٦م، وأقام سكان جدة احتفالات عند عودته وأطلقوا اسمه على الساحة العامة أمام الميناء وما يتصل بها باسم شارع الملك عبد العزيز، وقد أمر جلالته بتطوير الميناء على مراحل في البداية بردم المنطقة الضحلة أمام جزيرة سعد، وبعد ذلك تم التعاقد مع شركة بكتل العالمية [Bechtel Co] لبناء الميناء الحديث.

قامت الشركة العملاقة بإنشاء رصيف بحري داخل البحر يسمى (الاسكله) بطول ١٧٠ متر وعرض ٣٠ مترًا، وربط المرسى بجزيرة سعد بمرسى بطول ٣٩٠ متر وعرض ٨ أمتار، ويمكنه من استقبال سفينتين في وقت واحد. كذلك تم تخصيص الرصيف الجانبي الذي يبلغ طوله ١٥٨ متر لرسو السفن الصغيرة، أما الرصيف الآخر ٣٥٦ مترًا لرسو المعادي وانتهت فترة السنابيك وأصبحت السفن تفرغ حمولتها بالطريقة الحديثة سواء من الحجاج أو البضائع، ودخل ميناء جدة العصر الحديث في النقل من أوسع أبوابه[١]. مع استتباب الأمن شجع الأمر أصحاب البواخر الدولية إلى الحضور إلى جدة مثل شركة البواخر الهولندية (الهلت) [Helt] في ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ونافستها شركة إيطالية وألمانية وسوفيتية وشركات عربية وإسلامية عديدة، وتوسع عمل المواطنين في الميناء في خدمات الحج مما ساعد على النمو الحضري[٢].

في فترة لاحقة تم بناء مدينة حجاج البحر بتوجيه من الملك عبد العزيز تحت إشراف وقف العين العزيزية عام ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م بالقرب من الميناء

(١) عبد الله زاهر الثقفي، جهود الملك عبد العزيز – رحمه الله – في تطوير وتحسين ميناء جدة، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٦، ١٤٤٢هـ يوليو ٢٠٢١م، ص ٤٢١.
(٢) زهير عبد الله الشهري، سياسية الملك عبد العزيز...، مرجع سابق، ص ٤٥.

وفرت فيها الماء والكهرباء والمسجد والأسواق، وأعيد بناؤها عدة مرات مع ازدياد أعداد الحجاج.

الظهور الرابع لمدينة جدة جاء باعتبارها جزءًا من الدولة المركزية القوية، وتضاعفت مساحتها من أقل من اثنين كيلو متر مربع داخل الأسوار إلى ٧٤٧,٦٢ كيلو متر مربع منذ عدة سنوات وهي في ازدياد، وكان السكان أقل من ثلاثين ألف عند هدم الأسوار، فوصل العدد إلى أكثر من أربعة ملايين نسمة وفي ازدياد[١].

ونشأت في جدة حركة مصرفية فعالة، وتأسست البنوك والمؤسسات المالية تحت إشراف السلطات النقدية المركزية، وصاحب ذلك إنشاء الشركات الاقتصادية العملاقة والمصانع وغيرها من الأنشطة الاقتصادية في العهد السعودي، ومثلها نشأت حركة رعاية صحية حديثة، فكانت المستوصفات والمستشفيات التخصصية التي تحملت الدولة عبء إنشائها.

ملايين المسلمين يستخدمون مطار الملك عبد العزيز في جدة وميناء جدة كل عام لأداء العمرة والحج والزيارة في أمن وأمان مع خدمات صحية وبلدية متكاملة، وأصبحت جدة المكان الذي تقام فيه المناسبات الرياضية العالمية، مثل: سباق السيارات، ومسابقات كرة القدم العالمية، وتنافس بحيويتها لتحتل مكانها كواحدة من أهم مئة مدينة في العالم، والقادم أجمل وأحسن بإذن الله.

﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢].

---

(١) تقرير وزارة الداخلية، ورد في مطبوعات أمانة محافظة جدة.

(٢) سورة يونس، الآية رقم (١٠).

ملحق:
الصور والخرائط

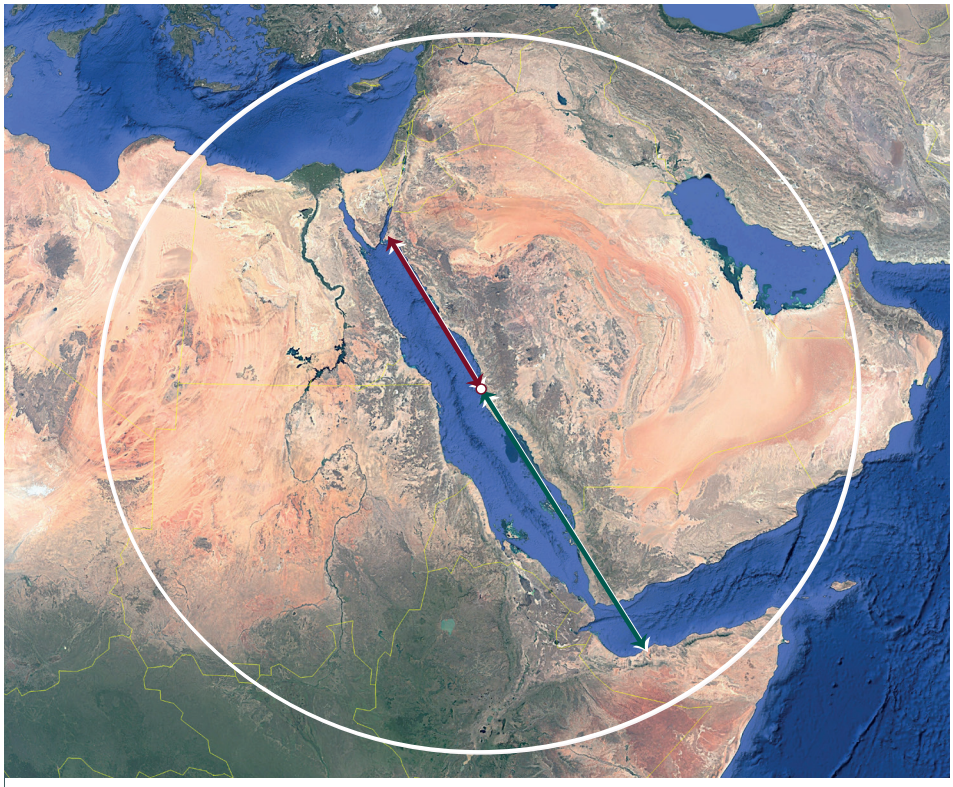

● **جدة تتوسط البحر الأحمر والطرق البرية والممرات البحرية في المنطقة.**

المصدر: جدة وعبقرية المكان – صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية –، للدكتور محمد أنور نويلاتي، جداول للنشر والتوزيع 2032م.

● رسم تخطيطي (كروكي) يوضح جميع تفاصيل ميناء جدة وتوزيع بواباته والمقرات الحكومية به مثل ديوان الحكومة، إدارة الجمرك، مخزن الذخيرة، المدفعية.

المصدر: مكتبة جامعة إسطنبول. سجل رقم: 461 كود (PLK.p)

● **خريطة جدة في طرق التجارة العالمية.**

Berghaus, Hermann. World on Mercator Projection, Justus Perthes, Gotna, 1882, First Edition, 1863.

المصدر: Chart Of World on Mercators Projection, Berghaus, Hermann, 1882.

● الأميرة البريطانية (أليس) كونتيسة أثلون حفيدة الملكة فيكتوريا عند زيارتها جدة في العام ١٩٣٨م.

المصدر: مجموعة السيد مازن السقاف.

● المقر العالي بالكندرة، أو مربعة السقاف سابقًا؛ حيث استقبل فيه الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ القناصل ووجهاء جدة يوم ٧ جمادى الثاني ١٣٤٤هـ، وأصبح بعدها قصر للضيافة الحكومية.

المصدر: أم القرى العدد (52) في 1344/6/11هـ، والصورة من مجموعة السيد مازن السقاف.

فهرس الأعلام

آلبان، نائب القنصل الإنجليزي ١٥٣
أباركس، نائب قنصل إسبانيا ٢١٢
الناخوذة إبراهيم ..... ٨٣، ١٢١، ١٢٥، ٢١٩
إبراهيم المازني ٣٣٠
إبراهيم بن محمد علي باشا بن إبراهيم آغا ..... ١٤١، ١٤٢، ١٦١
إبراهيم محمد الكرخي، الاصطخري ٢٧٥
إبراهيموف، أول قنصل روسي في جدة ١٩٧
ابن الضياء، قاضي مكة ٢٩٥
ابن ضياء الهندي، قاضي مكة ٢٩٥
الشريف أبو البركات ٢٥٣
أبو بكر بن أحمد ٢٨٠
الشريف أبو نمي بن بركات بن حسن عجلان ..... ١٢٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٣
الحاج السومطري أجوس سالم ٢٠٨
الناخوذة أحمد ٢٦٢
أحمد بن إبراهيم الماخض، الإمام المجاهد ..... ٢٦٦، ٢٦٧
الشريف أحمد بن أبو نمي بن بركات ٢٧٠
أحمد باشا يكن ١٤١
أحمد رأفت الاسكندراني ٣٤٠
الشريف أحمد بن سعيد ١٣٣
أحمد بن سهل أبو زيد البلخي ٢٧٥

الدكتور أحمد العقبي ١٨١
أحمد بن ماجد بن محمد النجدي ..... ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥
أحمد بن محمد الحضراوي ..... ١٦٨، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠
إدوارد برتراند ..... ١٩٤، ١٩٥
أديب هراري ٣٣٩
أرثر ألبان ..... ١٨٦، ٣٣٨
إرنست واتبلد ١٩٥
ازدمر باشا، والي اليمن العثماني ١٦٠
استيفادو دي جاما، قائد البرتغال ..... ٢١٨، ٢٦٣
البابا إسكندر السادس ٢١٧
اسكويلي علي أفندي ١٤٣
إسماعيل باشا، قائد القوات المصرية ١٧٨
الشاه إسماعيل الصفوي ..... ١٠٢، ١٠٣، ٢٢٢، ٢٤٨
أشيل أخيل إراسم بويز، طبيب ١٩٤
أصحمة النجاشي، ملك الحبشة ١٠٤
الملك أعظم شاه بن إسكندر شاه بن شمس الدين ٢٩٥
أفانسي نكيتين، تاجر روسي ١٩٦
ألبرت إدوارد بوبوتديسكوتوريس ١٩٥
ألفونس دميلو ٢٧٢
ألفونس دو البوكيرك، قائد البرتغال ..... ١٠٨، ١٠٩، ١١٦، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٤، ٣٠٠
ألفونس دي سينزيس ..... ٢٥٠، ٢٥٢
ألفونس روسو ١٩٣
ألكسندر أوقليف ١٨٥
ألكسندر رومانوف الثالث ١٩٧
ألكسندر لوسيانا ١٩٤
إليزا ثيودور فان ديلدن ٢١١
أليشو دي مينزش ٢٢٨

إميل جوبي ٢١١
إميل جويوت ١٩٥
أنجلو بسكو، مؤرخ إيطالي ..... ٢٣٤، ٢٣٥
إنغراف، قنصل نمسا ٢١٢
أنيس صايغ، الباحث ٢١٣
أوجيلفي ١٦٨
أورليك فرتيج، مؤرخة ٣١٧
أوستن لايارد، سفير بريطاني ١٦٩
أوغست سوماريبا ١٩٥
أوكسنولد وليام، مؤلف غربي ٣٥٠
أونكليد، نائب قنصل اليونان ٢١٢
أي بي وايلد، نائب قنصل ١٨٦
إي دي جاسباري ١٩٤
إيفيلارد، قنصل فرنسي ..... ١٩١، ١٩٣
ايمانويل غابريل أفيلارد، زوجة القنصل الفرنسي ١٧٩
السلطان باش عسكر ٢٢٥
باش مكة ٢٣٩
اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ..... ١٦١، ١٧٣
باينكار ٢٤٧
السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين برسباي ..... ٨٦، ٨٧، ٩٧، ١٢٥، ١٢٨، ٢١٩
برسترجون، ملك الحبشة ٢٢٠
الشريف بركات بن حسن عجلان ..... ١٢٨، ٢٢٨، ٢٣٩، ٢٨٩
الأسقف برنادينو ٢٢٤
برنارد شنيب، طبيب ١٩٤
الطبيب الفرنسي بروست ١٥٣
البشاري ٢٧٥
بلانشون ١٩٥
بلدوين ٧٩
بهادر شاه، حاكم كجرات ٢٦٠

بولين ١٨٠
الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ٨١
السيد بيج ..... ١٦٨، ١٧٩، ١٨٦
بيير بيليسييه دي رينو ١٩٤
تاميزيه، الرحالة الفرنسي ٣٤٣
الأمبراطور تانغ قاو تسونغ ٢٨٣
تركي يوسف ٢٥٣
تشارلز أولكه فان دير بلاس ٢١١
تشارلز فرانسوا روشيه ديريكورت ١٩٣
تشارلز فير ١٩٥
تشو جو كوا ٢٨٥
تشينغ خه، قائد مسلم صيني ..... ٢٨٤، ٢٨٧
تقي الدين أحمد المقريزي ..... ٧٣، ٧٥، ٨٣، ٨٦، ٢١٩
تليوباستوري، تاجر إيطالي ٣٢٥
تنم الصوفي الخزندار ٣٥٣
تنم الصوفي الفقيه ٣٥٣
دكتورة تهاني الحربي ١٨١
توخلوكا، قنصل روسي ١٩٨
توران شاه بن السلطان ٨٠
توماس جاغو، قنصل بريطاني ..... ١٥٠، ١٧٠، ١٨٦
القديس توما ويدعى يهوذا توما ديديموس ١٠٦
تيمورلنك ٨٧
جابر بن عبد الله الحراشي، حاكم شيعي زيدي ٣٥٣
جار الله بن فهد ..... ٧٧، ٢٣٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٦
جاسبار داسيلفا ٢٥٠
جاك إدوارد دي ستورلر ٢١١
جاكوب وولف ٢١١
الأمير جانبك ابن عبد الله الظاهري الخاصكي ١٢٦
جعفر البرمكي، وزير ٣٣٢

السلطان جقمق ١٢٦
جمال محمود صالح حمدان ..... ٩٠، ٣٥٠، ٣٥١
جنكيز خان واسمه تيموجين ٨٧
جوا دي كاستروا ٢٦٣
جوان أدريان دي فيك ..... ١٩٥، ٢١٠
جواو جوميز ٢٤٤
جورج ديوي قنصل بريطاني ١٧٢
جورج ساركيز ١٩٠
جورجي ديفي قنصل بريطاني ١٨٦
جوزيه دي بروس ..... ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٣٠٠
جون الأول، ملك البرتغال ٢١٧
جون لويس بوركهارت ..... ١٣٧، ١٥٣، ٢٧٠، ٢٨٢، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٣٢
جون مري، السفير البرطاني ١٣٤
جون موري، قائد القوات البريطانية ١٨٩
جيا دان ٢٨٤
جي بيتس، قنصل بريطاني ..... ١٨٦، ٣١٥
جيرنمو أوسوريز، مؤرخ برتغالي ٢٥٥
جيريت سيبراند إندت ٢١١
جي ريتشارد سون، قنصل بريطاني ١٨٧
جيمس بروس، القنصل الإنجليزي في الجزائر ١٣٣
جيمس زوهراب، قنصل بريطاني ..... ١٦٩، ١٨٦، ٣١٧
الكابتن جيمس ماكنزي ١٧٣
جينييه ١٩٥
جيوس ١٩٥
حاجي إقبال مولى خان جهان ٢٩٥
حافظ سليمان أفندي ١٤٣
الملكة حتشبسوت ٧٣
الحسامي الكردي، نائب جدة ٢٣٩
الحسن بن أحمد بن محمد بن القاسم بن جعفر السمرقندي ٢٦٨

الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ٧٢
حسن باشا، والي اليمن ١٢٩
حسن بك ..... ١٢١، ١٣٣
حسن العمودي ٢٨١
الشريف حسين بن عجلان ..... ٨٣، ١٥٨، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٣٩، ٣٤١
الشريف الحسين بن علي بن محمد الهاشمي ١٩٣
الأمير حسين الكردي ..... ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥١، ٢٧٣
خالد أبو الجدايل ٣٣١
خاير بك الجركسي، والي مصر ..... ٩٨، ١١٣
خديجة بنت عبد الله علي رضا ٣٤٥
الخديوي إسماعيل بن إبراهيم باشا ١٦٢
خربوطلس عبد الله أفندي ١٤٣
خسرو كسرى بن فيروز بن يزدجر ..... ٢٧٦، ٢٨٣
خورشيد باشا ١٤٦
دا ديوكس، قنصل فرنسي ٣١٥
الملك دارا الثالث ٢٧٦
داود باشا ٢٦٠
دبليو دي زيمرمان ١٩٥
الأمبراطور ده تسونغ ٢٨٤
دوبريل، طبيب ١٩٤
دوبيف ١٩٥
دوراتي باربوسا ..... ٢٢٧، ٢٣٣
دورفيل ١٩٥
اللورد دوفرين ١٧١
دومينجو فاندر ٢٤٤
دون خوان مانويل، ملك البرتغال ..... ١٠٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٤٥
الملك دويت الثاني الشهير بلينا دنكل ١٠٤
دي كستينيوا، مؤرخ برتغالي ٢٥٨

ديلي ثم شوفان بيلارد ١٩٣
ديوجو لوبيز دي سكويرا، قائد برتغالي ٢٥٦
رائف باشا، والي جدة ١٣٥، ١٣٦
رادين أبو بكر جاجاد ٢٠٨
راغب مصطفى توكل ٣٣٩
جيوفاني فيناتي، الرحالة الإيطالي ١٥٢
جون فرايدكين، رحالة ٣١٤
جيل جروفيه كورتلمون، رحالة ١٥٢، ١٩٠، ١٩١، ٣٠٥، ٣٣٣
رستم أفندي، أمين جمرك جدة ١٧٤
رستم باشا، أمين جمرك جدة ١٤٤
رشوان بك ١٤٣
روبرت أرمز ١٩٦
القبطان رودريغيز ٢٥٠
رودولف منتون باكي، قنصل هولندي ٢٠٣، ٢١٠
روشيه ديريكور ١٩١
روفر ٣٢٢
ريتشارد جوريل ١٩٤
ريتشارد ستيفنس، قنصل بريطاني ١٨٦
ريتشارد مورتيل ١٢٦
ريتل ١٩٦
زين الدين دحلان ٢٦٨
السيد سبايتر ١٩١
ستانلي قنصل بريطاني ١٨٢، ١٨٦، ٣١٧
الشريف سرور آل زيد ٣١٧
سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه ٢٨٣
سعد الدين إبراهيم بن المرة ٨٣، ٨٤، ١٢٦، ٢٨٩
سعيد حامد، والي جدة ١٨٩
السقاط ١٣٧
سلمان الفارسي، رضي الله عنه ٢٧٧

السلطان سليمان الأول بن سليم الأول بن بايزيد بن محمد الفاتح العثماني ١٠٣، ١١١، ١١٤، ٢٦١، ٢٧٠، ٢٧١، ٣٣٢
سليمان باشا ١١٥، ٢٦٠، ٢٦١
سليمان حافظ، محافظ جدة ١٤٢
سليمان الخادم ١١٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١
سليمان الريس ١١٤، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٧٣
السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول العثماني ١١٥
السلطان سليم خان الأول بن بايزيد بن مُحمَّد العُثماني ٩٩، ١٠٣، ١١١، ١٢٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٥٩
سليم سلطان، تاجر ٣٣٣
سنان باشا ١١٥
الملك سنوسرت الثاني ٧٤
سنوك هوخرونيه، رحالة ١٥٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٨٢، ٣١٤
سوريت، طبيب ١٩٤
سويلمز أوغلو ١٥٥، ٣٠٥
سيار، من أهل فارس ٢٧٧
السيت جان كندواني ٣٢٥
سي.جي. كول ١٨٥
سيف بن يزن ٢٧٦
الملك سيون ١٠٤
شاذي الهندي، قاضي الحنابلة بمكة ٢٩٥
شارل جاك بونسي ١٨٩
شارل ديدييه، الرحالة الفرنسي ١٥٣، ١٩٠، ١٩١، ٢١٣، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٦
شارل هوبر ٢٠٧
القائمقام شاكر ٣٢٤، ٣٣٨
شانتيميس ٣٢١
الشيخ شاه عبد العزيز ٢٩٧
شكيب بن حمود بن حسن بن يونس ١٢٢، ١٢٣
الشيخ شمس الدين الأنصاري السلطانبوري ٣٠٢

شمس الدين ، حكيم الملك الكيلاني ٣٠٢
شمس الدين مروان ٨١
شنغ، المبعوث الرئيسي الصيني ٢٨٦
شهاب الدين أبو المغازي أحمد شاه ٢٩٦
الأمبراطور شوان ٢٨٤
شيركوف، طيار الشريف حسين ٣٤١
صالح جوهر ١٨٠
الشيخ الصالح حسين بن أبي الحسن الجشي الأميري ٣٠٢
الأمير صديق حسن بهو بالي ٢٩٧
صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي القرشي ٧٨
السلطان الأشرف أبو النصر طومان باي ٩٩
ظفر آباد ٢٦١
عامر بن داود، حاكم عدن ٢٦٢
عامر الطاهري، حاكم عدن ٢٦١
عامر بن عبد الوهاب، سلطان اليمن ٢٢٤
عبد الله بن البشير ١٩١
الدكتور عبد الله الثقفي ٣٣١
الشريف عبد الله بن حسين آل بركات ١٣٣
الشريف عبد الله بن محمد عون ١٩٣
الشيخ عبد الحق الدهلوي ٢٩٧
السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول العثماني ... ١٥٥ ، ٣٠٣ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
عبد الرحمن بن أبى بكر، جلال الدين السيوطي ٣٣٩
عبد الرحمن أفندي ١٤٣
الشيخ عبد الرحمن سراج، إمام وخطيب المسجد الحرام ١٨٤
عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني ١٢٧
عبد الرحمن، نائب القنصل ٣٣٨
عبد الرزاق، مساعد الجراح ١٧١
عبد الرزاق نائب القنصل البريطاني ..... ١٧٠ ، ١٨٣ ، ١٨٦

عبد السلام أفندي ٣٢٩
عبد السلام سرحان ٣٤٢
عبد العزيز دولتشين، رحالة ١٥٤
عبد العزيز زمزمي، مفتي مكة ٢٧١
الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود رحمه الله ..... ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨
السلطان عبد العزيز بن محمود ..... ١٦٢، ٣١٥
عبد الغفار بن عبد الرحمن البغدادي ٢٠٨
عبد القادر أحمد الشافعي ٢٣٨
عبد القادر الفاكهي ..... ٢٦٥، ٢٦٨
عبد القدوس بن القاسم بن محمد الأنصاري ..... ٧٧، ١٦٦، ٢٧٥
الملا عبد القيوم ديبي كمشنر ٣٠٤
السلطان عبد المجيد الأول بن محمود الثاني بن عبد الحميد الأول العثماني ١٧٨
الشريف عبد المطلب بن غالب بن مساعد الحسني ١٧٠
عبد الملك ابن هشام بن أيوب الحميري ٧٨
الشيخ عبد النبي بن أحمد الكنكوهي ٣٠٢
عثمان باشا ٣٢٣
عثمان حافظ ٣٣٩
عثمان بن عفان، رضي الله عنه ..... ٧٧، ٧٨، ٨٨، ٢٨٣، ٣٣٩، ٣٥٠
عرابي الجيلاني ..... ١٣٧، ١٨٢، ١٨٣
السيد عرار ٢٤٠
الأمير عز الدين بن شمس الدين الغزنوي الدهلوي ٣٠٢
الأمير عزيز، حاكم ديو ٢٢٦
علي أبو الجود ١٢٦
المنصور بالله علي بن الإمام المهدي عباس ١٨٩
علي بك الكبير ..... ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٦٩
علي بن تاج الدين السنجاري ..... ٢٤١، ٢٦٨
علي الجوقالي ١٤٤
الشريف علي بن حسين ٣٤١

علي بن داود المؤيد بن يوسف المظفرالرسولي ٨٢
القبطان عمر ١٧٦
عمر بن إبراهيم بن محمد القديمي اليمني ٢٨٠
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٧٥
عمرو بن العاص رضي الله عنه ٧٥
عمير بن وهب الجمحي ٧٨
الشريف عون الرفيق پاشا بن محمد بن عبد المعين بن عون ١٨٤
الشريف غالب بن مساعد ..... ١٣٧، ١٤٢، ١٤٤، ١٨٩
مستر غرافتي سميث ٣٢٤
غياث الدين أبو المظفر ٢٩٥
فاسكو دي جاما، مستكشف برتغالي ٢٦٣
فرانسيسكو جيراردو أوغسطينوس فان ديلدن ٢١١
فرانسيسكو دي ألميدا ..... ٢٢٥، ٢٣٤
فريدريك جان هافر دروز ٢١١
فلوري قنصل فرنسي ١٩٢
فولجنس دي فريسنيل، مستشرق ..... ١٩٠، ١٩١، ١٩٣
فون تسيرمان ١٩٨
فيروز بن يزدجرد ٢٨٣
السيد فيلوميل ٣١٣
فيليكس لوستالوت دي باتشوى، قنصل فرنسي ..... ١٨٨، ١٩٥
السلطان قانصوه الغوري ..... ١٢٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٧٣
قرقماس الشعباني الظاهري برقوق الناصري ..... ٨٣، ٨٤، ١٢٨
قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي ..... ١٠٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٠
السلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون ..... ٨١، ٨٢، ٩٨، ٩٩، ١٢٦، ٢١٩، ٢٣١، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥١
كارل كريستيان ماريان هيني ٢١١
كارلو روستي ١٣٢
كارلو مزاوري، قنصل إيطاليا ٢١٢
البابا كاليكوتس الثالث ١٠٧

البابا كاليمكس الثالث ٢١٧
اللورد كرزن ٣٢٨
كريستوفر دي غاما ٢٦٧
الأمبراطور كلاوديوس ٢٦٧
الكومندر إل إن مونكريف ١٨٦
كويري ١٩٥
الملك الكيلاني ٣٠٢
لابويسيه ١٩٥
لاغارد ١٩٤
لافاليت دي مونتبرون ١٩٣
لوبو سواريز، قائد وحاكم البرتغال ..... ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٣٠٠
لودفيكو دي فارثيما ٢٣٤
لوسيان مونج ١٩٤
الأمبراطور لونغ ٢٨٤
لياندر لو غي ١٩٤
ليبيسييه ١٩٦
ليون كرايفسكي ١٩٦
ليون هوجونيت ١٩٥
البروفيسور مارتين بوشنر ٣٤٩
ماكسيم أوتري ١٩٣
مالبرتوي ١٩٤
مالسبوري، وزير الخارجية البريطاني ١٨٠
مانويل كوتينيو ٢٧٢
ماهوان، تسونغ داو ٢٨٧
مايكل بيرسون ..... ٢٩٩، ٣٠٠
محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي ٩٣
محمد بن أحمد بن جبير الكناني المعروف بابن جبير الأندلسي ..... ٢٣٤، ٢٧٦
محمد بن أحمد المعروف بابن إياس ..... ١١٢، ١٢٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٨
محمد أفندي ١٤٣

محمد بك أبو الذهب، أمير الحج ..... ١٣٣، ١٣٤
محمد بن سعد بن منيع، المشهور بابن سعد ٧٧
الشيخ محمد حسين نائب قنصل ..... ١٧٢، ١٨٧
السلطان محمد خان بن مراد بن محمد العثماني، الملقلب بالفاتح ١٠٧
السلطان محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول العثماني ٣٣٢
محمد رمزي أفندي ٣٣٩
الشيخ محمد صالح نصيف ٣٤٠
السيد محمد طاهر الدباغ ٣٥٦
محمد بن عبد الله الحميري ٢٧٥
محمد بن عبد الله محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة ..... ٢٦٩، ٢٧٠
محمد علي باشا ١٢٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ٣١٦، ٣٢٩، ٣٣٥
محمد بن علي بن حوقل النصيبيني ..... ٧٢، ٢٦٩
محمد علي زينل ..... ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٥
محمد علي المالكي، مفتي المالكية ٣٣٩
الشيخ محمد علي مغربي ٣٢٥
محمد عمر بافقيه ..... ٢٦٤، ٢٦٦
محمد القاسم ٢٩٤
محمد بن قندو الجلال أبو المظفر ٢٩٦
محمد لبيب البتنوني، الرحالة المصري ٣٤٣
محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي ٧٢
محمد بن مغيث الخلجي ٢٩٦
السلطان محمود خان الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث العثماني ١٩، ١٤١، ٢٨٣
السلطان محمود بن بهادر شاه ملك كمباي ..... ١١٥، ٢٣٣، ٢٦١
مختار بك ١٤٣
الأمير مرجان ٢٥٧
الشريف مساعد بن سعيد آل زيد ١٣٣
مصطفى آغا، رئيس المدفعية ١٧٧

الأمير مصطفى ابن أخت سليمان باشا ..... ٢٦٠، ٢٦٢
مصطفى نشار الرومي العثماني ٢٦٦
السلطان مظفر شاه صاحب كجرات ..... ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٧
موديف ٣٠١
مياس، من أهل فارس ٢٧٧
نابليون بونابرت ..... ١٨٨، ١٨٩
ناشد باشا، حاكم الحجاز ١٦٩
ناصر خسرو القبادياني المروزي ..... ٧٢، ٢٣٤، ٢٧٦
نامق باشا ١٨٠
نجم الدين موسى الكناني المعروف باسم القمرواي ٢٦٩
نوبار باشا ١٨١
نور الدين عمر بن علي بن رسول ٨٠
نوفل بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه ٧٧
نيبور، رحالة ٣٠١
البابا نيقولا الخامس ١٠٧
نيكولاس شيلتيما ٢١١
نيكولا ماردروس ..... ١٩٤، ١٩٥
الأمبراطور هسوان ٢٨٥
هندريك سباكلر ٢١٠
هندريك فان دير هوفين فان أوردت ٢١٠
هنري رايس ١٩٥
هنري مكماهون ١٥٨
الأمير هنري الملاح ..... ١٠٧، ٢١٦، ٢١٧
هونغ، كبير الخصيان ٢٨٦
وارين هاستنجز، حاكم البنغال ١٣٣
وليام هانيكراف ٢١٠
ويليام بوريل، قنصل بريطاني ..... ١٧٢، ١٨٦، ٣٢٠
ويليام ريتشاردس، قنصل بريطاني ٣١٥
ياقوت الغياثي ٢٩٥

الأمير يحيى بن سبيع ٢٢٥
الشاعر يحيى عمر أبو معجب ٢٩٩
يلقرادي حسين أفندي ١٤٣
يوجين موري ١٩٦
القديس يوحنا بن زبدي الإنجيلي ..... ١٠٥، ١٠٦
المعلم يوسف ١٦٨
يوسف أفندي، المترجم بالقنصلية البريطانية ..... ١٧١، ١٧٢
يوسف باشا، أمير المدينة ١٨٩
يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني ٨٢
يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور ..... ٢٧٦، ٢٧٧
يوهانس أدريانوس كرويت ..... ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠

فهرس الأماكن والبلدان

إقليم آجه كانا ٢٠٢
آز ٢٣١
الآستانة = استانبول.
آسيا ٧٤، ٨٧، ١٠٣، ١١٣، ١٣٩، ١٥٦، ٢٣٣
آسيا الصغرى ..... ١٠٣، ١٤٢، ٣٢٢
أبو الدوائر ..... ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤
أبو سعد (جزيرة الحجر الصحي) ١٥١
أثيوبيا ..... ١٠٦، ٢٤٩
أجمير ٣٠٢
الأحساء ..... ٩٣، ١١٢، ١١٦، ١١٧
أذربيجان ٨٨
أرثيريان = البحر الأحمر.
أرسينوي ميناء رأس الخليج السويس . ٧٤
أرمينيا ٨٨
إريتريا ١٦٣
إسبانيا ..... ٢١٢، ٢٢٣
استانبول ..... ١٠٧، ١٣٤، ١٤٨، ١٥٢، ١٦٩، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٧، ٢٠٣، ٢١٣، ٢١٨، ٢٨٣، ٣١٣، ٣٢١
الإسكندرية ..... ٨٧، ١١٢، ١٢٦، ١٤٣، ١٩٦، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٨
أفريقيا ٧٤، ١١٣، ١٢١، ١٦٣، ٢١٠، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٨، ٣٢١، ٣٢٨
إقليم حضرموت = حضرموت.
ألمانيا ..... ١٥٨، ٢٠٦، ٣٤٣
أمريكا الشمالية ٣٠٨
أمستردام ١٥٧
أم السمك، موضع في البحر ٢٤٠
إنجلترا = بريطانيا.
الأندلس ..... ١٠٦، ١٢٦، ٢١٧
إندونيسيا ..... ١٣٧، ٢٠٢، ٢٠٣
أوبوك ١٦٣
أوروبا ٧٤، ٨٦، ٨٨، ٩٧، ١٠٥، ١٠٧، ١١١، ١٣١، ١٤٢، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٨، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٣
أوروبا الشرقية والغربية ٣٠٨
إيران ..... ١٠٣، ١٧٩، ٢٢٢، ٢٢٣
إيطاليا ..... ١٤٩، ١٦٢، ٢٥١
أيله ٩٤
الباحة ١٤٦

بئر زمزم ..... ٢٨٨، ٣٣٧
جزيرة باروس ١٣٢
باريس ١٢٠
بتافيا الإندونيسية ١٥٧
البحر الأبيض المتوسط .. ٧١، ٧٤، ٩٢، ٩٧، ١١٣، ١٦٣، ١٩٧، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٦٠، ٣٢٩
البحر الأحمر ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٢، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٥٦، ٣٥٧
البحر الأخضر ٧٢
بحر الأربعين بجدة ..... ٧٧، ٣٤٢
البحر الأسود ..... ٨٨، ١٩٦
بحر إيلة = البحر الأحمر.
بحرة ٧٦
بحر جدة ..... ١٢٣، ٢٤٠
بحر الحجاز ..... ٧٢، ١١٣
بحر الصين ٧٣
بحر العرب ..... ١١٢، ١١٣، ٢٩٨
بحر القلزم = البحر الأحمر.
بحر الهند ..... ٧٣، ١١٢، ٢٢٣، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٨
البحرين ..... ٩٣، ١٠٣
بدر ..... ٧٧، ٩٤
بربرة ..... ١٦٣، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٥٨
البرتغال ..... ٩٨، ١٠٦، ١١٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٨، ٢٧٢
بريطانيا ..... ١٣١، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٣٧
ميناء برينيكي ٧٤
البصرة ٩٤، ١٠٣، ١١٦، ١٣٤، ١٣٧، ١٥٧، ٣١١

بغداد ..... ٩٤، ١٦١
بلاد البونت ٧٣
بلاد الحرمين ٨١
بلاد زيمت ٧٤
بلاد العرب ..... ٧٢، ١٠٣، ٢٢٢، ٢٨٧، ٢٨٩
بلاد ما بين النهرين ٣٤٩
بلاد النوبة ٨٠
البلقان ..... ١٠١، ٢١٩، ٢٢٥
بلهار ١٦٣
البنغال ..... ١٣٤، ١٣٥، ٢٩٤
بنغلاديش ٤
بورتسودان ..... ١٥٧، ١٥٩
بورسعيد المصرية ٢٠٦
بومباي ..... ١٥٧، ٣٠٢، ٣١٠
بيت الله الحرام ١٤٧
بيت المقدس ..... ٧٩، ١٠٦، ٢٢٤
بيروت ..... ١٥٧، ١٩٦، ٣١١
بيزنطة ٧٥
بيهار ٣٠٢
تبريز ١٠٣
تبوك ٢٢٣
تركيا ..... ٢٥١، ٣٢١
مدينة تشانغان ..... ٢٨٣، ٢٨٤
تشوان شو ٢٨٩
تهامة ٩٣
تولونان ٢٩١
إقليم تيان فانغ ٢٩١
تيماء ٩٣
ميناء الجار ٧٥
جازان ١٥٩
جالديران ١٠٣
جاوا ..... ١٥٧، ٣٠٨
جبل ابن جرشم = رأس دوابر.
جبل مكور ٢٧٠
جدة ٧١، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١،

٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩،
٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦،
٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١،
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧،
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢،
٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧،
٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢،
٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧،
٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣،
٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨،
٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣،
٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨،
٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣،
٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩،
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،
٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،
٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥،
٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠،
٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥،
٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢،
٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨،
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣،
٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩،
٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤،
٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠،
٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥،
٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩
جزر بني حدان..... ٢٦٩
جزر القمر..... ٢٧٨
جزر الهند الشرقية..... ٢٠٢، ٢٠٧
الجزيرة العربية..... ٧١، ٧٦،
٧٧، ٨٠، ٨٦، ٨٩، ٩٣، ١٠٤،
١١٠، ١١٢، ١٢١، ١٣٧، ١٣٩،
١٤٠، ١٤٢، ١٥٦، ١٦٠، ١٦١،
١٧٤، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٦، ٢٠٤،
٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٩،
٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٦
جنوب شرق آسيا..... ١٦٦، ٢٣٣، ٢٧٨،
٣٠٨
جوا..... ١٠٨، ٢٢٣، ٢٤٨، ٢٦٤
جيبوتي..... ١٤٩، ١٦٣
حارة الشام..... ٣٣٤
الحبشة..... ٧٥، ٧٦، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥،
١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١٦٠، ٢٢٠،
٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٥، ٢٤٦،
٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٦، ٢٦٧،
٢٧٢، ٢٧٤، ٣٠٧
الحجاز..... ٧٥، ٧٩، ٨٠،
٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٩٩، ١٠٤،
١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٩،
١٢١، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٩،
١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤،
١٤٥، ١٤٦، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦،
١٥٩، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،
١٧٤، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٤،
١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣،
١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨،
٢١٠، ٢١٣، ٢٤٩، ٢٥٩، ٢٧١،
٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٣،
٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨،

٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦،
٣١٠، ٣١١، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢١،
٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠،
٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٢،
٣٤٣، ٣٥٦
الحديدة ١٥٥
الحرمين الشريفين ..... ٧٨، ٨٠،
٨١، ٨٢، ٩١، ٩٧، ٩٩، ١١١،
١١٢، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢١،
١٢٨، ٢٧٩، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٣٥
حضرموت ..... ٩٣، ١٧٣، ٢٧٨، ٢٧٩،
٢٨١
حلب ٩٨
الحوراء ٩٤
حوض البحر الأحمر ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣
حي العيدروس ٣٣٨
ميناء خانقوه كانتون ٢٨٩
خليج أمير المؤمنين ٧٥
خليج عدن ..... ٧٥، ١٠٧، ١١٣، ١٢٤
الخليج العربي .. ٨٨، ٩٧، ١١٢، ١١٤،
١١٦، ١١٧، ١٨٨، ١٩٦، ٢٢٤،
٢٢٥، ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٨٤، ٣٠١،
٣١١
خليج العقبة ..... ٧١، ٧٩، ٩٢
دار النبي صلى الله عليه وسلم ٢٨٥
دحور أتاج ٢٧٠
درور ٢٦٩
الدكن ..... ٢٢٣، ٢٩٤
دلهي ٢٩٧
دمشق ..... ٩٤، ١٩٦، ٣٢٢
دمياط ١١٢
أرخبيل دهلك ... ٧٦، ٨٣، ٢٤٨، ٢٥٧،
٢٥٨، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦
دومة الجندل ٩٣
ديو، الهند ... ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤،
٢٣٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٣
رابغ ..... ٩٤، ١٧٦
الرأس الأسود ٨٩
ميناء رأس بناس ٧٤
رأس الحجاز ٨٩
رأس خليج السويس ٧٤
رأس دواير ٢٦٩
رأس الرجاء الصالح ١١٦، ١٣٢، ٢٢٤،
٢٤٧
الربع الخالي ١١٣
رودس (جزيرة) ٩٨
روسيا ١٣١، ١٣٢، ١٦١، ١٨٣، ١٩٦،
٣٢٢
روما .... ١٠٥، ١٠٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٤
الرويس ٣٢٣
زبيد (جزيرة) .. ٢٤١، ٢٤٤، ٢٦٢، ٢٦٦
زيلع ٧٦، ١٦٣، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٨،
٢٤٨، ٢٥٤، ٢٥٨، ٣٣٠
ساحل آبولي ٢٥١
الساحل الآسيوي ٩٣
الساحل الأفريقي ..... ٩٣، ٢٢٢، ٢٤٦
ساحل بيلول ٢٦٦
الساحل الشرقي لأفريقيا ..... ١٠٧، ١٦٤
الساحل الشرقي للهند ٢٢٤

ساحل صقلية ٢٥١
ساحل الصومال ١٣٧
ساحل المليبار ١٠٦، ١٠٧
سانت كاثرين ٢٧١
ستيلان اليونانية (جزيرة) ٢٥٠
سعد (جزيرة) ٣٥٨
سقطرى (جزيرة) ٧٤، ١٠٨، ٢٢٥
سنجلة (جزيرة) ٢٦٩
إقليم السند ٢٩٤
سنغافورة ٢٢١، ٢٥٨، ٣٠٨
سواكن ٨٣، ١١٦، ١٣٦، ١٤٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧١، ٣٢٦، ٣٢٨
السودان ٨٠، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٣، ٢٧٤، ٣٢٩
سورات ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ٣٠٢
سوريا ٣٢٢
سوقطرة = سقطرى (جزيرة).
سومطرة ١٠٨
سوهان ٢٩١
السويد ٢١٢
السويس ٧٤، ٨٧، ٩٧، ١١١، ١٢١، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٧، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٩، ١٩٢، ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٩٩، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣٣٤
سيبان (جزيرة) ١٢٢
سيراف ٢٧٧
سيناء ٩٤، ٢٧١
سي يو = الجزيرة العربية.
الشام ٧٩، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٨، ٩٩، ١١٢، ١٣٩، ١٨٢، ٢٣٩، ٢٦٠، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٢١، ٣٤٩
شاول (الهند) ١٠٩، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١
شبه الجزيرة الإيبيرية ٢٢١
شبه الجزيرة العربية = الجزيرة العربية.
شبه جزيرة القرم ٨٧
شبه القارة الهندية ١٦٤، ١٨٢
مدينة الشحر ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١
شرق الأردن ٩٤
الشرق الأقصى ٨٨، ٩٤، ١٦٤، ٢١٨، ٢٩٩
الشعيبة ٧٧
شمال أفريقيا ٢٢١
صعدة ٩٣
الصومال ٧٣، ٢٦٧
الصومال الفرنسي ١٦٣
الصين ٨٧، ٨٨، ٩٨، ١١١، ١٥٠، ١٥٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٤٩
الطائف ١٤٥، ١٤٦، ٣٢٨
الطور ٩٧، ٢٦٤، ٢٧١
عتبة أيله ٩٤
عدن ٧٥، ٨٣، ٨٥، ٩٣، ١٠٣، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٤، ١١٥،

١٢٦، ١٢٧، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٩،
١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤،
١٧٣، ١٧٥، ١٨٩، ٢١٩، ٢٢٠،
٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٨،
٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٢،
٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٥، ٢٨٩،
٣٠٩
العراق ..... ٨٧، ٨٨، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣،
١١٢، ١١٦، ١٣٧، ١٧٣، ٢٩٩،
٣٠٥، ٣٥٦
عسفان ٧٧
عسير ..... ١٤٥، ١٧٣
عصب ٢١٢
العقبة ٩٧
عمان ..... ٩٣، ١١٣، ١٧٣
عيذاب ..... ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٢٦٩
عين الحميدية ٣٣٢
عين زبيدة ٣٣٤
عين العزيزية ..... ٣٣٥، ٣٥٨
عين فرج يسر ٣٣٢
عين قوص ٣٣٢
عيون القصب ٩٤
فارس ..... ٨٧، ١٠٤، ٢٧٧، ٣٠٧، ٣٠٨
فرنسا ١٤٩، ١٥٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،
١٧٤، ١٨١، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠،
١٩١، ١٩٢، ٢٢٣، ٣٢١، ٣٢٦،
٣٣٧
فسطاط مصر ٧٥
الفلبين ٢٧٨
فلسطين ..... ٧٩، ١٠٣، ٢٨٥
قاليقوط = كاليكوت.
القاهرة ..... ٨١، ٨٢، ٩٤، ١٢٨، ١٣٤،
١٤١، ١٦٨، ١٧٤، ٢٢١، ٢٢٣،
٢٣٢، ٢٥٤، ٢٥٨، ٣١٢، ٣٢٤،
٣٢٦، ٣٤٥
قبر إسماعيل عليه السلام ٢٨٨
قبر النبي محمد ﷺ ..... ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٨٨
القدس ..... ٢٢٣، ٢٣١
القرن الأفريقي ..... ٩١، ٩٢، ٢٢٥، ٢٦٦،
٢٧٤
القسطنطينية = استانبول.
ميناء القصير ..... ٨٧، ٢٧١، ٢٧٢
القطيف ..... ١٠٣، ١١٦
مدينة القلزم ..... ٧٥، ٩٧، ٢٦٩
قناة السويس ..... ٧٤، ٧٥، ١٤٨، ١٥٠،
١٨٩، ٢٥٢، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٢١
القنفذة ..... ١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٧٦
قوص ٨٧
القوقاز ١٠٣
كالكتا ١٥٧
كاليكوت ٨٣، ٢٥٨، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٠
كامباي ٢٣١
كجرات ..... ١١٥، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٦٠،
٢٩٤، ٣٠٢
الكرك ٢٢٥
الكعبة المشرفة ..... ٨١، ٢٨٥، ٢٨٨
كلبرجه ٢٩٦
كلكتا ..... ٢٩٧، ٣١٠، ٣١١
كمران (جزيرة) ..... ١٠٨، ٢٤١، ٢٤٤،
٢٤٦، ٢٥٢

الكوفة ٩٤
كوه ٢٣٧
ميناء اللحية ٢٥٤
لشبونة ..... ٩٨، ١٠٨، ١١٠، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٥٨
لندن ..... ٣٠١، ٣٣٤
لو مي ٢٩١
الليث ١٧٦
ليفربول ١٥٧
مالوبا ٢٨٥
المجر ..... ١٠١، ١٠٢
المحيط الهندي ..... ٨٩، ١٠٤، ١١٢، ١١٣، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٥، ١٦٣، ٢١٨، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٩٨، ٣٠٧
المخا ..... ١١٤، ١٢٤، ١٥٠، ١٧٤
مديرية التاكة ١٦٢
مدينة حجاج البحر ٣٥٨
المدينة المنورة ..... ٧٥، ٩٣، ٩٦، ١٤١، ١٤٥، ١٥٩، ٢٧٧، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٩
مرسى مصوع ٢٢١
المسجد الحرام ..... ١٨٤، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٤
مسقط ..... ١٦١، ١٧٣
المشرق العربي ..... ٧٩، ١٠١، ١٠٥، ٢٦٠
مصر ..... ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٩٠، ٩٤، ٩٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٢، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥٨
مصوع ..... ٧٦، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٢، ٣٣٠
مضيق باب المندب ..... ٧٥، ٨٣، ١٠٨، ١١٣، ١٥٢، ١٦٤، ٢٢٤، ٢٥٨، ٢٧٤، ٣٠٩
مضيق هرمز ..... ١٠٨، ١١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٧٢
المغرب ..... ١٢٦، ١٣٩
مقام أمنا حواء ٢٣٦
مقبرة غير المسلمين في جدة ..... ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩
مكة المكرمة ..... ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١١١، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٩، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٧،

١٥٩، ١٦٢، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢،
١٨٢، ١٨٤، ١٩٢، ٢٠٥، ٢٠٧،
٢٠٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢،
٢٢٣، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤،
٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٤،
٢٤٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٤،
٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٦،
٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧،
٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٤،
٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩،
٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٩،
٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨،
٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٤،
٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٥٧
المكلا ٢٨١
الملايو ١٣٧
ملقة ..... ٢٢١، ٢٥٨
مليبار ٢٨٥
منطقة عدل ٢٦٦
منطقة الهنداوية ٣١٧
موزمبيق ١٠٧
مومباي ١٦٨
نجد ..... ٩٣، ١١٣
النرويج ٢١٢
النمسا ..... ١٥٨، ١٦١
نهر النيل ٧٤، ٧٥، ١٠٥، ١٠٩، ٢٢٦،
٢٥٨
نيويورك ..... ١٢٣، ١٥٧، ٣١١
هامبورغ ..... ١٢٣، ١٥٧
ميناء هرموس أو أبو شعر ٧٤
الهفوف ١١٧
الهند ٧٢، ٨٨، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ١٠٣،
١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩،
١١٠، ١١١، ١١٥، ١٢٤، ١٢٦،
١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣،
١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩،
١٤٢، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢،
١٥٥، ١٥٧، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤،
١٦٦، ١٦٧، ١٧١، ١٧٤، ١٧٨،
١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ٢١٧، ٢١٨،
٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣،
٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،
٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١،
٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٦،
٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١،
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٢، ٢٧٤،
٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٠،
٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،
٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧،
٣٠٨، ٣١١، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٢٩،
٣٤٩
هولندا ..... ١٦٢، ٢٠٢، ٢٠٧
وادي دوعن ٢٧٩
وادي الرافدين ٩٣
وادي فاطمة ..... ٧٦، ٣٣٥
وادي الفرات ١٣٤
الواسطة (جزيرة الحجر الصحي) ١٥١
الوجه ..... ٧٤، ٩٤

ولاية الحبش أو إيالة الحيش ..... ١١٦، ١٢١، ١٣١، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣
اليمن ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩١، ٩٣، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٣١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٧٣، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٨٩، ٣٢٦، ٣٤٩
ينبع ٧٤، ٨٣، ٩٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٤١، ١٥٥، ١٧٦، ١٩٢، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٧٣، ٣٣٤
اليونان ..... ٧٤، ١٥٧، ٢١٢

فهرس المعالم الحضارية

باب زويلة ٩٩
باب السلام ٢٩٦
باب مكة ٣٣٨
بنك ملي إيران ٢٧٨
البنك الهولندي ٣٤٧
جريدة الأهرام القاهرية ١٥٨
جريدة بريد الحجاز ٣٤٠
جريدة الحوادث ٣٢٢
جريدة صفا الحجاز ٣٤٠
جريدة صوت الحجاز ٣٤٠
جمارك ميناء جدة ..... ٨٦، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٦٢، ٣٤٦
جمارك ميناء سواكن ١٦٢
جمارك ميناء مصوع ١٦٢
الحجر الصحي ١٥١، ١٥٤، ١٩٧، ٣٢٤
زاوية الشيخ العيدروس ٢٨٠
جامعة سان بطرسبرغ ١٩٩
سجن جدة العمومي ١٨٠
سور جدة ..... ١٧٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٧٦
سوق البدو ٢٨١
سوق الخاسكية ٢٨١
سوق العلوي ..... ٢٨٠، ٢٨١
سوق النداء ..... ٢٨٠، ٢٨١
شركة الاستثمار الصناعي ٣٤٧
شركة ايتاليا ٣٣٠
شركة بكتل العالمية ٣٥٨
شركة بواخر الهولندية، الهلت ٣٥٨
شركة التجارية الهولندية، بنك ٣٤٦
شركة التلغراف الشرقية ٣٢٨
شركة جلاتكي هنكي ١٧٣
شركة الخديوية المصرية ..... ٣١٠، ٣٢٩
شركة صرافة بريطانية ١٧٣
شركة العزيزية المصرية ..... ٣٢٢، ٣٢٩
شركة الليفانت ..... ١٦٨، ١٨٥
شركة الهند الشرقية البريطانية ..... ١٣٢، ١٣٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٥، ١٨٦، ٣٠١
شركة الهند الشرقية الفرنسية ١٨٨
شركة الهند الشرقية الهولندية ٢٠٢
شركة ودسن مايلبير الإنجليزية ٣٣٤
الشوبك (قلعة) ٧٩
صحيفة الإصلاح الحجازي ٣٣٩

صحيفة عثمانية ٢٠٧
صحيفة فرنسية ٢٠٧
جامعة فؤاد الأول جامعة القاهرة حاليا ٣٤٥
فولكينكوندي (متحف) ٢٠٨
القنصلية البريطانية ... ١٧١، ١٧٨، ١٧٩، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١
القنصلية الفرنسية بجدة ..... ١٧٩، ١٩٢، ١٩٣، ٢٨٢، ٣١٥
القنصلية الهولندية بجدة ..... ٢٠٠، ٣١٤
جامعة كامبريدج ٢٨٧
الكنيسة القبطية المصرية ١٠٥
كنيسة القيامة ٢٢٤
كوتا (قلعلة) ٢٢٣
اللوفر (متحف) ٢٠٧
جامعة ليدن ..... ٣٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠
المحجر الصحي ..... ١٥٢، ٣٣٨، ٣٣٩
مدارس الفلاح ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦
المدرسة الرشدية المتوسطة ٣٤٣
المدرسة البنجالية بمكة ٢٩٦
المدرسة البنجالية الغياثية بالمدينة
المنورة ٢٩٥
المدرسة الخلجية بمكة ٢٩٦
المدرسة الرشدية بجدة ٣٤٤
المدرسة الرشدية بمكة ٣٤٤
المدرسة الكلبرجية بالمدينة ٢٩٦
المدرسة الكلبرقية بمكة ٢٩٦
المدرسة الكنبايتية ٢٩٦
مدرسة النجاح ٣٤٤
الجامعة المصرية بالقاهرة ٣٤٥
مكتب البريد في جدة ..... ٣٢٦، ٣٢٩
ميناء جدة ..... ٧٥، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٧، ٩٨، ١٠٨، ١١٢، ١١٤، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٩، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٥٩
وكالة رومر دامش لويد، هولندية ١٦٦
وكالة الفريد هوليت، نمساوية ١٦٦
الوكالة القنصلية الفرنسية ١٩٠

فهرس القبائل والأعراق والجماعات

آل باعلوي ..... ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣
آل بركات ١٣٣
آل زيد ١٣٣
آل طاهر حكام اليمن ١١٤
الأتراك ..... ١٠٣، ١٣٩، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٦، ٣٠٧، ٣١٠، ٣٥٣
الأحباش ٧٥، ١٠٥، ١١٠، ١٣٩، ٢٦٦
الأرمن ٣١٧
أسرة أبو نمي ١٢٩
أسرة تشينغ ٢٨٤
أسرة شاه ولي الدين الدهلوي ٢٩٥
أسرة مينج ..... ٢٨٤، ٢٨٥
الأشراف ..... ٨٢، ١١١، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٧، ١٧٠، ١٩٣، ٢١٣، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٨٦، ٢٩٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٤٣
الإغريق ٧٢
الإفرنج ..... ١١٢، ٢٢٣، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٠
الألمان ٣٢١
الإنجليز ..... ١٣٠، ١٣٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٩، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٣٧، ٣٤١
الإندونيسيون ..... ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٣٤٦
أهل جدة ..... ١٣٧، ١٧٧، ١٨٠، ١٩١، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٨٠، ٢٩١، ٢٩٨، ٣٠٧، ٣١٠، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٣
أهل الحجاز ... ١٢٨، ١٣٤، ١٨٢، ٢٦٥
أهل حضرموت = الحضارم.
أهل الصين = الصينيون.
أهل فارس = الفرس.
أهل الكتاب ٣٥٢
أهل الهند = الهنود.
الأورام ..... ٢٥٧، ٢٦٦
الأوروبيون .. ١٣٢، ١٧٠، ٢٠٧، ٢١٨، ٣٠٨، ٣١٦، ٣٤٩
الإيطاليون ..... ١٦٣، ٢١٢

الأيوبيون ..... ٨٠، ٨١، ٨٢
البرتغاليون ..... ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٨، ١٦٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٤
البريطانيون = الإنجليز.
البطالمة ..... ٧٢، ٧٤، ٧٥
بنو إبراهيم ٢٣٨
بنو الضياء ٢٩٥
البيزنطينيون ٧٤
تجار الأستانة ١٣٤
تجار العرب ٢١٨
تجار القاهرة ..... ١٣١، ١٣٤
تجار أوروبا ١٠٨
التجار الأوروبيون ..... ٧٥، ١٣٤، ١٤٦، ١٧٨
تجار البندقية ..... ١٠٨، ١٣٢
تجار جدة ..... ١٢٦، ١٣٧، ١٧٧، ٢٨٢، ٢٩١، ٣٠٠
تجار الحضارم ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٠١
تجار السويس ١٩٢
تجار الصين ٢٩٠
التجار المغاربة ١٣٧
التجار الهنود ..... ٨٣، ١٢٧، ١٣٧، ١٧٩، ٢٢٠، ٣٠٠، ٣٠١
التجار اليونانيين ..... ٣١٥، ٣١٦
الترك = الأتراك.
الجزائريون ١٩٢
الحضارم ..... ١٩٢، ٢١٥، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠١
الروس ١٩٧
الرومان ..... ٧٢، ٧٤، ٧٥
الرومان الشرقيون ٧٤
الروم العثمانيون ٢٢٠
الصفويون ١٠٣
الصليبيون ١٠٦
الصينيون ..... ٢١٥، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٠
الطاهريون ٨٥
العبيد ..... ٢٠٩، ٢٤٠
العثمانيون ..... ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٩، ١٩٠، ١٩٦، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٢، ٣١٧، ٣٢٤، ٣٤٩
العرب ..... ١٠٦، ١٠٧، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٣، ٢١٣، ٢٢١، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٨٤، ٢٨٩، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٦
علماء الحجاز ..... ٢٨٠، ٢٨١

علماء حضرموت..... ٢٨٠
علماء الهنود... ١٨٤، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٤
الغزنويون..... ٢٩٤
الفراعنة..... ٧٤
الفرس ٧٥، ٢١٥، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٣، ٣١٠، ٣١٤، ٣٣٢، ٣٤٩
الفرنسيون.... ١٨٢، ١٨٩، ١٩١، ٣١٤، ٣١٧
فقراء الهنود..... ١٥٢، ٣٠٣، ٣٣٧
القناصل الغربيين..... ١٨٢، ٣١٢، ٣١٥
الكارمية..... ٨٦، ١٢٧
المصريون..... ١٤٦، ٣١٠، ٣٤٩
المغاربة..... ٢٥٧
المغول القفجاق..... ٨٧
المليباريون..... ٣٠٠
المماليك..... ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٥، ١١٤، ١١٦، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٩٩
الهنود ١٥٢، ١٧٠، ٢٠٣، ٢١٥، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦
الهولنديون..... ٢٠٢، ٢١٠، ٢١١، ٣١٠
اليونانيون..... ١٩١

فهرس المذاهب والفرق

الرسوليون ٨١
الزرادشتية ٧٥
الشيعة ٣١٤
المذهب الحنفي ٢٩٥
المذهب الحنبلي ٢٩٥
المذهب الزيدي ٨٢
المذهب السني ..... ٨٢، ١٠٣، ٣٥٣
المذهب السني الأشعري ٢٨٠
المذهب الشيعي ..... ١٠٢، ١٠٣، ٣١٤
المذهب الكاثوليكي ١٠٧
المسيحيون ..... ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٩٠، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٧١، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٠
النصارى ..... ١٨٠، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٨٢، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣٥٢
الطريقة النقشبندية ٣٠٤
الهندوس ١٠٧
الهنود الوثنيين ١٠٧
اليهود ..... ١٨٢، ٣١٧، ٣٥٢

فهرس المصطلحات

الأبنوس ٢٨٩
الإتاوات ٧٢
إتفاقية كيوتشوك كينارجي ١٩٦
الاحتكار ..... ٨٦، ٨٧، ١٥٥
الأدم ٩٣
أربطة ..... ٢٨٠، ٢٩٥
الأرجوزة ١٢٢
الاستعمار ..... ١٨٤، ٢٠٢
الاستعمار الإنجليزي ..... ١٨٥، ٢٩٤، ٢٩٥
الاستعمار البريطاني = الاستعمار الإنجليزي.
الاستعمار الهولندي ٢٠٧
الاستيطان ..... ٧٦، ٢٧٥، ٢٩٤، ٢٩٨، ٣٠١
الاسطرلاب ٢١٧
الأسطول الإسلامي ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤
الأسطول الإنجليزي ١٣١، ١٤١، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٣
الأسطول البرتغالي ..... ٧٦، ١٠٨، ١١١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٣
الأسطول العثماني ٢٦٤
الاسكله ٣٥٨
أغربة ٢٣٧
الأماكن المقدسة ..... ٨٠، ٩١، ١٥٢، ١٥٨، ١٩٧، ٢٥٩، ٣٢٠، ٣٢١
الإمبراطورية الصينية ..... ٢٨٧، ٢٩١
الإمبراطورية الرومانية الشرقية ٢١٨
الإمبراطورية البرتغالية ٢١٦
الإمبراطورية الروسية ..... ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨
إمبراطورية الروم ٢٧٦
الإمبراطورية العثمانية ..... ٢٥٩، ٣١٣
إميرالية ١١١
أمير مكة ٨١، ٨٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٤٦، ٣٠٤
أمين الشونة ١٤١
الأوبئة ..... ١٥٠، ١٥٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٢٣، ٣٣٧
الأوركسترا الأفريقية ٢١٠
البابوية ١٠٥
باتاكا ١٣٤
البحرية الأوروبية ١١٥
البحرية العثمانية ..... ١١٢، ١١٤

برشة ..... ٢٥٧، ٢٦٩
البرلمان ١٨٢
البرلمان الإنجليزي ٣٢٠
التازان الأبيض ٢٨٤
التازان الأسود ٢٨٤
التتريك ٣٤٤
التتويه ٩٠
تجارة البن ... ١٣١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠
تجارة البورسلاين الصيني ٢٩٠
تجارة الترانزيت ..... ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ٢١٨، ٢٥٨
تجارة الرقيق ١٠٤، ١٥٦، ١٦٢، ١٧٢، ١٩٨، ٢٨١
تجارة السلاح المحرمة ١٥٦
التجارة الشرقية .... ٨٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٨، ١١١، ١١٩، ١٢١، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٢، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٩٩، ٣٣٥
تجارة ملقة ٢٢١
تجارة الهند ..... ٩٨، ١٣٣، ٢٢٠، ٣٠٠
التجوير ..... ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٧، ١١٩، ١٢٥، ١٢٦، ٢٩٨
الترامواي ..... ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤
التواهي ١٣٥
توريا، اسم نجم في السماء ٢٤٥
التوسيط ٢٣٨
الجابي ١٢٧
الجزية ١٠٤، ١٠٥، ١١٦، ٢٩٠، ٢٩١
جلبة ٢٤٠
الجنيهات الذهبية ٣٢٨
حجر تيماء ٢٠٧
الحرب الروسية العثمانية ١٩٦
الحرب العالمية الأولى ..... ١٥٨، ١٨٣، ٣٠١، ٣٤١
الحزام الأمني ..... ١١٠، ١١٢، ١١٦
الحقبة الأيوسينية ٧١
الحكم الإنجليزي ٢٩٧
الحكم العثماني ..... ٩٩، ١٠٩، ١١١، ١٢٨، ١٢٩، ١٦٨، ٢١٢، ٢١٣، ٣٣٥
الحكم الفرنسي ١٦٣
الحكومة الإنجليزية ١٥٦
الحكومة الإيطالية ٢١٢
الحكومة العثمانية .... ١٩٠، ١٩٧، ٢٠٣، ٣٢٠، ٣٣٣
الحمة العفنية ١٥٣
حملة السويس ٢٦٣
الحملة البرتغالية ..... ١١٥، ٢٥٦، ٢٦٦، ٢٧١
الحمى القلعية ١٥٣
خزينة جدة ..... ١٦٠، ١٦٢
خزينة الجمرك ١٣٦
الخزينة العثمانية ١٥٥
خط البحور ..... ٨٢، ٨٥، ٨٨
خط التلغراف ٣٢٦
الخط الملاحي ..... ١٣٠، ١٣٢، ١٣٥، ١٥٧، ١٦١
الخط الهمايوني ١٧٨
الخلافة العباسية ..... ٨١، ٨٢

الخلافة العثمانية ٣٠٥
دفاتر الحساب ٢٨٢
دفاتر القمح ١٤٤
دفتر التعرفة ١٣٦
الدوزنتاريا ١٥٢
الدول الإفرنجية ١٧٤
دولة آل مهدي ٨٠
الدولة الأموية ٢٨٤
الدولة الأوروبية ..... ١٤٨، ١٥٠
الدولة الإيلخانية ٨٧
الدولة الأيوبية ..... ٧٩، ٨٠، ٨٨
دولة الحبشة المسيحية ٢٦٧
الدولة الحميرية ٧٥
الدولة الرسولية ..... ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٥، ١١٩
الدولة الروسية ١٣٢
الدولة السعودية ..... ٢١٠، ٣٤٦
الدولة السعودية الأولى ..... ١٤٠، ١٤١
دولة الشراكسة ٢٣٩
الدولة الصفوية ..... ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١١٦، ٢٢٢، ٢٢٣
الدولة العباسية ٢٨٤
الدولة العثمانية ..... ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٩١، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٨٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٥٣
الدولة الفاطمية ٧٥
دولة الفرس ٧٥
دولة فيجاياناجار الهندوسية ٢٢٢
دولة المماليك ..... ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٧، ٩٨، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٩، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٤٩، ٢٩٨، ٣٥٣
الدولة اليعقوبية ٢٢٢
الذهب الأصفر ٢٨٨
ذيل الطواويس ١٢٣
الراية البابوية ..... ٧٩، ١٠٥
الرسوم الجمركية ..... ٨٦، ١١٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٧٨، ٣١١، ٣٢٩
الرهدة ١٢٥
الريال الفرنسي ١٤٤
ريح الأزيب ..... ١٢٤، ٢٥٧
ريح الدبور ١٢٥
ريح الشمال ١٢٥
ريح الصبا ١٢٤
ريح الصورم ١٢٤

الزحار ١٥٣
الزعفران ٩٣
زمزم ..... ١٧٢، ٢٨٨
زوايا ٢٨٠
السرعسكر ١٧٦
السفار ٢٨٨
السفن الأميرية ١٧٥
السفن الأوروبية ..... ٩٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٥٦، ٢٠٦
السفن البخارية ..... ٢٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٣٠
سفن البرتغالية ..... ١١٢، ١١٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠
السفن البريطانية ١٣٣
السفن التجارية الإنجليزية ١٥٥
السفن الشراعية ..... ١٤٧، ٣١٠، ٣١١
السفن المجورة ٨٥
السفن الهندية ..... ١٣٥، ٢٤٧، ٢٩٨، ٢٩٩
السكة الحديدية ..... ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤
سنجق جدة ..... ١٢٩، ١٣١، ١٤٤، ١٤٦
سنجق المدينة ١٤٦
شاد جدة ..... ٨٤، ١٢٦
الشرافة ..... ١٢٨، ١٧٠، ١٩٣، ٢١٣
شرافة مكة = الشرافة.
الشعاب المرجانية ..... ٧٢، ٨٩، ٩١، ٢٩٩
الشنكلة ٢٣٨
الصحافة ..... ١٨٢، ٣٣٩
الصرة الذهبية ..... ١٣٥، ١٣٦
الصليب الكبير ٢٤٥
صنبوق ٢٦٩
الصهاريج ..... ٢٧٧، ٢٨١، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٥٥
الضرائب ..... ٧٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٩٠، ١٠٨، ١١٩، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٧٢، ٢١٢، ٢٢٨
الطاعون ..... ٨٦، ١٥٢
طقوس الزار ٣١٤
الظهير ٩٠
العدوان البرتغالي ١٢٩
العروبة ..... ٩٤، ٣٥٢
العروبي ٣٥٥
العسكرية العثمانية ..... ١٠١، ١٩٢، ٣٢١
العصائب ٩٣
العصر الأشولي ٧٦
العصر البرونزي ٧٦
العصر الحجري الوسيط ٧٦
عصر الميوسين ٧١
العصر الهاشمي ٣٢٥
العهد الأيوبي ٨٥
العهد السعودي ٣٥٩
عود الند ٢٨٩
العولمة الاقتصادية ..... ٣٠٧، ٣٠٨
العولية ١٢٥
غلال الحرمين ١٣٠
فتنة جدة ١٥٧
فرمان الكلخانة ١٧٨
القائمقام ..... ١٤٧، ١٧٠، ٣١٥، ٣١٧
قائمقام ولاية جدة ١٤٦

القراح ١٥٣
قرش الفلاح ٣٤٦
القرصنة ..... ١١٤، ١٤٩، ١٥٥، ١٦٢، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٤٦، ٢٥١
قصبة الهنود ..... ٢٩٨، ٣٠١
القوى الأوروبية ..... ١٨٨، ١٩٧، ٢١٦
القوى البرتغالية ١١٤
القوى النصرانية ١٨٠
القوى الهندوسية ١١٠
الكارفيلا ٢٤٤
الكافور الصيني ٢٩٠
كتاتيب ..... ٢٨٠، ٣٤٣
الكريسماس ٣١٣
الكنداسة ..... ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٥٥
اللغة الأوردية ..... ٢٩٥، ٢٩٧
اللغة التركية ..... ١٤٣، ٣٤٤
اللغة الصينية ٢٨٤
اللغة الفارسية ..... ٢٩٥، ٢٩٧، ٣١٤
اللوند ٢٣٧
مأمور كشك ٣٢٩
مجلس جدة ..... ١٤٢، ١٤٣، ١٧٥
مجلس شورى ١٤١
مذبحة الإسكندرية ١٨٢
مذبحة القناصل ١٥٧
مذبحة النصارى ١٨١
المراكب البخارية ١٤٧
المرحلة الموستيرية ٧٦
المسألة الشرقية ١٧٨
مسرح طواويس ١٢٣
المشروع الأيوبي ٨٥
مشروع سكة حديد الحجاز ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣
مشروع وقف الملك عبد العزيز ٣٥٥
معاهدة بالطة ليمان ١٧٨
معاهدة لندن ..... ١٤٦، ١٦١، ١٧٧
معاون الخزينة ١٤١
معركة مرج دابق ٩٨
مفاتيح الكعبة ١٢٨
مفتش الحسابات ١٤١
المقدسات الإسلامية ..... ١٠٢، ١٠٩، ١١٥، ٢٢١
المكوس = الضرائب.
الملاحة البحرية ..... ٨٨، ١٢٣، ١٣١، ١٣٢، ١٤٧، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٤، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٥٨، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٢
الملاريا ١٥٢
الملك الأحمر ٢٧٥
الممالك الصليبية ٧٩
مملكة آل بافقيه ٢٧٨
مملكة آل العيدروس ٢٧٨
مملكة آل الغدري ٢٧٨
مملكة أكسوم الحبشية ٧٦
مملكة الحبشة المسيحية ١٦٠
مملكة بني طاهر ٢٣٩
مملكة الحجاز ..... ٦٨، ٣٤١
المملكة العربية السعودية ..... ١٩٣، ٢٨٢
مملكة غرناطة ٢١٧
مملكة هرر الإسلامية ٢٦٧
مملكة اليمن ١١٥

مهنة الدلالة ٢٨١
مهنة المخرجين ٢٨١
موسم الحج ..... ٩٠، ٩٧، ١٥٠، ١٥٣، ١٧١، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٦٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٣٧
موسيقى الطنبورة ..... ٢٠٩، ٢١٠
الميرة ٧٥
ناظر الجمرك ١٤١
ناظر السفن ١٤٣
ناظر الشونة ١٤٣
النظام القضائي ٣٢٠
نظام المجاهدين ٣٥٧
النظير ٩٠
الهجرة الحضرمية ٢٧٨
وباء الكوليرا ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٨٣، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٦، ٣٣٧

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **إبراهيم رفعت باشا**، «مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م.
- **إبراهيم المازني**، «رحلة إلى الحج»، مؤسسة هنداوي، القاهرة، النسخة الإلكترونية، ٢٠١٧م.
- **ابن إياس**، «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- **ابن بطوطة**، «رحلة ابن بطوطة»، مؤسسة هنداوي نسخة إليكترونية، ٢٠٢٠م.
- **ابن جبير**، «رحلة ابن جبير»، راجعه: د. أحمد عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، جامعة الرياض، عمادة شؤون المكتبات، ٢٠٠٥م.
- **ابن حوقل**، « صورة الأرض»، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.
- **ابن فهد النجم عمر**، «إتحاف الورى بأخبار أم القرى»، تحقيق: فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- **ابن منظور**، «لسان العرب»، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، مادة ثقف.
- **أبو محمد الطيب بامخرمة**، «قلادة النحر في وفيّات أعيان الدّهر»، تحقيق: بو جمعة فكري، خالد زواري، دار المنهاج – جدة ٢٠٠٨م، ج الثامن.
- **الإمام أحمد بن حنبل**، «مسند الإمام أحمد» تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م .

- **أحمد أبو شرب**، «الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية»، إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز للدراسات التاريخية والحضارية للجزيرة العربية، الرياض ٢٠١٢م.
- **أحمد بن ماجد**، «ثلاث أزهار في معرفة البحار»، تحقيق: تيودور شوموفسكي، ترجمة: محمد مرسي، القاهرة، ١٩٨٩م.
- **أحمد بن محمد ابن خلكان**، «وفيات الأعيان وأنباء الزمان»، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.
- **أحمد بن محمد الحضراوي**، «الجواهر المعدة في فضائل جدة»، تحقيق: د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ٢٠٠٦م.
- **أحمد بن يحيى آل فائع**، «العلاقة بين الملك عبد العزيز والملك الحسين بن علي وضم الحجاز»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٣هـ.
- **أحمد حسين العقبي**، «التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٠هـ.
- **أحمد زيني دحلان**، «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام»، تحقيق: محمد فارس الشيخ، مطبوعات البلد الحرام.
- **أرنولد ت. ويسلون**، «الخليج العربي»، ترجمة: عبد القادر يوسف، مكتبة الأمل – الكويت.
- **إسماعيل حقي**، «روح البيان في تفسير القرآن»، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٨م.
- **«البعثة الهولندية في الجزيرة العربية ١٣٠٠-١٣٧٠هـ لمحات تصويرية»**، دار (ل.م) للنشر بمدينة إيدام.
- **أنيس صايغ**، «الهاشميون والثورة العربية الكبرى»، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٦م.
- **أوزتونا يلماز**، «تاريخ الدولة العثمانية»، ترجمة: عدنان سليمان، مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٩٠م.

- **أوكسنولد**، وليام، «الحجاز تحت الحكم العثماني»، ط ٢، ٢٠١٦م، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.
- **بن – سلوت**، «بين الخليج العربي والبحر الأحمر: الهولنديون على سواحل شبه الجزيرة العربية»، ضمن كتاب: هولندا والعالم العربي منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين، تحرير: هانس فان دايك بروك، ترجمة: أسعد جابر، الناشر: وزارة الخارجية الهولندية، ١٩٨٧م.
- **تقي الدين أحمد المقريزي**:
  - «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك»، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥م.
  - «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
  - «السلوك لمعرفة دول الملوك»، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة.
- **تهاني الحربي**، «القنصليات الأجنبية في جدة (١٢٥٢-١٣٤٤هـ/١٨٣٦-١٩٢٥م)، دراسة تاريخية وثائقية»، مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، ١٤٤٠هـ.
- **توماس أرنولد**، «الدعوة إلى الإسلام»، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧١م.
- **جان نيدرفف بيترس**، «العولمة والثقافة - المزيج الكوني»، ترجمة: خالد كسروي، مراجعة: زهير الشايب، المجلس القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥م.
- **جلال أمين**، «العولمة»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- **جمال حمدان**، «شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان»، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠١م.
- **جمال زكريا قاسم**، «الأصول التاريخية للعلاقات العربية والأفريقية»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م.

- **جمال كمال محمود**، «البحر الأحمر في الإستراتيجية العثمانية ١٥١٧-١٨٠١م»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٩م.
- **جواد علي**، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م.
- **جون فرايد كين**، الحاج محمد أمين، «ستة أشهر في الحجاز ١٨٧٧-١٨٧٨م»، ترجمة: د. إنعام أيبش، أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١، أبو ظبي.
- **جون لويس بوركهات** :
  - «ترحال في الجزيرة العربية»، ترجمة: صبري محمد حسن، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧م.
  - «رحلات في شبه الجزيرة العربية»، ترجمة: هتاف عبد الله، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.
- **جيل جروفيه كورتلمون**، «رحلتي إلى مكة»، مؤسسة التراث، الرياض، ٢٠٠٣م.
- **حسام محمد عبد المعطي**، «العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- **حسين محمد نصيف**، «ماضي الحجاز وحاضره»، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
- **حمزة محمد علي الدباغ**، «من الجمل إلى الطائرة»، دار المرسي للنشر، جدة، ١٤٢٥هـ.
- **خالد حسين الجوهي**، «الحضارم في الحجاز ودورهم في الحياة العلمية والتجارية»، مركز الملك سلمان لدراسات الجزيرة العربية وحضارتها، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م.
- **خالد صلاح أبو الجدائل**، «العمارية، قصة حي من ذاكرة جدة»، كنوز المعرفة، جدة، ٢٠٢٣م.
- **خالد محمد سالم العمايرة**، «موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٧هـ.
- **خلف عبد العظيم الميري**، «تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤/١٨٧٩م»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- **خليل إينالجيلك**، «تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار»، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- **خير الدين الزركلي**، «شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز»، بيروت ١٩٧٧م.
- **دومنجو باديا**، «رحالة أسباني في الجزيرة العربية»، ترجمة: صالح السنيدي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٩هـ.
- **رزق نوري**، «الفساد في عصر محمد علي ومواجهة الفساد الإداري في مصر ١٨٠٥-١٨٤٨م»، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٠م، القاهرة.
- **زهير عبد الله الشهري**، «سياسة الملك عبد العزيز في حل مشكلات ساحل البحر الأحمر الأمنية»، دارة الملك عبد العزيز ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م، الرياض.
- **زينب إبراهيم**، «تعزيز الهوية الثقافية»، ملتقى أسبار، ٢٠١٧/١٢/٢م.
- **سلوى السليمان**، «جدة في العصر المملوكي»، النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٤٣١هـ.
- **سماح علي عبد الله العماري**، «فتنة جدة ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م دراسة وثائقية تحليلية»، مسالك للدراسات الشرعية واللغوية، دار المنظومة ٢٠٢٠م.
- **سهيل صابان**، مكة المكرمة والمدينة المنورة بحوث ودراسات من واقع الأرشيف العثماني والمصادر التركية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- **سويلمز أوغلو**، «السياحة في بلاد الحجاز»، ضمن ملاحق كتاب: صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة ١٢٨٦-١٣٢٦هـ/١٨٦٩-١٩٠٨م.
- **السيد عبد العزيز سالم**، «البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي»، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- **شارل ديدييه**، «رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر»، شريف مكة المكرمة ١٨٥٤م، ترجمة: محمد خير البقاعي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٧م.
- **شكيب أرسلان**، «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»، تحقيق: أيمن حجازي، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.

- **شهلا بنت سعد الخالدي**، «الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر في العصر الأيوبي»، ١١٧١-١٢٥٠م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م.
- **شوقي عطا الله الجمل**، «الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر ١٨٦٣-١٨٧٩م»، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- **صابرة مؤمن إسماعيل**، «جدة خلال الفترة ١٢٨٦-١٣٢٦هـ/١٨٦٩-١٩٠٨م دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٩٨م.
- **طارق أحمد شمس**، «الشرق على طريق البحر الأحمر»، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٩م.
- **طوني بينيت وآخرون**، «مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع»، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٠م.
- **عبد الجليل التميمي**، «دور اليمن في التجارة الشرقية الكبرى من سنة ٨٢٥هـ - ١٤٢٢م إلى سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م»، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ٢٠٠٤م.
- **عبد الجليل الشاطر صليبي**، «الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي والبحر والأحمر»، القاهرة ١٩٦٥م.
- **عبد الرؤوف رهبان**، «الملاحة والتجارة بين الشرق والغرب القديم.. أهمية البحر الأحمر»، مجلة دراسات وأبحاث في التاريخ، ٢٠٠٩م.
- **عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم**، «من وثائق الحجاز في عصر محمد علي»، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠٠١م.
- **د.عبد العزيز الثنيان**، «إنسانية ملك»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٤هـ.

- **عبد العزيز دولتشين**، «الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز»، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م.
- **عبد العزيز الشناوي**، «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- **عبد القادر أحمد الشافعي**، «السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة»، حققه وقدَّم له: د. علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٧م، القاهرة.
- **عبد القادر الفاكهي**، «مناهج السرور والرشاد في الرمي والسباق»، تحقيق: أحمد الشوكي، عباس زواش، دار جداول، بيروت ٢٠١٦م.
- **عبد القدوس الأنصاري**، «موسوعة تاريخ مدينة جدة»، الطبعة ٤، دار المنهل، جدة، ١٤٣٩هـ.
- **عبد القوي عثمان شوقي**، «تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية»، سلسلة عالم الفكر ١٥١، الكويت ١٩٩٠م.
- **عبد القيوم ديبي كمشنر**، «كشف الزور والبهتان من صنعة بني ساسان»، ١٣٠٥ هجرية. وثيقة مترجمة من الإنجليزية.
- **عبد الله زاهر الثقفي**، «العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ٢٠١٥م.
- **عبد الله سراج منسي**، «جدة في التاريخ الحديث»، جامعة الأعمال والتكنولوجيا، ٢٠١٥م، جدة.
- **عبد الله العروي**، «مفهوم التاريخ»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٢م.
- **عبد الله الغازي المكي**، «سكان مكة بعد انتشار الإسلام: عوائل مكة عبر العصور»، تحقيق: محمد الهيلة، دار القاهرة، ٢٠٠٦م.
- **عبد المجيد عابدين**، «بين الحبشة والعرب»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.
- **عدنان عبد البديع اليافي**، «جدة في أعين الرحالة»، الجزء الثاني، ٢٠٢١م.

- **عرفة عبده علي**، «أوروبيون في الحرمين الشريفين»، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠١٤م.
- **عفيف الدين بن علي اليافعي**، «روض الرياحين في حكايات الصالحين»، مكتبة زهران، القاهرة.
- **علي إبراهيم حسن**، «البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى»، منشورات عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٨م.
- **علي أحمد هارون**، «أسس الجغرافيا السياسية»، دار الفكر العربي للنشر، ١٩٩٨م، القاهرة.
- **علي بن تاج الدين السنجاري**، «منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم»، تحقيق: ماجدة زكريا، إحياء التراث الإسلامي – مكة المكرمة ١٩٩٨م، المجلد ٣.
- **علي السيد محمود**، «الحياة الاقتصادية في جدة في عصر سلاطين المماليك»، المطبعة التجارية، القاهرة، ١٩٩١م.
- **علي الوردي**، «قصة الأشراف وابن سعود»، الوراق للنشر، الطبعة الثالثة، ٢٠١٥م، لندن.
- **فاروق عثمان أباظة** :
  - «دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر»، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨م.
  - «عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩م-١٩١٨م»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
- **فاطمة القحطاني**، «حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها ١٢٣٤-١٢٣٣هـ /١٨١٦-١٨١٨م»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ٢٠١٠م.
- **فالح حنظل**، «العرب والبرتغال في التاريخ»، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية، ط١، ١٩٩٧م.
- **القاسم بن علي الحريري**، أبو محمد، «مقامات الحريري»، شرح: مختار دباس، مطبعة باريس، ١٩٧٨م.

- **قاسم السامرائي**، «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية»، دار الرفاعي للنشر، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- **قباري محمد إسماعيل**، «علم الاجتماع الثقافي ومشكلاته الشخصية في البناء الاجتماعي»، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢.
- **قطب الدين محمد النهروالي**، «البرق اليماني في الفتح العثماني»، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٩م.
- **قونغ تشن**، «سجلات البلدان في المحيط الهندي»، مراجعة وملاحظات شيانغ دا، دار الصين، بكين، ١٩٦١م.
- **ك. م. باينكار**، «آسيا والسيطرة الغربية»، ترجمة: عبد العزيز جاويد، القاهرة – دار المعارف ١٩٦٢م.
- **كريستيان سنوك هورخرونيه**، «صفحات من تاريخ مكة»، نقله إلى العربية: علي عودة الشيوخ، علق عليه: محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٩٦م.
- **لويس جوتشلك**، «كيف نفهم التاريخ»، ترجمة: عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الكاتب العربي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت/ نيويورك ١٩٦٦م.
- **مايكل بيرسون**، «الحج إلى مكة المكرمة من شبه القارة الهندية ١٥٠٠-١٨٠٠م»، ترجمة: د. معراج مرزا، ١٤٣١هـ، مركز تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة.
- **مبارك محمد المعبدي**، «النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني الثاني»، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩٣م.
- **مثنى المزروعي**، «مدخل في الجغرافيا السياسية؛ محاضرات في الجغرافيا السياسية»، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٤٤٠هـ.
- **محمد أحمد الرويثي**، «الموانئ السعودية على البحر الأحمر»، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٤م.

- **محمد أنور مسلم نويلاتي**، «جدة وعبقرية المكان؛ صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية»، بيروت، ٢٠٠٥م.
- **محمد أنيس**، «الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤م»، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٣م.
- **محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي**، المعروف بالشريف الإدريسي، «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- **محمد خميس الزوكة**، «جغرافية البحر الأحمر»، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- **محمد رياض**، «الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا»، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- **محمد سبيلا**، «فن تحولات المجتمع المغربي»، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م.
- **محمد الشامخ** :
  - «نشأة الصحافة في الحجاز ١٩٠٨-١٩٤١م»، دار الأمانة، بيروت، ١٩٧١م.
  - «نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية»، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٢م.
- **محمد عبد العال أحمد**، «البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه»، الهيئة المصرية للكتاب – الإسكندرية ١٩٨٠م.
- **محمد عبده السروري**، «أثر الغزو البرتغالي على النشاط البحري لجنوب الجزيرة العربية، الجزيرة العربية في القرن العاشر الهجري»، سلسلة إصدارات مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها. الرياض ٢٠٢٠م.
- **محمد علي مغربي**، «أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة والقرون الماضية»، القاهرة، ١٩٩٠م.
- **محمد عمر بافقيه**، «تاريخ الشمر وأخبار القرن العاشر»، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد – صنعاء.

- **محمد غلاب**، «دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، وعصر ما قبل الإسلام»، مطابع جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م.
- **محمد فريد بك المحامي**، «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس ١٩٨١م.
- **محمد يوسف طرابلسي**، «جدة حكاية مدينة»، الطبعة الثانية، ١٤٢٧، جدة، ٢٠١٨م.
- **محمود حسن منسي**، «تاريخ الشرق العربي الحديث»، دار الوزان، القاهرة، ١٩٩٠م.
- **مشاعل شافي العتيبي**، «الأوضاع العلمية في جدة»، مركز تاريخ البحر الأحمر وغرب المملكة العربية السعودية، ٢٠٢٤م، جدة.
- **معن زيادة**، «معالم على طريق تحديث الفكر العربي»، عالم المعرفة الكويتية، عدد ١١٥، يوليو ١٩٨٧م.
- **مهدي محمد علي**، «جغرافية البحار والمحيطات»، دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٨٢م.
- **نجدة فتحي صفوة**، «الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية»، دار الساقي، بيروت ١٩٩٦م، م٧.
- **نشوان بن سعيد الحميري**، ت ٥٧٣هـ، «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم»، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، وآخرين، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- **نهار عبد الله السهلي**، «سياسة محمد علي باشا تجاه أشراف مكة وقبائل الحجاز»، الانتشار العربي، الشارقة، ٢٠٢٣م.
- **نوال حمزة الصيرفي**، «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي»، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م.

- **نوبار باشا**، «مذكرات نوبار باشا»، ترجمة: جارو طبقيان، تقديم ومراجعة: لطيفة محمد سالم وإلهام ذهني، مركز الدراسات التاريخية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- **نويل بريهوني**، «حضرموت والمهجر»، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ترجمة: بشير العيسوي، الرياض، ١٤٤٠هـ.
- **هربرت فيشر**، «أصول التاريخ الأوروبي الحديث»، ترجمة: زينب راشد، دار المعارف، ط٣، ٢٠٠١م، القاهرة.
- **يلماز أوزتونا**، «موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري»، ترجمة: عدنان سليمان، الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٠م.

الأوراق العلمية والرسائل الجامعية:

- **أحمد حسين العقبي**، «دراسة وثائقية جديدة لبعض جوانب أحداث جدة»، ورقة بحثية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١.
- **حسن محمود مقابلة**، «الرسوليون والمماليك في الحجاز»، رسالة ماجيستر، جامعة اليرموك، سنة ٢٠٠٠م.
- **سعيد محمد**، «الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول ٦٢٦/٨٥٨هـ - ١٢٢٩/١٤٥٤م»، رسالة دكتوراه، جامعة تونس، ١٩٩٨م.
- **عماد عبد العزيز يوسف**، «الحجاز في العصر العثماني ١٨٧٦-١٩١٨م»، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- **عمر سالم بابكور**، «حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري»، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٦م.
- **غسان الرمال**، «صراع المسلمين والبرتغاليين خلال القرن العاشر الهجري»، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨١م.
- **مالك رشوان**، «سياسة محمد علي في شبه الجزيرة»، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٧٧م.

- **نوال سراج ششة**، «جدة في القرن العاشر الهجري»، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٦م.

أبحاث ومقالات:

- **إبراهيم خوري**، «العرب والصين علاقات ودية وتبادل سفارات»، ترجمة لوثائق صينية، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٢٤، دمشق ١٩٨٦م.
- **إبراهيم طرخان**، «الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى»، المجلة المصرية التاريخية، ١٩٥٩م.
- **ابن عبد المؤمن محمد**، «النشاط الدبلوماسي الفرنسي بعمان وجدة خلال القرنين ١٩-٢٠»، مجلة الدراسات التاريخية، المجلد ٢٤، عدد ١، جامعة الجزائر، ٢٠٢٣م.
- **إسلام إسماعيل**، «سياسة التجوير المملوكي وأثرها في ازدهار التجارة في الحجاز في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي»، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية، العدد ٢١، أكتوبر ٢٠٢١م.
- **أنعم محمد الكباشي**، «خط تلغراف سواكن جدة على ضوء الوثائق العثمانية»، مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، عدد ١٤.
- **بكيل محمد الكليبي**، «البريد والتلغراف ودورهما الإعلامي في ولاية الحجاز العثمانية ١٨٨٣-١٩١٨م»، مجلة رؤى في العلوم والآداب الإنسانية، جامعة ذمار، اليمن، ٢٠٢٠م.
- **بيرنا رينجر الثالث**، «المسلمون الهنود في الحجاز حتى القرن الحادي عشر، مجلة اتجاهات للعلوم الاجتماعية»، مجلد ٥، العدد ٢، ٢٠٢١، (اللغة التركية) مترجم.www. Dergipark. gov. Tr. Ictimalyat.
- **جار الله بن فهد**، «حسن القرى في أخبار أودية أم القرى»، حمد الجاسر، مجلة العرب، العدد ١-٢، ١٩٨٣م.

- **جبر محمد الخطيب** :
  - «التجارة في ميناء جدة» من خلال جريدة القبلة ١٩١٦–١٩١٧، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد ٢٩، عدد ٣، ص ٤٥٩–٤٨٠، نابلس ٢٠١٥م.
  - «حركة التجارة والحجاج في ميناء جدة ١٣٤٠-١٩٢٢»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلد ٤١، عدد ١٥٧، جامعة الكويت، ٢٠١٥م.
  - «حركة التجارة والحجاج في ميناء جدة ١٩٢٢-١٩٢٣م»، دراسة وثائقية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، عدد ٣٨.
- **جينادي جارياتشيكن**، «من هم القناصل الروس في شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟» مجلة الوثيقة، المجلد ٢٣، العدد ٤٦، مركز الوثائق التاريخية، مركز عيسى الثقافي، يوليو ٢٠٠٤م.
- **حسنة الغامدي**، طارق الغامدي، طارق العجال، «التاريخ الشفوي لمدينة جدة في القرنين التاسع عشر والعشرين»، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، م ٢٦، ع ٢، ٢٠١٨م.
- **حسين حسان حسين**، «ضعف النفوذ العثماني في منطقة البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية ١٨٣٩-١٩٠٥م»، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، ٢٠٠٦م.
- **حسين بن عبد العزيز شافعي**، «البريد والبرق بمدن الحجاز إبان العهد العثماني ١٩١٥-١٩١٧م»، مجلة جامعة السودان المفتوحة، ٢٠١٥م.
- **حمساء بنت حبيش الدوسري** :
  - «العلاقات العلمية بين الحجاز والهند ٩٢٣-١٠٦٨هـ/١٥١٧-١٦٥٧م»، دراسة تاريخية، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، عدد ٨٣، أيلول ٢٠٢٢م.
  - «جدة النشأة والتطور التاريخي»، مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، عدد ١١، ديسمبر ٢٠٢١م.
- **خالد صلاح أبو الجدايل**، «وقوف الملك عبد العزيز ودعمه لمدارس الفلاح»، ٢٠٢٢/٨/٩م، صفحته على فيس بوك.

- **دلال بنت محمد السعيد :**
  - «جهود أهالي جدة في توفير المياه العذبة لمدينتهم ١٣٣٤-١٢٦١هـ/١٩١٦-١٨٤٥م»، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، ج٢٨، ع ١٢.
  - «القنصلية الهولندية في جدة نشأتها ومهامها»، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٨، إبريل يونيه ٢٠٢٠م.
- **سلوى سعد الغالبي :**
  - «الدور السري للقنصلية البريطانية في جدة من خلال وثائق الأرشيف البريطاني ١٨٧٩-١٨٨٤م/١٢٩٧-١٣٠٢هـ»، مجلة دار الحكمة، المجلد ٢، عدد ١، ١٩٩١م.
  - «ملامح من أوضاع المسيحيين في جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي من خلال وثائق الأرشيف البريطاني ١٨٦١-١٨٩٤م»، بحث مقدم إلى جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، إبريل ٢٠٠٨م.
  - «وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠-١٨٨٣»، مجلة الدارة، الرياض، العدد الرابع، شوال ١٤٣٣هـ.
- **سهام القحطاني**، «المثقف وفوضى الهوية الثقافية»، جريدة الجزيرة ٢٠١٩/١٢/١٦م.
- **سهى سعود شعبان**، «تجارة العبور - الترانزيت - في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي»، مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، العدد السادس، يونيو ٢٠٢١م.
- **السيد الأسود**، «تصورات رؤية العالم في الدراسات الإنتروبوجية»، المجلة الاجتماعية القومية، القاهرة، عدد: يناير ١٩٩١م، من كتاب: بولدنج.
- **شوقي عطا الله الجمل**، «ولاية الحبش العثمانية بين إيالة جدة والإدارة المصرية ١٢٣٤-١٣٠٣هـ/١٨١٨-١٨٨٥م»، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٢٢، الرياض، ١٤١٧هـ.

- **صالح العمرو**، «تقارير القناصل البريطانيين في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية»، مجلة العرب، مجلد ١١، العدد ١٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٧م.
- **صبري فالح الحمدي** :
  - «أخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية (١٨٧٩م – ١٩٠٧م)»، مجلة الآداب، العدد ١٠٦، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٣م.
  - «العلاقات بين أشراف الحجاز والقوى الأوروبية ١٧٠٠-١٨٠٠»، مجلة الوثيقة، مجلد ٢١، العدد ٤١، مركز عيسى الثقافي، يناير ٢٠٠٢م.
- **عادل شهيب**، «الثقافة والهوية - إشكالية المفاهيم والعلاقة»، بحث أُلقي في الملتقى الدولي الثاني حول مجتمع المخاطرة، مايو ٢٠٠٩م، جامعة جيجل.
- **عبد الرؤوف سنو**، «تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني»، مجلة المنهاج، السنة الرابعة، ١٩٩٦م.
- **عبد الرحمن الشقير**، «الشرق الأوسط»، ٢٠٢٤/٢/٢٣م.
- **عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم**، «الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي»، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة ١١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **عبد السلام سرحان**، مجلة الطيران المدني، العدد الخامس، جدة، ١٤١١هـ.
- **عبد الله زاهر الثقفي**، جهود الملك عبد العزيز - رحمه الله - في تطوير وتحسين ميناء جدة، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٦، ١٤٤٢هـ/ يوليو ٢٠٢١م.
- **عطا محمد كنتول**، «التواصل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في أثيوبيا وانعكاساته على شمال وادي النيل»، مجلة دراسات أفريقية، العدد ٣٣، يونيو ٢٠٠٥م.
- **عيجولي حمزة**، «الصراع العثماني الفارسي في عهد الشاه إسماعيل الصفوي ١٥٠١-١٥٢٤م»، قضايا تاريخية، العدد ٦، ٢٠٢١م.

- **فائق بكر صواف**، «أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (١٦م)»، مجلة الدارة، العدد الثاني للسنة السادسة، ١٩٨١م.
- **فضيلة سيساوي**، «محاولة لتحديد مفهوم المثقف»، المجلة الاجتماعية القومية، العدد الثاني، مايو ٢٠١٥م.
- **فيتالي نعومكين**، «الدبلوماسية الروسية في الجزيرة العربية والخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر أوائل القرن العشرين»، مجلة الدارة، دارة الملك عبد العزيز، السنة الثالثة والثلاثون، مجلد ٣٣، العدد ٢، ٢٠٠٧م.
- **قوه ينغ ده**، «تاريخ العلاقات الصينية والعربية»، الصين اليوم، ٢٠٠٢/٥/٥م.
- **لطيفة بنت ناصر المطلق**، «النشاط التجاري في ميناء جدة الإسلامي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي»، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، كلية الآداب، عدد ٣٥، سنة ٢٠٠٩م.
- «**متى دخل الإسلام الصين**»، الصين اليوم، ٢٠٠٤/٥/٨م.
- **محمد عابد الجابري**، «العولمة والهوية الثقافية - عشر أطروحات»، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٨، ١٩٩٨م.
- **محمد عبد الرحمن صادق**، شبكة الألوكة، ثقافة ومعرفة ٢٠١٧/١٢/٢٨م.
- **موقع المرسال**، «تعزيز الهوية الوطنية السعودية ٢٠٢٢/١٢/٢٦م».
- **نسيمة مخداني**، «الهوية، المثقف والعولمة»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، م ٣، ع ٥، ٢٠١١م.
- **نوال هاشم**، محمد المعيني، «مابين الجيوبوليتيك والجيوستراتيجية، دراسة في اختلاف المفاهيم»، المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية، العدد الثاني، ٢٠٢٠م.
- **نورة إبراهيم النامي**، «أثر النشاط التجاري على البيوت التجارية في جدة وعوامل استمرارها خلال ١٢٥٦-١٣٣٥هـ/١٨٤٠-١٩١٦م»، مجلة الدراسات العربية، دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٩م، العدد ٣.

- **نورمان م. والين**، جمال سراج علي، محمد بدين، حسن عثمان سندي، «مجموعة من المواقع في جدة ووادي فاطمة»، مجلة أطلال، عدد ١١، وزارة المعارف، الرياض، ١٩٨٨م.
- **ويليام جيمس ديورانت**، «قصة الحضارة»، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين، بيروت – لبنان ١٩٨٨م، المجلد ٢٣.
- **يسرى أحمد زيدان**، «دور الهنود في الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين»، مجلة المؤرخ العربي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- **يوسف الديني**، «رؤية ٢٠٣٠ انبعاث الهوية والشخصية الوطنية»، الشرق الأوسط ٢٠٢٣/٢/٢٧م.

مصادر أجنبية:

- Michael Low, Empire of the Hajj: Pilgrims, Plagues, and Pan-Islam under British Surveillance,1926-1865, College of Arts and Science, Georgia State University, 2007
- Marston, T: Britain's Imperial Role in The Red Sea Area 1800 – 1878", The Shoe String Press
- Ulrike Freitag 'Helpless Representatives of the Great Powers? Western Consules in Jeddah. Journal of Imperial and Commonwealth History. Vol 40, No 3, Sep 2012,
- UNE HISTOIRE PARTAGÉE: SOURCES FRANÇAISES SUR L'HISTOIRE DE L'ARABIE. HEDJAZ ET NAJD 1943 - 1839, Philippe Pétriat (éd.), Dar al-Furat, Beyrouth, 2015.
- Luitgard Mols, Arnoud Vrolijk, Western Arabia in the Leiden Collection. Traces of a Colorful Past. Leiden Publications, 2016
- Palmira Brummet, Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, State of New York Press 1993
- Richard Whiteway, The Rise of Portuguese in India 1550-1497, Asian Education Service.

- Da Asia de Joao de Barros: dos feitos que os portuguezes fizeram no descubrimento e conquista dos mares e terras do Oriente 111
- Durat Bar Bosa, The Book of Durat Barbosa an Account of The Countries Boarding on The Indian Ocean and Their Inhabitants, Asian Education Oral Services 1989
- The Commentaries of The Great Afonso de Albuquerque, Second Viceroy of India, Cambridge Library Collection, Vol 4
- Angelo Pesce, Jeddah, Portrait of an Arabian City, Falcon Press – London 1976
- National Museum of Ancient Art. Lisbon, Portugal.
- The Commentaries of The Great Afonso Afonso de Albuquerque, Second Viceroy of India, Volume 3
- Jose Santos, Afonso de Albuquerque: O Sonho da India, Coimbara Teracitos, 2008
- Manuel de Faria e Sosa, The Portugues Asia, or, the History of the discovery and conquest of India, Translated by: John Stevens, 1965, Vol 2
- John Francis Guilmartin, Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the 16th Century, Novel Inst. Press 2004
- Gobor Agoston, Guns for The Sultan: Military Power and Weapons Industry In The Ottman Empire, Cambridge University Press 2055
- Jeronimo Osorio, Da Vida E Feitos De El Rai, Ed. J. Ferreita Porto 1944. II,
- Clifford Bosworth, Historic Cities of The Islamic World, Brill Academic Publisher 2007,
- Fernao De Castanheda, Historia De Descobrmento Conquista Da India Pelos Portugueses, Porto, Lello Ed 1979

- Gabor Agoston, Guns for the Sultan: Military Power and The Weapons Industry in The Ottoman Empire, Cambridge University Press 2005
- Don Juan de Castro, The Voyage of Don S. de Gama from Boa to Suez in 1540, Volume 6, Chapter 3
- R.B. Serjeant, The Portuguese Off the South Arabian Coast, Clarendon Press 1963
- R. Keith Schoppa, Revolution and it's Past: Identities and Change in Modren Chinese History. Pearson Hill .2010
- Lynn A. Struve: Voices from The Ming – Qing Cataclysm: China in Tigers' Jaws. Yale University Press, Yale, 1968.
- Ma Huan: Ying – Yai Shing – Lan, "The Overall Survey of the Ocean's Shores 1433" Translated J. V. Mills, Cambridge University Press 1970.
- Zheng Yijun, Collection of Documents of Zheng He Voyages, England Edition.
- Michael Low, Imperial Mecca, Columbia University Press, New York, N.y, .2020
- Diplomatic and Consular Reports, Trade of Jeddah and Hodeida 1901-1899, London 1903
- Before Mecca, The Jeddah Diary of Snouck Hurgronje 1885 – 1884, by Jan Justwikom From Scholarship in Action
- Ulrike Freitag: A History of Jeddah: The Gate To Mecca in the Nineteenth and Twentieth Centuries, Cambridge University Press 2020
- Travels Through Arabia and Other Countries in the East. R. Morison and Son, 1792.
- Martin Puchner, Culture: A New World History, Ithaca Press, N.Y. 2023.

صور ووثائق:

- **صور من مجلة لايف الأمريكية.**
- **صور من محفوظات جامعة إسطنبول - تركيا.**
- **صور من مكتبة جامعة ليدن.**
- **وثائق الأرشيف العثماني.**
- **وثائق دار الوثائق المصرية.**

السيرة الذاتية للمؤلف:

- مواليد جدة عام ١٩٥٥م.
- تلقى تعليمه الأساسي في المدارس الحكومية.
- حصل على البكالوريوس من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة ١٩٧٦م.
- عمل في القطاع الخاص، ثم امتهن الصحافة في صحيفة المدينة المنورة.
- ابتعثته رئاسة الطيران المدني للولايات المتحدة، وحصل على شهادة الماجستير من جامعة وبستر ١٩٨١م، ثم الدكتوراه من جامعة لي هاي ١٩٨٦م.
- عمل في الطيران المدني وأثناء عمله حصل على شهادات متخصصة في الأعمال والإستراتيجية من جامعات كولومبيا و ستانفورد وشيكاغو وديوك وبرونيل وجامعة لندن وجامعة تاليس، وعدد من مراكز التدريب العالمية.
- مؤسس وأول رئيس للأكاديمية السعودية للطيران المدني. وأشرف أثناء عمله على تدريب وتأهيل وترخيص الآلاف من الشباب السعودي في مجالات الطيران المدني عبر السنين وساهم في مناقشة درجات علمية في الجامعات.
- صاحب مكتب استشارات اقتصادية وله نشاط ثقافي يهتم بتجديد التراث الاسلامي.

كتب للمؤلف:

- (سيرة ومسيرة ..... ملامح من استراتيجية التحرر الاقتصادي لقطاع الطيران المدني السعودي ونظره نحو المستقبل) دار الشمس، القاهرة ٢٠١٨م.
- (أسطورة جدة ... أمنا حواء بين الأساطير والأديان والعلم) دار رؤيا، القاهرة ٢٠٢٠م.
- (جدة وأمنا حواء عبق المكان وعمق الزمان ... قراءة متجددة) جداول، بيروت ٢٠٢١م.
- (جدة ... وعبقرية المكان.. صفحات من فرادتها الروحانية والثقافية) جداول، بيروت ٢٠٢٣م.
- (جدة والآخرون ... قراءة في الأهمية المكانية لمدينة جدة حتى بداية القرن العشرين).

- للتواصل مع المؤلف:
  - nowilatimohd@yahoo.com